عبد الوهاب بن منصور

قبائل المغرب

(جائـزة المغرب 1968)

الجزء الاول



1388 — 1968

المطبعة الملكية - الرباط

عبد الوهاب بن منصور



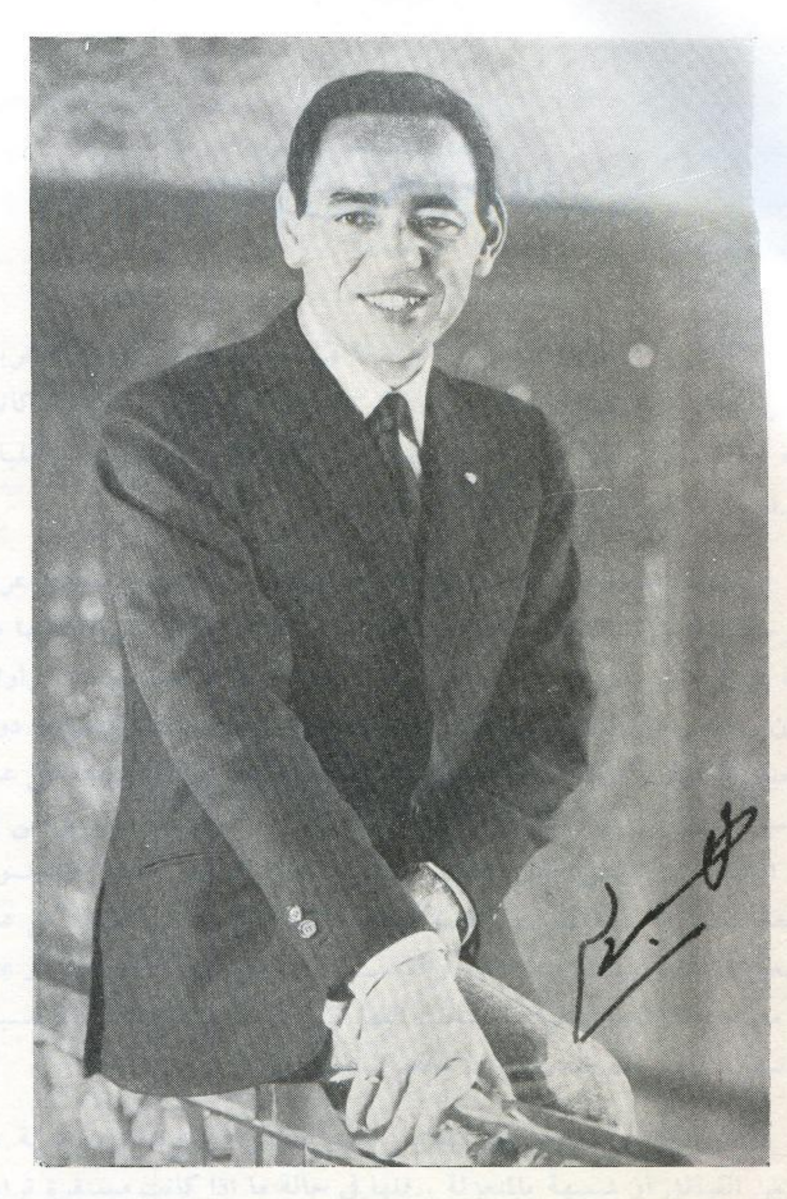
الجزء الاول

(جائـزة المغرب 1968)



1388 — 1968

المطبعة الملكية - الرباط



صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
ملك المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

احتل النظام القبلي مكاناً مرموقاً في الحياة العامة للأقطار المغربية واستمر يحتلها ويطبعها بطابعه الى عهد قريب ، فخلال قرون طويلة كانت القبيلة هي المحور الذى تدور عليه فيها جميع الحركات السياسية والتقلبات الاقتصادية والتطورات الفكرية والاجتماعية .

كانت القبيلة هي أعلا قمة في النظام السياسي والاجتماعي الذى عرفه البربر سكان المغرب الأولون قبل الاسلام ، وقد كانت تبتدىء فى قاعدتها من الخلية الأولى التى هى الأسرة المتركبة من أب وزوجة أو عدة زوجات وأولاد يطيعون والدهم حق الطاعة ويؤولون جميع تصرفاته تأويلا حسناً وينظرون دوماً اليه بعين الاجلال والاحترام ، ثم ترتفع الى مستوى العشيرة المشتملة على عدد من الأسر تنتمى الى جد واحد وترتبط برابطة القرابة الوشيجة ، ثم ترتقى الى مرتبة العمارة أو البطن الذى تجمع عشائره شتى جوامع الصهر والجوار والمنفعة المشتركة ، وتنتهي في القمة بالقبيلة التي تحتوى في الغالب على عدد من البطون تؤلف بينها وحدة الدم والنسب ، وتشمل في النادر بطناً أو عدة بطون من غيرها انحازت لها وانضافت اليها فى أوقات بعيدة أو قريبة لسبب من الأنساب فأصبحت معدودة منها بحكم الحلف والولاء .

كان لكل قبيلة محيطها الخاص الذى تعيش فيه وتتقلب منعزلة عن غيرها من القبائل أو شبيهة بالمنعزلة ، فلها في حالة ما اذا كانت مستقرة ترابها الوطني، وفي حالة ما اذا كانت راحلة مجالها الحيوي الذى تستميت في حماية حوزته، وتمنع بحد السيف غيرها من القبائل أن تنتجع مراعيه أو تستقر فيه ، وشيخ (أمغار) تجتمع عليه كلمتها ، وعراف ينبئها بالغيب ويؤول الاحلام ، ويشرح لها ما في مظاهر الطبيعة من معان وأسرار ، وجماعة تنظر في المصالح وتحكم في

الخصومات ، وتقرر في شؤون السلم والحرب والصلح والديات ، وقانون يحدد الأحكام، ويبين الحلال والحرام، ولهجة تتميز عن سائر اللهجات ، ومطامر عمومية لخزن الغلال والأقوات ، وأسواق أسبوعية لبيع الفائض منها وشراء المستورد من البضاعة التي تتوقف عليها الحياة ، ومواسم وأعياد تقترن في الغالب بالأشغال الفلاحية ينصب فيها أهل القبيلة خيامهم ، ويظهرون زينتهم ، ويتسابقون في ميادين الفروسية ، ويتنافسون في المطاعم والمشارب ، ويتبارون في حلبات الرقص ومجالس الغناء ، واذا اجدبت السنة وأمحلت الأرض قوضت القبيلة خيامها وشدت رحالها تجوب البلاد طولا وعرضاً باحثة عن المراعي الخصبة والبقاع المرعة ، تسير اليها آلاف الأميال لا تشكو تعباً ولا نصباً وتزاحم عليها روادها ولو أدى الأمر الى القتال ، ان كانت قوية استكفت بنفسها ولم تستنجد بغيرها ، وان كانت ضعيفة تحالفت مع قبيلة أخرى تكون في الغالب من دمها واستعانت بها على قهر عدوها وبلوغ مآربها .

والفرد في كل الحالات شديد الاخلاص لقبيلته شدة اخلاص القبيلة له ، هي تمنعه من طالبيه وتدافع عنه بالقوة وتتحمل عنه الديون والديات ، وهو يجود بنفسه في نصرتها ، ويتحاشى معرة خذلانها ، وينوه بمآثرها ، ويشيد بمفاخرها ، ويتغنى بأمجادها ، ويرى لها الفضل على من عداها ، همه الأكبر أن يبصرها عزيزة الجانب منيعة الحوزة ، وأمله الأعظم بعد ذلك أن يشيع بين أهلها ذكره ، ويعرف في خدمتها نصحه وسبقه ، ويظفر بقلب جميلة من بناتها تنجب له أبناء يطيعون أمره ، ويعلون قدره ، ويحمون في الملمات ظهره .

كان للقبيلة عند البربر في الماضي ما للوطن من معنى عند الأمم والشعوب في العصر الحاضر ، ولها على أبنائها من حقوق الاخلاص والولاء والدفاع ما للأوطان على ساكنيها من مثل تلك الحقوق ، لا فرق بين أولئك وهاؤلاء الا ان قلوب الأولين متعلقة بالقرابة المقامة على أسس الدم والنسب ، وان عواطف الأخيرين مائلة الى القرابة المبنية على قواعد المواطنة والمصالح المشتركة .

ولما طرأ العرب على المغرب بعد الاسلام فى القرن السابع قابلهم البربر بالترحاب وأسلسوا لهم القياد ، واعتنقوا الدين الذى جاءوا به اليهم ، واقتبسوا اللغة التي سمعوهم يتكلمون بها ، وأخذوا عنهم كثيراً من قواعد الحضارة ونظم السياسة ، وساروا واياهم يفتحون الأقطار ويقيمون الدول ، وصاروا واياهم فى ميادين الفضل ومجالات النبل أفراس رهان ، واتصلت منهم فى وقت قصير الأرحام وتلاقحت الدماء وتداخلت الأنساب ، ومت كل فريق بسبب قوى أو ضعيف الى الفريق الآخر ، ولم يكن هذا التداعى مجرد صدفة ولا هذا التجاوب ناتجاً عن غير سبب ، فقد كانت الطبائع الانسانية متشابهة والأمزجة والسجايا متماثلة وان اختلفت طبيعة الأرض العربية عن طبيعة الأرض المغربية ، وامتازت الظواهر الكونية هنا عن الظواهر الكونية هناك ، يضاف الى ذلك ما كان للدين الاسلامى الحنيف من أثر حميد وفعل عجيب فى ترويض العقول الجامحة ، والانة القلوب العصية ، وتأليف الأرواح المختلفة ، ومحو الفروق السلالية والطبقية ، وتوجيه الهمم نحو الخير والصلاح وما ينفع الناس ، حتى نشأ عن تمازج العنصرين البربرى والعربى ظهور شعب قوى بايمانه ، جديد فى تركيبه ، قديم فى اصالة اعرافه وعراقة تقاليده ، هو هذا الشعب المغربى القوى الكريم ، الأبى السمح ، الساكن فوق تربته الطيبة وأرضه الجميلة الفاتنة الممتدة من حدود برقة الى البحر المحيط .

ولقد لفت نظرى منذ ثلاثين عاماً خلت أهمية الأدوار التى لعبتها القبائل فوق مسرح السياسة والحكم فى كل مرحلة من مراحل تاريخ المغرب الطويل ووجه من أوجه حياته ومظهر من مظاهر عيشه ، فقد كانت القبيلة تمثل باستمرار أمام عينى خلال مطالعاتى التاريخية وأبحاثى ، وتخطر ببالى كلما حاولت أن أجد للوقائع تعليلا وللحوادث تأويلا ، كنت أجدها وراء قيام الدول وسقوطها ، ونشوب الحروب وخمودها ، وثبوت السلطة وتزعزعها ، وظهور المذاهب وخبوها ، ورخاء المعيشة وشدتها، وانبساط المعرفة وانقباضها، وبناء المدن وخرابها ، وتحسن الصحة وانتشار الأمراض وازدهار الاقتصاد وتدهور الصنائع ، واستتباب الأمن وشمول الخوف ، وتدخل الأجانب واحتلال الأرض ، فحدانى ذلك الى البحث عن أنساب القبائل المغربية وأصولها ،

والتنقيب عن شعبها وفروعها ، والتعرف على اعرافها وعاداتها ، وتحديد مواطنها ومجالاتها ، وتتبع خطاها وهي تنتقل في دروب المغرب الطويلة وتمشي في مناكبه العريضة عبر الزمان منذ كانت الأكوان ، فوجدتني أمام قبائل عظيمة قوية ، كريمة حفية ، صابرة أبية ، طروبة مرحة ، تتفاخر بالأنساب ، وتعتز بالأحساب ، لا تخاف من الحتوف ، ولا تبخل على الضيوف ، كأن فيها أنشد أبو فـراس :

انا اذا اشتد الزمـان وناب خطم وادلهـم
ألفيت حول بيوتنا عـدد الشجاعـة والكرم
للقا العدا بيض السيوف وللندى حمر النعم
هذا وهذا دأبنا يـؤدى دم ، ويـــراق دم

ووجدت من التمتع بمعرفة أحوالها ، والتلذذ بسماع موسيقاها وأزجالها ، وسائر ألوان فولكلورها الجميل ما كان يغريني بزيادة البحث والتنقيب ، حتى بدأت تراودني فكرة تخصيص (**قبائـل المغرب**) بتأليف أقيد فيه شوارد معلوماتي ، وأدون خلاصة بحوثي ودراساتي ، وأجمع فيه شتات قراءاتي وسماعاتـــي :

ولما اتضحت الفكرة ، وألحت الرغبة ، وقر القرار وصحت العزيمة ، كان علي أن آتي البيوت من الأبـواب ، واتصل مـع الذين سبقونـي الى طرق هذا الموضوع بأسباب ، فأبحث أولا عن الكتب التي ذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كتبت في أنساب قبائل المغرب بربريها وعربيها ، مثل كتاب (أنساب البربر) لمحمد بن يوسف الوراق ، وكتاب (أنساب البربر) لعبد الحق بن ابراهيم الصنهاجي ، وكتاب (أنساب البربر وملوكهم) لمحمد بن أبي المجد المغيلي ، وكتاب (القصص الفتانة ، في ذكر البربر وزناتة) لمحمد بن أحمد أبو راس الناصري المعسكري ، وكتاب (الجوهر المنتخب ، في تنقيح أخبار من بالمغرب من العرب) للشيخ محمد الامام بن الشيخ مـاء العينـين الادريسي الشنكيطي ، فلم أعثر على واحد منها ، وحرصت كل الحرص على الظفر بكتب نسابي البربر المشهورين مثل كهلان بن أبي لؤي بن يصلاصن ، وسابق بن سليمان بن حراث بن صولات المطماطي ، وهانيء بن بكور الضريسي التي ذكر مؤرخ حديث هو أبو القاسم الزياني أنه طالعها خلال مقامه في القرن الماضي

بقرية العباد ظاهر تلمسان ، فلم أظفر لدى سكان تلك القرية بمن يعرف لها عيناً ولا أثراً ، كما لم أجد في الخزانات العامة والخاصة وفي مقدمتها خزانة الكتب السلطانية التي كلفني جلالة الملك المرحوم **محمد الخامس** طيب الله ثراه بتنظيمها بعد الاستقلال ما يشفي الغليل في هذا الباب على كثرة ما يوجد فيها من المخطوطات النادرة والكتب النفيسة الغريبة التي لا يوجد لها نظير الا في خزائن الخلفاء والسلاطين العظماء امثال ملوك المغرب الأقصى ، ولكني ظفرت بدل ذلك بكثير من كتب تراجم الأولياء وأنساب الشرفاء التي اعتنى أهل المغرب قديماً وحديثاً بالكتابة فيها عناية جعلتهم أحياناً يخصون شرفاء حي من الأحياء وصالحيه بتأليف ، فلم تغن تلك الكتب شيئاً كما لم تغن شيئاً الكتب والرسائل الأخرى العديدة التي ألفت في أنساب بعض الأسر النبيهة غير الشريفة بالمدن والقرى ، اذ هي مثل بقية كتب التراجم والأنساب لا تفيد كبير فائدة من أراد مثلي أن يطرق الموضوع في عمومه ويتناوله من جميع جوانبه ، غير أني استفدت الفائدة كلها مما كتبه سيد المؤرخين المغاربة عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي التونسي عن القبائل المغربية ، البربرية والعربية ، في الجزأين السادس والسابع من تاريخه الحافل ، واستنرت بما أورده عالم الأندلس وأديبها علي بن احمد بن حزم عن أنساب البربر وتشعب قبائلهم في آخر كتابه (جمهرة أنساب العرب) وكذا بالرسالة المسماة (كتاب الأنساب ، في معرفة الأصحاب) المؤلفة في أنساب أصحاب المهدي بن تومرت داعية الموحدين والقبائل المصمودية والأخرى المضافة التي أيدت دعوته ، كما استعنت بما كتبه الأوربيون من علماء وسياسيين واداريين منذ القرن الماضي ، وهو بحر من البحوث والدراسات والتحقيقات لا يدرك ساحله ، ولا يبلغ قعره ، امتزج فيه البحث العلمي الخالص بالتوجيه الاستعماري المشبوب ، واقترن فيه التحقيق المنطقي المتئد بالخيال الجامح الأهوج ، ولكنه في حالتيه معاً لا يخلو من فائدة كبيرة ، ومادة غزيرة .

وكنت أنوي في البداية أن أقتصر على قبائل المغرب الأقصى وحدها ، ولكني لم أكد أخطو في العمل خطوات ، وأضع في جداره لبنات حتى أدركت أن من المستحيل علي ــ وعلى أي مؤرخ أو نساب في البلاد المغربية كلها ــ تخصيص قبائل قطر مغربي بالذكر دون الاشارة الطويلة أو القصيرة الى علاقاته

وارتباطاته بأصولها وفروعها فى أقطار المغرب الكبير كافة ، الا أن يجحف بالموضوع ويقصر فيه ولا يستوفيه حقه ، فقد تتبعت القبيلة الواحدة من أقدم عصور التاريخ الى عصرنا الحديث فوجدتها قد مشت فى مناكب المغرب وتبوأت من جنباته حيث استطابت المقام ، وخلفت فى كل بقعة من بقاعه بطناً من بطونها أو عشيرة من عشائرها تحمل اسمها مستقلة عن غيرها ، أو تحمل اسمها مندمجة فيمن يشاكلها ويجانسها من القبائل والبطون ، فلكل من أقطار المغرب الأربعة هوارة ولواتة ، وصنهاجة وزناتة ، ومطماطة ومغراوة ، ومكناسة وكتامة ، وهلال وسليم ، ودباب ودليم ، فرأيت أن الموضوع لا يطرق مستقصى، والحديث عنه لا يكون تاماً مستوفى ، الا بالحديث عن جميع القبائل المغربية ، والالمام بالكبير من أمرها والصغير ، اقتداء بما فعل امام مؤرخى المغرب ابن خلدون ، وتأكيداً لوحدة أقطاره التى يسعى اليها كل مفكر مخلص فى هـذا البلد الأمين .

لذلك استعنت بالله وقررت التوسع فى الموضوع الذى كنت أريده فى البداية ضيقاً ، وتمديده بعدما عزمت على كتابته مقصوراً ، فأقدمت عـلى التحرير غير هياب ولا وجل رغم شعورى بخطورة الأمر وعلمى بما يتطلبه من وقت ويستلزمه من جهد .

ولست أريد أن أطيل على القارىء بذكر ما واجهنى من المتاعب فى تحرير اسماء الشعوب والاجذام والقبائل والعشائر البربرية وتحديد مواقعها الحالية فى بلاد طويلة عريضة كبلاد المغرب ، فقد تعرضت تلك الأسماء للتعريب بعد الاسلام كما تعرضت لتحريف المؤلفين والنساخ حتى كتب الاسم الواحد على أوجه عديدة ، وأعطى اللفظ الأصلى صيغاً فرعية جديدة ، واذا كان من السهل على الدارس المتخصص أن يدرك ان ترهونت وايفشتالن هى رهونة وفشتالة فان من الصعب عليه أن يدرك ان الزناگة هى صنهاجة ، واينگفو صارت هنجافة ، كما يصعب عليه أن يرجح أى هذه الأسماء المنحرفة عن أصل واحد : هنزولة وهيزونة وهنزوقة وهترونة وهنزرتة هو الصحيح ؟ .

وقد رأيت أن أمهد لموضوع القبائل بمقدمة جغرافية وأخرى تاريخية ، الأولى تعين على معرفة أقطار المغرب وطن القبائل المغربية وتحديد مساكنها أو مجالاتها منه ، والثانية تسهل معرفة علاقة الممالك والامارات بالقبائل والعشائر التي قامت بتأييدها وتعضيدها ، أو عملت على اضعافها وتبديدها ، اما الموضوع نفسه ، موضوع قبائل المغرب ، فقد قسمته ثلاثة أقسام :

ا ـ القسم الأول يتعلق بوجود النوع الانساني على صعيد المغرب الكبير وذكر هجراته منه واليه وظهور أجناسه وقبائله وبيان أنسابها وتشعبها وتحديد مواطن اقامتها ومجالات ريادتها ونجعتها .

ب ـ القسم الثاني يرتب القبائل حسب التقسيمات الادارية الحالية لأقطار المغرب العربي مع ذكر ما يوجد تحت كل قبيلة من بطون وعمائر ، وافخاذ وعشائر ، ويقع بالأرض التي تستقر بها من مدن وقرى ومداشر وقصور ودواوير وبروج .

ت ـ القسم الثالث يرتب أسماء القبائل وفروعها حسب ترتيب الحروف الهجائية المغربية فهو بمثابة قاموس لها يمكن من أراد التعرف على قبيلة أو فرع من فروعها من العثور عليها بسهولة حسب المبنى اللغوي لاسمها ، والالمام بشيء مما يتعلق بها جغرافياً وتاريخياً واقتصادياً وأدبياً .

وقد تفرع عن القسمين الثاني والثالث قسم آخر يمكن اعتباره معجماً لبلدان مغربنا الكبير ، فان كثيراً من أسماء القبائل والعمائر أصبح علماً على أقاليم ومدن وقرى ومداشر ، فليست غريان ومسراتة وترهونة وزوارة بالقطر الليبي ، ومطماطة ونفزاوة وسبيطلة وقسطيلية بالقطر التونسي ، وبجاية ولمدية ومليانة وندرومة بالقطر الجزائري ، وغساسة وفضالة وبني ملال ومحاميد الغزلان بالمغرب الأقصى في الأصل الا أسماء ذات دلالات سلالية صارت لها فيما بعد دلالات جغرافية ، لذلك ذكرت السلالي منها في هذا الكتاب ، وخصصت الجغرافي ـ مضافاً اليه بقية الأعلام الجغرافية ـ بكتاب مستقل حررت بعض مواده وأنوي تحرير بقية المواد بعون الله وحسن توفيقه .

وسيلاحظ قارىء هذا القسم أنني ذكرت أسماء بعض القبائل من غير أن أعلق عليها بشيء ، والسبب في ذلك أنني لم أتوفق في الحصول على معلومات عنها رغم مواصلة المطالعة وطول التجوال وكثرة السؤال ، وأني لم أتوسع في ذكر ما تنطوي عليه الأصول من فروع مثل زناتة ومكناسة لأن ذكر الفروع سيرد في القسمين الثاني والثالث ، كما سيلاحظ أنني استعملت بعض الكلمات ذات الدلالات الدقيقة مما يستعمله شعبنا المغربي أو تستعمله شعوب العالم كله ولا يوجد له نظير مشهور في اللغة العربية ، وانني أبحت لقلمي التحرر من بعض القواعد اللغوية المشوشة كتأنيث ما ليس مؤنثاً حقيقياً ولا لفظياً ، ويرجع السبب في ذلك الى اعتقادي أن اللغة العربية يجب تبسيطها الى الحد الذي لا يمس جوهرها ولا يفسد رونقها ، وانه يجب اغناؤها بالمفردات العلمية والتقنية التي لا تصطبغ بقوميات ولا تحد بحدود التبعيات ليمكنها أن تواصل السير وتواكب قافلة التطور الحضاري ، اذ ليس من المعقول أن يكون أسلافنا اقتبسوا في أيام عز دولتهم وشروق شمس لغتهم من الفارسية كلمات الأستاذ والتلميذ ، والسبورة والطباشير ، والفهرسة والابزيم ، ومن اليونانية الموسيقى والجغرافيا ، والارخبيل والاقليم ، والدرهم والدينار ، ونحجم نحن عن اقتباس كلمات مثل الجيولوجيا والديموغرافيا والتلغراف والتلفزيون وسواها من الألفاظ العصرية التي تستعملها أمم العالم وشعوبه .

وبعد ، فهذه أبحاث ودراسات عن قبائل المغرب الكبير أكتبها وشمس النظام القبلي فيه على أطراف النخيل فقد حلت فكرة المواطنة ذات المدلول السياسي الواسع ، وفكرة الجماعة La Commune ذات المدلول الاداري والاقتصادي والاجتماعي الضيق محل العصبية القبلية الموروثة من العصور الانسانية البدائية ، والمنبثقة عن عوامل وظروف عتيقة لا صلة لها بالظروف العصرية والعوامل ذات المفاهيم الجديدة ، وسيأتي يوم تندثر فيه القبيلة بالمرة كما اندثرت في الأقطار المتحضرة والشعوب المتطورة ، وتبقى محلها العمارة أو الجماعة التي يرتبط أفرادها برابطة المصلحة المشتركة والمنفعة المتداخلة لا برابطة القرابة النسبية ، ولا يبقى الا مثل هذا الكتاب يذكر

المؤرخين والنسابين ، والجغرافيين والاجتماعيين بالقبائل القديمة ويلقي أضواء على شعبها وفروعها ، وعاداتها وأنظمتها .

ويشرفني في الختام أن أرفع كتابي الى حضرة صاحب الجلالة أمير المومنين ابن أمير المومنين **الحسن الثاني** ملك المملكة المغربية ، وفرع الدوحة المحمدية النبوية ، الذي لا يفتأ يسدي الي من توجيهاته ونصائحه ، ويحبوني بعطاياه الكريمة ومنائحه ، جعل الله اليمن مقروناً بأيامه ، والنصر معقوداً بألويته الخافقة وأعلامه ، وحقق له الآمال ، وأصحبه السلامة في الحل والترحال .

الرباط – السبت 2 شوال 1388 / 21 دجنبر 1968

عبد الوهاب بن منصور

وطن القبائل المغربية
نظرة جغرافية عامة

لا مناص لمن يريد الكلام على القبائل المغربية من التحدث أولا عن وطنها ، والالمام بشيء من تاريخه ونظمه وتقاسيمه ، ليتسنى له أن يحدد الأماكن التي تقيم بها منه ، ويتعرف على مواطنها الأولى ، ويتبين الجهات التي تقلبت فيها قبل أن ينتهي بها المطاف الى الاستقرار في واحدة منها بصفة مستمرة .

والكلام على المغرب ـ وطن القبائل المغربية ـ يقتضي أن يكون عاماً شاملا غير قاصر على جزء من أجزائه ، لأنه جميعه وطنها جميعا ، عرفها وعرفته خلال مسيرة الزمان الطويلة ، تتقلب في أطرافه ، وتجول خلال نجوده وأغواره ، لا تعوقها حدود ، ولا تصدها حواجز ، لأن ضبط التنقل وتنظيم الهجرة وقوانين الجنسية وحقوق المواطنة هي أمور لم تعرفها الأقطار المغربية الا في العصور الحديثة .

ومن حسن حظ الشعب المغربي أن الله حباه بوطن يتمتع بخصائص شتى ومزايا عديدة ، من أهمها وحدته الجغرافية التي يرجع الفضل فيها الى سلسلة جبال الأطلس الشامخة ، تلك الجبال التي تشد أطرافه كالحزام شداً محكماً ، وتقوى أواصر التآخي بين سكانه ، وتجعل الطبيعة والبيئة ووسائل الكسب وطرائق العيش أمامها وخلفها تتشابه في أجزائه كلها .

الاسم : وقد دعي هذا الوطن خلال تاريخه الطويل بأسماء عديدة ، فاليونانيون أطلقوا في الأول كلمة **ليبيا** على شمال القارة الافريقية الذي يسكنه البيض ، وجعلوها في مقابل كلمة **الصحراء** التي تدل على الأراضي التي يسكنها الايثيوبيون السود ، والرومان أطلقوا في البداية كلمة **أفريقا** على مقاطعة تكاد تعادل الشمال الشرقي للجمهورية التونسية الحالية ، ثم اتسع مدلول الكلمتين فيما بعد ، فأصبح يدل على القارة كلها .

ولما امتد مد الاسلام الى الشمال الافريقي أطلق العرب عليه اسم **جزيرة المغرب** و **بلاد المغرب** أو **المغرب** مختصراً ، وقد حلل ابن خلدون في تاريخه (6 : 193) هذه الكلمة فقال انها في أصل وضعها اسم اضافي يدل على مكان من الأمكنة باضافته الى جهة المشرق ، مثلها في ذلك مثل كلمة المشرق ، فكل مكان في الأرض مغرب بالاضافة الى جهة المشرق ، ومشرق بالاضافة الى جهة المغرب ، ثم ذكر أن العرب قد تخصص هذه الأسماء بجهات معينة وأقطار محدودة كما حدث بالنسبة لكلمة **المغرب** التي أصبحت علماً قائماً بذاته يدل على جهة معينة من الأرض دون اضافته الى كلمة أخرى .

وفي العصور الوسطى أطلقت الدول الأوربية البحرية على المغرب اسم **بارباريا** وعلى أقطاره اسم **الولايات الباربارية** نسبة الى سكانه الأولين على أحسن الفروض ، ولمزاً لأهله بالهمجية والوحشية على أسوأ الاحتمالات ، كما بدأ الجغرافيون الأوربيون يسمونه منذ القرن الرابع عشر الميلادي **افريقيا الصغرى** اشارة الى أنه يشبه قارة صغيرة متداخلة في أخرى كبيرة ، و **البلاد الأطلسية** اشعاراً بأهمية جباله ، و **افريقيا الشمالية** و **الشمال الافريقي** ، ولا داعي لذكر الأسماء الأخرى التي أولع المستعمرون الأوربيون باطلاقها عليه وترديدها بكثرة على ألسنتهم وفي كتاباتهم اثناء حكمهم له ، فقد زالت تلك الأسماء بزوال سيطرتهم كما زالت الأسماء الأخرى ، ولم يبق منها خالداً الا **المغرب** الذي ارتضاه له أهله اسماً ، ورضوا أن ينسبوا اليه ويدعوا به ، ذلك الاسم الجميل

الذى ازداد فى العصر الحاضر ذيوعاً وشيوعاً ، وأصبح ينعت منذ سنوات النضال التحريرى تارة بالعربى وتارة بالكبير .

الموقع والحدود : كان مدلول كلمة **المغرب** يتسع تارة عند الجغرافيين العرب فيدل على جميع الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً والمحيط الأطلسى غرباً وكذلك الأراضى الاسلامية الاخرى بالأندلس وجزر الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، وتارة أخرى كان يضيق فلا يشمل الا الأراضى الممتدة من النيل الى الغرب ، أما العرف الجارى بين المغاربة فلا يدخل فى المغرب أراضى مصر ولا أراضى برقة ، وانما يخصه باقليم طرابلس وما يقع غربه من أقاليم ، وهى الأراضى التى كانت للبربر موطناً وداراً قبل الاسلام ، وعلى هذا العرف سنقتصر أثناء الحديث عن قبائل المغرب .

وتحتل بلاد المغرب موقعاً ممتازاً فى شمال القارة الأفريقية والحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، وتتحكم فى طرق المواصلات الوسطى والغربية لهذا البحر ، لقصر المسافات التى تفصل شواطئها عن الشواطىء الأوربية عند مضيق صقلية ومضيق جبل طارق ، كما أن وجود واجهة طويلة لها على المحيط الأطلسى يجعلها متفتحة على العالم ، يسيرة الاتصال عن طريق البحر بأوربا الشمالية والأمريكتين .

واذا ألقى الانسان نظرة على مسطح المغرب ــ كما يحدده العرف المغربى ــ من خريطة القارة الافريقية يجده يشتمل على أراضى شاسعة متباعدة الأطراف ، تبلغ المسافة بين طرفيها الشمالى والجنوبى أكثر من 2000 كلم ، وبين طرفيها الشرقى والغربى أكثر من 3000 كلم ، كما يلاحظ أن الجغرافيين العرب لم يبتعدوا عن الصواب عندما سموه جزيرة جرياً على عادتهم فى تسمية شبه الجزيرة جزيرة اذا كان الطرف الذى يتصل به مع بقية الأرض حاجزاً منيعاً كالصحارى المقفرة والجبال العالية ، فالمغرب يحيط به الماء من الشمال والغرب وجزء من الشرق ، والصحراء من الجنوب وجزء آخر من الشرق ، فالحدود التى تضم داخلها جميع أقطاره حدود

طبيعية : المحيط الأطلسي من الجهة الغربية ، والبحر المتوسط من الجهة الشمالية ، والخط المستقيم الفاصل بين ولايتي طرابلس وفزان وبين ولاية برقة النازل من خليج سرت الى الجنوب من الجهة الشرقية ، أما من الجهة الجنوبية فالجغرافيون والمؤرخون القدامى والمحدثون ـ وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون ـ يجعلون للمغرب حدين أقصى وأدنى ، **فالأقصى** هو الرمال المتهيلة الفاصلة بين المغرب والسودان والمعروفة عند البداة بالعرق ، ويبدأ العرق من المحيط الأطلسي ذاهباً على سمت واحد الى جهة الشرق حتى يعترضه نهر النيل فينقطع ، وتعترضه بين الحين والحين أراضي متحجرة تدعى الواحدة منها حمادة ، ومن أشهر العروق وأكبرها عرق ايكيدي ، وعرق شيش ، والعرق الغربي الكبير ، والعرق الشرقي الكبير ، **والأدنى** هو الأراضي التي تجاور مباشرة السفوح الجنوبية لسلاسل جبال الأطلس المسماة قديماً جبل درن ، الممتدة من رأسها الخارج في المحيط الأطلسي باقليم سوس الى جبل نفوسة باقليم طرابلس ، وما بين الحدين الأدنى والأقصى بسائط وقفار (**قايجة**) يرتادها الأعراب الرحالون ، وما وراء الحد الأقصى من أراضي ينتهي اليها الطوارق في بعض السنين انتجاعاً للكلأ معدود من البلاد المغربية وان كان خارجاً عن الحد ، مثل قرى توات في جنوب المغرب الأقصى ، وقرى تسابيت وتيكورارين في جنوب المغرب الأوسط ، وقرى غدامس وفزان وودان في جنوب المغرب الأدنى ، وعلى هذا يمكن أن نعتبر أن **المغرب** هو مجموع الأراضي الواقعة بين خط الطول العشرين شرقاً ، والمحيط الأطلسي غرباً ، والبحر المتوسط شمالا ، وخط العرض العشرين الشمالي جنوباً .

ومن البديهي أن هذه الحدود لا تنطبق على الحدود السياسية الحالية للدول والأقاليم المغربية ، ولكن من الواجب أن ترسخ في أذهان الناشئة المغربية من الآن ، وينظر اليها بعين الاعتبار جميع الذين يعملون لتحقيق الوحدة المغربية في أشكالها السياسية والاقتصادية والعسكرية .

المساحة وعدد السكان : تبلغ مساحة الدول والأقاليم المغربية أزيد من 6.000.000 كلم مربع ، موزعة هكذا :

الجمهورية التونسية .... 125.180 كلم مربع
الجمهورية الجزائرية .... 2.191.000 كلم مربع (1)
المملكة الليبية .... 1.759.000 كلم مربع (2)
المملكة المغربية (الجزء المحرر) .... 550.000 كلم مربع
المملكة المغربية (اقليم موريطانيا) .... 1.169.000 كلم مربع
المملكة المغربية (الساقية الحمراء ووادى الذهب) 280.000 كلم مربع

ج : 6.074.180 كلم مربع

يضاف اليها مساحة الجيوب الصغيرة التى تحتلها اسبانيا بغرب الجزء المحرر من المملكة المغربية (يفنى) وشماله (سبتة ـ مليلية ـ حجرة نكور ـ حجرة بادس ـ جزائر ملوية) .

ويبلغ عدد السكان حسب احصائيات سنة 1965 فى الدول الأربع التى لا غبار على سيادتها نحو 32 مليون نسمة ، أى أكثر قليلا من عشر سكان القارة الافريقية البالغ عددهم 302 مليون .

أما توزيعهم على الدول المغربية فهو كالآتى :

الدولة	العدد	النسبة المئوية
الجمهورية التونسية	4.675.000	٪ 15
الجمهورية الجزائرية	12.041.845	٪ 38
المملكة الليبية	1.622.000	٪ 5
المملكة المغربية (الجزء المحرر)	13.323.000	٪ 42
	31.661.845	100

1) الأقاليم الشمالية 327.000 كلم ، الصحراء 1.864.000 كلم .

2) ولاية طرابلس 353.000 كلم ، ولاية فزان 550.000 كلم ، ولاية برقة 855.00 كلم .

واذا كان عدد السكان في تلك السنة هو ما ذكرنا فمن المؤكد أنه سيتضاعف سنة 1985 لأن نسبة الزيادة تبلغ 3 ٪ كل سنة ، أى بزيادة ضعف العدد فى كل عشرين سنة على وجه التقريب ، ولهذا ينتظر أن يبلغ سكان الدول الأربع فى نهاية هذا القرن 72 مليون حسب التدرج التالى :

سنة	1965	31.661.845	سنة	1985	52.013.000
سنة	1970	35.685.000	سنة	1990	58.543.000
سنة	1975	40.941.000	سنة	1995	65.643.000
سنة	1980	46.304.000	سنة	2000	72.759.000

وتبلغ نسبة توزع السكان على الأرض 22 ساكناً لكل كيلومتر مربع فى المناطق المسكونة التى تقدر بنحو الثلث من مجموع البلاد .

وتؤثر الأحوال الطبيعية تأثيراً ملحوظاً فى الاختلاف الكبير الحاصل ق نسبة توزع السكان على المناطق ، ومن الطبيعى أن توجد أكبر نسبة فى المدن والقرى الكبيرة ، ثم فى المناطق الزراعية المسقية ، ثم فى المناطق البعلية التى تؤتى فيها الفلاحة المعتمدة على المطر صابة جيدة ، ثم تنخفض النسبة فى المناطق الجديبة التى يقل فيها الماء وتنعدم الفلاحة أو تكاد .

ففى السهول المحاذية للمحيط الأطلسى وفى المناطق الجبلية بوسط المملكة المغربية وشمالها ، وفى مناطق التل بالجزائر وتونس تبلغ كثافة السكان 30 ساكناً فى المتوسط لكل كيلومتر مربع ، وقد ترتفع هذه الكثافة الى 50 و 60 وأحياناً الى أكثر من 100 فى بعض المناطق الخصيبة ، أما فيما عدى ذلك فان الكثافة تنخفض الى 5 من السكان لكل كيلومتر ، وأحياناً تنزل الى ساكن واحد لكل كيلومتر فى المناطق الصحراوية .

وتجب الاشارة الى أن الأحوال الطبيعية ليست وحدها السبب فى تفاوت هذه الكثافة ، لأن عدداً من السكان يعيش متنقلا على عادة العرب الرحل ، على ان عادة الانتجاع والارتياد هى الآن سائرة فى طريق الاضمحلال .

أمـا نسبة السكان المقيمين فى المدن والمراكز الحضرية بالدول الأربع فهى كالآتــى :

تـونــس	٪ 35 ، 6
الجــزائــر	٪ 32 ، 5
لـيـبـيـا	٪ 22 ، 7
المغرب الأقصى	٪ 29 ، 3

ويقدر متوسط الحياة للفرد في المغرب بخمسين سنة ، بيد أن هذا المتوسط آخذ في الارتفاع نتيجة التحسن المطرد في السكن والغذاء وأسباب الوقاية والعلاج من الأمراض ، ويمتاز سكان الأقطار المغربية بكثرة العناصر الشابة والفتية ، اذ تبلغ نسبة السكان الذين تقل أعمارهم عن 20 سنة أزيد من 50 ٪ حسبما يوضحه الجدول التالى :

تـونــس	٪ 52 ، 5
الجــزائــر	٪ 50 ، 8
لـيـبـيـا	٪ 50 ، 7
المغرب الأقصى	٪ 51

السطح : يتكون سطح بلاد المغرب من أراض عالية تحجزها المياه والرمال ، واذا كان سكانها متصلين في عصر ما قبل التاريخ على ما يظـن بسكان القارة الأوربية بواسطة قناطر كانت تجمع بين الشاطئين ، وبسكان وسط القــارة الافريقية عبر الصحراء التي كانت أقل ضراوة مما هى عليه الآن ، فان انقطاع أسباب الاتصال المباشر بينهم وبين سكان القارتين فى العصور التاريخية أدى الى عزلتهم ، وحال دون تسرب التأثيرات الخارجيـة اليهم ، وجعل أعرافهم القومية وعاداتهـم المحلية تقوى على مر الزمان .

ويتجاوز ارتفاع الأرض في أكثر من نصف بلاد المغرب 800 متر فوق سطح البحر ، ومتوسط الارتفاع في تونس لا يتجاوز 300 م ، ولكنه

يتصاعد الى 800 م فى المغرب الأقصى و 900 م فى الجزائر ، ولا توجد فى البلاد المغربية سهول منخفضة نسبياً الا فى غرب المملكة المغربية وشرق الجمهورية التونسية ، والأرض فيما عداها مرتفعة ، فحيثما ولى الانسان وجهه لا يرى الا جبالا شامخة أو نجوداً عالية ، حتى قال بعض الجغرافيين : ان بلاد المغرب تقابل الوافد عليها بوجه متجهم .

الجبال : وتخترق البلاد المغربية سلسلة جبال منيعة عرفت فى القديم بجبال درن ، وتعرف فى الحديث بجبال الأطلس ، وهى جبال شاهقة وعرة الدروب صعبة المسالك ، تكلل هاماتها الثلوج فى فصلى الشتاء والربيع ، وتكثر فيها المناظر الجميلة ، والغابات الباسقة ، والبحيرات اللطيفة ، والشلالات البديعة .

وتنقسم هذه السلسلة الجبلية الى ثلاثة أقسام :

ا ــ الأطلس الساحلى ، ويبتدىء غرباً من جبال أنجرة على ساحل بحر الزقاق (3) ويشمل جبال غمارة ، والريف ، وبنى يزناتن ، وترارة ، والظهرا ، ويدوغ الخ .

ب ــ الأطلس التلى ، ويبتدىء من المغرب الأقصى عاليا (قمة تجموعت 4500) ويشمل جبال كندافة ، وكلاوة ، والمدحوس ، وبادو ، وتلمسان ، وسعيدة وونشريس ، والجرجرة (قمة للا خديجة 2308 م) وينتهى فى تونس بجبال الخمير .

ج ــ الأطلس الصحراوى ، وامتداده من الغرب الى الشرق كذلك ، ويشمل جبال بانى ، ودرعة ، وصغرو ، والقصور ، والعمور ، وأولاد نايل ، ويرتفع كثيراً بأوراس (قمة الشلية 2328 م) وينتهى فى تونس بجبال زغوان ، وفى ليبيا بجبال نفوسة .

---

3) مضيق جبل طارق فى الاصطلاح الجغرافى المغربى القديم .

وهناك قسم رابع يدعى النجود العليا واقع بين الأطلسين التلى والصحراوى ، وارتفاعه يتراوح بين 700 و 1100 م .

وتنفصل هذه الاقسام ــ بعضها عن بعض ــ اما ببسائط واما بمضائق تسمى بأسماء القبائل المجاورة لها .

وبين القسم الثانى والبحر تنبسط عدة سهول زراعية خصيبة مثل سهول الشاوية والغرب وسايس بالمغرب الأقصى ، وسهول ملينة وغريس وشلف ومتيجة بالجزائر ، وسهول الساحل ووادى مجردة بتونس .

السواحل : وسواحل المغرب طويلة جداً ، والقسم الواقع منها على المحيط الأطلسى متفتح منحدر قليل التضاريس كثير الكثبان ، والقسم الواقع منها على البحر المتوسط صخرى منغلق على النقيض من الأول، كثير التضاريس ضيق الخلجان .

والجزر المحاذية لهذه السواحل ليست كثيرة العدد ولا واسعة الرقعة ، كما أنها ليست ذات أهمية اقتصادية أو حربية باستثناء جزيرة قوصرة Pentellaria الواقعة تحت سيطرة ايطاليا بمضيق صقلية ، والجزر الخالدات Islas Canarias الواقعة أمام ساحل المغرب الأقصى تحت سيطرة اسبانيا ، وأهم هذه الجزر ــ ان كانت ذات أهمية ــ واقع بالشرق كجزر جربة وقرقنة وطبرقة بتونس ، وجزر منصورية والحبيبات ورشقول بالجزائر، وجزائر ملوية Las Chafarinas ونكور وبادس والمعدنوس بساحل المغرب الأقصى ، وليس أمام الساحل الأطلسى للبلاد المغربية الا جزيرة صغيرة واقعة أمام مرسى الصويرة ، وأرخبيل كناريا .

الأنهار : وبالمغرب أنهار عديدة تدعى أودية حتى ولو كانت غزيرة الماء دائمة الجريان ، وتتفاوت هذه الأنهار أهمية وطولا ، وتتغير بتغير الأزمنة والأمكنة ، والجغرافيون يقسمونها ــ كالجبال ــ الى ثلاثة أقسام :

ا ـ قسم تتفجر ينابيعه من الجهات العالية التى يكثر فيها المطر والثلج ، فيستمد مياهه من السيول وذوبان الثلج خريفاً وشتاء وربيعاً ، ومن مياه العيون فى جميع فصول السنة ، وأكثر الأنهار التى تنصب فى المحيط الأطلسى هى من هذا النوع ، كأنهار لكوس ، وسبو ، وأبى رقراق ، وأم الربيع .

ب ـ وقسم يفيض شتاء ويغيض صيفاً ، لأنه لا يستمد من ينابيع قوية ولا تغذيه روافد كبيرة ، وأنهاره تنصب كلها فى البحر المتوسط كملوية وتافنا وشلف وسومام ومجردة والمليان .

ت ـ وقسم ثالث تبتدىء مجاريه من المنحدرات الجنوبية لجبال الأطلس وتتجه نحو الصحراء وهى تضعف شيئاً فشيئاً حتى تغيض مياهها في الرمال، ومن أنهار هذا القسم الداورة والساورة والناموس والمية والغرغار .

والى جانب هذه الأودية والأنهار يوجد بالبلاد المغربية عدد من الحمات والينابيع التى تفيد كثيراً فى علاج الأمراض العصبية والجلدية والمعوية ، كما توجد بها بحيرات بعضها يبقى مغموراً بالماء طيلة السنة كبحيرة الاشكل بتونس وبحيرة طونكة بالجزائر وبحيرة أكلمان سيدى على بالمغرب الأقصى ، وبعضها تتبخر مياهه فى الصيف فتستحيل البحيرة الى بحر من الملح ، وتسمى حينئذ بالضاية أو الشط أو السبخة أو زاغز حسب الأهمية والموقع ، ومن أشهر بحيرات هذا القسم : شط الجريد (5000 كلم مربع) ، وشط الحضنة (27.654 هـ) ، وزاغز الشرقى (50.000 هـ) ، وزاغز الغربى (32.000 هـ) ، والشط الشرقى (طوله 150 كلم ، ومساحته 165.000 هـ) والشط الغربى أو شط حميان (طوله 40 كلم ، ومساحته 55.000 هـ) .

الطقس : ليس الطقس متشابهاً ولا متقارباً فى جميع أطراف بلاد المغرب ، لأن منها مناطق موغلة في الجنوب الى ما وراء خط الانقلاب حيث الطقس الاستوائى الحار ، ومنها مناطق واقعة شمالى ذلك الخط حيث تبتدىء المنطقة المعتدلة .

ويمكن تشبيه الطقس فى المناطق الماهولة بطقس أوربا الجنوب
وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط .

فالصيف متميز بحرارته ، وهو يخلف فصل الشتاء تدريجيا عب
شهور فصل الربيع ، وتزداد الحرارة كلما ابتعد الانسان عن الساحل وأوغ
فى داخلية البلاد ، ولا يزيد متوسط الحرارة فى شهر غشت على 25 درج
فى الساحل الا نادراً كما حدث يوم 19 يوليوز سنة 1967 عندما سج
مقياس الحرارة فى الدار البيضاء الدرجة 47 ، ولكنه الشذوذ الذى يؤ
القاعدة ، على أن السواحل اذا امتازت صيفاً باعتدال حرارتها فانها تقي
برطوبتها ، على العكس من المناطق الداخلية التى تشتد فيها وطأة الحرار
حتى تصل أحياناً الى 40 درجة أو أكثر ، ولكنها تمتاز بطقس صحى خا
من الرطوبة .

أما فصل الشتاء فهو لطيف محتمل ، ولا يكون البرد قاسياً ا
فى المرتفعات الجبلية والنجود العالية حيث ينخفض ميزان الحرارة ف
بعض الأحيان الى ما تحت الصفر .

ويبين الجدول التالى متوسط ميزان الحرارة فى بعض المدن :

اسم المدينة	الارتفاع بالمتر	متوسط يناير	متوسط يوليوز
الدار البيضاء	982 ، 15 م	12 م	22 م
الصويرة	6 م	14 م	19 م
مراكش	460 م	11 م	28 م
وهران	80 م	11 م	24 م
الجزائر	118 م	11 م	25 م
قسنطينة	650 م	6 م	25 م
البيض	1320 م	4 م	26 م
بسكرة	128 م	11 م	35 م
تونس	47 م	10 م	25 م
طرابلس	17 م	11 م	26 م

ويساعد الارتفاع العظيم على تكثف البخار ، وتسقط الرياح التى تهب من المحيط الأطلسى ـ الأمطار بغزارة كبيرة ، وتتوغل الرياح عبر الممرات الجبلية ، ولكن تأثير البحر يتناقص كلما ابتعد الانسان عن البحر ويتزايد تأثير الارتفاع .

وتغزر الأمطار بالسواحل والمرتفعات الأطلسية وتقل فيما عداهما ، وتتناقص كلما اتجه الانسان شرقاً أو نزل من المرتفعات الى السهول ولاسيما تلك الواقعة خلف الجبال أو ما يسمى فى ظل المطر ، ويؤثر اتجاه التضاريس بالنسبة للرياح تأثيراً ملحوظاً فى كمية المطر النازل ، فاذا وازت الجبال الرياح قل المطر ، واذا كانت الرياح عمودية على الجبال كثر ، ويبدأ نزول المطر مبكراً فى شهر نونبر على السواحل أكثر من الداخل باستثناء مرتفعات السلسلة الأطلسية ، فلا تقل كمية الأمطار النازلة سنوياً فى أى بقعة ساحلية عن 400 مليمتر .

ولا تنعقد الثلوج بالسواحل الا قليلا ، ولا يستمر نزولها ـ اذا نزلت ـ الا يومين أو ثلاثاً ، ولكنها تنزل على المرتفعات الداخلية وتنعقد فوق الأرض بضعة أسابيع ، وفى جبال الأطلس بالمغرب الأقصى تستمر منعقدة بضعة أشهر ، وغالباً ما يدخل فصل الصيف وقمم الجبال الأطلسية ما زالت معممة بالثلج ، ويؤدى ذوبان الثلج الى فيضان الأنهار الخلفية الذى تنفع سكان الواحات نفعا كبيراً ، وتعوضهم بمائها عن ماء المطر الذى حرمتهم منه الطبيعة .

وليس نزول المطر في البلاد المغربية مضبوطاً فى وقته ولا كميته ، فقد يتقدم موعد نزول المطر أو يتأخر فى سنة عن موعد نزوله في أخرى ، وقد تزيد الكمية النازلة بجهة ما أو تنقص في سنة ما عنها في سنة أخرى ، وهذا يؤدي بالطبع الى استحالة ضبط الانتاج الزراعى ، ففى مدينة جلفة بلغت كمية المطر 99 مليمتر سنة I9I3 بينما بلغت الكمية 775 مليمتر سنة I893 ، وفى المغرب الأقصى بلغ المحصول الزراعى 38 I/2 مليون قنطار سنة I94I ولكنه لم يتعد 4 ملايين قنطار فى سنة I945 ولهذا أصبح شغل الحكومات المغربية الشاغل فى الوقت الراهن استغلال المياه الأرضية ببناء السدود

واستنباط المياه الجوفية ليمكنها مواجهة المشاكل الغذائية الناتجة عن النمو الديموكرافي المتزايد .

والجدول التالي يبين متوسط كميات المطر النازلة سنوياً في جهات مختلفة من البلاد المغربية :

المدينة	كمية المطر بالمليمتر	المدينة	كمية المطر بالمليمتر
طنجة	750 ملم	الجزائر	750 ملم
الدار البيضاء	400 ملم	القـل	1798 ملم
بسكرة	200 ملم	صفاقس	150 ملم
مراكش	150 ملم	تونس	390 ملم
البيض	280 ملم	طرابلس	370 ملم

النبات : يخضع النبات في كل بقعة من بقاع الأرض لأحوال الطقس والموقع كما يخضع للعمل البشرى ، فمن الطبيعى ــ وبلاد المغرب تصافح الصحراء بيد والبحر المتوسط بأخرى ــ ان يختلف النبات في شمال المغرب عنه في جنوبه .

ففي الشمال الذى يمر في أقصاه الخط السابع والثلاثون من العرض الشمالى توجد جميع نباتات حوض البحر الأبيض المتوسط ، لأن الريــاح العكسية التى تتعرض لها مرتفعاته يترتب عنها نزول الأمطار بغزارة في فصل الشتاء ، وهذه تساعد على نمو أشجار وشجيرات مخضرة على الدوام ، كالزيتون والليمون ، كما تساعد على استغلال الأراضى لأغراض زراعية ، وتعين على وجود غابات كثيفة الأشجــار .

ومن الثابت تاريخياً أن مساحة الغابات (6.000.000 هكتار اليوم) ببلاد المغرب ضاقت عبر القرون ، ولا يعزى ذلك فقط الى حاجة الانسان الى تحويل مساحات منها الى بساتين وحقول لتلبية متطلبات الحياة الفردية والقومية،

بل يرجع السبب أيضاً الى الأهمال وتطاحن القبائل فى الماضى ، الشيء الذى نتج عنه تلف الأشجار ، وخاصة شجر الزيتون الذى ما زالت معاصر الزيت فى بعض الجهات تدل على وجوده السابق بها .

ولا يوجد من الأعشاب فى بلاد المغرب الا الأنواع الفقيرة التى لا تصلح للبقر ، ولذلك لا يوجد اللبن وبالتالى الزبد والجبن بوفرة ، ويعتمد المغاربة غالباً على زيت الزيتون فى طبخهم ، تلك الشجرة التى تميزت بها بلدان حوض البحر المتوسط .

وتوجد بالغابات المغربية أكثر أنواع الأشجار الغابوية، فالبلوط يوجد فى تونس والجزائر والمغرب الأقصى ، والزان يوجد على ارتفاع 1000 — 1500 ، والخروب يكثر فى المناطق التى يتراوح ارتفاعها بين 400 و 1500 م ، والعرعار والصنوبر فى المناطق التى يزيد ارتفاعها على 1500 م ، أما الأرز فيوجد فى مناطق يتراوح ارتفاعها بين 1500 و 2500 م ، ومنه فى بلاد المغرب غابات كبيرة تكاد مساحتها تضارع مساحة لبنان ! .

وفى المناطق المواجهة للصحراء خلف جبال الأطلس وكذلك فى النجود العليا (**الظهرا**) توجد نباتات ضعيفة من النوع الذى ينبت فى الأراضى التى يسميها الأوربيون الستيب Les Steppes وهى تورق شتاء وربيعاً وتيبس صيفاً ، والاعراب يرتادونها بماشيتهم فتجد فيها غذاء جيداً ، كما توجد فيها الحلفة التى تدخل فى صناعة الورق، وتصدر منها كميات وفيرة الى الخارج .

والى الجنوب من ذلك تبدو الصحراء بوجهها الكالح حيث يقل النبات شيئاً فشيئاً الى ان يتلاشى نهائياً فى صميمها ، وهذه الصحراء تقترب من الساحل فى المملكة الليبية ولا سيما غرب مدينة طرابلس وحول خليج سرت ، وذلك لمسامتة ذلك الساحل عرضاً للمناطق الصحراوية فى بقية الأقاليم المغربية .

ويمكن تلخيص القول فى شأن النبات بأن المناطق التى يزيد متوسط المطر السنوى فيها على 300 ملم تنبت نباتات أقطار أوربا الجنوبية ، وفى

المناطق التى يقل فيها متوسط المطر عن 300 ملم توجد نباتات الستيب الهزيلة ، أما المناطق التي يقل فيها متوسط المطر عن 100 ملم فهى مناطق صحراوية لا تنبت شيئاً .

الثروات الطبيعية : التربة المغربية غنية جداً بما يشتمل عليه ظاهرها وباطنها من ثروات فلاحية ومعدنية ، الا أن الطرق المتبعة فى استغلال هذه الثروات اقتصادياً متباينة جداً ، فهناك الطرق العصرية التى تعتمد على الوسائل المالية والتقنية في الانشاء والتسيير والتصريف ، وهناك الطرق العتيقة التى تعتمد على اليد بالدرجة الأولى ، ولا تستهدف أكثر من سد الرمق .

وينتج عن هذا الاختلاف اختلاف في طريقة الحياة وتفاوت فى مستوى العيش لدى المغاربة ، ولهذا أصبح الهدف الأكبر لقادة البلاد المغربية القضاء على هذا التفاوت والاختلاف باستثمار الثروات الطبيعية استثماراً عصرياً ، والتعجيل بالتصنيع ، ومباشرة جميع أنواع الاقتصاد ، والانشاء التدريجى لاقتصاد متكامل للأقطار المغربية .

ويعتبر القطاع الزراعى من أكبر قطاعات الحياة الاقتصادية المغربية ، ويمثل نحو الربع من الانتاج الداخلى الخالص .

والانتاج الزراعى فى المغرب متنوع جداً ، ويمكن توزيعه على ستة قطاعات كبيرة .

ا ـ زراعة الحبوب (القمح ـ الشعير الخ) ويبلغ المحصول السنوى منها فى جميع الأقطار المغربية أزيد من 50 مليون قنطار .

ب ـ زراعة الحوامض وهى تنمو باطراد ، ويبلغ انتاج الأقطار الأربعة منها 1.200.000 طن يصدر معظمها الى الخارج .

ت ـ زراعة الخضر وهي أيضاً فى طريق النمو والازدهار ، ويصدر معظم البواكير الى الخارج .

ث ـ الزراعة الصناعية (طابا ـ القطن ـ الشمندر السكرى الخ) وهى أيضاً تتسع يوماً بعد يوم، وينتظر أن تنمو بسرعة كبيرة لتتمكن من تلبية الاحتياجات المتصاعدة .

ج ـ الدالية ـ تحتل غراسة الكرم مكاناً ممتازاً فى القطاع الزراعى ، ويبلـغ انتاج الخمر أكثر من 20 مليـون هكتولتر فى السنة يصدر معظمها الى الخـارج .

ح ـ تربية الماشية ـ توجد بالمغرب أكثر أنواع الماشية المعروفة ، لكنها خاضعة لأحوال الطقس . وتبذل الحكومات جهوداً قوية لتحسين النسل وتنمية الزراعة المعدة للعلف .

ويبلغ عدد البقر الآن فى البلاد المغربية 4.500.000 رأس ، وعدد الغنم (ضأن ـ معز) 20.500.000 رأس .

أمـا الثروات المعدنية فـبالاضافة الى المعـادن التقليدية كالزنك والرصاص والنحاس تستثمر الأقطار المغربية عدداً آخر من المعادن مثـل الفوسفات ، والكوبالت ، والمنغنيز التى يتوقف عليها الاقتصاد الحديث .

وقد أدى اكتشاف مناجم الفوسفات في المغرب الأقصى والجزائـر وتونس خلال الربع الأول من هذا القرن ـ الى انقلاب حقيقى فى السوق العالمى لهذه المادة ، كما أحدث انقلاباً آخر فى الاقتصاد المحلى .

أمـا المكتشفات الأخيرة من البترول والغاز الطبيعي فسيكون لهـا أعمق الآثار الاقتصادية والاجتماعية .

وقد تصاعد منتوج الأقطار المغربية من الفوسفات كالآتى :

سنـة 1955	: 8.280.000	طن
سنـة 1960	: 10.136.000	طن
سنـة 1965	: 13.000.000	طن

ويصدر جل الانتاج المغربى من هذه المادة الى الخارج ، ولكن الأقطار المنتجة شرعت منذ بضع سنين فى انشاء مصانع لتحويله صناعيا ، ومن أعظم

المنشآت التى أحدثت لهذا الغرض مركب آسفى للصناعات الكيماوية بالمغرب الأقصى .

وتأتى البلاد المغربية فى مقدمة بلدان العالم المنتجة للحديد ، ويعتبر حديدها من النوع الرفيع (يتراوح المحتوى بين 50 و 60 ٪) ولا يسبب استخراجه مصاعب كبيرة ، ويبلغ انتاجها السنوى منه 5.000.000 طن .

ويأتى انتاج البلاد المغربية من الزنك والرصاص فى طليعة منتجاتها المعدنية ، ويبين الجدول التالى انتاجها من المادتين خلال سنوات مضت :

السنة	الزنك	الرصاص
1955	81.300 طن	126.700 طن
1960	93.100 طن	124.600 طن
1965	165.000 طن	151.000 طن

وتوجد البلاد المغربية اليوم فى طليعة الدول المنتجة للبترول وهى مجهزة أحسن تجهيز لاستخراجه وتصريفه على وجه يبعث على التفاؤل بمستقبل اقتصادى واجتماعى باسم .

وقد بلغ الانتاج المغربى من البترول 95.000.000 طن سنة 1965 ، ومدخراتها منه ومن الغاز الطبيعى قوية جداً .

وتبذل حكومات الأقطار المغربية جهوداً كبيرة لتقوية انتاج الكهرباء ونشر شبكاتها فى المدن والقرى ومد أسلاكها الى المصانع والمعامل بكل جهة .

وقد قدر الانتاج السنوى من هذا السائل الثمين بـ 2.071.000.000 كيلوات ـ ساعة سنة 1965 ثم ارتفع الرقم الى 2.742.000.000 كيلوات ـ ساعة

سنة 1960 والى 3.060.000.000 كيلوات — ساعة سنة 1965 ، وينتظر أن يرتفع الرقم ارتفاعاً محسوساً فى السنين القليلة المقبلة عندما يتم بناء السدود التى قررت الحكومات بناءها .

الصناعة : يستأثر التصنيع فى الأقطار المغربية باهتمام حكوماتها فى الوقت الراهن ، وتصرف العناية بجد الى انشاء صناعات عصرية كبرى وصغرى تستهدف تلبية الاحتياجات المحلية وتصدير ما يزيد على الحاجة من مصنوعات .

ولما كان القطاع الزراعى بما فيه تربية الماشية أهم قطاعات الاقتصاد المغربى فان المعامل والمصانع التى تقام تستهدف بالدرجة الأولى تصنيع المنتوجات الزراعية من جهة ، وصناعة الآلات والأدوات التى يتوقف عليها تجديد ذلك القطاع ونموه وازدهاره من جهة أخرى .

فهناك صناعات كان لها فى السابق وجود ، ولكنها سارت فى الوقت الراهن أشواطاً فى طريق النو والتجديد كالصناعة الغذائية التى تتمثل فى المطاحن والمعاصر ومعامل تعليب اللحم والسمك وعصير الفاكهة ، وهناك صناعات اندثرت منذ قرون ووقع احياؤها حديثاً كصناعة السكر التى لن تلبث أن تكفى الحاجة منه وتغنى عن استيراده من الخارج .

ولقد كان جميع الانتاج المغربى من الحديد يصدر الى الخارج ، ولكن التصدير سيقل بالتدريج كلما كثرت مصانع الصلب الضرورية لتجهيز البلاد واقامة المنشآت .

وقد بدأ بالفعل انشاء معامل للتركيب ومصانع السيارات والجرارات والعجلات نتج عنه انشاء مصانع ثانوية تمد المعامل والمصانع الكبرى بالمواد المعدنية والزجاجية والجلدية والمطاطية اللازمة لها .

ويبين الجدول التالى احتياجات الأقطار المغربية من مصنوعات هذه القطاع :

	1965	1970
سيارات	24.350	32.000
سيارات منفعة	12.320	16.000
حافلات	470	750
سيارات خاصة	820	1.500
جرارات فلاحية مسلسلة	650	2.100
جرارات فلاحية مدرجة	3.650	7.650

وتتطور الصناعة الكيماوية والصيدلية تطوراً مرضياً ، كما تبذل جهود مهمة لتصنيع نبات الحلفة الذى يغطى مساحة تبلغ 7.500.000 هكتار يقطع منها سنوياً أزيد من 650.000 طن ، أما صناعة النسيج فهى تنمو نمواً مطرداً ، ولن تلبث الأقطار المغربية أن تصبح من البلدان المصدرة للمنسوجات فى مستقبل قريب .

الميزانيات : وتعبر الميزانيات العامة للدول المغربية تعبيراً صادقاً عن سياسة حكوماتها الرامية الى تجهيز مرافقها وترقية مجتمعاتها .

ومع أنها تلتزم سياسة تقشفية فى مصاريفها العامة فانها تصرف بسخاء على التجهيزات الأساسية اللازمة للتنمية الاقتصادية ، كما تصرف بسخاء فى القطاع الاجتماعى لتستطيع من جهة تكوين الاطارات الكافية ، وتحسين أحوال المواطنين ورفع مستواهم عن طريق تعميم التعليم والثقافة ونشر الرياضة والمستشفيات والمساكن السليمة من جهة ثانية ، وهذه السياسة تحمل الدول المغربية على تخصيص مبالغ مالية طائلة تفوق أحياناً الربع من ميزانياتها العامة للتربية والتعليم وحدهما .

ويبين الجدول التالي ميزانيات التسيير والتجهيز للدول المغربيه الأربع عن سنة 1967 .

اسم الدولة	ميزانية التسيير	ميزانية التجهيز
الجمهورية التونسية	108.000.000 د . ت	35.000.000 د . ت
الجمهورية الجزائرية	3.332.000.000 د . ج	(التصميم الثلاثى بما فيه سنة 1967 : 863.977.184 د ج)
المملكة الليبية	87.000.000 د .ل	90.900.000 د . ل
المملكة المغربية	2.218.866.347 در . م	863.977.184 در . م

التجارة الخارجية : تؤثر السياسة التى تنتهجها الدول المغربية فى ميدان التجهيز تأثيراً قويـاً على ميزانها التجارى ، ولهذا اتخذت هذه الدول عدة تدابير لضمان تعادله أو تخفيض عجزه تخفيضاً مستمراً .

وقد التجأت المملكة المغربية والجمهورية التونسية الى فرض قيود على وارداتهما ، اما الجزائر وليبيا فانهما تتمتعان بحالة أفضـل من حالـة شقيقتيهما نظراً لدخلهما الوافر من البترول .

ويصور الجدول التالى تطور التجارة الخارجية للدول المغربية الأربع من سنة 1963 الى سنة 1965 :

الدولة	1963		1964		1965	
	واردات	صادرات	واردات	صادرات	واردات نصف سنة	صادرات نصف سنة
تونس (بملايين الدينار)	93.148	52.922	110.845	57.304	129.062	62.916
الجزائر (بملايير الفرنك الفرنسى القديم)	343	374	347	359	161	177
ليبيا (بآلاف الدينار الليبى)	85.277	133.535	104.379	250.166	114.416	282.008
المغرب الأقصى (بملايين الدرهم)	2.243	1.943	2.327	2.194	2.291	2.176

الدخل الكامل : بلغ المنتج الداخلي الكامل لمجموع الدول المغربية نحو سبعة ملايير دولار سنة 1964 موزعة هكذا :

الـدولـة	المنتج الكامل بملايين الدولار	النسبة المئوية
الجمهورية التونسية	955	٪ 14
الجمهورية الجزائرية	2.542	٪ 37
المملكة الليبيـة	935	٪ 13
المملكة المغربية	2.500	٪ 36
	6.932	100

والمنتج في الأقطار الأربعة واحد ومختلف في نفس الوقت ، والفلاحة في جملته تمثل نحو الربع منه ، والصناعة اليدوية العشر ، والادارة العمومية العشر ، بينما تمثل المعادن في تفصيله 53 ٪ بالنسبة لليبيا ، و 8 ، 1 ٪ بالنسبة لتونس ، ولا تمثل الفلاحة بالنسبة لليبيا الا 4 ، 6 ٪ بينما تمثل أكثر من 29 ٪ بالنسبة للمغرب الأقصى .

ويعطى الجدول التالى توضيحات أكثر عن المنتج الكامل وتشابهه واختلافه وحظ كل قطر مغربى من عموم قطاعاته :

القطـاع الاقتصادى	المغرب	الجزائر	تونس	ليبيـا
الفلاحـة	29 ، 1	20 ، 2	24 ، 8	6 ، 4
المعـادن	5 ، 5	18 ، 5	1 ، 8	53 ، 2
الصناعة	12 ، 2	8 ، 9	12 ، 5	3 ، 2
البنـاء	4 ، 5	4 ، 8	7 ، 8	3 ، 2
الكهرباء والكاز والماء	2 ، 4	1 ، 6	1 ، 8	
النقل . المواصلات . البنوك . الخدمات .	36 ، 2	34 ، 7	36 ، 0	23 ، 9
الادارة العمومية	10 ، 1	11 ، 3	15 ، 3	10 ، 1
	100 ، 0	100 ، 0	100 ، 0	100 ، 0

ويظهر ان حظ الجزائر وتونس من السكان يتناسب وحظهما من المنتج ، فسكان القطر الجزائرى يعادلون 38 ٪ من مجموع المغاربة ومنتجه يعادل 37 ٪ من المنتج المغربى ، وكذلك الحال فيما يخص تونس التى يبلغ سكانها 15 ٪ من سكان المغرب ومنتجها 14 ٪ من منتجه، اما حظ المغرب الأقصى من المنتج الذى لا يتعدى 36 ٪ من مجموع المنتج المغربى فهو ضئيل بالنسبة لسكانه الذين يمثلون 42 ٪ من مجموع السكان المغاربة ، بخلاف القطر الليبى الذى يمثل ظاهرة عكسية . فسكانه لا يبلغون الا 5 ٪ من مجموع سكان البلاد المغربية ، ولكن منتجه يجاوز 15 ٪ من مجموع منتجها ، ويعد البترول أهم أسباب هذه الظاهرة .

السياحة : تزدهر السياحة شيئاً فشيئاً فى البلاد المغربية ، ويرتفع عدد الوافدين عليها من الأقطار الأوربية والأمريكية سنة بعد أخرى ، ويسهل قرب الشواطىء المغربية من الشواطىء الأوربية وتنظيم وسائل النقل البحرى والجوى بينهما مجىء السواح بأعداد وفيرة صيفاً وشتاء حيث يجدون كل ما يبغون التمتع به من أجواء ومناظر ، والتعرف عليه من أمور غريبة .

ولا يحد من نمو السياحة بالسرعة المطلوبة الا ضعف التجهيز السياحى والغلاء النسبى للسكن والمعيشة ، والحكومات المغربية جادة فى تلافى النقص وتذليل الصعاب المعترضة فى هذا الميدان .

الطرق السيارية : توجد بالبلاد المغربية نحو 50.000 كلم من الطرق السيارية الجيدة ، منها 25.000 كلم فى الجزائر ، و 14.000 كلم فى المغرب الأقصى ، و 8.000 كلم فى تونس ، و 2.300 كلم فى ليبيا . يضاف اليها آلاف أخرى من المسالك والطرق الغابوية .

وتستجيب الطرق المغربية لمتطلبات السير ، فهى فى المناطق الخصيبة كثيرة حول المدن والمراسى . كما انها تخرق أكثرية الجبال والنجود العالية وتخلف على العموم طرق القوافل العتيقة .

السكك الحديدية : واذا كانت الطرق السيارية تنشأ عن داعي الاهتمام بخلق توازن اقتصادي بين الأقاليم فان الطرق القطارية لا تنشأ الا لأغراض محلية يظهر فيها القطار أقل كلفة وأكثر نفعاً .

وتحتل السكك الحديدية مكانة ممتازة بين الوسائل التي يلجأ اليها لاستثمار الثروات الطبيعية على أحسن وجه .

ويبلغ طول السكك الحديدية المغربية 8.709 كلم ، منها 4375 في الجزائر (1029 كلم ضيقة + 3346 عريضة) ، و 1984 كلم في تونس (484 كلم عريضة + 1.500 كلم ضيقة) و 2.008 كلم في المغرب الأقصى ، عريضة كلها .

المراسي : ومن مميزات التجارة المغربية أن معظمها يجري على طريق البحر تصديراً وتوريداً ، وأقلها يجري على الطرق البرية أو الجوية .

وستؤدي مخططات التنمية التي وضعتها وتضعها الحكومات المغربية الى ارتفاع كبير في الحركة المرسوية الشيء الذي يستلزم تجهيزات قوية ونفقات طائلة .

على ان الأقطار المغربية تتوفر في الساعة الراهنة على مراسي عديدة مجهزة أحسن تجهيز ، ومن أشهر المراسي وأهمها :

— الدار البيضاء وأسفي ، وطنجة ، وفضالة ، وأكدير بالمغرب الأقصى .

— والجزائر ووهران ، وعنابة ، والغزوات ، وأرزيو بالجزائر .

— وتونس ، وبنزرت ، وصفاقس ، وقابس بتونس .

— وطرابلس ، وبنغازي ، وطبرق بليبيا .

المطارات : لم تفتأ حركة النقل الجوي تنمو منذ استعادت البلاد المغربية استقلالها ، فقد انشئت خطوط جديدة ، وأصبحت الشركات الوطنية والأجنبية تربط البلاد المغربية مع بلدان العالم ربطاً منتظماً .

ولما كانت التجهيزات المطارية وافية فى الساعة الراهنة بجميع الأغراض فان العناية منصرفة فقط الى صيانة المطارات الموجودة وتوسيعها لا الى انشاء مطارات جديدة .

الأقسام : قسم الجغرافيون العرب بلاد المغرب الى ثلاثة أقسام باعتبار قربها أو بعدها عن مكان الحج ومقر الخلافة ، ولكنهم لم يحددوا موقع كل واحد من الأقسام الثلاثة تحديداً دقيقاً :

ا ـ المغرب الأدنى : وبدايته من جهة الشرق الحد الفاصل بين بلاد المغرب واقليم برقة ، أما من الجهة الغربية فالأقوال مضطربة ، فمن الجغرافيين من يجعل حده الغربى مدينة قسنطينة (4) أو الجبال الواقعة شرقى سهول متيجة ، فيكون المغرب الأدنى يشمل تقريباً اقليمي طرابلس وفزان ، والقطر التونسى ، واقليم قسنطينة من القطر الجزائرى ، ومنهم من يجعل المغرب الأدنى ينتهي غرباً عند وادى مجمع ؟ الواقع فى منتصف الطريق بين مدينة مليانة ومدينة تلمسان ، فيدخل فيه اقليم الجزائر (5) .

ويدعى هذا القسم أيضاً **افريقية** ، وكانت قاعدته فى الأول مدينة القيروان ، ثم أصبحت مدينة تونس .

ب ـ المغرب الأوسط : ويقع غربى الأولى وينتهى عند نهر ملوية (6) أو بلاد تازة (7) حيث تبتدىء حدود المغرب الأقصى .

وقاعدة هذا القسم مدينة تلمسان ، ثم الجزائر منذ عصر الاحتلال التركى للجزائر .

ت ـ المغرب الأقصى : ويبدأ من نهر ملوية أو بلاد تازة على اختلاف التحديد عند الجغرافيين والمؤرخين ، وينتهى غرباً بالمحيط الأطلسى .

---

4) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 215 طبعة سلا .
5) الاستبصار ، فى عجائب الامصار ص 176 .
6) الاستقصا ، لاخبار دول المغرب الأقصى 1 : 76 طبعة الدار البيضاء .
7) الاستبصار ، فى عجائب الامصار ص 176 .

وهذا القسم معروف عند أهله بالاسم المذكور أو باسم المغرب فقط ، وقد بدأ الشرقيون منذ أول هذا القرن يسمونه مراكش وهي ترجمة حرفية لكلمة Maroc و Marruecos التي يسميه بها الأوربيون ، ولكنها تسمية مجهولة عند أهله ، اذ مراكش عندهم اسم لمدينة من مدنه لا للقطر كله .

وقاعدة هذا القسم كانت في الغالب مدينة فاس الى ان انتقم منها الفرنسيون اثر ثورة اهلها عليهم يوم 17 ابريل سنة 1912 بمساعدة الجيش الوطني ، فنقلوا الادارة الى الرباط .

وقد جرى الجغرافيون والمؤرخون منذ خمسة قرون على اطلاق اسم المغرب الأدنى على امارتي تونس وطرابلس ، والمغرب الأوسط على امارة الجزائر ، والمغرب الأقصى على المملكة المغربية ، رغم ان الحدود السياسية لهذه الدول تختلف عن الحدود الجغرافية لتلك الأقسام ، ونحن في هذا الكتاب سنجاريهم فيما ساروا اليه ، فسيعادل المغرب الأدنى مملكة ليبيا والجمهورية التونسية ، ويعادل المغرب الأوسط الجمهورية الجزائرية ، ويعادل المغرب الأقصى المملكة المغربية بحدودها السياسية الحالية .

حب المغاربة للمغرب : وقد أثر عن المغاربة حبهم الشديد لوطنهم ، وتفضيلهم اياه على ما عداه من البلاد ، وحدا هذا الحب أدباءهم ومؤرخيهم الى اختراع الحكايات اللطيفة عنه ، وربط الوقائع الدينية التى حدثت بالشرق ببعض مدنه وقراه ، ونسبة أحاديث الى النبى صلى الله عليه وسلم في بيان فضله وشرف أهله .

فمن ذلك الحديث المتواتر بينهم الذى يرويه سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة) . والحديث الذى روى عن سفيان ابن عيينة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ان بالمغرب باباً للتوبة مفتوحاً مسيرته أربعون خريفاً لا يغلقه الله تعالىحتى تطلع الشمس من مغربها) .

وكما نسبوا هذه الأحاديث الى النبى فى بيان فضله جملة نسبوا اليه أحاديث أخرى في بيان فضله تفصيلا . فمن ذلك الحديث الذى رواه أبو عبد

الرحمان الحبلي في فضل افريقية من أقاليمه ، وهو قوله عليه السلام : (ينقطع الجهاد من البلدان كلها ، فلا يبقى الا بموضع من الغرب يقال له افريقية ، فبينا القوم بأزاء عدوهم ، نظروا الى الجبال قد سيرت ، فيخرون لله تبارك وتعالى سجداً ، فلا ينزع أخلاقهم الا خدمهم بالجنة) ! والحديث الوارد في فضل المنستير : (بساحل قمونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير ، من دخله فبرحمة الله ، ومن خرج منه فبعفو الله) . والحديث الذى وجد في كتاب دراس بن اسماعيل الوارد في فضل فاس ، وهو قوله (ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس ، أقوم أهل المغرب قبلة ، وأكثرهم صلاة ، أهلها قائمون على الحق لا يضرهم من خالفهم ، يدفع الله عنهم ما يكرهون الى يوم القيامة) .

ومن الحكايات المستملحة في هذا الباب ما حكاه محمد بن حمادو البرنسي السبتي في كتاب **المغرب** له عن الجرجاني وزير الظاهر لاعزاز دين الله أحد ملوك العبيديين ، أن الظاهر قال لوزيره : انى أريد أن أسمع كلام المغاربة فقال له : هنا شيخ يعرف بأبي مسلم الدقي ، فقال له : أسمعني كلامه ، فجلس الظاهر خلف حجاب وأحضر وزراء دولته ، ووجه عن الدقي ، فلما وصل سلم وقعد وتكلم معه بأشياء أضحكه بها الى أن قال له الوزير : بلغنا أن الدنيا شبهت بطائر ، فالمشرق رأسه ، واليمن جناحه الواحد ، والشام جناحه الآخر ، والمغرب ذنبه ، فقال له أبو مسلم : صدقوا والطائر طاووس ! فضحك الظاهر وقال حسبه وانصرف .

وقد استخرج بعض الشعراء دلائل حسن المغرب من اسمه فقال :

الغـرب شيء مليـــح ... ولـي دليـل عليــه
البــدر يـرقب منــه ... والشمس تسعى اليه!

ولما قال بعض المشارقة يهجو المغرب هذه الأبيات :

تجنب بلاد الغـرب ما عشت انهـا ... بـلاء وهـم دائـم وحــروب
وخيم بأرض الشرق تدرك بها المنى ... وتنجـو فلا تدنـو اليك خطـوب
ففى الشرق من أجل الشروق مزيـة ... وفى الغرب من أجل الغروب كروب

أجابه شاعر مغربى بقوله :

تجنب بـلاداً بـدى الشر باسمهـا وذاك دليـل أنهـا بلـد الحـرب
تكـاثرت الأديـان فيها فلـم يكـن لدين الهدى الا الرحيل الى الغرب !

وأجابه آخر بقوله :

خليـلى لا تـركـنن الـى الشرق انه مشوم وفى اسم الشرق ناه لذى اللب
ألم تنظر الشمس المنيرة لـم يطب لها الشرق فارتاحت الـى جهة الغرب

ولشعراء المغرب قصائد كثيرة أطنبوا فيها في وصف المغرب كله أو جهة من جهاته ، وأشادوا بمحاسنه التى جعلته فى نظرهم أحسن بـلاد الدنيا ، فمن ذلك قصيدة ابن حبيب الشهيرة التى مطلعها :

أحب بلاد الغرب والغـرب موطنـى الا كـل غـربـى الـى حبيـب

وقصيدة ابن سعيد التى تشوق فيها الى المغـرب من أرض مصر والتى أولهـا :

هـذه مـصر فأيـن المغرب مذ نأى عني فعينـى تسكب
فارقتـه النفس جهلا انمـا يعـرف الشيء اذا ما يذهب

والحق أن محبة المغاربة لوطنهم ، ومبالغاتهم في وصف محاسنه ، وتفضيلهم أياه على ما عداه شيء لا يعاب عليهم ، مع العلم بأن من بين بلاد الله بلاداً تفوق المغرب حسناً وجمالا وأخرى تساويها وأخرى تقل عنها ، ولكن الله سبحانه جعل النفوس البشرية انما تميل الى مواطن الطفولة ومراتع الصبـا وقديماً قال ابن الرومى :

وحبب أوطـان الرجـال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكـروا أوطانهم ذكرتهـم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وقبله قال شاعر عربي :

نقل فؤادك حيث شئت من الهـوى مـا الحـب الا للحبيـب الأول
كم منزل فى الأرض يالفـه الفتـى وحنينـه أبـداً لأول منـزل

المغربُ الأدنى

1) المملكة الليبية

موقعها وحدودها

تقع المملكة الليبية ــ التى هى القسم الشرقى من المغرب الأدنى ــ بين خطى العرض 20 و 32 شمال الاستواء، وخطى الطول 25 و 9 شرقى كرينويتش، وتحدها الجمهورية العربية المتحدة شرقاً ، والجمهوريتان التونسية والجزائرية غرباً ، والبحر المتوسط شمالا ، وجمهوريات التشاد والنجير والسودان جنوباً .

مساحتها

وتبلغ مساحتها 1.759.000 كلم مربع ، منها 353.000 كلم مربع فى ولاية طرابلس ، و 550.000 كلم مربع فى ولاية فزان ، وهما اقليمان مغربيان بلا خلاف ، و 855.000 كلم مربع فى ولاية برقة .

سطحها

وتتكون المملكة الليبية من أراض سهلة فى الشمال مرتفعة فى الجنوب ، باستثناء المرتفعات التى يتكون منها الجبل الأخضر بشمال برقة، وخلف مدينة طرابلس توجد منطقة نجدية يبلغ ارتفاعها 700 م فوق سطح البحر ، وفى هذه الهضبة يوجد جبل نفوسة الشهير ، يليها منخفض سهل جفارة ،

وفى شرق هذا السهل توجد منطقة مستوية تصلح لغراسة الأشجار أكثر مما تصلح لها تربة ولاية برقة ، ويرجع الفضل فى ذلك الى وجود مياه جوفية وفيرة بولاية طرابلس .

وبجانب الساحل الذى يبلغ طوله 1800 كلم تمتد كثبان رملية تتخللها منخفضات لا تخلو من بحيرات وسبخات ملحة ، والتربة فى سهل جفارة تتكون من مفتتات الرمال ، وهى خشنة حسنة التهوية ، وتضيف اليها المجارى المائية أتربة رسوبية ، والتربة فى الساحل جيرية رملية ، وتربة الكثبان الرملية الثابتة والمتنقلة عبارة عن رواسب قارية وأخرى بحرية ، والتربة من وراء الشطوط والمستنقعات الساحلية ملحية .

وولاية فزان مضرسة بها تلال صخرية وكثبان رملية وأودية جافة ، ويتراوح ارتفاع معظم أجزائها بين 500 و 1.000 م . ف . س . ب. وتتجه مياه هذه الولاية نحو الجنوب ولا تنصب فى البحر مثل مياه أودية المناطق الشمالية، وتوجد فى فزان بحيرات كثيرة مختلفة الأحجام ما هى فى الحقيقة الا الأجزاء المكشوفة من الطبقة المائية القريبة من سطح الأرض ، ونسبة الملوحة عالية فى أجزائها المعرضة للتبخر ، لكن يمكن الحصول بسهولة على مياه عذبة بواسطة حفر آبار قليلة العمق على أطرافها .

طقسها

والمناخ فى المملكة الليبية متأثر بموقعها وهبوب الرياح الشمالية عليها وانخفاض سواحلها عدى اقليم برقة ، فالحرارة تشتد صيفاً فتصل الى الدرجة الأربعين فى المناطق الداخلية ، وما يقارب هذه الدرجة فى المناطق المنخفضة القريبة من الساحل ما بين خليج سرت ومدينة طرابلس يخفف من حدتها هبوب نسائم بحرية عليلة فى بعض الأحيان ، والحرارة فى مدينة طرابلس محتملة ، يبلغ متوسطها فى الصيف 24 درجة وفى الشتاء 14 درجة . أما فيما عداها فالحرارة لا تكاد تطاق لبعدها عن التأثيرات البحرية الملطفة ، بالاضافة الى طبيعة الأرض الصخرية أو الرملية التى يشتد اكتسابها للاشعاع الشمسى .

ولا تسقط أمطار غزيرة نسبياً الا فى شمال اقليم برقة وحول مدينة طرابلس ، وتبلغ كمية المطر السنوية النازلة على هذه المدينة حوالى 400 مليمتر، وتقل الأمطار فى الجهات الواقعة فى غربها لوقوعها فى ظل المطر ، وتبلغ نسبة الرطوبة أقصاها صيفاً بتأثير البحر الذى يمتد الى الداخل مسافة 15 كلم . ويقل المطر بالتدريج كلما امتدت الأرض نحو الجنوب ، حتى تقل كميته السنوية فى المناطق الجنوبية عن 50 مليمتر ، وتكثر سنوات الجفاف ، ويقدر أن يقع عام ممطر بين ست أو سبع سنوات عجاف .

وتشتد الحاجة الى المياه فى المملكة الليبية نظراً لقلة المطر ، سواء مياه العيون أو مياه الآبار ، لأنها ضرورية لاستقرار السكان وازدهار العمران ونمو الزراعة ، ولا توجد أنهار ولا أودية يجرى فيها الماء بصفة مستمرة الا فى الجبل الأخضر ، وفى جبال ولاية طرابلس ، وهى أودية ضعيفة قصيرة تغذيها مياه المطر فى فصل الشتاء والينابيع فى بقية الفصول ، وينصب بعض الأودية شمالا فى البحر ، وبعضها يغيض جنوباً فى رمال الصحراء ، وفى ولاية طرابلس توجد مياه جوفية على شكل آبار عادية وآبار ارتوازية وعيون ، فالأولى كثيرة بولاية طرابلس ، ويعتمد عليها بالدرجة الأولى فى الانتاج الزراعى ، ولا يزيد عمق الطبقة التى بها هذه الآبار عن بضعة أقدام ، وهى المورد الرئيسى للماء على طول الساحل خصوصاً فى منطقة الكثبان ، وهناك طبقة أخرى تمتد الى عمق 20 — 25 متراً ومياهها أغزر وأقل ملوحة ، وأنقى من الطبقة السطحية الأولى ، وهى التى تمد بمياه الشرب مدينة طرابلس ومعظم مدن ولايتها . وتساهم بالنصيب الأكبر فى عمرانها وتعين على التنمية الزراعية فى بعض المناطق مثل سهل جفارة . والثانية بدىء بحفرها حديثاً ، ويصل عمق البئر الى 300 م وانتاجه 125 متراً مكعباً فى الساعة ، وهى كمية تكفى لسقى 16 هكتاراً ، وليس عدد هذه الآبار الأرتوازية كثيراً ، فهو لا يتجاوز فى ولاية طرابلس 120 بئراً ، لأن الحفر يستلزم نفقات طائلة ، الشىء الذى لا تطيقه الا الحكومات والهيآت التعاونية . أما العيون فيوجد معظمها فى قيعان الأودية والحافات الجبلية ، ومياهها أصلح للشرب من مياه الآبار ، لكنها تقوى وتضعف بحسب السنين التى يكثر فيها المطر أو يقل .

عدد سكانها

ويبلغ سكان المملكة الليبية 1.620.000 نسمة ، وهم جميعاً مسلمون ديناً عرب لغة ، وفي ليبيا جوالى عربية معدودة من أهلها وأخرى غير عربية يتكون معظمها من بقايا المستعمرين الايطاليين (حوالى 45.000 سنة 1960) .

أقسامها الادارية

وتنقسم المملكة الليبية الى عشر محافظات : طرابلس ، وبنغازى ، وسبها ، وصبراتة ، والزاوية ، والبيضاء ، وغريان ، والخمس ، ودرنة ، ولوبارى ، وتشتمل كل محافظة على عدد من المتصرفيات ، وفى كل متصرفية عدد من الدوائر البلدية والقروية .

انتاجها الزراعي

والزراعة فى المملكة الليبية هى المورد الوحيد لعيش سكانها ، والمورد الرئيسى لخزينة الدولة قبل ظهور النفط . ولا تنبت الأرض الا فى الجبل الأخضر ببرقة والمناطق المشاطئة للبحر من ولاية طرابلس ، وبين الولايتين منطقة قاحلة تمتد من خليج سرت 500 كلم الى الجنوب ، وهى تكون حاجزاً طبيعياً وبشرياً لا بين الولايتين فحسب ، ولكن بين المغرب العربى والمشرق العربى أيضاً . كما تمتد خلف الجبل الأخضر والشريط الساحلى الخصب أراض قاحلة الى اللانهاية ، وقد قدر سنة 1951 انه من بين 174 مليون هكتار لا توجد الا أربعة صالحة للزراعة في ولاية برقة ، و 10 فى ولاية طرابلس ، وأن هناك نحو 200 ألف هكتار مغطاة بالأشجار والأحراج ، و7 ملايين هكتار صالحة للرعى .

والشريط الساحلى تمكن زراعته على المطر شتاء ، ولكن لابد أن يسقى من الآبار صيفاً ، وفى ولاية طرابلس يزرع 1.200.000 هكتار قمحاً

وشعيراً ، وتنبت فى هذه المساحة الأشجار التى تنبت عادة حول حوض البحر الأبيض المتوسط كالزيتون والكرم والتين والمشمش واللوز والبرتقال والليمون ، وكثيراً ما تزرع الحبوب والخضر بين الأشجار ، وقد ترك المعمرون الايطاليون بعد انسحابهم من ليبيا مزارع تبلغ مساحتها 200 ألف هكتار تستغل استغلالا آلياً عصرياً ، وتستنبت فيها بعض النباتات الصناعية كالطابا والأشجار الخشبية .

وبجانب الزراعة يشتغل جانب من السكان بالرعى وتربية الأغنام .

ومهما كانت الجهود المبذولة فى الميدان الزراعى فانه ليس من المنتظر حصول تنمية زراعية تلبى احتياجات السكان فى القريب العاجل .

ثروتها المعدنية

وكانت الثروة المعدنية فى ليبيا محدودة الى عهد قريب لا تتعدى الفوسفات والملح ، ولكن عوض هذا النقص ظهور البترول سنة 1958 فى ولاية فزان أولا ثم فى مناطق أخرى من ولاية طرابلس بعد ذلك ، ويتمتع بترول ليبيا بمزايا عديدة كوفرة احتياطيه وقربه من الساحل وأن آباره غير عميقة .

وتقوم بالبحث عنه واستثماره شركات أجنبية عديدة تخضع كلها لقانون البترول الليبى الذى ينص على أن تقتسم الأرباح بينها وبين الحكومة مناصفة ويحتم دفعها العوائد والرسوم الجمركية على ما تستورده من مواد وأدوات مع استثناءات بسيطة ، الشيء الذى يرفع مستفاد الحكومة الليبية الى 70 ٪ من أرباح الشركات . ولا شك ان هذه الثروة البترولية الطائلة أصبحت ذات تأثير عظيم فى تطور المجتمع وتنمية الاقتصاد وارتفاع مستوى العيش فى ليبيا ، كما صارت مورداً فياضاً يدر على خزينتها أموالا طائلة تغنيها عن طلب السلف من الدول الأجنبية مقابل غض الطرف عما لها من قواعد عسكرية فى ترابها . وقد مكنت هذه الثروة حكومة ليبيا أن تتخذ

قرارات جريئة بعد الاعتداء اليهودى على الأقطار العربية يوم الاثنين 5 يونيو 1967 ، فمنعت تصدير البترول الى الدول التى ساندت العصابات اليهودية فى عدوانها . وطلبت افراغ القواعد العسكرية الانكليزية ــ الأمريكية المقامة فوق التراب الليبى .

وقد دلت الأبحاث التى أجريت فى طول ليبيا وعرضها على وجود رواسب للحديد فى وادى الشاطىء بفزان ، ورواسب كثيرة من الجبس فى سهل جفارة ، ورواسب النترون الى جانب البوتاس فى مرادة بصحراء سرت ، كما اكتشف الكبريت والمنغنيز وفحم الاجنيت وحجر الشب والزجاج وكربونات السودة فى جهات كثيرة .

صناعتها

والصناعة الليبية ضعيفة جداً تكاد تنحصر فى الصناعات البسيطة التى تلبى الاحتياجات المنزلية والغذائية ، كعصر الزيتون واستخراج الملح ودبغ الجلد ونسج الزرابى والأغطية الصوفية وتعليب السمك وعصر الفواكه .

تجارتها الخارجية

وكان ميزان التجارة الخارجية غير متعادل الى سنوات قليلة ، ففى سنة 1960 قدرت الواردات بـ 59.000.000 ليبره سترلينية ، والصادرات بـ 4.000.000 ليبرة سترلينية فقط ، ولكن الميزان انقلب رأساً على عقب بعد ذلك ، وسجلت كفة الصادرات رجحاناً كبيراً ، حتى حققت ليبيا سنة 1964 فائضاً فى ميزانها التجارى يقدر بـ 140.000.000 ل . س بالنسبة لمنطقة السترلينى ، و 3.000.000 ل س بالنسبة لمنطقة الدولار ، و 133.000.000 ل . س بالنسبة لمناطق العالم الأخرى ، مع العلم بأن هذه التقديرات يستبعد منها واردات شركات البترول .

وأهم صادرات ليبيا البترول الذى تبلغ نسبته 99 ٪ من مجموع الصادرات ، وزيت الزيتون ، والفول السودانى ، والجلد ، والصوف والشعر

وبذور الخروع والبرتقال والاسفنج ، وأهم الأقطار التى تصدر اليها هى ألمانيا الغربية وانكلترا وايطاليا وهولاندا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . اما أهم الواردات فالسيارات والأدوات الكهربائية وأنابيب الصلب والحديد التى تستعمل فى استثمار البترول ، والمواد الغذائية والملابس ، وأهم الأقطار المستورد منها هى الولايات المتحدة الأمريكية وايطاليا وأنكلترا وألمانيا الغربية .

طـرقها

ويقع معظم المدن الليبية على الساحل ، وتربط بعضها ببعض شبكة من الطرق الجيدة ، كما تمتد الطرق الى مرزوق مقر السلطة بفزان ، والى مدن الجبل الأخضر ، وبها مراسى كبيرة ومطارات عظيمة لا تنقطع حركتها ، ومن أشهر مدنها طرابلس الغرب التى هى عاصمة المملكة ومرساها الأول ، ويبلغ سكانها 200.000 نسمة ، وبنغازى مقر السلطة باقليم برقة ، ومسراته ، وسرت ، وطبرق ، وبالداخل واحات غات وغدامس باقليم طرابلس ، وواحات جغبوب والكفرة باقليم برقة ، وواحات سبها ومرزوق وودان باقليم فزان .

نظامها

وليبيا دولة ملكية دستورية ، أعلنت استقلالها فى 24 دجنبر سنة 1951 بعد نضال طويل خاضه شعبها الأبى بشجاعة واستماتة لاستخلاص حريته من يد المستعمر الغاصب ، وهى عضو فى منظمة الأمم المتحدة وسائر المنظمات الأممية الجهوية . وملكها هو صاحب الجلالة الملك ادريس الأول السنوسى المولود بزاوية جغبوب من اقليم برقة يوم الجمعة 12 مارس سنة 1890 م (30 رجب عام 1307 هـ) .

2) الجمهورية التونسية

موقعها وحدودها

تقع الجمهورية التونسية التي هي الشطر الغربي من المغرب الأدنى بين خطي العرض 30 و 37 شمال الاستواء ، وخطي الطول 5 ، 7 و 5 ، 11 شرق كرينويتش ، ويحدها البحر المتوسط وليبيا والجزائر من جميع الجهات ، وهي قريبة من أوربا لا يفصلها عنها الا مضيق صقلية الذى لا يتجاوز عرضه 137 كلم .

مساحتها

وتبلغ مساحتها 125.180 كلم مربع .

سطحها

ويمكن تقسيم سطح القطر التونسي أفقياً على أساس مرتفعات غربية وسهول شرقية ، ولكن يظهر من المناسب تقسيمه عمودياً الى خمسة أقسام :

1 ـ المنطقة الجبلية ، وتقع في الشمال الغربي والغرب ، وهي في الحقيقة بقية الجبال الجزائرية ، وتمتد جبالها من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ويبلغ متوسط الارتفاع فيها 700 م ، لكن علو الجبال يتجاوز شمالا 1.000 م في جبال الخمير وتبرسق ، ويصل الى 1.544 م جنوباً في جبل الشعانبي .

وتتعامد هذه الجبال في الشمال الشرقي حتى تصبح من أكبر عوامل حماية المراسي الواقعة فيه ، وتحصر بينها وبين البحر سهلا ضيقاً لا يتسع الا حول خليج تونس ، كما تحصر بينها سهولا مرتفعة مثل سهل سرس ، وتبدأ الجبال في الانخفاض كلما اتجه الانسان شرقاً .

وينبع من هذه المنطقة وادى مليان الذى يصب جنوبى تونس .

ب ـ المنطقة السهلية وهى واقعة الى الشرق على ساحل البحر ، وتسمى اقليم الساحل ، ويبلغ طولها 300 كلم وعرضها يتراوح بين 20 و 80 كلم . والتربة فى هذه المنطقة مستوية خصيبة ، ويوجد بها سبخات قليلة .

ت ـ منطقة النجود العليا ـ وتقع خلف المنطقة السابقة ، وفيها جهات منخفضة وأخرى مرتفعة غرباً ، وتنحدر منها أودية ذات تصريف داخلى مثل وادى مرسالة ووادى زرود ، وفى هذه المنطقة كانت توجد طرق المواصلات العتيقة الرابطة عبر القيروان وسبيطلة بين سواحل البحر الأبيض المتوسط وسهول اقليم قسنطينة .

ث ـ منطقة الشطوط وتقع الى الجنوب من المنطقتين السابقتين ، وتنخفض الأرض فيها الى مستوى سطح البحر بالقرب من الحدود التونسية ـ الجزائرية ، فتكون بحيرات ومستنقعات واسعة تدعى الشطوط من أهمها شط الجريد ، وشط الغرسة ، وشط فجاج ، وفى شرق هذه المنطقة توجد مرتفعات مطماطة التى تتحول الى كثبان فى الصحراء .

ج ـ والى الجنوب من هذه المنطقة الأخيرة توجد الصحراء الفسيحة الخالية الا من حراس الأمن ومراقبى الحدود ، لكن توجد فى غربها سلسلة جبلية تدعى جبال القصور (جبل الدويرات 662 م) وتمتد هذه الجبال على شكل هلال عبر الحدود التونسية ـ الليبية وتنتهى بجبل نفوسة فى اقليم طرابلس ، وبينها وبين البحر المتوسط ينبسط سهل جفارة الشهير .

ساحلها

ويبلغ طول الساحل التونسى على البحر الأبيض المتوسط 1.200 كلم وهو على العموم صخرى فى الشمال رملى فى الشرق ، وتحاذيه فى الشمال سهول ضيقة تقطعها تضاريس تتيح للسفن من الرأس الأبيض الى رأس أدار (الطيب) ملاجىء أمينة فى كل الأوقات ، ومن هذه الجهة تسربت

حضارة الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط الى بلاد المغرب ، وبعد ذلك ينفتح خليج الحمامات الجميل ، وتمتد جنوبه من السلاسل الجبلية الوسطى نتوءات صخرية ساعدت على اقامة مراسى أمينة بسوسة ومنستير والمهدية وصفـاقس .

والى الجنوب من ذلك ينفتح خليج قابس الذى تحاذيه سهول منخفضة خالية من التضاريس ، والساحل هنا غنى بأسماكه ، ويحتضن جزائر قرقنة وجزيرة جربة القريبة من البر .

طـقسها

ويختلف الطقس فى شمال تونس عنه فى وسطها وجنوبها ، وهو يشبه الى حد كبير طقس الجزائر الشرقية ، ويزيد عليها بالارتفاع الذى يجلب أمطاراً غزيرة جداً ، وتمتد فى شمال الجبال التونسية منطقة ممطرة واسعة تصل كمية المطر النازلة على عين الدراهم منها الى 1.698 ملم ، أما فى السفوح الجنوبية لتلك الجبال فان الطقس الصحراوى هو الغالب ، ولكن ذلك لا يمنع تونس الوسطى من تلقى كميات وفيرة من المطر (الكاف : 543 ملم) ، والى الجنوب من ذلك تهب الرياح الجافة بكثرة ، وتكون هذه الرياح شديدة اذا هبت مباشرة من الجنوب ، وعندما تهب ريح السموم يرتفع ميزان الحرارة أحياناً الى الدرجة 50 فى تونس العاصمة ، ولا تتلقى منطقة الساحل كميات من المطر أوفر مما تتلقاه المناطق الداخلية ، ولكنها تستعيض عن قلة المطر (200 ــ 400 ملم) بجو رطب نظراً لقربها من البحر ، وليست الأيام الممطرة كثيرة فى بقية البلاد (79 يوماً فى تونس العاصمة) والأمطار الغزيرة تنزل عـادة فى شهر نوتبر ، وفى شهر يناير ويبراير ، وقـد ينجم عنها سيول وفيضانات عارمة ، ومع ذلك فان العادة قد تتخلف ، وهذا ما يجعل ضبط الشؤون الزراعية وتقدير المحاصيل الفلاحية أمراً عسيراً .

نباتها

ويتبع النبات الطقس فى كل الجهات ، فهو متوسطى فى سفـوح السلاسل الجبلية ، وتمتد فوق جبال الخمير غابات كثيفة جميلة تصل الى

الجهات القريبة من بنزرت ، والى الجنوب من تلك الجبال توجد المنطقة الوسطى التى تشتمل على جهات تنتشر فيها أشجار وأخرى تنتشر فيها نباتات ضعيفة ، وفى بعضها كدى خصيبة يغطيها الكرم والزيتون ، ولكن سرعان ما يبدأ الخصب فى النقصان والقحولة فى الزيادة كلما اتجه الانسان نحو الجنوب حتى ينعدم النبات بالكلية عند ظهور الصحراء ، ولا ترى خضرة الا فى واحات مبثوثة هنا وهناك .

عدد سكانها

وبلغ عدد سكان تونس سنة 1965 ـ 4.675.000 نسمة ، يدينون بالاسلام ويتكلمون اللغة العربية ، وهم ينمون بمعدل 3 ٪ كل سنة ، وقد كان عدد الأجانب واليهود كثيراً ، ولكنهم قلوا بعد استرجاع الاستقلال واجلاء القوات الأجنبية .

أقسامها الادارية

وتنقسم الجمهورية التونسية الى ثلاث عشرة ولاية ، هى ولايات تونس ، وباجة ، وبنزرت ، وجندوبة ، والكاف ، ومدنين ، ونابل ، وصفاقس ، وقابس ، والقصرين ، وقفصة ، والقيروان ، وسوسة ، وتنقسم كل ولاية الى معتمديات تشتمل كل واحدة منها على عدد من الدوائر البلدية والقروية .

إنتاجها الزراعي

والقطر التونسى ـ مثل سائر الأقطار المغربية ـ هو قطر زراعى قبل كل شيء ، وتعتبر الحبوب والزيت والخمر من أهم منتجاته ، يضاف اليها بعض المصنوعات العصرية والعتيقة ، والانتاج المعدنى وفى مقدمته الفوسفات .

وتبلغ المساحة المنزرعة 8.500.000 هكتار أى ما يعادل 72 ٪ من مجموع مساحة الأرض التونسية ، ولكن المزروع منها لا يعدو الثلث (2.800.000 هـ) .

وأكثرية الأراضي التونسية ملك للقبائل والأحباس والدولة ، ولا يملك الأفراد منها الا القليل ، فبينما تبلغ مساحة الأملاك المشاعة بين القبائل ، والأملاك المحبسة على المساجد وأملاك الدولة 4.400.000 هكتار (القبائل : 2.800.000 هـ + الأحباس : 1.200.000 هـ + الدولة : 400.000 هـ) لا يملك الأفراد الا 1.600.000 هكتار .

وقد اتخذت الحكومة التونسية عدة تدابير في ميدان الاصلاح الزراعي ، واعتبرت الملكية الزراعية على الخصوص وظيفة اجتماعية ، فنزعت ملكية الأراضي من ملاكها المهملين . واستردت من المعمرين الفرنسيين الأراضي الخصبة الشاسعة التي كانوا يملكونها والبالغة مساحتها 600.000 هـ ووضعتها بين أيدي الفلاحين الوطنيين .

كما بذلت مجهوداً كبيراً في ميدان السقي وافادة التربة التونسية من جميع الكمية المطرية النازلة كل سنة ، فهناك سد بني مطير المقام على وادي مجردة والذي يستطيع خزن 75.000. 000 متر مكعب من الماء ، ويمون العاصمة التونسية بـ 100.000 متر مكعب من الماء النقي الصالح للشرب ، وهناك سد ملاق الذي يستطيع خزن 300.000.000 متر مكعب من الماء ، بالاضافة الى عدد آخر من السدود الصغيرة المبنية فعلا أو هي في طريق البناء ، ومشروع استصلاح وادي مجردة الذي سيمكن من الانتفاع من 60.000 هـ واقعة على الوادي المذكور .

ويتعاطى زراعة الحبوب أكثر الفلاحين التونسيين في مساحة تبلغ 1.300.000 هـ ولكن الصابة منها غير منتظمة ، ففي بعض السنين تبلغ الصابة من القمح 4.000.000 قنطار لا يتجر الا في الثلث منها . وفي سنين أخرى لا تبلغ الا مبلغاً ضئيلا ، فلذلك صار لزاماً على الدولة أن تجلب القمح من الخارج لمواجهة الاستهلاك السنوي الذي لا يقل عن 1.500.000 قنطار ، واعداد الزريعة الضرورية للفلاحين . ومثل ما قيل عن صابة القمح يقال عن صابة الشعير التي تصل هي أيضاً في السنوات

الطيبة الى 4.000.000 قنطار . وتكاد زراعة الحبوب في الضيع التي كانت بأيدي الأجانب تعطي غلات مماثلة للغلات التي تعطيها زراعة الحبوب في الأراضي الأخرى ، مع أن المساحة المخصصة لزراعة الحبوب من تلك الضيع لا تتعدى 230.000 هـ ويرجع السبب في ذلك الى جودة التربة من جهة ، وقوة الوسائل الآلية والتقنية المستعملة في استثمارها من جهة أخرى .

وتنتشر بساتين الدالية في المناطق السهلية ، لاسيما في الجهات القريبة من تونس والوطن القبلي ، وكانت غراستها وقفاً على المعمرين الأجانب، كما كانت المساحة المغروسة كرماً تبلغ 36.000 هـ سنة 1954 ويعصر العنب التونسي فيعطي خمراً قوياً ، ويبلغ متوسط الصابة السنوية منه 650.000 هيكتولتر ، ولكن شهرته شهرة محلية ، ويجد المسؤولون صعوبات كبيرة في تصديره الى الخارج ومزاحمة الخمور الأخرى به في الأسواق العالمية .

وبالاضافة الى المساحات المغطاة بدالية الخمر توجد 4.000 هكتار مغروسة بالدالية التي تغل العنب المعد للأكل ، وبساتين هذا النوع من الدالية منتشرة برفراف قرب بنزرت ، وبالوطن القبلي خاصة بين نابل ومنزل أبي زريعة والحمامات ، وبالقرى التي تحيط بالعاصمة مثل سكرة ومرناق ومنوبة .

والزيتون من أكبر ثروات تونس الطبيعية ، وهو مغروس في كل جهة ، خاصة في الشرق والشمال الشرقي ، وقد تضاعفت أشجاره مرات عديدة منذ نحو مئة سنة حتى تجاوزت الآن 26.000.000 شجرة ، ومنه غابات عتيقة بالمنطقة التلية ترجع الى ما قبل الاسلام ، وأخرى حسنة بالساحل ، وثالثة بديعة بناحية صفاقس حيث تستعمل أحسن الطرق العصرية للغرس والتعهد والاستثمار ، وتبلغ المساحة التي تغطيها أشجار الزيتون 700.000 هـ ، ويقدر متوسط صابة الزيتون بـ 400.000 طن في السنة تعطي 80.000 طن من الزيت أكثر من 60 ٪ منها زيت جيد صاف صالح للطبخ وترتب تونس في الدرجة الخامسة بين الدول المنتجة للزيت ، والثانية بين الدول التي تصدره ، ولكنها تحتل المرتبة الأولى من حيث جودة النوع ، لأن

معاصر الزيت التى تفوق الألفين هى فى غالبيتها فى النوع الجيد المجهز أحسن تجهيز .

وتكثر فى الجهات القريبة من تونس — العاصمة زراعة الخضر والفواكه وتقل فى غيرها، وتوجد بشط الجريد غابات نخل يبلغ عدد أشجارها 2.500.000 ، منها 500.000 نخلة تنتج من التمر النوع المعروف بدكلة النور ، وهو من ألذ التمر وأحلاه ، وتصدر منه تونس 3.000 طن فى كل سنة .

وليست للزراعة الصناعية الا أهمية ثانوية ، والغابات تغطى 1.096.212 هـ ويقطع شجرها فيستخرج منه الخشب وعوارض السكك الحديدية ، وأعمدة المناجم ، وكميات من الفرشى بلغ ما صدر منه سنة 1955 خاماً ومصنوعاً 10.299 طن قيمتها 696.000.000 فريك ، أما الحلفة فهى تغطى 1.200.000 هـ ، ومنذ اكتشف فنى انكليزى سنة 1864 أنه يمكن صنع الكاغيط منها صارت انكلترا أكبر مستورد لها ، وتختلف الصابة منها باختلاف السنوات ، ويرتفع الصادر منها وينخفض تبعاً لذلك ، وقد ارتفعت الكمية المصدرة منها سنة 1951 الى 171.000 طن ، ثم انخفضت سنة 1955 الى 50.000 طن فقط .

وتربية الماشية من أهم قطاعات الاقتصاد التونسي ويحل انتاجها الرتبة الثانية فيه بعد انتاج الحبوب وقبل انتاج الزيتون والمناجم بكثير ، وتقدر قيمة الغنم وحده بستين مليار فرنك ، لكن بدأ يلاحظ نقصان تدريجى فى عددها يعزى السبب فيه من جهة الى استقرار القبائل وتخليها عن عادة الانتجاع ، والى تقلص مساحة المراعى أمام مساحة الزراعة من جهة اخرى ، وفى سنة 1954 كان يوجد بالقطر التونسى 3.215.000 رأس من الغنم ، و 2.000.000 رأس من المعز ، و 456.000 من البقر ، و 150.000 من الابل ، و 120.000 من الخيل ، و 57.000 من البغال ، و 200.000 حمار ، لكن أهمية هذه الأخيرة بدأت تتضاءل بسبب انتشار الوسائل الآلية المستعملة فى الأشغال الزراعية والنقل .

والصيد البحرى هو أيضاً قطاع اقتصادى مهم ، وتساعد الطبيعة فى الشواطىء التونسية ولا سيما فى خليج قابس والساحل الشرقى عموماً على توالد السمك بكثرة ووجود أنواعه العديدة . وتنتشر فى عرض البحر أمام الشاطىء زوارق أسطول الصيد التى تعود فى كل خرجة بصيد وفير ، كما تقطع من قعر البحر كميات من الأسفنج تقدر بنحو 200 طن فى السنة يصدر معظمها الى الأقطار الصناعية الكبرى مثل فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية .

ثروتها المعدنية

وتحتل الثروة المعدنية المرتبة الثانية فى الاقتصاد التونسى من حيث الأهمية بعد الثروة الزراعية التى تحتل بالطبع المرتبة الأولى ، وقد أدى اكتشاف عدد من المعادن واستغلالها منذ أواخر القرن الماضى الى ادخال تطور كبير على الحياة الاقتصادية بالقطر التونسى ، كما أدى الى انتشار السكك الحديدية التى تذرع البلاد طولا وعرضاً لنقل المواد المعدنية الى المراسى حيث تشحن فى البواخر الى المصانع بأوربا وأمريكا .

ويوجد خام الحديد بالقرب من سلاتة على الحدود الجزائرية ، ونفزة بالقرب من بنزرت ، ويصدر منه سنوياً نحو 100.000 طن ، يوسق معظمها الى انكلترا ، وقد بلغ الانتاج منه 1.057.046 طن سنة 1955 ، كما بلغ انتاج الرصاص 42.902 طن ، وانتاج الزنك 9175 طن، ويستخرج من التربة التونسية أيضاً كميات ضئيلة من البيريت والباريت والفلورين، ويستخرج ملح الطعام من ملاحات صفاقس وسوسة والمنستير ومقرين ، وتصدر الى الخارج أربعة أخماس الكميات المستخرجة التى بلغت 165.000 طن سنة 1955 ، أما الفوسفات الذى يوجد فى جهات عديدة من وسط تونس وجنوبها فانه يحتلها الرتبة الرابعة بعد الولايات المتحدة والمملكة المغربية والاتحاد السوفياتى — بين البلدان التى تنتجه ، وأكبر مناجمه موجود قرب قفصة والمتلوى ، ويصدر أكثره من مرسى صفاقس ومرسى سوسة الى فرنسا وانكلترا وايطاليا وغيرها . ويقدر الانتاج التونسى من الفوسفات بعشر الانتاج العالمى ، وقد بلغت الكمية التى صدرت 2.500.000 طن سنة 1957 ثمنها 6 ملايير فرنك قديم .

وتقدر صادرات تونس من المعادن بـ 80 ٪ من مجموع صادرتها ومبيعاتها منها بـ 25 ٪ من مجموع مبيعاتها للبلاد الأجنبية ، وتتراوح قيمة المصدر سنوياً منها بين 10 و 15 مليار فرنك قديم، ويسهم الحديد والفوسفات وحدهما بـ 50 ٪ من مجموع الانتاج .

ونظراً لما للمعادن من أهمية فى تطور البلاد أنشأت الحكومة التونسية سنة 1962 الديوان القومى للمناجم ، وأناطت به مهمة البحث عن المعادن والتنقيب عنها ، وقد اكتشفت مناجم الفلورين ، كما تبذل جهود للبحث عن النحاس والمنغنيز والبوتاس والزئبق، فضلا عن البترول الذىاكتشف بالجنوب.

صناعتها

والصناعة العصرية فى تونس ما زالت فى طريق النمو ، وقد سبب تخلفها فى الماضى الحكم الأجنبى الذى كان يحرص على بقاء تونس قطرا زراعياً كما قلل من نموها انعدام القوى المحركة ، وتوجد صناعات محلية تعتمد على المنتجات الموجودة فى البلاد مثل الفوسفات ، والصناعات الخاصة باعداد مواد البناء كصناعة الاسمنت الذى تصدر منه تونس سنوياً 200.000 طن ، والصناعات الغذائية كمطاحن الحبوب ومعاصر الزيتون والعنب ، ومعالب اللحم والسمك والفاكهة . وهناك صناعات تعتمد على المواد المستوردة من الخارج كمصانع طابا الذى يزرع محلياً على قلة ، ومصانع الغزل والنسيج التى تلبى ربع الاحتياجات المحلية ، ومصانع الأحذية والمواد الكيماوية والصباغات والمنتجات الزراعية ، وكلها صنائع صغيرة يقصد بها مواجهة الحاجيات المحلية بالدرجة الأولى لا التصدير الى الخارج .

والى جانب الصنائع الميكانيكية العصرية توجد بتونس صناعات يدوية عتيقة اشتهرت بجمالها ولطافتها كصناعة الزرابى والنسيج والفخار التى بدأت تنتعش فى السنين الأخيرة بعد شعور الناس بنفاستها وضرورة تشجيعها لأنها مظهر من مظاهر حضارتهم العريقة .

وقد أحصى بتونس 23.000 معمل للصناعة العتيقة ، منها 8.800 معمل للنسج ، و 4.800 لصنع الثياب ، 2.200 لصنع الجلد ، و 3.300 لصنع الخشب ، و 500 للصناعات الفنية ، وتشغل هذه الصناعة 90.000 صانع يضاف اليهم 50.000 من الصناع يخدمون ببيوتهم ، فيكون مجموع الصناع التقليديين مئة وخمسين ألفاً .

والصناعة السياحية هي سائرة بدورها في طريق النمو والازدهار ، وقد بلغ عدد السواح 218.817 سائحاً سنة 1965 أى بزيادة 32 ٪ بالنسبة لعددهم في السنة التى سبقتها ، وبلغ مستفاد تونس من الحركة السياحية في تلك السنة 27 مليون دولار .

وقد أخذت تونس بمبدأ التخطيط ، واستعانت بما تسلفه اياها الدول الأجنبية الصديقة . وبلغ ما اقترضته منها 138 مليون دينار خلال سنتى 1960 — 1961 .

تجارتها الخارجية

وتصدر تونس الى الخارج منتجاتها الزراعية والمعدنية بالدرجة الأولى ، ثم مصنوعاتها العصرية والأخرى ذات الطابع الفنى العتيق ، وتستورد ما تحتاج اليه من مواد مصنوعة ، ويسجل ميزانها التجارى عجزاً لزيادة قيمة الواردات على قيمة الصادرات .

وأكثر التجارة الخارجية لتونس يجرى مع فرنسا وأقطار امبراطوريتها السابقة ، وكانت فرنسا الى سنة 1958 تحتكر 66 ٪ من الواردات و 51 ٪ من الصادرات ، ولكن المسؤولين التونسيين يسعون جادين فى فتح أسواق لمنتوجاتهم بكل الأقطار ، والتعامل مع الدول على أساس المساواة ومراعاة المصالح التونسية .

وقد بلغ حجم التجارة الخارجية لتونس سنة 1953 — 99 مليار فرنك ، منها 60 مليار قيمة الواردات (48 مليار من منطقة الفرنك + 3 مليار من منطقة

الدولار + 2 مليار من منطقة السترلينى) ، و 39 مليار قيمة الصادرا (26 1/2 الى منطقة الفرنك + 5 مليار الى منطقة السترلينى) .

ويبين الجدول التالى أنواعاً من الصادرات والواردات التونسيـ وقيمتها بملايير الفرنك سنة 1957 .

الـــواردات		الـصـــادرات	
نوع السلعة	القيمة بملايير الفرنك	نوع السلعة	القيمة بملايير الفرنك
السكــر	3	زيت الزيتون	7 ، 9
مصنوعات حديدية	3	خمـر	6 ، 7
قمـــح	3	فوسفـات	5 ، 9
منتوجات قطنية	2 ، 9	حــديـــد	4 ، 5
بتـرول	2	قمـح	3 ، 9
ملابـس	2	رصـــاص	2 ، 7
شــاى	1 ، 9	اسمنت	1 ، 6
		اسبارتـو	11

ويلاحظ ان السكر كان يحتل مكانة كبيرة سنه 1957 فى واردا تونس ، ولكن الحكومة التونسية أنشأت مصنعاً للسكر بباجة دشن يوم ؛ يوليوز 1962 تبلغ طاقته الانتاجية 20.000 طن من السكر المستخلص مـ الشمندر السكرى الذى تغطى زراعته مساحة تقرب من 6.000 هـ .

والمصنوعات تمثل أهم الواردات ، ولفرنسا ــ بحكم ارتباطها ، تونس فى الماضى ــ مكان الصدارة من بين الدول التى تجلب منها تونـ وارداتها تليها ايطاليا ثم الجزائر ثم بريطانيا العظمى .

وقد بلغت قيمة الصادرات 150 مليون دولار سنة 1960 تبلغ نسبة الخمر فيها 40 ٪ والزيت 32 ٪ والفوسفات 14 ٪ والحديد 6 ٪ والرصاص 5 ٪ والفحم 1 ٪ .

وتتعامل تونس مع مجموعة بلدان السوق الأوربيــة المشتركــة ، فتستورد منها مواد مصنوعة ونصف مصنوعة ، كالملابس والثياب والمصنوعات الحديدية وأدوات التجهيز ، وتصدر اليها الحديد والفوسفــات والرصــاص والمنتجات الزراعية .

ومعظم التجارة التونسية يجرى عن طريق البحر ، وتتلقى مدينة تونس وحدها ثلاثة أرباع الواردات ، وهى أهم مدينة تجارية ، ومركز جميع الأبناك ، ومقر أكثر الشركات والوكالات التى تعنى بشؤون الاقتصاد .

طــرقها

وترتبط مدن تونس وأقاليمها بشبكة جيدة من الطرق السيارية والقطارية ، ويبلغ طول السكك الحديدية 2038 كلم ، منها 1538 كلم تملكها الدولة ، و 500 كلم تملكها الشركات المستثمرة للفوسفات ، وتمتد هذه السكك الى الجزائر والمغرب الأقصى حتى مراكش وطنجة غرباً ، ولكنها تقف جنوباً عند قابس فلا تصل الى المملكة الليبية .

وبتونس عدد من المطارات التى تنتظم منها أسفار داخلية وأخرى دولية ، من أشهرها مطار العوينة بتونس الذى هو من أهم مراكز الاتصال الجوى بين أوربا وافريقيا ، والأقطار الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط والأخرى الواقعة فى غربه .

كما تقوم السفن التجارية بأسفار منتظمة بين الشواطىء التونسية والشواطىء الأوربية .

نظامها

وقد استعادت تونس سيادتها وحريتها سنة 1956 واضطرت بنضالها المستميت القوات الفرنسية الى الجلاء عن القواعد التى كانت تحتلها بترابها سيما قاعدة بنزرت العظيمة سنة 1963 ، ونظامها جمهورى دستورى رئاسى منذ سنة 1957 ، ورئيسها الحالى هو صاحب الفخامة السيد الحبيب بن محمد بورقيبة المولود بمدينة المنستير يوم 3 غشت سنة 1902 .



المغربُ الأوسَط

(الجمهوريــة الجزائريــة)

موقعها وحدودها

المغرب الأوسط ــ أو الجزائر ــ هو قلب البلاد المغربية ، يقع بين خطى العرض 19 و 15 ، 37 شمال الاستواء ، وخطى الطول 10 شرقى كرينويتش و 2 غربيه ، ويحده من الشرق المغرب الأدنى (تونس ــ ليبيا) ، ومن الغرب المغرب الأقصى ، ومن الجنوب الصحراء الكبرى ، ويطل من الشمال على البحر الأبيض المتوسط بساحل بديع يبلغ طوله 1200 كلم .

مساحتها

وتبلغ مساحة القطر الجزائرى 2.191.000 كلم مربع ، منها 327.000 كلم فى الأقاليم الشمالية ، و 1.864.000 كلم فى الأقاليم الجنوبية .

ساحلها

ويمتد الساحل الجزائرى على خط مستقيم من الحدود التونسية الى الحدود المغربية ، وهو صخرى تترامى عليه الأمواج مرغية مزبدة ، وليس به خلجان عريضة ولا جزر مهمة ، والمراسى الطبيعية غير موجودة فيه ، وقد بذلت جهود عظيمة لحفرها وحمايتها بسدود صناعية تجعلها فى مأمن من التيارات القوية والرياح العاصفة التى تهب من مضيق جبل طارق ، واكثرها محفور

وسط خلجان صغيرة محمية صناعياً أو على جوانبها اليسرى ، تأميناً للسفن الراسية فيها من أخطار تلك التيارات والرياح .

سطحها

وسطح الأرض الجزائرية مرتفع في مجموعه ، ولكن ليس به من الجبال العالية ما بالمغرب الأقصى ولا من السهول المنخفضة ما بتونس ، فأعلا قممه لا يزيد ارتفاعها على 2327 م ، وأكبر سهوله لا تزيد سعتها على 50 كلم ، واذا ألقى الانسان نظرة على مسطح القطر الجزائرى من الشمال الى الجنوب وجده يشتمل على منطقة تلية في الشمال تتكون من سهول وجبال ، ومنطقة نجدية في الوسط يجاوز ارتفاعها 800 م فوق سطح البحر ، تليها منطقة صحراوية تشتمل أيضاً على جبال جرداء ، وسهول رملية قاحلة ، ومرتفعات صخرية صلدة في أقصى الجنوب .

وتعتبر جبال المنطقة التلية ــ بما فيها الجبال الساحلية والأخرى الداخلية ــ امتداداً لسلاسل جبال المغرب الأقصى ، وهى ترتفع بصورة واضحة في شرق الجزائر وغربها ، ففي الشرق ترتفع جبال الجرجرة والبابور والبيبان، ويبلغ ارتفاع الأولى 2300 م ، وارتفاع الثانية 2000 م وارتفاع الثالثة 1800 م ، وأعلا قمة في جبال الأطلس التلى هى قمة للا خديجة (2308 م) بجبال الجرجرة ، أما في الغرب فيبلغ ارتفاع جبال تلمسان 1800 م وتبلغ أعلا قمة في جبل ونشريس 1985 م وتسمى عين الدنيا .

والجهات القريبة من الساحل في هذه المنطقة هى أحسن جهاتها غنى وجمالا ، بل هى أحسن جهات القطر الجزائرى على الاطلاق وأكثرها مطراً وأشدها عمراناً ، وتنفتح الى جانب البحر عن سهول عديدة أهمها سهل عنابة ، وسهل الجزائر المسمى بسهل متيجة ، وسهل وهران ، كما ينفتح الأطلس التلى الواقع خلفها عن سهول زراعية خصيبة مثل سهل بلعباس وفحص زيدور قرب تلمسان ، وتمتاز المنطقة كلها بطقس معتدل وسماء صافية ومجاورة

لبحر أزرق بديع ، وهي أرض الأشجار المثمرة والزهور الجميلة والفواكه المبكرة ، وثلاثة أرباع سكان الجزائر يعيشون من خيراتها الزراعية ، وعلى البحر منها تقع المدن والمراسي العتيقة مثل عنابة وبجاية ودلس والجزائر وشرشال وتنس ووهران ، كما تقع في داخليتها الحواضر التاريخية الكبرى مثل قسنطينة وتلمسان .

أما منطقة النجود العليا التي تلي الأطلس التلي جنوباً فهي على عكس المنطقة التلية ـ منطقة مقفرة خالية تقريباً من السكان ، ترتفع 800 م فوق سطح البحر ، وليست بها أشجار باسقة ولا مياه جارية الا في النادر القليل .

وينتجع الأعراب بمواشيهم هذه المنطقة في فصل الربيع ، ويقتلع منها نبات الحلفة صيفاً وهو نباتها الوحيد المستغل اقتصادياً . وتكثر فيها السباخ الكثيرة المالحة ، فان كانت كبيرة سميت الشط ، وان كانت صغيرة دعيت زاغز ، من أهمها في الجهة الشرقية والوسطى شط الحضنة ، وزاغز الشرقي ، وزاغز الغربي ، وفي الجهة الغربية الشط الشرقي والشط الغربي أو شط حميان .

وخلف هذه النجود العليا توجد سلسلة جبال الأطلس الصحراوي وهي أيضاً ممتدة من الغرب الى الشرق ، تبتدىء بجبال القصور والعمور وتنتهي بجبال أوراس ، واذا انحدر الانسان منها جنوباً وجد نفسه أمام الصحراء التي يخالها الانسان بسيطاً فسيحاً من الرمل يمتد الى اللانهاية . وما هي في الحقيقة بسيطاً كلها ولا رملا جميعها ، بل ترتفع شيئاً فشيئاً حتى تصل الى I.900 م فوق سطح البحر في جبال هكار بأقصى الجنوب ، كما ان منها جهات متحجرة تدعى **الحمادة** وأخرى رملية تدعى **العرق** ، ولا تخلو الصحراء الجزائرية رغم ضراوتها وقسوتها من واحات جميلة يرتفع نخلها في عنان السماء تصهر رأسه الشمس المحرقة وتسقي جذوره المياه الدافقة ، وينتج تمراً شهياً شهيراً في العالم بجودته وحلاوته .

طقسها

والطقس فى القطر الجزائرى مماثل للطقس فى الأقطار المغربية الأخرى ، فهو فى الساحل معتدل يشبه طقس بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويظهر اعتداله على الخصوص فى المنطقة الواقعة بين مدينة الجزائر ومدينة القالة ، وقلما تنخفض درجة الحرارة فى فصل الشتاء الى ما تحت الصفر (المتوسط الشتوى الأدنى + 8 د) . وعلى عكس الساحل داخلية البلاد ، فالطقس فيها لا يتسم بالاعتدال ، والبون شاسع جداً بين الدرجات العليا والدنيا للحرارة صيفاً وشتاء . ففى الشتاء يشتد البرد وينزل الثلج ويهبط ميزان الحرارة الى الدرجة العاشرة تحت الصفر بالنجود العليا ، وفى الصيف تشتد الحرارة وترتفع حتى تصل الدرجة الأربعين فوق الصفر بمدينة الأصنام ووادى شلف ، على أن المدن الواقعة فى الجبال القريبة من الشاطىء كجبال تلمسان وتسالة وونشريس تتمتع بطقس معتدل شبيه بالطقس الساحلى لارتفاعها ووصول النسمات البحرية العليلة اليها ، اما فى المناطق الصحراوية فالاختلاف شديد جداً بين برودة الليل وحرارة النهار ، وترتفع الحرارة صيفاً حتى يسجل ميزانها أحياناً الدرجة السبعين فوق الرمال. وذلك شيء طبيعى فى كل منطقة ملاصقة لخط الانقلاب .

وتهب على القطر الجزائرى فى فصل الشتاء الرياح الغربية العكسية بأمطارها وأعاصيرها ، ويبدأ نزول المطر عند دخول فصل الخريف ، ويشتد ابتداء من نونبر ، ويستمر ستة أشهر مع فترات صحو ، ويبلغ متوسط الكمية النازلة فى المناطق الشمالية 450 ملم . وهو فى الجهة الشرقية المرتفعة (القل 1798 ملم) أغزر منه فى الجهة الغربية (وهران 463 ملم) التى تسلب الرياح الشمالية الغربية الهابة عليها شتاء من رطوبتها عند مرورها باسبانيا ، وتتلقى منطقة الجزائر الواقعة بين الجهتين متوسطاً مطرياً قدره 733 ملم ، وهو متوسط يبعث على الدهشة اذا ما قورن بالمتوسط المطرى السنوى الذى ينزل على باريس (561 ملم) ، ولكن المطار يبدأ فى تسجيل درجات تنخفض شيئاً فشيئاً كلما امتدت الأرض جنوباً ، ففى النجود العليا

يسجل متوسطاً سنوياً يتراوح بين 300 و 200 ملم ، والى الجنوب منها تقل الكمية النازلة عن القدر اللازم للفلاحة ، وذلك نذير بظهور الصحراء القاحلة .

نباتها

ويتغير النبات بتغير الطقس ، وتعتبر منطقة التل التى تنزل فيها أمطار كافية منطقة الأشجار المخضرة باستمرار ومنطقة الغابات التى تتكاثف فيها أشجار البلوط والخروب والصنوبر والعرعار والأرز ، وهى أيضاً منطقة الزراعة والغراسة الكبرى حيث تمتد حقول القمح والشعير والقطانى بجانب بساتين الزيتون والكرم والليمون ومختلف أنواع الأشجار المثمرة والصناعية، أما النجود العليا فان الأشجار تختفى فيها ويحل محلها الشيح والحلفة وبعض الأشجار الشوكية القصيرة ، واذا كانت الطبيعة حرمتها من الثراء الزراعى فقد عوضتها بالثراء الحيوانى . اذ جعلت منها منطقة للرعى تكثر فيها قطعان الابل والبقر والغنم ، أما المنطقة الصحراوية فهى أرض الجفاف والقحولة ، وتتخللها بين المسافة والأخرى واحات جميلة تغطيها غابات النخيل الذى يساعد ظله على غرس أشجار مثمرة وزرع بعض الحبوب والخضر .

أقسامها الادارية

بقى القطر الجزائرى عشرات السنين مقسماً الى عمالات ثلاث موجودة فى الشمال هى عمالات الجزائر وقسنطينة ووهران ، تضاف اليها أراضى الجنوب العسكرية التى أسست فى 4 دجنبر 1902 وكانت من الوجهة القانونية مستعمرة فرنسية خاصة لها ادارتها وميزانيتها وأملاكها وان كانت موضوعة تحت سلطة الحاكم الفرنسى العام بالجزائر ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أعيد تنظيم التراب الجزائرى تبعاً للتطورات السياسية الداخلية من جهة ، والتخطيطات الاستعمارية البعيدة المدى من جهة أخرى ، فأصبحت بذلك مقسمة الى ثلاث عشرة عمالة شمالية هى عمالات : الجزائر ، والأصنام ، وباطنة ، وتلمسان ، وتيزىوزو ، وتيهرت ، والمدية ، ومستغانم ،

وعنابة ، وسطيف ، وسعيدة ، وقسنطينة ، ووهران ، وحولت أراضي الجنوب العسكرية الى عمالتين تدعى احداهما الساورة ، والأخرى الواحات ، وقد حوفظ على هذا التقسيم بعد اعلان الاستقلال .

وتنقسم العمالات الى دوائر، كل دائرة تشتمل على عدد من البلديات .

سكانها

تعرض سكان الجزائر خلال أيام الاحتلال التركى ثم الفرنسى لعدد من أعمال القمع والتشريد جعلت عددهم فى نقصان مستمر ، ولما جرى أول احصاء رسمى سنة 1856 لم يكن عدد المسلمين يزيد على 2.307.000 نسمة ، وزاد هذا العدد نقصاناً بعد ذلك ، ثم بدأ يرتفع فى نهاية القرن الماضى وأول هذا القرن حتى بلغ 7.721.678 مسلماً سنة 1948 يضاف اليهم 960.107 من المستوطنين الفرنسيين وسائر الأوربيين المتفرنسين ، وفى سنة 1954 صار العدد عشرة ملايين ، تسعة أعشارهم من المواطنين المسلمين والعشر الباقى من الفرنسيين والمتفرنسين ، وخلال حرب التحرير التى جرت فى فاتح نونبر من تلك السنة واستمرت الى بداية سنة 1962 خسرت الجزائر مليون شهيد من أبنائها ولكنها ربحت بدلهم حريتها وسيادتها ورحيل الأجانب جماعياً من ترابها ، وقد صار عدد سكانها بعد ثلاث سنوات من استقلالها (1965) — 12.041.845 نسمة ليس بينهم الا أقلية ضئيلة من الأجانب .

وأهل الجزائر — كسائر المغاربة — مسلمون ديناً ، عرب أو متعربون أصلا ولغة ، واللغة الفرنسية منتشرة فى سائر أوساطهم بسبب الحكم الأجنبى السابق ، كما توجد قبائل فى بعض الجهات تتكلم الى جانب العربية لهجات بربرية ، لكن اللغة العربية صارت تستعيد مكانتها بعد ما جعلتها الجزائر المستقلة لسان الدولة الرسمى، وقررت استعمالها وحدها فى التعليم الابتدائى.

انتاجها الزراعي

كان عدد الأملاك العقارية المسجلة بالجزائر قبل الاستقلال يبلغ حوالى 21.000.000 هـ منها 5.000.000 هـ من أملاك الدولة ، و 4.200.000 من أملاك البلديات ، و 9.200.000 هـ من أملاك المسلمين ، و 2.400.000 من أملاك المعمرين الفرنسيين ، ولاكن مساحة الأراضى المنزرعة منها لم تكن تتعدى 10 ملايين هكتار .

وأجود الأراضى كان بيد المعمرين الفرنسيين ، انتزعه الاستعمار من الوطنيين بمختلف الوسائل ، ولم يبق لهم الا الأراضى التى يقل نفعها ويكثر تعبها .

والفلاحة هى أهم الثروات الطبيعية ، ويعمل فيها أكثر من 75 ٪ من السكان ، وقد قدرت قيمة منتجاتها بـ 185 مليار فرنك سنة 1953 ، وبلغت نسبة المصدر منها فى تلك السنة 84 ٪ من مجموع الصادرات بينما لم تتعد نسبة المستوردات الزراعية 6 ٪ من مجموع الواردات ، وتعتبر الزراعة فى الجزائر مثالا يحتذى لا فى الدول المتخلفة فحسب ، ولكن فى بعض الدول المتقدمة أيضاً ، ويرجع السبب فى ذلك الى الوسائل الآلية والتقنية المستعملة فيها .

وقد انشئت سنة 1941 مصلحة خاصة للتشجير وحماية التربة ، كما أنشئت سنة 1946 مصلحة التجديد القروى لتعميم استعمال الوسائل العصرية فى الفلاحة ، وأنشئت سدود عديدة فى طول الجزائر وعرضها لخزن مياه الأمطار واستعمالها فى سقى الحقول والبساتين ، وقد وضع سنة 1920 مخطط لبناء جملة من السدود فانشيء سد بنى بهدل على نهر تافنا جنوبى تلمسان ، وسد وادى الفضة أحد روافد نهر شلف ، وسد غريب . كما وضع سنة 1946 مخطط آخر يستهدف سقى ناحية غليزان (سد وادى التحت) وناحية سيك (سد وادى سارنو) وناحية الزيبان (سد الوادى الأبيض) ،

والغرض من هذا السد الأخير بالخصوص حماية ناحية بسكرة باغلاق فـج (فم الغرزة) وهو أول مستودع صحراوى للمياه .

وتحتل زراعة الحبوب 3.165.000 هـ تحرث قمحاً وشعيراً وذرة وخرطالا ، وتختلف كمية الانتاج فى سنة عنها فى سنة أخرى ، وكان متوسط الانتاج السنوى خلال العشرين سنة الماضية 18 مليون قنطار ، وبلغ انتاج الحبوب 21 مليون قنطار سنة 1967 ، بينما لم يبلغ الا نصف ذلك العدد فى السنة التى قبلها بسبب تأخر نزول المطر ، الشيء الذى اضطرت معه الحكومة الجزائرية الى استيراد القمح من الخارج لسد العجز الناتج عن سوء الصابة ، والى جانب زراعة الحبوب التقليدية بدأت تتسع مساحة زراعة حبوب جديدة لا عهد للجزائر بها من قبل كالأرز والذرة الهيبريدية والبشنة .

وقـد بلغت كميـة القطانـى التى أنتجتهـا الجزائـر سنة 1953 580.000 قنطار قيمتها 2.135 مليون فرنك .

وتمتاز الجزائر بسعة المساحة المغروسة دالية وبوفرة انتاجها من الخمر ، وقد كانت الكـروم سنة 1952 تغطـى 400.000 هـ بلـغ انتاجهـا فى السنة التى تليها 18.500.000 هكتولتر من الخمر الشهى الذائع الصيت المستساغ كثيراً فى فرنسا وسويسرا وبلجيكا والبلدان الأوربية على العموم .

والجزائر غنية بأشجارها المثمرة ، والزيتون أوفر هذه الأشجار عدداً وهو يغطى مساحة 100.000 هـ وعدد أشجاره يفوق 11.000.000 ، ويبلغ متوسط ما ينتجه من الزيت 500.000 هكتولتر ، وترتب الجزائر فى الدرجة السابعـة بين البلـدان المنتجـة لزيت الزيتون ، اذ يبلـغ انتاجهـا منه 2 ٪ من مجموع الانتاج العالمى . وتبلغ أشجار التين 10 ملايين تغل أكثر من مليون قنطار من التين وباكوره ، وتغطى أشجار الحوامض 30.000 هـ انتجت سنة 1954 أكثر من 3 ملايين قنطار من البرتقـال والليمـون والماندريـن والكليمانتين والباميليموس ، أما غابات النخيل الموجودة فى الجنوب فعدد أشجارها لا يقل عن 7 ملايين شجرة تغل سنوياً أكثر من 1.150.000 قنطار

من التمور الجيدة الشهية التى تؤكل محليا ويوسق النوع المسمى منهـا بدكلة النور الى الخارج .

وتزدهر فى المنطقة التلية ولاسيما فى الجهات القريبة من الساحل ــ زراعة الخضر والبواكر كالبطاطا والقوق (الخرشف) وماطيشة والجــزر واللوبيا والجلبان ، وقد بلغ الانتاج منها أكثر من مليون طن سنة 1953 .

وتنمو الزراعة الصناعية باطراد، كالطابا (30.000 هـ ــ 260.000 ق) والقطن ، والنباتات العطرية والكتان (2.600 هـ ــ 10.000 ق) . والشمنذر السكرى الذى أنتج 25.000 ط سنة 1953 .

وبالاضافة الى ذلك تغل الأرض الجزائرية غلات طبيعية أخــرى ، كالحلفة وسبيب الدوم والمنتجات الغابوية ، فالحلفة تغطى 4.000.000 هـ وهى مصدر غنى سكان جنوب الأقاليم الغربية ، ولاسيما سكان الناحية الواقعة بين سعيدة والمشرية ، وقد أنتجت سنة 1953 ــ 140.000 ط صدر معظمها الى الخارج ، وصنع طرف منها فى مصانع الكاغيط والسليلوز بالجزائر وبجاية ، أما الغابة فتغطى هى أيضاً مساحة 2.400.000 هـ وتنتج خشباً صناعياً وحطباً ، كما تنتج 450.000 ط من الفرشى الذى يستعمل كمادة عازلة وتصنــع منه سدادات القنينات والزجاجات . ومعظم الفرشى الجزائرى يوسق للخارج وأقله يصنع داخلياً .

ويعتنى الفلاحون الجزائريون بتربية الماشية ، ويقدر عددها فى الساعة الراهنة بعشرة ملايين رأس ، لكن انتشار الفلاحة العصرية يحول دون زيادتها ، كما ان القحط الذى تتعرض له البادية بسبب قلة المطر فى بعض السنين يعرضها لنقصان كبير ، ففى سنة 1945 كان عددها يبلغ 9 ملايين ، وفى السنة التى تليها انخفض العدد الى أقل من 3 ملايين بسبب الجفاف ، ثم بدأ يرتفع فيما بعد ، ومن بين العشرة ملايين رأس يوجد 3.200.000 من المعز ، و 866.000 من البقر ، و 241.000 من البغال ، و 341.000 من الحمير ، أما الخيل

التى يبلغ عددها 216.000 رأس فهى فى نقصان مستمـر بخـلاف الابـل (182.000) التى يزيد عددها فى الصحراء .

انتاجها المعدني

الجزائر غنية بما يشتمل عليه باطن تربتها من معادن ، وزاد فى غناها ظهور البترول بصحرائها سنة 1956 . وكانت صادراتها من المعادن سنة 1953 تمثل 11 ٪ من مجموع قيمة صادراتها البالغة فى تلك السنة 154 مليار فرنك .

ومن أقدم المعادن المستغلة فى الجزائر الحديد المستخرج بالخصوص من الونزة وجبل زكار وناحية بنى مصاف ، ويقدر الاحتياطى منه بـ 2.500 مليون طن، وكان متوسط الانتاج السنوى منه يبلغ 3 ملايين طن، (3.372.000 ط سنة 1953) ، ولكنه انخفض فيما بعـد بسبب انـدلاع حـرب التحريـر فلم يتجاوز 1.924.000 ط سنة 1959 ويعتقد أن الانتاج الحالى لا يتجاوز نصف المتوسط القديم .

والفوسفاط من ثروات الجزائر المعدنية (531.000 ط سنة 1959) ويستخرج من التخوم الجزائرية ـ التونسية جنوبى مدينة تبسة ، وكذلك الرصاص (15.300 ط سنة 1959) والزنك (62.900 ط سنة 1959) والبريت وسولفات الباريت والزئبق .

وكان يعتقد ان التربة الجزائرية لا تتوفر على مواد وقودية تمكن من انشاء صناعات كبيرة ، ولكن هذا الاعتقاد تغير بعد اكتشاف مناجم الفحـم الحجرى بالقنادسة (بشار) التى شرع فى استغلالها منذ سنة 1917 وهى تؤمن للجزائر ثلث احتياجها منه (295.000 ط ـ سنة 1953) ، كما اكتشف البترول سنة 1956 بعد ابحاث جرت على نطاق ضيق منذ سنة 1952 بناحية الحضنة وتبسة ، وأشهـر الأحـواض التى يستخـرج منها حـوض حاسى مسعود بوسط الصحراء الذى تمتد منه الى مرسى بجاية أنابيب تبلغ طاقتها

10 ملايين طن في السنة . وحوض حاسي الرمل وهو أيضاً بوسط الصحراء ، وحوض زارزيتن ، وحوض عجيلة على الحدود التونسية الذى تمتد منه أنابيب الى مرسى الصخيرة القريب من مرسى قابس بتونس ، ويقدر احتياطى الجزائر من البترول بـ 500 مليون طن ، وهو تقدير قابل للزيادة ، وبلغ الانتاج منه 25.000.000 ط سنة 1965 .

ويوجد الغاز الطبيعي فى وسط الصحراء ، وفى منطقة حاسى الرمل وينقل فى أنابيب الى الساحل بمعدل 1.500.000 م مكعب فى اليوم .

وقد نتج عن اكتشاف البترول انبعاث الحياة فى الصحراء وانشاء الطرق والمطارات لربطها بالأقاليم الشمالية . وفتح امكانيات التصنيع على مصراعيها أمام الدولة الجزائرية .

انتاجها الصناعي

كانت السياسة الفرنسية تستهدف ابقاء القطر الجزائرى قطراً زراعياً والحيلولة دون اقامة صناعة ثقيلة به رغم وجود مقوماتها الأساسية من فحم وحديد ومواد أخرى ، ولم تكتف بذلك بل تعمدت قتل الصناعات العتيقة التى اشتهرت الجزائر باتقانها والتى كانت مورداً لعيش سكانها، والصناعة الوحيدة التى أباحتها هى الصناعة التى لها ارتباط بالقطاع الفلاحى والأدوات المستعملة فيه .

ولما احتل الألمان فرنسا سنة 1940 بدأ الفرنسيون يفكرون بدافع فرنسى محض — فى تصنيع بلدان أمبراطوريتهم التى نجت من احتلال الألمان ، فوضعوا — فيما يخص الجزائر — مخططاً للتصنيع شرع فى تنفيذه سنة 1946 باتخاذ عدد من الاجراءات التى تسهل استثمار الرساميل لأغراض صناعية فى التراب الجزائرى ، ووسعوا نطاق المدارس الصناعية وأنشأوا عدداً من الوحدات السكنية ونفذوا قوانين الضمان الاجتماعى المطبقة فى فرنسا ،

كما بذلوا أكبر جهد لتنمية الطاقة الكهربائية (1.307.000.000 كليوات — ساعة سنة 1960) .

وهكذا دخل القطر الجزائرى منذ سنة 1946 فى عهد التصنيـــع ، فانشئت فيه الأفران التى تصهر الحديد والمعادن الصلبة ، وانشئت مصانع ومعامل لصنع الزجاج والخزف والكاغيط المستخرج من الحلفة والكارطون ، وأخرى لصنع الصابون والمطاط والحامض الكبريتى ، والمغازل والمناسج ومعامل الزرابى ومعاصر الزيت والخمر ، والمطاحن والمعالب ، ومصانـــع السكر والأرز ومعامل صنع الصمامات من الفرشى وتعبئة المياه والمشروبات .

وقد زودت البلاد بمخازن ثلجية لحفظ الخضر واللحوم والمواد التى تفسد بسرعة مما يجعل الجزائر ترث اليوم منشآت صناعية مهمة ان أحسنت استعمالها والمحافظة عليها وعملت على تنميتها وتصريف منتوجاتها فستدر عليها الربح الوفير والخير الكثير .

طـــرقها

يبلغ طول الطرق المسلوكة 60.000 كلم منها 8.450 كلم من الطرق الوطنية الكبرى ، والباقى طرق اقليمية وثانوية ، وتمتد السكك الحديدية الواسعة والضيقة 4.078 كلم وتتوفر الجزائر على عدد من المراسى الكبيرة المجهزة أحسن تجهيز بلغ عدد السفن التى دخلتها سنة 1960 — 6.977 سفينة حمولتها الصافية تزيد على 10 ملايين طن . اما مطاراتها فمن أكبرها مطـــار الدار البيضاء قرب الجزائر ومطار السانية قرب وهران وعدد آخر من المطارات المدنية والعسكرية التى تستعمل فى النقل الجوى الداخلى والآخر الدولى .

تجارتها الخارجية

كانت الجزائر فى عرف القانون الاستعمارى جزءاً من التراب الوطنى الفرنسى الى سنة 1962 فلم تكن هناك حدود جمركيـــة بينها وبين فرنسا ،

كما كانت حركة النقل بينهما لا تتم الا على بواخر فرنسية ، فصارت فرنسا المتعامل الأول مع الجزائر بيعاً وشراء : تحتكر ما بين 75 — 80 ٪ من صادراتها و 78 — 85 ٪ من وارداتها .

وبسبب هذا الاحتكار الاستعماري ظلت الجزائر تعاني باستمرار نقصاً في ميزان تجارتها الخارجية ، لأن قيمة الواردات (624.000.000 فرنك سنة 1960) تفوق دوماً قيمة الصادرات (194.000.000 سنة 1960) .

ولما استقلت الجزائر شرعت في تنظيم تجارتها الخارجية على أسس سليمة يعطى فيها لمصلحتها الاعتبار الأول ، وهكذا انخفضت نسبة التعامل مع فرنسا من 75 ٪ عام 1962 الى 65 ٪ عام 1964 .

وعقدت الجزائر مع عدد كبير من الدول اتفاقيات للتبادل التجارى ، وأدى استثمار البترول وتصديره بوفرة الى القضاء على العجز الحاصل في ميزان الأداءات .

وتصدر الجمهورية الجزائرية منتوجات الصناعة الغذائية : من خضر وفواكه وخمور ، ومنتوجات المعادن من حديد ورصاص وزنك وفوسفات وبترول ، وكذلك بعض المصنوعات العصرية ، وتستورد مواد التجهيز والمواد المصنوعة والمواد الغذائية بصفة عامة .

نظامها

رزحت الجزائر تحت نير السيطرة الاستعمارية 132 سنة أظهر شعبها خلالها من ضروب المقاومة وأنواع التمرد ما سارت بذكره الركبان ، ومن أشهر ثوراته ثورة 1 نونبر 1954 التي شارك فيها الشعبان المغربي والتونسي مشاركة فعلية وساندتها جميع الدول الاسلامية والعربية والأخرى التي تناصر مبدأ تحرر الشعوب وحقها في تقرير مصيرها ، وقد استمات

الشعب الجزائرى فى القتال وضحى فى المعارك التى دامت أزيد من سبع سنوات بأكثر من مليون شهيد ، حتى اضطر فرنسا الى الاعتراف بحريته وسيادته فولدت الدولة الجزائرية يوم 5 يوليوز 1962 . وانخرطت بعد ذلك فى منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الاقليمية والمتخصصة .

ونظام الدولة فى الجزائر جمهورى دستورى رئاسى ، ومنذ شهر يونيو سنة 1966 أصبحت مقاليد الدولة بين يدى مجلس الثورة الذى يرأسه العقيد أبو مدين الهوارى أحد قادة جيش التحرير الجزائرى .



المغرب الأقصى

(المملكة المغربية)

موقعها وحدودها

المملكة المغربية ـ أو المغرب الأقصى ـ هى أوسع البلاد المغربية مساحة وأكثرها سكاناً ، تقع فى غربها الأقصى بل فى أقصى غرب القارة الافريقية بين الجزائر والصحراء الكبرى والبحر المتوسط والمحيط الأطلسى .

وليس لها فى الوقت الحاضر حدود قارة الا الحدود الطبيعية بالشمال والغرب حيث البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، اما من الجهتين الشرقية والجنوبية فهى مثار جدال ، لأن الشعب المغربى وحكومته يرفضان التسليم بالتخطيط الاستعمارى للحدود ، والرضا بما فعلته فرنسا واسبانيا ابان حكمهما من بتر كثير من أطراف المغرب الأقصى وتضييق رقعته حتى أصبح البون شاسعاً بين حدوده الحقيقية القديمة وحدوده المصطنعة الجديدة .

وقد حددت المعاهدة المعقودة بين فرنسا والمغرب بقرية للا مغنية سنة 1845 والمفروضة عليه اثر هزيمته فى معركة يسلى ـ الحدود بتدقيق ما بين مصب وادى كيس على البحر الأبيض المتوسط وثنية الساسى جنوبى مدينة وجدة ، اما الحدود فيما عدى ذلك فقد وضعتها فرنسا وحدها دون مشاورة المغرب ولا موافقة حكومته الشرعية ، وهى تمتد من ثنية الساسى جنوباً حتى تسامت واحة فكيك ، ثم تميل الى الغرب شاقة الواحة المذكورة

تاركة بني ونيف خارج الحد وجبل عنتر داخله ، وتسير على خط مستقيم حتى تلتقي بمجرى وادى المرة جنوبى قرية تلزازة ، فتسير مع مجراه الى ان يلتقى بمجرى وادى كير فتسير مع مجرى هذا الوادى الأخير حتى تصل الى نقطة تبعد 15 كلم الى الشمال من قرية يكلى ، ومن هناك يمتد خط الحدود مستقيماً فى اتجاه جنوبى غربى حتى يلتقى مع الدرجة 40 . 27 من العرض الشمالى التى هى الحد الجنوبى لاقليم طرفاية ، وحتى خط الحدود هذا لم يحترمه الفرنسيون بعد استقلال المغرب الأقصى وقبل انتهاء حكمهم للجزائر ، فقد اجتازوه ووضعوا أيديهم على بعض المناطق الواقعة غربه وشماله لأغراض ستراتيجية اثناء محاربتهم للثوار الوطنيين الجزائريين ، فخلق هذا التعدى حالة توتر على الحدود بين المغرب والجزائر المستقلة أدى الى نشوب خلاف مسلح بينهما في شهر اكتوبر سنة 1963 ، ذلك الخلاف الذى صدر بشأنه تصريح بساماكو فى 30 أكتوبر 1963 وتألفت لفضه لجنة خاصة منبثقة عن منظمة الوحدة الافريقية .

مساحتها

تبلغ مساحة المملكة المغربية فى حدودها التاريخية حوالى 3.000.000 كلم مربع ، ولكن البتر المتوالى لأطرافها من جانب الاستعمار جعل الرقعة التى ينبسط عليها السلطان الشرعى منها لا تتعدى 550.000 كلم .

سطحها

يمتاز سطح المملكة المغربية بارتفاعه وامتداد مجموعة من السلاسل الجبلية فوقه امتداداً أفقياً تتخللها أو تنبسط قربها سهول واسعة ونجود عليا .

وتكون الجبال في المغرب العربى وحدة متماسكة ، ولكنها فى المغرب الأقصى أرفع منها فيما عداه ، وكانت قديماً تسمى جبال درن ، ثم صارت فى العصر الحديث تدعى جبال الأطلس ، وهو اسم محلى على ما يظهر ، دعيت به فى الأول جبال المغرب الأقصى ثم عمم اطلاقه فصار يدل على جبال البلاد المغربية كلها .

واذا أردنا أن نتكلم على هذه الجبال متدرجين من الشمال الى الجنوب فسنجد فى البداية سلسلة **الأطلس الساحلى** المشرفة على البحر الأبيض المتوسط الممتدة من جبل موسى (856 م) المحاذى لسبتة الى نهر ملوية ، ويسمى **الجغرافيون** الأوربيون هذه السلسلة **الأطلس الريفي** (8) وهى ترتفع كثيراً فى الوسط قرب تركيست (جبل تيدغين 2452 م) وشفشاون (جبل تيسوكة 2120 م) .

وخلف هذه السلسلة توجد منحدرات يظن انها كانت مغمورة بماء البحر فى الزمن القديم ، وهى تتسع شيئاً فشيئاً من جهة الشرق حتى تنفتح عن سهول وادى ملوية والمغرب الشرقى ، مثلما تتسع من الجهة الغربية حتى تتفتح عن بسيط سايس وسهول الغرب .

وتعتبر كدية الطواهر الواقعة غربى تازة هى العقدة التى تصل الأطلس الساحلى بالأطلس المتوسط ، وبها يمر الطريق العتيق الذى يربط تلمسان وما خلفها من قرى وأمصار بفاس وما بعدها من قرى وأمصار .

والى الجنوب من تلك السهول والمنحدرات توجد سلسلة جبال **الأطلس المتوسط** التى تنفصل فى جبل حيان (3.000 م) عن الأطلس الكبير ، وتمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقى حتى تصل الى جبل تزكة المطل على (مجاز تازة) من الجنوب بعد ما يكون ارتفاعها بلغ فى جبل بويبلان 3.200 م وفى جبل موسى وصالح 3.219 م وتنتهى فى أعالى ملوية ، ويمكن اضافة **الجبيلات** الواقعة شمال مدينة مراكش الى هذه السلسلة .

ويمتد **الأطلس الكبير** وراء الأطلس المتوسط على مسافة تزيد على 800 كلم من مبتداه بأعلىوادى كير الى منتهاه برأس غير، ويتراوح عرضه ما بين

---

8) شاع اطلاق الريف منذ ثورة سكانه على المستعمرين الفرنسيين والاسبانيين (1919 — 1926) على الشمال المغربى من نهر ملوية الى المحيط الأطلسى ، والحقيقة ان ذلك مجرد خطأ ، فالريف فى عرف أهله وعرف المغاربة قاطبة هو منطقة صغيرة واقعة فى وسط شمال المغرب تمتد من قبائل قلعية شرقاً الى قبائل غمارة غرباً ، واكبر مدنه وقراه مدينة المزمة (الحسيمة) ، وما عدى تلك المنطقة فليس من الريف .

60 و 80 كلم ، وجباله أبرز جبال المغرب وأرفعها ، وتتجاوز قمم جبال العياشي ومكون وتوبقال 3.500 م بل تتجاوز 4.000 م .

وخلف الأطلس الكبير يوجد **الأطلس الصغير** الذي يلتقي واياه في جبل سيروة (3.300 م) وتمتد هذه السلسلة من جبل صغرو شرقاً سائرة في اتجاه جنوبي غربي الى المحيط الأطلسي عالية احياناً الى 2.000 م (جبل فيردوسست) و 2.512 (جبل اكلين) .

وتنبسط ما بين هذه السلاسل الجبلية والمحيط الأطلسي سهـول واسعة منخفضة تسمى باسماء القبائل المستقرة فيها كسهل الشاوية وسهل عبدة . وسهل دكالة ، ويتراوح ارتفاعها ما بين 150 و 200 م في الجهات القريبة من البحر ، وقد يصل ارتفاعها الى 300 م وأحياناً الى 700 م في الداخل .

ويدعى السهل الواقع بين مثلث طنجة ـ فاس ـ الرباط سهل **الغرب** وأكبر أنهاره نهر سبو . كما تدعى المنحدرات الواقعة بين المحيط الأطلسي والسفوح القريبة من الأطلس الكبير والأطلس الصغير سهل **سوس** ، ويبلغ طوله 200 كلم وعرضه 40 كلم .

ويحيط حزام السلاسل الأطلسية في أقصى الجنوب بناحية نجدية يبرز منها في جهات درعة جبل باني ، والى الشرق منها نتوءات سلسلة **الكور** القديمة ، وخلف ذلك كله توجد الصحراء .

طقسها

يتغير الطقس في المملكة المغربية بتغير المناطق والفصول ، فهو متوسطي في الشمال ، أطلسي في الغرب ، صحراوي في الجنوب ، قاري في داخل البلاد . وقد حملت تقلباته وتناقضاته بعض الجغرافيين على القول بأن المغرب الأقصى قطر حار جداً وبارد جداً ورطب جداً وجاف جداً ! .

وتتأثر الجهات القريبة من مضيق جبل طارق بالتيارات البحريـة الباردة نسبياً المسماة بتيارات كناريا ، كما تتأثر الجهات الغربية بالمحيط

الأطلسى الذى يلطف من حرارة الصيف ويخفف من حدة برد الشتاء ، أما الجهات الجنوبية فى الداخل فليست فى مأمن من التأثيرات الصحراوية لأن جبال الأطلس الكبير لا تحول فى كل مكان دون تسرب طقس الصحراء اليها .

وأغلب الرياح التى تهب شتاء ترد من الغرب والجنوب الغربى ، وأكثر ما تهب صيفاً من الشمال الشرقى ، وفى مضيق جبل طارق يشتد هبوبها وتقلبها نتيجة اصطراع الطقس بين البحرين المجاورين ، ورياح **السموم** أقل هبوباً فى المغرب الأقصى منها فى القطر الجزائرى ، ولكن **الشرقى** الذى يهب من نجود الأقاليم الوهرانية حاراً جافاً يكون له فى غالب الأحيان ما لريح السموم من مميزات وآثار : فكلاهما يثقل الجو ، ويرفع درجة الحرارة فى وسط النهار بالساحل وتشتد وطأته ــ عندما يهب ــ على الانسان والحيوان والنبات بالداخل .

وتبعاً لذلك يختل نظام المطر ، فهو يقل كلما امتدت الأرض من البحر المتوسط الى الجنوب ومن المحيط الأطلسى الى الشرق . ويمكن تقسيم المغرب الأقصى بسبب ذلك الى ثلاث مناطق مطرية :

1) منطقة غزيرة المطر تتعدى الكمية النازلة منه سنوياً فوقها 800 ملم ، وتشتمل هذه المنطقة على ناحية جبالة وجهات الأطلس الكبير والأطلس المتوسط المعرضة للرطوبة الغربية .

2) منطقة متوسطة المطر تشتمل على القسم الشمالى من السهول الغربية ، وعلى نواحى فاس ومكناس وتازة ، والجهات العالية فى وسط وغرب الأطلس الكبير ، وتفوق الكمية السنوية النازلة عليها منه 400 ملم .

3) منطقة قليلة المطر لا تتعدى كميته فى السنة 200 ملم تشتمل على القسم الجنوبى من السهول الغربية والقسم الشمالى من المغرب الشرقى ، وعلى الأراضى الواقعة فى السفوح الجنوبية الشرقية لسلاسل جبال الأطلس .

وهناك منطقة رابعة تكاد تكون عديمة المطر ، تنزل عليها منه سنوياً كمية تقل عن 200 ملم ، وهي تشتمل في الوسط على منطقة واقعة بين مراكش وآسفي ، وعلى النواحي الصحراوية والشبيهة بها .

وأغـزر المطر ينزل في الجهات المجاورة للمحيط الأطلسي ، وهـو يتحكم في الزراعة والنبات على العموم تحكماً قوياً ، وينزل الثلج عـلى علـو 600 ـ 1.000 م قوياً أو ضعيفاً حسب موقع الأرض وتعرضها للمطر والهواء ، ويبقى جامداً بضعة أيام أو أسابيع على ارتفاع 1.000 ـ 2.000 م ، ومن 6 الى 9 أشهر (أكتوبر ـ يونيو) اذا تجاوز ارتفاع الأرض 2.000 م .

ويمكن تقسيم السنة الى فصلين : أحدهما رطب ممطر من نونبر الى أبريل ، وثانيهما حار جاف من مايو الى أكتوبر .

أما الجو فانه يكون لطيفاً ومعتدلا بالسواحل ، ولكن يبدأ تفاوته بمجرد ما تمتد الى الأرض الى الجنوب ، ولا يعرف الجليد فيما تحت الجديدة ، ويبلغ متوسط درجة الحرارة في الساحل 19 في الصويرة والجديدة ، و 20 في آسفي ، و 17 في الدار البيضاء والرباط وطنجة ، وفي الداخل تشتد الفروق بين حرارة النهار وبرودة الليل ، وبين حرارة الصيف وبرودة الشتاء ، والليالي باردة على العموم ، فمتوسط درجة الحرارة بمكناس (علو 500 م) 18 درجة ، وبفاس (علو 376 م) 19 درجة ، مع درجة 1 دنيا في شهر يبراير ودرجة 44 عليا في شهر غشت ، وفي مراكش التي يبلغ علوها فوق سطح البحر 45 م تنزل درجة الحرارة الدنيا في شهر يناير الى ما تحت الصفر ، وتصل الدرجة العليا الى 45 في شهر غشت .

مياهها

وكما تختلف أحوال الطقس بحسب المناطق تختلف حالة المياه تبعاً لها ، فهي غير متناسقة في جميع جهات المملكة المغربية ، غير أنها هنا أكثر منها في المغربين الأوسط والأدنى مجتمعين ، ويرجع السبب في ذلك

الى ارتفاع الجبال ، وغزارة الأمطار ، ونزول الثلج بوفرة وانعقاده شهوراً عديدة فوق الجبال حيث يبقى ذوبانه يغذى باستمرار مجارى أودية وأنهار يوجد حفافيها أينما صبت ـ الخصب والحياة .

وتمثل أنهار المغرب وأوديته أهمية بالغة فى حياته الاقتصاديـة ، ويقدر متوسط الكمية الجارية فيها جرياً متواصلا بنحو 310 متر مكعب فى الثانية ، وهى تستغل فلاحياً وتستخرج منها الطاقة الكهربائية ، ولكنها رغم ذلك لا تبلغ من الأهمية ما يبلغه أحد الأنهار المتوسطة بأوربا .

والأنهار التى تصب فى المحيط الأطلسى هى أطول أنهار المغرب وأغزرها ماء ، منها نهر **لكوس** الذى ينبع من منطقة **جبالة** ويصب بالعرائش بعد ما يقطع 100 كلم سيراً ، ونهر **سبـو** الذى ينبع من الأطلس المتوسط ويحمل فى بدايته اسم وادى كيكو ، ثم يسير مسافة 600 كلم متعرجاً متضخماً بما ينصب فيه من روافد حتى يصب عند المهدية بعد ما يصبح عرضه 300 م وتبلغ كمية المياه الجارية فيه أيام الفيضان 2.000 متر مكعب ، ولكنها تنقص حتى تصل الى 15 م مكعب فقط فى أيام الصيف ، وهو النهر الوحيد الذى بنى عليه مرسى داخلى فى المغرب (القنيطرة) ، ويتحدث المؤرخون ان السفن كانت تصعد فيه الى فاس . ونهر **بو رقراق** الذى ينبع من منطقة زيان ويصب بين الرباط وسلا بعد ما يقطع مسافة 250 كلم ، ونهر **أم الربيع** الذى هو أكبر أنهار المغرب وأكثرها انتظاماً ، ينبع من جبل حيان بالأطلس المتوسط ويمر بخنيفرة وتادلة ، ويتضخم بالروافد التى تنصب فيه مثل وادى العبيد ووادى تيساوت ، ويصب عند أزمور بعد ما يقطع 550 كلم ، وواد **تسيفة** (تنسيفت) الذى ينبع من الأطلس الكبير ، ويسير مسافة 270 كلم حتى ينصب بين آسفى والصويرة ، ووادى **سوس** الذى ينبع من الأطلس الكبـير ويمـر برودانـة (ترودانت) ويصب قرب أكدير وقد بلغ طوله 200 كلم .

أما الأنهار التى تصب فى البحر المتوسط فهى أقل من الأولى أهمية . أكبرهـا نهر **ملويـة** الذى يبلغ طوله 480 كلم وينصب غـرب جبـال بنى

يزناسن ، تليه أودية صغيرة مثل وادى **كرت** ووادى **غيس** ووادى **نكور** ووادى **لاو** ووادى **مرتيل** .

وهناك أودية وأنهار تعتبر صحراوية وان كان مصب بعضها فى المحيط الأطلسى تنبع من المنحدرات الجنوبية للاطلس وتتجه مجاريها نحو الصحراء فتغيض مياهها فى الرمال ، أكبرها وادى **درعة** الذى يبلغ طوله 1.200 كلم ، ووادى **غريس** ووادى **زيز** اللذان يتكون من التقائهما وادى **الداورة** ، ووادى **كير** ووادى **زوسفانة** اللذان يتكون من التقائهما وادى **الساورة** الشهير الذى تقع عليه واحات اقليم توات .

وقد بنيت على بعض أودية المغرب وأنهاره سدود لخزن المياه اللازمة للسقى وتوليد الطاقة الكهربائية ، مثل سد القنصرة المقام على وادى بهت الذى يخزن 227 مليون متر مكعب من الماء ويسقى 37.000 هـ من الأراضى الخصبة بناحية سيدى قاسم وسيدى سليمان ، وسد بين الويدان المقام على وادى العبيد الذى يخزن مليار و 300 مليون متر مكعب من الماء ، ويسقى 150 ألف هكتار من سهول تادلة ويولد 560 مليون كيلواط من الكهرباء ، وسد ايمفوت المقام على وادى نفيس الذى يخزن 46 مليون متر مكعب من الماء ويسقى 146.700 هـ من سهول عبدة ودكالة ، وسدى مشرع حمادى ومشرع القليلة المقامين على وادى ملوية اللذين تقدر دائرتهما السقوية بـ 60 ألف هكتار من أراضى بنى يزناسن وقلعية بالمغرب الشمالى الشرقى .

وبكل جهات المغرب الأقصى آبار وعيون وبحيرات وضايات وشطوط يمكن اعتبارها جزءاً من الشبكة الهيدرولية التى ينتفع بها المغاربة فى معايشهم ومكاسبهم الزراعية والصناعية ، تضاف اليها أنهار وجداول باطنية تسقى منها بعض القرى بجبال الأطلس والواحات بالصحراء .

سواحلها

للمملكة المغربية واجهتان بحريتان ، احداهما شمالية على البحر المتوسط فى مقابلة السواحل الاسبانية ، يبلغ طولها 468 كلم ، وهى صخرية

متضرسة تتفتح بين المسافة والمسافة عن فرضات تشبه أقواساً لا تجعل السفن التي ترسو فيها في حرز حريز من التيارات المائية والعواصف الهوائية الآتية من مضيق جبل طارق، ويعسر الاتصال بين هذا الساحل والداخل بسبب السلسلة الجبليـة المعترضة خلفـه ، ويربط ساحل المغرب المتوسطي بساحلـه الأطلسي بحر الزقاق المسمى حديثاً بمضيق جبل طارق الذي لا تزيد المسافة الفاصلة بين شاطئيه الاسباني والمغربي عن 17 كلم في بعض النقط ، وقد ازدادت أهمية هذا المضيق بعد حفر قناة السويس اذ أصبحت تمر به آلاف السفن غادية رائحة بين مختلف القارات ، وفي أقصى طرفه الغربي توجد مدينة طنجة كما توجد في أقصى طرفه الشرقي مدينة سبتة ، والى الشرق منها يوجد مرسى الحسيمة ومرسى مليلية ، وتتخلل المرتفعات الجبلية والرءوس الخارجة في البحر من هذا الساحل بعض الشطوط الرملية الجميلة التي يقصدهـا الناس من الداخل والخارج للاصطياف ، مثل شط سمير Restinga وشـط مرتيل وشط السعيدية .

والواجهة الثانية غربية تمتد على المحيط الأطلسي في الجزء المحرر من المملكة مسافة 835 كلم من رأس شبرتال Cap Spartel الذي هو أعـلا نقطة بالساحل الغربي للقارة الافريقية الى رأس جوبي Cap Jobi بجنوب اقليم طرفاية ، وهو ساحل رملي منخفض تبرز من قسمه الأوسط والجنوبي بين الحين والحين رءوس بحرية منطلقة من الجبال الداخلية ، ولا توجد فيه مراسي طبيعية أمينة ، ويتصل هذا الساحل مع داخل البلاد بسهولة بواسطة طرق جيدة وسكك حديدية ، وعليه توجد المراسي المغربية الكبرى مثل الدار البيضاء وفضالة وآسفي وأكدير والقنيطرة (داخلي) ومراسي أخرى دونها أهمية مثل العرائش والجديدة والصويرة وطرفاية .

تربتها

تقل التربة المنبتة في السلاسل الجبلية التي تكثر فيها الشعـاب ـ أو تنعدم بالمرة ، لأن هذه الشعاب لا تمكن مياه الأمطار من الاستقرار والنفوذ الى باطن الأرض ، بل تحولها الى سيول ـ تقوى وتضعف حسب قوة المطر

وضعفه ــ تنحدر بسرعة جارفة معها التربــة والحجارة والأشجار . ولكــن السهول والأودية على عكس ذلك تغطيها باستمرار طبقة من التراب أو الرواسب التي تخلفها السيول النازلة من الجبال ، وفي المغرب أنواع من التربة يدعى كل منها باسم عربي أو محلي حسب نوعه ولونه ، فالتربة السوداء التي تتشقق اثناء يبسها البطيء تدعى **التيرس** وهي أخصب تربة بالمغرب ، وتوجد فــي سهول الغرب والشاوية وعبدة ودكالة ومراكش ، والتربة الحمراء التي تيبس بسرعة تدعى **الحمري** وأكثرها جيد لما يخالطها من مواد مقوية كالجير والحامض الفوسفوري ، والتربة الرملية تدعى **الرمل** وهي دون التربتين السابقتيــن خصوبة لقلة المواد المقوية المختلطة بها وعدم ثبوتها . والتربة الرسوبية تدعى **الدهس** ، والتي يخالطها الحصى بكثرة تدعى **الحروشة** ، وجميع هذه الأنـواع منزرع لكــن درجة الخصوبة ترتفــع في بعضهــا وتنخفـض فـــي البعض الآخــر .

نباتها

يقع النبات تحت تأثير الطقس والتربة والموقع ويتكيف تبعاً لها ، فكلما غزر المطر وطابت التربة وحسن الموقع نما وبسق وأعطت الفلاحــة غلات وفيرة ، وكلما نزر المطر وخبثت التربة وساء الموقع نكد وتضاءل وقلت الغلات والمحاصيل الزراعية .

وينسجم النبات مع اعتدال الحرارة أكثر مما ينسجم مع وفرة الماء ، فاذا ارتفعت درجة الحرارة تبخر الماء بسرعة وعجز النبات بالتالي عن النمو ، ولهذا نرى منطقة تادلة تكاد تكون قاحلة من شدة الحر رغم انها من المناطق التي تنزل عليها كميات وفيرة من المطر .

وقد أحصى العلماء الطبيعيون نحو 4.000 نوع من النبات في المغرب ، أغلبها من الأنواع المعروفة في أقطار البحر المتوسط ، وأقلها وهو الذي ينبت على أبواب الصحراء خلف جبال الأطلس ــ يمت بالنسب والقربى الى نبات المناطق الانقلابية والاستوائية .

وتوجد في المغرب خمس مناطق نباتية :

1) المنطقة الجبلية الشمالية المجاورة للبحر المتوسط الممتازة باعتدال هوائها ووفرة مياهها ، وفيها يكثر الشجر المثمر كالزيتون والليمون والكرم والتين والجوز واللوز والرمان وغيرها . والشجر الغابوى كالخروب والبلوط والصنوبر والأرز والعرعار ، وفى السهول والنجود التى تتخلل جبال هذه المنطقة تزرع أنواع الحبوب والقطانى والخضر ، وعلى جوانب أوديتها وشعابها تنبت أنواع عديدة من الحشائش والبقول التى تتألق أنوارها وتعبق أزهارها .

2) المنطقة الساحلية الغربية وهي أخصب مناطق المغرب الطبيعية وأكثرها سكاناً ، مطرها غزير ، وجوها بارد شتاء معتدل صيفاً ، تنبت فيها الحبوب والأشجار المثمرة على اختلافها وتحيط بمدنها وقراها غابات الزيتون ، كما تنتشر فى سائرها غابات عادية كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان ، من أهمها غابة المعمورة بين نهرى سبو وأبى رقراق التى يبلغ طولها 60 كلم وعرضها 40 كلم ومساحتها 135.000 هـ .

3) منطقة الجبال الأطلسية ، وهى منطقة يشتد فيها البرد فيؤثر على النبات ، ففى مرتفعاتها التى يزيد علوها على 3.000 م لا تعيش أشجار الزيتون والفواكه ، وانما يوجد فى وهادها وشعابها أشجار العرعار والجوز والنباتات العطرية والصيدلية كالزعتر والحناء والورد . وتكلل الأطلس المتوسط والأطلس الصغير غابات الأرز والصنوبر فتكسبهما خضرة وجمالا وهذه المنطقة غزيرة الأمطار ، منها ينبع جل أودية المغرب ، وتقع بينها نجود عالية بعضها يزرع وبعضها ترعاه الدواب .

4) منطقة المغرب الشرقى ، وهى منطقة يشتد حرها صيفاً وبردها شتاء ويقل مطرها بصفة عامة ، وتمتاز بوفرة الأعشاب وكثرة المراعى التى تسرح فيها أنواع الماشية من غنم وبقر وخيل وابل ، وتغطى الحلفة

مساحات شاسعة منها ، ويعتنى سكانها بالسقى نظراً لاختلال نزول المطر فى الموسم الفلاحى .

5) المنطقة الصحراوية وهي عبارة عن تلال ونجود ومفاوز رملية قاحلة يشتد حرها ويقل مطرها ، فلذلك انعدمت فيها الزراعة وقل النبات الا بعض الأعشاب والشجيرات الشوكية ، وتوجد فيها واحات جميلة يكثر فيها النخل وأنواع من الشجر المثمر ويزرع فيها القمح والشعير وبعض الخضر على قلة ، ويعتمد أهلها فى معايشهم على تربية الأبل ونقل السلع والمنتوجات بين مدن الصحراء وقراها .

وقد استنبتت بالتربة المغربية نباتات بقلية وشجرية عديدة مستوردة من الخارج فنبتت فى حالات مماثلة لنباتها فى مواطنها الأصلية ، ومن هذه النباتات الجديدة شجر الكاليبتوس المستورد من اوستراليا والصبار المستورد من أمريكا . والقطن والرز والبنان ، واستنبت الكاكاو بناحية أصيلة فنبت وأعطى غلات وفيرة ، كما جربت زراعة الشاى فى نفس الناحية بنجاح .

غاباتها

تغطي الغابات في المملكة المغربية 3.500.000 هـ ، وهى موجودة فى كل جهة ، لكن بعضها منفصل عن بعض ، كما أن كل غابة تنفرد بنوع من الشجر ، وقليلة هى الغابات التى تتعدد فيها أنواعه .

وينبت شجر الفرشى (الفلين) على علو 100 — 800 م وتغطى غاباته 250.000 هـ من أراضى زمور وزعير وزيان .

وتوجد غابات الأرز الجميلة فى الأطلس الساحلى (كتامة) والأطلس المتوسط جنوبى فاس ومكناس خاصة فى مرتفعات تيكريكرة وكيكو ، وهى تنمو على علو 1100 — 2300 م ويبلغ طول بعضها أزيد من 50 كلم .

ويوجد الصنوبر والعرعار بجهات كثيرة من الأطلس كما يوجد شجر الهركان ، وهو نوع من الزيتون الوحشي ينبت بالجنوب ما بين وادى درعة ووادى نسيفة (تنسيفت) ، وتغطى غاباته ما يزيد على 700.000 هـ .

وتغل الغابات المغربية كل سنة 100.000 م . م من الخشب الصالح للنجارة ، و 2.000.000 م . م من الحطب ، و 52.000 ط من الفحم ، و 50.000 طن من الفرشى .

ويمكن عد منابت الحلفة من الغابات ، وهى تغطى بالمغرب الشرقى 2.000.000 هـ تغل سنوياً أزيد من 120.000 طن .

وتبذل الدولة مجهوداً كبيراً للمحافظة على الغابة وتوسيع مساحتها ووقايتها من الحريق وتجرب غرس أنواع جديدة من الشجر بها (2.994.862 شجرة من مختلف الأنواع سنة 1963) ، كما تنظم استغلالها للصالح العام من جهة وصالح السكان المجاورين لها من جهة أخرى .

فلاحتها

المملكة المغربية قطر فلاحى قبل كل شيء ، يعمل 80 ٪ من سكانه فى الفلاحة ويتعيشون منها . لذا تستأثر التنمية الزراعية والشؤون القروية على العموم بحظ وافر من اهتمام الحكومة والمصالح المركزية والجهوية .

وتبلغ المساحة المنزرعة بها 11.000.000 هـ يزرع نصفها فقط ، وأطيب الجهات التى تجود فيها الزراعة هى جهات الغرب وحوض سبو والشاوية ودكالة وعبدة وحوز فاس وحوز مكناس (سهل سايس) وحوز وجدة (أنكاد) وسهول تادلة .

وقد بلغت صابة المغرب سنة 1964 ـ 8.894.000 ق من القمح ، و 3.064.000 ق من الفرينة (القمح الطرى) ، و 11.684.000 ق من الشعير ، و 3.197.000 ق من الذرة ، و 639.000 ق من البشنة ، و 2.149.000 ق من

القطاني (الفول والحمص واللوبيا والجلبان والعدس) وبلغت صابته من الرز الذي نجحت زراعته بناحية القنيطرة 195.000 ق سنة 1963 .

وتنتشر زراعة الخضر بالقرب من المدن والقرى الكبيرة ، وفي المزارع العصرية التي تتوفر لها وسائل النقل السريع ، وقد بلغ سنة 1963 مجموع الانتاج منها 1.100.000 طن . منها 225.300 طن من البطاطا ، و 175.000 طن من الماطشة ، و 84.100 طن من الفول الطري .

وتزرع بالمغرب نوارة الشمس التي تعصر بذورها زيتاً ، والقطن (89.600 ق سنة 1964) والطابا (8.400 طن سنة 1963) والشمندر السكري (181.000 طن سنة 1964) الذي يذهب الى مصانع السكر المحلية .

وتغطي حقول الدالية 25.000 هـ بلغ ما أنتجته من العنب 417.000 طن سنة 1963 ويقدر انتاج المغرب السنوي من الخمر بمليوني هيكتولتر ، ولكن الدولة تجد مصاعب في تصريفه في الخارج رغم جودته بسبب القيود التي فرضتها فرنسا على دخوله اليها وهي التي كانت أكبر مستورد له .

ومما يعتني الفلاحون المغاربة باستنبات النباتات التي تدخل في الصناعة العطرية ، كالورد وزهر الليمون والنارنج والعطرشة والنعناع والفل والقرنفل والياسمين، وكذلك النباتات الأخرى التي تدخل فيالصناعة الصيدلية.

وينبت بالمغرب الأقصى جل الأشجار التي تنبت بأوربا الجنوبية والوسطى . ويوجد به من الزيتون 12.700.000 شجرة أنتجت سنة 1963 — 145.000 طن من الزيتون و 8.800 طن من الزيت ، ومن الأشجار الحامضة (البرتقال والليمون والماندرين) 2.276.000 شجرة أنتجت 481.000 طن سنة 1962 ، ومن اللوز 13.288.000 شجرة أنتجت 9.200 طن سنة 1963 ، ومن المشمش (16.200 طن) والتين (61.000 طن) والجوز (5.625 طن) والتفاح والاجاص والبرقوق والخوخ والرمان الشيء الكثير ، أما النخل الذي يبلغ عدد شجره 4.885.000 فقد جني منه سنة 1963 ما وزنه 79.500 طن .

حيوانها

يوجد بالمغرب أنواع الحيوان المعروف بأقطار حوض البحر الابيض المتوسط ، سواء منه الطائر في الفضاء والسابح في الماء ، والماشي أو الزاحف على الأرض ، ومن الثابت تاريخياً أن أنواعاً كثيرة من الحيوان انقرضت في عصر ما قبل التاريخ بسبب التقلبات الجوية ، وان أنواعاً أخرى انقرضت في العصور التاريخية بسبب القنص والصيد ، ومنذ خمسين سنة فقط كان بالمغرب الأسد والنمر والفهد وأنواع أخرى من السباع شجعت الحكومة على القضاء عليها لفتكها بالناس والدواب .

وللمغاربة ولوع بتربية الحيوان الأنيس سواء منه الذى يؤكل أو الذى يستعمل فى الأشغال الزراعية أو الذى يستغل تجارياً ، وقلما يوجد بالأرياف دار أو خيمة خالية من حيوان يربى ، ومن المغاربة **كسابون** لا يشتغلون بغير تربية الحيوان . وقد كانوا يتولون ذلك حتى بالمدن داخل زرائب مخصصة لذلك .

لكن يلاحظ أن هؤلاء الكسابين لا يخدمهم الحظ باستمرار ، ويرجع السبب فى ذلك الى اختلال نزول المطر من جهة ، وعدم العناية بتوفير العلف والخطائر من جهة أخرى ، لذلك تسعى الادارة المغربية جاهدة لتوفير المراعى وارشاد الكسابين الى أقوم الطرق التى يجب اتباعها لتربية الحيوان تربية تجعل عدده ونوعه فى المستوى المطلوب .

وفى سنة 1963 كان عدد الحيوان بالمغرب يقدر كما يلى : 15.000.000 رأس من الغنم ، و 7.4.00.000 رأس من المعز ، و 2.900.000 رأس من البقر ، و 100.000 من الخيل ، و 200.000 من الابل بلغ ما انتجته 186.000 طن من اللحم ، و 16.500 طن من الصوف و 520.000.000 لتر من الحليب .

أما الطيور فهى وفيرة . وتعرض فى الأسواق للبيع بكثرة وكذلك بيضها ، وقد أنشئت فى السنين الأخيرة خطائر لاستفراخها وتربيتها بالطرق الآلية ، كما أنشئت الخلايا الصناعية لتربية النحل واستخراج العسل منه ، وتربية دود القز الذى يغل حريراً .

صيدها

والبحر هو أيضاً مجال من مجالات الكسب ومصدر من مصادر الثروة للمغاربة ، فالشواطىء المغربية ولاسيما الأطلسية منها تزخر بما يولد فيها من أنواع السمك والحيوانات البحرية ، لهذا يقصدها الصيادون بزوارقهم وسفنهم من فرنسا واسبانيا والبرتغال مثلما يصطاد بها المغاربة أنفسهم ، وقد أنشئت في السنين الأخيرة أحواض خاصة بزوارق الصيد في مراسى فضالة وآسفى وأكدير زيادة على الأحواض التى كانت موجودة من قبل بالدار البيضاء وطنجة وغيرهما . كما أحدثت بها أسواق لبيع السمك ومعامل لتعليبه ، ويعد مرسى آسفى أول مرسى سردينى فى العالم اذ تنزل به زوارق الصيد فى كل موسم ما لا يقل عن 80.000 طن من السردين تغذى معامل التعليب الموجودة فيه (127 مليون درهم 1963) ، ولا يقصر الصيد على الشواطىء بل يشمل أيضاً الأودية والأنهار التى يوجد بها أيضاً سمك كثير .

معادنها

ليس استخراج المعادن فى المملكة المغربية بالأمر الجديد ، فمنذ قرون طويلة جرى استخراجها بالطرق البدائية وتصنيعها فى مصانع داخلية أو وسقها الى البلدان الأجنبية لتصنع هناك .

وقد نظم ظهير 19 يناير 1914 والظهائر التى عدلته شؤون البحث عن المعادن واعتبرت باطن التربة ملكاً للدولة ، كما أنشى فى 15 دجنبر 1928 مكتب الأبحاث والمساهمات المعدنية الذى كلف فى البداية بالتنقيب – لحساب الدولة – عن المعادن والمناجم باستثناء الفوسفات ، ثم اتسع نطاق عمله فيما بعد فأصبح يشمل الاستغلال والتحويل والنقل والاشتراك مع الغير فى أعمال التنقيب والاستثمار .

وفى سنة 1963 انتجت مناجم الفحم الحجرى بجرادة وحاسى بلال (المغرب الشرقى) 404.000 طن من الانتراسيت ، واستخرج من آبار النفط

بجبل سلفات (سيدى قاسم) 150.000 طن ، ولم يجر استغلال النفط الذى عثر عليه بسيدى غانم (الصويرة) لضعف احتياطه ، ولهذا ظل المغرب يعتمد فيما يخص الوقود السائل — على ما تكرره مصافى المحمدية من بترول مستورد من الخارج .

وفى السنة نفسها انتجت معادن المنغنيز 266.000 طن من المواد المعدنية و 69.000 طن من المواد الكيماوية ، واستخرج من معادن الرصاص والزنك المختلطين 106.000 طن من الرصاص و 59.000 طن من الزنك .

ويوجد بالمغرب النحاس بجبل صغرو وقرب أمزميز ولكن انتاجه ضعيف كما يوجد الكوبالت والانتيموان والايتان والفلورين والفضة ، وغالباً ما تكون هذه المواد مختلطة بمعدن الرصاص .

أما الفوسفات الموجود بين خريبقة ووادى زم فقد استخرج منه 10.118.562 طن سنة 1965 وسق معظمها الى الخارج ، والمغرب يحتل المرتبة الثانية بين الدول المنتجة له بعد الولايات المتحدة الأمريكية .

وبالاضافة الى هذه المعادن الصلبة توجد بالمغرب عيون معدنية يؤمها الناس من الداخل والخارج للاستشفاء من الأمراض الجلدية والعصبية والمعوية ، من أشهرها حمة سيدى حرازم وحمة مولاى يعقوب (فاس) وحمة ولماس (الرباط) .

صناعتها

اشتهر المغاربة باتقانهم للصناعات اليدوية من قديم ، وكانت المصانع والمعامل المنتشرة بالمدن والقرى تلبى جميع الاحتياجات الوطنية وطرفاً من احتياجات الأقطار المغربية والافريقية ، أما الصنائع العصرية التى تعتمد على الآلات الضخمة والقوى المحركة البخارية والوقودية فانها لم تعرف بالمغرب الأقصى الا فى مطلع هذا القرن باستثناء بعض المطاحن والمطابع التى أنشأها الأجانب بالمدن الساحلية، وبعض المعامل الحربية التى أنشأتها الدولة بالداخل.

وقد عرقلت معاهدة الجزيرة الخضراء المنعقدة فى 7 أبريل 1906 التنمية الصناعية لأن الحرية التجارية التى أقرتها والرسوم الديوانية (الجمركية) المنخفضة التى نصت عليها جعلت من المؤكد عجز أى صناعة تنشأ فى المغرب عن الصمود أمام البضائع المصنوعة التى ترد من الخارج ، لكن نشأت — مع ذلك — بعض الصناعات العصرية التى لها ارتباط بالزراعة والتغذية والبناء ، فأقيمت المطاحن والمعاصر فى مختلف الجهات ، ومصانع الاسمنت والصابون والزجاج ومعالب اللحم والخضر والفواكه .

ولما استعاد المغرب الأقصى حريته سنة 1956 كان التصنيع فى طليعة القضايا أولتها الحكومة المغربية عناية فائقة وشجعتها بمختلف الوسائل ، فازدهرت الصناعات الغذائية وصناعات الأدوات المنزلية مثلما ازدهرت صناعة الغزل والنسيج وصناعة التحويل ، وأقيمت مصانع السكر ومصانع المواد البلاستيكية والصيدلية ، ومصانع الكارطون وعجين الكاغيط والزجاج والفخار والأصباغ ومعامل تركيب السيارات والجرارات والآلات الكهربائية والاليكترونية ومركب للصناعات الكيمياوية بآسفى ومصافى البترول والزيوت النباتية والزفت والمدابغ والمطابع ومعامل صنع الأحذية والزرابى وأفران صهر المواد الحديدية والمعدنية ، وتدرس الحكومة الآن مشروع بناء مركب للصلب قرب مدينة الناظور سيكون شروعه فى العمل بداية عهد التصنيع الثقيل فى المملكة المغربية .

تجارتها الخارجية

وكما حالت معاهدة الجزيرة الخضراء دون تصنيع المغرب حالت دون تعادل الميزان التجارى ، لأن الحرية التجارية التى أقرتها بالنسبة لجميع الدول جعلت أبوابه مفتوحة على مصاريعها أمام الواردات الأجنبية ، فكانت قيمة الواردات بسبب ذلك تفوق دائماً قيمة الصادرات .

ويجرى جل العمليات التجارية على طريق البحر جلباً ووسقاً ، وأقلها يجرى عبر الحدود البرية ، ومن أشهر المراسى المفتوحة فى وجه التبادل

التجارى مع الخارج مراسى الدار البيضاء والقنيطرة وآسفى وطنجة وأكدير والصويرة والجديدة والمحمدية ، وقد قدرت قيمة التجارة الخارجية بـ 150 مليون فرنك سنة 1912 وارتفع المبلغ الى 3 ملايير و 629 مليون فرنك (3.170.000 ط) سنة 1938 والى 421 مليار و 500 مليون فرنك (14.980.000ط) سنة 1963 منها 227 مليار و 100 مليون فرنك (2.582.000 ط) قيمة الواردات، و 194 مليار و 400 مليون فرنك (11.943.000 ط) قيمة الصادرات .

وتتكون الواردات على الخصوص من المواد المصنوعة كالآلات والسيارات وأدوات التجهيز والبترول ، وتشتمل الصادرات على الفوسفات والحبوب والقطاني والبواكير والحوامض ومحفوظات السمك والجلد والصوف والثياب والزرابى والمصنوعات الجلدية والمواد المستخرجة من المعادن والمناجم .

عدد سكانها

بلغ عدد سكان الجزء المحرر من المملكة المغربية 12.560.000 نسمة حسب احصاء سنة 1963 منهم 130.000 يهودى مغربى ، و 295.000 أجنبى معظمهم من الفرنسيين والاسبانيين ، ويزداد المغاربة 400.000 نسمة فى السنة ، بينما ينقص سنة بعد أخرى عدد الأجانب الذين تضعف المصالح الاقتصادية والادارية التى كانت بين أيديهم باستمرار ، وكذلك عدد اليهود الذين يغادرون المغرب للاستقرار النهائى فى فرنسا وكندا وفلسطين المحتلة .

وأهل المغرب مسلمون ديناً ، عرب أو متعربون لغة ، يتبعون فى العقائد مذهب أبى الحسن الأشعرى ، وفى الفقه مذهب مالك بن أنس ، ومنهم قبائل تتكلم الى جانب العربية لهجات بربرية ، وتنتشر اللغة الفرنسية فى الجنوب واللغة الاسبانية فى الشمال .

أقسامها الادارية

تنقسم المملكة المغربية الى ثلاث عمالات وتسعة عشر اقليماً ، هى عمالة الرباط ، وعمالة الدار البيضاء البحرية ، وعمالة الدار البيضاء ، وأقاليم أكدير،

وآسفي ، وبني ملال ، وتازة ، وتطوان ، والجديدة ، والحسيمة ، وخريبقة ، وطرفاية ، وطنجة ، ومراكش ، ومكناس ، والناظور ، وفاس ، والقنيطرة وقصر السوق ، وسطات ، ووجدة ، وورززات .

وينقسم كل اقليم الى عدد من الدوائر ، وكل دائرة الى عدد من الجماعات البلدية والقروية .

طرقها

يبلغ طول الطرق السيارية بالمغرب 50.000 كلم ، منها 6079 كلم طرق رئيسية جيدة تربط كبريات المدن ، و 4224 طرق ثانوية تربط المدن بالقرى ، والباقي طرق محلية . ويبلغ طول الطرق القطارية 1780 كلم جميعها سكك عريضة بعضها مكرب وبعضها مضعف ، وهذه الطرق والسكك تربط أطراف المغرب الدانية والقاصية ، كما تربطه بالقطر الجزائري وسائر الأقطار المغربية .

وبالمغرب مطارات عديدة يستعمل بعضها في الأسفار الداخلية والخارجية ، وبعضها يستعمل في الأغراض العسكرية الصرفة ، وهناك مطارات أخرى مغلقة في الساعة الراهنة لعدم الحاجة اليها ، وأكثرها من المخلفات التي تركتها القوات الأجنبية بعد رحيلها .

أما المراسي فتنتشر على طول السواحل الأطلسية والمتوسطية وهي مرتبطة بالمراسي الأوربية والافريقية وغيرها ارتباطاً منتظماً بواسطة سفن لنقل المسافرين وأخرى لنقل السلع ، وقد دخلها وخرج منها سنة 1960 — 19.000 سفينة بلغت حمولتها 26 مليون طن ، ولا يدخل في هذه الأرقام عدد السفن التي وردت على مرسى مليلية ومرسى سبتة الخاضعين للسيطرة الاسبانية.

أشهر مدنها

وبالمغرب الأقصى مدن كبيرة ساحلية وداخلية ، اشتهر بعضها بمميزات دينية أو علمية أو ادارية أو اقتصادية ، من أهمها مدينة **فاس**

(216.133 نسمة) عاصمة المغرب السياسية والثقافية والاقتصادية الى سنة 1912 ، و **مراكش** (243.134 نسمة) عاصمته التاريخية الثانية ، و **الربـاط** (227.445 نسمة) العاصمة الحالية ، و **الدار البيضاء** (965.277 نسمة) أكبر مركز صناعي وتجاري ، و **تطوان** (101.352 نسمة) و **طنجة** (141.714 نسمة) و **مكناس** (175.943 نسمة) و **وجدة** (128.645 نسمة) .

نظامها

نظام الدولة فى المغرب ملكى دستورى ، والملك فى المغرب رئيس للسلطة الدينية (امام ــ أمير المومنين) والدنيوية ، والملك الحالى هو صاحب الجلالة الملك **الحسن الثاني** المولود بالرباط يوم الثلاثاء 9 يوليوز سنة 1929 م (1 صفر عام 1348 هـ) .

أقاليمها السليبة

تعرض المغرب الأقصى خـلال خمسة قـرون لحملات وغزوات عديدة مـا زال يتجرع مرارتهـا ، ويكابـد غصتهـا ، ففـى البدايـة شنـت عليـه الدولتان النصرانيتان اسبانيا والبرتغال غارات مكنتهما من احتـلال جـل شواطئه ، وكانتا مدفوعتين فى عملهما بوازع دينى ، وفى نفس الوقت بـدأ الأتراك العثمانيون الذين ثبتوا أقدامهم فى الجزائر يسعون فى اخضـاع أقاليمه الشرقية لحكمهم مستغلين انشغاله بمقاومة الغزاة الاسبانيين والبرتغاليين وكانوا في سعيهم مدفوعين بحب السيطرة والتوسع . وفى القرن الماضى بـدأت فرنسا واسبانيا فتوحاتهما الاستعمارية التى انتهت بعد كفاح مريـر طويل باستيلائهما التام عليه .

واذا كان المغرب الأقصى استطاع أن يسترد جميع المراسى التى استولت عليها اسبانيا والبرتغال فى الأول حتى لم يبق منها الا مرسى **مليلية** ومرسى **سبتة** وبعض الجزر الصغيرة المتناثرة أمام ساحله الشمالى ، واستطاع

أن يصد الأتراك الى ما وراء نهر **تافنا** ويتفق واياهم على جعل النهر حداً فاصلا بين الأيالتين فانه وجد صعوبات كثيرة بعد استقلاله سنة 1956 فى استرجاع المناطق التى اقتطعتها من ترابه الدولتان المستعمرتان فرنسا واسبانيا وألحق بعضها بالأقطار المجاورة له بينما اصطنع لبعضها كيان دولى قانونى بدون استشارته ولا موافقته .

وتشتمل الأطراف المسلوبة من المملكة المغربية على مناطق وأقاليم فى الشرق والجنوب الشرقى ضمتها فرنسا الى مستعمرتيها السابقتين بالجزائر ومالى ، وأخرى بالجنوب ضمتها فى الأول تحت اسم (موريطانيا) الى مستعمراتها بافريقيا الغربية الفرنسية السابقة ثم أنشأت منها دولة سمتها (الجمهورية الاسلامية الموريطانية) ، كما تشتمل على المدن والجزر والقطاعات والأقاليم التى تستمسك بها اسبانيا بغير حق الا الحق الذى تمسك به انكلترا جبل طارق .

وفيما يلى بيانات جغرافية واقتصادية عن بعض هذه الأقاليم .

1) جزائر ملوية :

ثلاث جزر صخرية صغيرة عديمة الأهمية تقع أمام رأس كبدانة Cabo de Agua غير بعيدة عن مصب نهر ملوية التى تضاف اليه ، تطلع الاسبانيون الى احتلالها بعد هزيمة المغرب فى معركة يسلى سنة 1844 وقاموا باستطلاعات عسكرية حولها فى نفس السنة ، ولما علموا باستعداد الجيش الفرنسى فى الجزائر لاحتلالها سنة 1848 أرسلوا اليها حملة تجريدية أبحرت من مالقة تحت قيادة الخنرال سيرانو فوصلت اليها ورفعت عليها العلم الاسبانى قبل وصول الأسطول الفرنسى ببضع ساعات .

وقد أنشأ فيها الاسبانيون معسكراً لجنودهم وفناراً لارشاد السفن وسجناً للمجرمين .

2) **مليلية :**

مدينة جميلة على ساحل البحر المتوسط بتراب اقليم الناظور احتلتها اسبانيا في شهر شتنبر 1497 وحصنتها وشحنتها بالجنود لصد الهجمات التي لم يفتأ المغاربة يشنونها لطردهم منهـا ، ولم يزالـوا يوسعـون رقعـة احتلالهم حتى صارت المساحة التي يبسطون عليها سيطرتهم 12 كلم .

وقد جعلوا منها منطقة حرة تجارية منذ سنة 1863 وألحقوها اداريـاً باقليم مالقة ، سكانها 100 ألف نسمة جلهم من الاسبانيين .

3) **حجرة نكور :**

جزيرة صغيرة واقعة على مرمى السهم من مرسى المزمة (الحسيمة) احتلتها اسبانيا في عهد كارلوس الثاني يوم 28 غشت 1673 وأنشأوا بها معسكراً تقيم به حامية عسكرية باستمرار .

4) **حجرة بادس :**

جزيرة صغيرة جداً تقع أمام ساحل قبيلة بقوية من اقليم الحسيمة على بعد مئة متر من مرسى بادس القديم ، ويصلها بالبر عند انحسار الماء ذارع رملي، احتلها القائد الاسباني بيدرو نافارو يوم 23 يوليوز 1508 واسترجعها المغاربة سنة 1522 ثم أعادت اسبانيا احتلالها سنة 1564 وأنشأت بها معسكراً تقيم به حامية عسكرية باستمرار ، وسجناً للمجرمين .

5) **سبتـة :**

مدينة شهيرة كانت من أهم مراكز الحضارة والثقافة بالمغرب ، وجه الدون جواو الأول ملك البرتغال لاحتلالها أسطولا يتركب من 200 سفينة ويحمل على متنه 50.000 مقاتل بقيادة الدون ألفونسو كنت برسيلوس فوصل أمامها يوم 21 غشت 1415 ونزل اليها جنوده فاحتلوها واحتفظوا بها رغم ما

كبدهم احتلالها من نكبات ، ولما احتل الاسبانيون البرتغال سنة 1580 ألحقوها بممتلكاتهم وبقيت بأيديهم منذ ذلك التاريخ رغم ما بذل المغاربة لاسترجاعها من جهود وتحملوا من تضحيات .

تبلغ المساحة التى تبسط عليها اسبانيا سيطرتها بسبتة وضواحيها 19 كلم مربع ، ويبلغ عدد سكانها 120 ألف نسمة ، وهى ملحقة ادارياً باقليم قادس من اسبانيا .

6) يفنـــي :

منطقة واقعة باقليم أكدير على الساحل الأطلسى احتلتها اسبانيا سنة 1934 بمساعدة فرنسا ، وقد كان طولها يبلغ 90 كلم فى عرض 25 كلم ، ولكن الثورة التي أوقد أهل تلك المنطقة نارها ضد المستعمر الاسبانى سنة 1957 ضيقت رقعتها حتى صارت المسافة التى التى ينبسط عليها نفوذ الاسبانيين خارج مدينة سيدى يفنى لا تتعدى 5 كلم .

7) الساقية الحمراء :

منطقة فسيحة واقعة بين اقليم طرفاية واقليم الداخلة (وادى الذهب) المحتل على المحيط الأطلسى ، بدأت اسبانيا احتلالها فى بداية هذا القرن خرقاً لجميع الاتفاقيات الدولية المصرحة بمغربيتها . تبلغ مساحتها 82.000 كلم ، ومقر ادارتها الاستعمارية فى مدينة **العيون** .

8) وادى الذهب :

يعرف هذا الاقليم فى الوقت الراهن باسمه الاسبانى وادى الذهب Rio de Oro واسمه العربي الداخلة ، وهو يمتـد جنـوب المنطقـة السابقـة مسافة 690 كلم على المحيط الأطلسى . وتبلغ مساحته 185.400 كلم مربع .

احتلته اسبانيا وحددت حدوده باتفاق مع فرنسا أثناء تفاهمهما على توزيع (الغنيمة) المغربية .

9) موريتانيا :

هو الاسم الاستعماري الذي أطلقه الفرنسيون على اقليم شنكيط المغربي وما زال يحمله حتى الآن . ويمتد هذا الاقليم الفسيح الذي تبلغ مساحته 1.169.000 كلم من المحيط الأطلسي غرباً الى مالي شرقاً ، ومن منطقة تندوف شمالا الى نهر السنيغال جنوباً .

بدأ الفرنسيون احتلاله في أول هذا القرن ، وسلكوه في سلسلة مستعمراتهم بافريقيا الغربية الفرنسية السابقة تحت اسم (موريتانيا) ثم اصطنعوا له كياناً دولياً سنة 1961 وسموه الجمهورية الاسلامية الموريتانية .



مراجع هذا الفصل (9) :

— **الاستبصار ، فى عجائب الأمصار** — تأليف كاتب مغربى مجهول .

— **الاستقصا ، لاخبار المغرب الأقصى** — تأليف أحمد بن خالد الناصرى .

— **تونس الجديدة** — تأليف صلاح الدين التلاتلى .

— **جغرافية المدن المغربية** — تأليف حسان عوض .

— **جنى زهرة الآس ، فى بناء مدينة فاس** — تأليف على الجزنائى .

— **الجغرافية المصورة للمغرب الجديد** — تأليف عمر السباعى .

— **جغرافية المغرب وسائر الوطن العربى** — تأليف ابراهيم حركات .

— **جغرافية الوطن العربى** — تأليف الدكتور فيليب رفله وأحمد سامى مصطفى .

— **دائرة المعارف الفرنسية** .

— **كتاب الجزائر** — تأليف أحمد توفيق المدنى .

— **كتاب العبر** (تاريخ ابن خلدون) — تأليف عبد الرحمان بن خلدون .

— **المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب** — تأليف عبد الرحمان التميمى المراكشى .

— **المغرب فى عشر سنوات من الاستقلال** — وزارة الأنباء المغربية .

— Algérie - Tunisie (Les Guides Bleus) .

— Le Grand Maghreb Arabe - Comité Permanent Consultatif du Maghreb .

— Maroc (Les Guides Bleus) .

— Population Légale du Maroc (Le Recensement Démografique Juin 1960) .

---

9) لا يتضمن الثبت أسفله الا أهم المراجع ، والحقيقة ان الفصل المتقدم اعتمد فى تحريره على عشرات من الكتب والنشرات الجغرافية والاقتصادية والاحصائية التى الفت عن اقطار المغرب العربى ، وكذلك الوثائق والمستندات التى أصدرتها حكوماته ، وعلى المعلومات الخاصة .

عصور التاريخ المغربي

لا ننوى أن نؤرخ فى هذا الفصل بتطويل لأقطار المغرب العربى ، لأن هذا التاريخ أكبر من أن يقوم به فرد وأوسع من أن يستوعبه عمر انسان ، وانما ننوى أن نستعرض باختصار الدول والأسر التى حكمتها منذ بدء الخليقة الى الآن ، وكذلك الغزوات الأجنبية التى تعرضت لها خلال تاريخها الطويل ومكنت بعض الدول والشعوب والجماعات الآتية من البر أو البحر أن تسيطر عليها ـ كلا أو بعضا ـ فترات من الدهر طويلة أو قصيرة خلفت آثاراً عميقة أو سطحية في حياتها السلالية والاجتماعية .

وقد يبدو هذا الاستعراض زائداً فى كتاب لا يؤرخ لبلدان المغرب وانما يعرف بقبائله . ولكنه سيظهر ضرورياً كالفصل الجغرافى المتقدم ، اذ لا مندوحة لمن يريد التعرف على أنساب القبائل المغربية ومواطنها وفروعها وأصولها من الالمام بشيء من جغرافية وطنها وتاريخه .

ويمكن لكل مؤرخ ـ وطنى أو أجنبى ـ أن يقسم تاريخ الأقطار المغربية الى عدد من العصور حسب اجتهاده أو حسب ميوله وأهوائه ، وقد ارتأيت أن أقسمها فى هذا الكتاب الى ثلاثة عصور أثرت تأثيراً كبيراً فى التطور السياسى واللغوى والسلالى والاجتماعى للأمة المغربية ، وهذه العصور هى :

1) عصر ما قبل الاسلام الذى يبتدىء من بداية التاريخ الى بداية الفتح الاسلامى لبلاد المغرب سنة 643 م (22 هـ) .

2) العصر الاسلامى ويبتدىء من الفتح الاسلامى سنة 643 م الى غـزو الجيش الفرنسى للجزائر سنة 1830 (1246 هـ) .

3) العصر الحديث ، وهو مندمج في العصر الذى قبله باعتبار ان البلاد المغربية بقيت محافظة على طابعها الاسلامي — العربي ، ولكنـــه يمتـــاز بخروج المغرب من ظلام القرون الوسطى ودخوله فى عهد جديد وصله بأسباب المدنية المعاصرة عن طريق الدول الاستعمارية التى بسطت سيطرتها بالتدريج عليه ، ثم انزاحت تلك السيطرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويبتدىء هذا العصر من سنة 1830 وهو مستمر الى الآن .

ولست بغافل عن عصر رابع هو عصر ما قبل التاريخ ، ولكنه عصر يدل اسمه على أن العقل البشرى لم ينفذ بعد الى أغواره ، لذلك لا نريد فى هذا الفصل أن نضيع الوقت فيما لا طائل وراءه من احتمالات وتقديرات .

عصر مـا قبل الاسلام

814 ق . م — 643 ب . م

يشتمل هذا العصر على تاريخ ورود الفنيقيين على المغرب وقيام دولة قرطاجنة البونيقية . ثم استيلاء الرومان عليه وتنظيمه ، ثم عبور الواندال اليه وتخريبهم لمعالم الحضارة البونيقية والرومـانية ، ثم مجيء الروم البيزنطيين واستقرارهم به الى ظهور الاسلام ، مع ما صاحب ذلك كله من قيام ممالـك وامارات بربرية .

دولة قرطاجنة البونيقية

814 ق . م — 146 ب . م

يبتدىء تاريخ المغرب بمجيىء الفنيقيين اليه واستقرارهم بسواحله وانشائهم لدولة قرطاجنة العظيمة التى هى أول دولة حاكمة معروفة فيــه ، والفنيقيون شعب شرقى من شعوب الأمة الكنعانية السامية ، ينتسبون الــى

وطنهم **فنيقيا** الواقع فى ساحل الشام بين جبل لبنان والبحر ، وأشهر مراسيه طرابلس الشام وبيروت وصيدا وصور ، وقد كانوا قوماً تجاراً يعتمدون على البحر فى كسب قوتهم نظراً لضيق رقعة وطنهم ووعورة أرضه واحاطة الأعداء بهم ، فكان لهم أسطول كبير يسافرون به الى الاقطار القاصية والدانية متجرين ، واستمروا على ذلك الى ان بدأت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد أمم بحرية جديدة تزاحمهم فى التجارة عبر البحار ، فشرعوا يفكرون حينئذ فى الهجرة الى المغرب أو تحويل مراكز نشاطهم التجارى الى شواطئه على الأصح ، ولم يمض زمن طويل حتى صار لهم نحو 500 مركز تجارى بساحل البلاد المغربية وداخليتها .

وفى سنة 814 (10) قبل الميلاد فرت الأميرة جونو (11) أرملة اسرباس رئيس كهنة صور من ظلم أخيها بيغماليون المستبد بالملك دونها والمستأثر بتراث زوجها ونزلت بساحل المغرب الذى كانت سبقتها اليه طوائف من قومها الفنيقيين ، فاشترت قطعة من أرض جبل برسة قرب تونس ، وبنت بها مدينة أضيفت الى اسمها فعرفت فى الأول باسم **قرت ــ جونو** أى قرية جونو الذى تحرف الى **قرطاجنة** فيما بعد . ولما شاع خبر تأسيسها قصدها الناس من فنيقية وسائر سواحل البحر الأبيض المتوسط ، فانتشر بنيانها ونما عمرانها وكثر سكانها حتى بلغ عددهم 300 ألف ساكن على أقل تقدير ، وأصبحت قرطاجنة منذ ذلك التاريخ حاضرة الحوض الغربى للبحر المتوسط وأكبر مراكزه التجارية ، وعاصمة دولة شرقية الأصل بأرض مغربية الموقع .

وكان من الضرورى للدولة الجديدة التى نشأت بقرطاجنة أن تؤسس حكومة تدبر أمورها وتحفظ أمنها وتدافع عن حدودها ، فأنشأت نظاماً جمهورياً تحت رئاسة شيخين ينتخبهما الشعب من أسرتين مختلفتين لمدة سنة أحدهما

---

10) تختلف الروايات التاريخية فى تحديد زمن ورود الفينيقيين على المغرب ، فمنهم من يجعله فى سنة 880 ق . م ومنهم من يجعله فى غير تلك السنة ، ويبدو من الروايات المتعددة ان التاريخ الذى أثبتناه أقرب الى الصواب .

11) تسميها روايات تاريخية أخرى عليشة ديدو .

يتولى الأمور المدنية والآخر يتولى الأمور العسكرية ولكن من غير أن يكون لأى منها الحق فى ابرام أمر أو نقضه الا بالاتفاق مع صاحبه حتى ولو كان منه الأمور الخاصة به ، كما كان بجانبهما فى الأول ثلاثة مجالس : واحد للنواب ، وثان للشيوخ ، وثالث للقضاء ، وقد اختصرت هذه المجالس الثلاثة فى القرنين الأخيرين من حياة قرطاجنة الى مجلسين فقط ، أولهما يدعى مجلس الثلاثين الذى من اختصاصاته فرض الضرائب ، وثانيهما مجلس العشرة ويختص بالأمور الدينية ، وبهذا النظام الاستشارى اشتهرت قرطاجنة بأنها أول دلة سنت نظام الحياة النيابية فى العالم ، أما الجيش الذى كان يبلغ عدده خمسين ألف جندى فقد كان يتركب من مرتزقة البربر والمأجورين من مختلف الأجناس ، لأن القرطاجنيين — ككل التجار — لم تكن تستهويهم الأمجاد العسكرية والمغامرات الحربية ، بل كان همهم منصرفاً الى الاستغناء عن طريق التجارة والنقل البحرى .

وقد كان الحكم القرطاجنى ليناً سمحاً ، ولم يكن من خطة قرطاجنة تأسيس أمبراطورية بالقوة وبسط النفوذ بالعنف ، ولهذا اكتفت بحكم ما جاورها وجاور مراكزها التجارية على الساحل ، وتركت حكم داخلية البلاد للملوك والأمراء البربريين ، وقد استمال هذا التسامح قلوب كثير من هؤلاء الملوك والرؤساء فكانوا يتصاهرون مع القرطاجنيين ويقتبسون منهم الحضارة والثقافة ويقلدونهم فى طرق المعيشة ، حتى أصبح الامتزاج تاماً بين العنصرين وكونوا وحدة كاملة فى كل شىء وصار من العسير التفرقة بين مغربى من أصل فنيقى ومغربى من أصل بربرى كما حدث بين العرب والبربر فيما بعد ، ويرى بعض المؤرخين أن السبب فى ذلك يرجع الى وحدة السلالتين أو تقاربهما فى الغالب .

وقد اجتازت قرطاجنة من نشأتها الى تخريبها بعدة أطوار كانت فى بعضها مجرد تابع لأمها صور ، وفى بعضها عاصمة دولة قوية مزدهرة وفى بعضها الآخر عاصمة وهن عظم قوتها وتألب عليها أعداؤها وخصومها وأخذت القرائن تدل على انها سائرة فى طريق الانهيار .

فخلال قرنين ونصف تقريباً (814 ق . م — 574 ق . م) كانت قرطاجنة أكبر مركز تجارى فنيقى بغرب البحر المتوسط ينفذ السياسة التى يخطها حكام صور عاصمة الوطن الأصلى . وكانت هذه السياسة تستهدف المحافظة على سيادة الفنيقيين بالبحار الغربية وتوجيه نشاط الأساطيل ونشاط جميع المراكز التجارية .

ولما سقطت مملكة صور فى قبضة البابليين ودخلت تحت نفوذ ملكهم بختنصر سنة 574 ق . م انتقلت السيطرة على الأساطيل والمراكز التجارية من فنيقية الى المغرب ، وصارت لقرطاجنة فى ذلك التاريخ أكبر قوة بحرية وتجارية بغرب البحر المتوسط ، وهى قوة ورثتها فى البداية عن فنيقيا ثم نمتها بوسائلها الخاصة على عهد الملك ملقيس والماقونيين من بعده .

وكان اليونانيون يسيطرون فى ذلك الوقت على اقليم برقة من ليبيا وبلاد الغال (فرنسا القديمة) وجزيرة كورسيكا وايطاليا الجنوبية ، بينما كان القرطاجنيون يسيطرون على السواحل المغربية من خليج سرت الى المحيط الأطلسى ، وعلى النصف الغربى من جزيرة صقلية ، وقد أدى التنافس بين اليونانيين والقرطاجنيين الى نشوء حالة حذر بالحدود الفاصلة بين مناطق نفوذهم أفضت الى حدوث احتكاكات بين قواتهم ، ولم يؤخر هجوم اليونانيين على القرطاجنيين الا تحرش الفرس الذين استقروا بساحل الشام بهم ، وعقدهم محالفات مع البونيقيين والاتروريين (ايطاليا) لتطويقهم وعزلهم ، ولكن اليونانيين استطاعوا بذكائهم ومهارتهم الصناعية والتجارية الاطاحة بذلك التحالف ، ووجهوا للبونيقيين ضربة عنيفة فى هيمار بجزيرة صقلية سنة 480 ق م ، كما هزموا الفرس فى واقعة سلامين البحرية فى نفس السنة ، وكسروا الأتروريين سنة 474 ق . بمدينة كومة الواقعة فى جنوب ايطاليا .

وبعد انهزام البونيقيين فى واقعة هيمار طلبوا الصلح من اليونانيين فنالوه بعد لأى من الملك جيلون الاغريقى الصقلى ، فانكمشت قرطاجنة على نفسها وسلكت سياسة تقشفية بعد أن أغلقت أسواق الحوض الشرقى للبحر المتوسط أمام أساطيلها وتجارتها ، وأدخلت عدداً من الاصلاحات على نظمها

الدستورية والاقتصادية ، والتفتت لأول مرة الى الأرض الافريقية التى كانت كأنها تعيش خارجها لانشغالها بأمور البحر ، وأقبلت على الزراعة لتتخلص من المجاعة والفقر، وأرسلت بعثات استكشافية مكنتها من ارجاع ذخائرها المعدنية التي ألحقت بها هزيمة صقلية أضراراً فادحة . وقد وصلت بعثة خيملكن الاستكشافية الى سواحل بلدان أوربا الشمالية كأنكلترا والدنمرك ، كما وصلت بعثة حنون الاستكشافية الى سواحل افريقيا الوسطى .

واستمرت قرطاجنة تستجم وتتربص دوائر السوء باعدائها الاغريق حتى سنحت لها الفرصة سنة 409 ق . م فجهزت حملة سارت الى صقلية تستفزها عواطف الانتقام وأخذ الثار فاسترجعت مدينة هيمار ، ونكلت باليونانيين تنكيلا فظيعاً ، وبعد ذلك بدأ القرطاجنيون يقوون اقتصادهم ويوطدون علاقاتهم بالدول الأخرى ، فأبرموا معاهدة مع روما سنة 348 ق . م ، وانفتحت طرق الشرق فى وجوههم من جديد ، بل عادوا الى مراكزهم السابقة ببلاد الاغريق التى أصبحت تتخبط فى أزمة اقتصادية ، ولكن هذه النهضة الجديدة لم تدم طويلا ، لأن استيلاء قرطاجنة على كامل جزيرة صقلية بعد انتصارها على اليونانيين لفت نظر روما اليها ، فبدأت بينهما الاحتكاكات التى أدت الى نشوب ثلاث حروب عرفت فى التاريخ بالحروب البونيقية ، استمرت أولاها من سنة 264 الى سنة 241 ق . م ، واستمرت الثانية من سنة 219 الى سنة 201 ق . م ، ودامت الثالثة من سنة 149 الى سنة 146 ق . م ، وانتهت بتخريب قرطاجنة والقضاء على الدولة البونيقية ، وقد بدأت هذه السلسلة من الحروب عندما شرع الرومان سنة 264 ق . م فى مهاجمة مراكز قرطاجنة فى جزر البحر المتوسط حتى استخلصوها لأنفسهم واستولوا على صقلية كلها سنة 241 ق . م ، ثم انتهزوا فرصة انشغال حكومتها بأخماد نار الشغب الذى أحدثه المرتزقة فيها فاحتلوا جزيرتى كورسيكة وسردانية ، وفى هذه الأثناء تولى قيادة الجيش القرطاجنى باسبانيا القائد الشهير حنيبعل (هنيبال) بن أملكار ، وكان شديد الحقد على الرومان فعزم على غزوهم فى عقر دارهم ، واجتاز اليهم جبال البيريني (البرانس) وجبال الألب وبدأ فى محاصرة روما ، ولكن الرومان نقلوا الحرب الى قرطاجنة نفسها مستعينين

بعض أمراء نوميديا ، فاضطر حنيبعل الى رفع الحصار عن روما والعودة الى قرطاجنة مضحياً فى سبيل انقاذها باسبانيا وبعض المراكز التجارية بسواحل المغرب ، ولما رجع ورأى الحزب المعارض لسياسته يتقرب من الرومان هاجر الى سوريا حيث تجرع كأساً من السم سنة 183 ق . م ليتخلص من الجواسيس الذين كانوا يقتفون أثره .

وكان مسينيسا أحد أمراء نوميديا من البربر المتعاونين مع الرومان يجهز يومئذ على نفوذ قرطاجنة ويتوسع على حسابها حتى اضطر حكومتها الى الاعتراف بسلطته وقبول أداء جزية سنوية له ، وكان مسينيسا الذى أذهلت فتوحاته روما يستهدف القضاء على كل سيطرة أجنبية ، ولكن روما فكرت فى القضاء النهائى على قرطاجنة . فأرسلت سنة 149 ق . م جيشاً عرمرما يشتمل على 80.000 جندى بقيادة سيبيون ايميليان **Scipion Emelien** فنازل الرومان المدينة سنة 147 وقاوم القرطاجنيون سبعة أيام تحت قيادة القائد أسد روبال ، ثم اضطروا الى الاستسلام بعد ان لم يبق بين أيديهم شىء يدافعون به ، فاحتل الرومان المدينة ، ثم بدا لهم فأحرقوها سنة 146 ق . م فقضوا على حاضرة من أكبر الحواضر وعلى دولة من أعظم دول الأرض مدنية .

وقد كانت البلاد المغربية فى العصر البونيقى مقسمة الى عدد من المناطق والأقاليم يدعى كل منها باسم خاص ، فعلاوة على التراب الوطنى الذى كان يشمل قرطاجنة والأراضى القريبة منها كانت هناك مقاطعة **نوميديا** الممتدة منه الى وادى شلف غرباً ، وكانت نوميديا مقسمة الى طرف شرقى يسمى **ماسيليا** ، وقسم غربى يسمى **ماسيسيليا** ، وفى غرب نوميديا كانت توجد مقاطعة **موريطانيا** الممتدة من وادى شلف الى المحيط الأطلسى ، اما المناطق الصحراوية التى تقع خلف هذه المقاطعات فانها كانت تدعى **جيتوليا** التى يزعم بعض المؤرخين انها محرفة عن اسم **جدالة** .

الحكم الرومانــي

146 ق . م ـ 439 ب . م

ينتسب الرومان الى رومولوس ملك اللتين باني روما ومؤسسها سنة 754 ق . م . وهم أمة آرية تتكون من شعوب عديدة وأجناس مختلفة ، كانوا يسكنون في الأول سهول ايطاليا وجبالها ثم علا أمرهم فصاروا فى بعض العصور سادة الدنيا وحكام المعمور .

كانت بداية اتصالهم بالبلاد المغربية فى القرن الرابع قبل الميلاد عندما عقدوا مع الدولة البونيقية بقرطاجنة معاهدة تعاون وسلام ، ثم كان الاتصال يزيد كلما ازدادت روما قوة ونظاماً الى أن نشأت بينهم وبين قرطاجنة منافسة أدت الى نشوب الحـروب البونيقية التى انتهـت بتخريبهـا سنـة 146 ق . م ، ويظهر أن الرومان لم يكونوا في البداية يفكرون في الحلول محل قرطاجنة بجميع البلاد المغربية ، فقـد اكتفـوا في الأول باحتـلال الأراضـى المجاورة لقرطاجنة وفصلوها عن الامارات الوطنية بحدود هى عبارة عن خندق يمتد من طبرقة الى ناحية صفاقس وألحقوها تحت اسم **افريقـا** بالجمهوريـة الرومانية ووضعوا على رأسها حاكماً رومانيا يقيم فى أوتيكا Utica الواقـعـة شما ل تونس .

ولم يكن الحكم الرومانى سمحاً ولا متساهلا كالحكـم القرطاجنـى ، بل كان حكماً قاسياً يتسم بالغطرسة والطغيان ، كما كانت سيـرة الحكـام الرومانيين فاسدة وسلوكهم سيئاً ، ولذلـك ناصبتهم الامـارات والقبائـل البربرية العداء وشنت عليهم الهجمات ، ومن أشهر مقاوميهم من البربر فى السنوات القليلة التى تلت استقرارهم بالبلاد المغربية القائد البطل يوغورطة حفيد الملك مسينيسا ، فقد قاد الثورة ضدهم سنة 110 ق . م وهزمهم قـرب مدينة قالمة فى المعركة الشهيرة بوقعة سوتول ، وكرر عليهم الهزائم ، فلجأ الرومان الى الحيلة للتخلص منه ، وداخلوا بعض أمراء البربر فى القبض عليه ، فتم لهم ما أرادوا بواسطة صهره بوكوس ملك موريطانيا الذى اعتقله سنة

106 ق . م وأسلمه اليهم فذهبوا به الى روما حيث مات أسيراً فى أحد سجونها سنة 104 ق . م ، وكافأ الرومان الملك بوكوس بأن سمحوا له بالحاق نوميديا بمملكته الموريتانية .

ومع أن بوكوس ظل وفياً لروما فان عرشه تعرض لهزات عنيفة لم يكن الرومانيون أجنبيين عنها ، حتى اذا مات حوالى سنة 80 ق . م اقتسم ولداه بوغود وبوكوس الثانى مملكته ، فكان للأول قسمها الغربى الذى يبتدىء من نهر ملوية وعاصمته مدينة تينجيس (طنجة) وكان للثانى ما وراء ملوية شرقاً الى حدود **أفريكا** الرومانية .

ولما اضطربت الحالة بين الحزب الملكى والحزب الجمهورى بروما كان أمراء البربر بين مشايع ومحايد ، وقد أدى ذلك الى نشوب حرب بين الأخوين بوغود ملك موريتانيا وبوكوس الثانى ملك نوميديا انتهت بقتل الأول والحاق مملكته بمملكة الثانى .

وخلال تلك الاضطرابات والحروب كان النفوذ الرومانى ينتشر ببلاد المغرب حتى أصبحت تعيش فى نظام يشبه نظام الحماية على عهد الملك البربرى جوبا الثانى ، فلما توفى هذا الملك سنة 23 م خلفه الملك بطوليمى ، وفى عهده ثار بنوميديا زعيم من البربر يسمى تاكفاريناس وشن الغارة على الرومان وهزمهم فى وقائع عديدة ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة عليه حتى قتل بالجزائر ، ولم ينج الملك بطوليمى من بطش الرومانيين رغم أنه ظل مسالماً لهم خلال ثورة تاكفاريناس فقتلوه سنة 41 م واذ ذاك ثارت ثائرة البربر فهاجموا المراكز الرومانية فى كل مكان ، ولكن الرومان الذين كانوا فى ذروة القوة والنظام تغلبوا عليهم وفرضوا عليهم نظام الحكم المباشر سنة 42 م .

وكان الرومان شرعوا قبل فرض الحكم المباشر فى تنظيم المغرب ادارياً ، فقسموه الى ثلاث ولايات : أفريقا ، ونوميديا ، وموريتانيا ، وفى سنة 27 ق . م أدمجوا طرفاً من نوميديا فى أفريقا القديمة وصارت الحدود تمتد من الوادى الكبير قرب جيجل الى اقليم برقة ، ولما وضع الأمبراطور كلوديوس

بلاد المغرب تحت الحكم الروماني المباشر أطلقوا عليها جميعا اسم موريتانيا ، وقسموها الى موريتانيا قيصرية نسبة الى عاصمتها سيزاريا (شرشال) ، وتشمل الجزء الشمالي من أرض الجزائر وتونس ، وموريتانيا طنجية نسبة الى عاصمتها تينجيس (طنجة) وتشمل الأرض الواقعة بين وادي ملوية والبحر المحيط .

وكانت العاصمة الرومانية الأولى بالمغرب هي عوتيقة ، ثم انتقل منها حاكم الامبراطور الى جنونيا التي هي قرطاجنة ، وكان لهذا الحاكم (البروقنصل)النظر المطلق في الشؤون المدنية والعسكرية ، وكانت ولايته تستمر سنة ، فان أحسن التصرف مد أمدها سنة أو سنتين أو أكثر ، وان أساء التدبير عزل وعوقب ، وكان الموظفون يتقاضون رواتبهم من الضرائب والجبايات المستخلصة من الشعب بواسطة الأعيان ، أما الجند فكان عدده لا يزيد على 15.000 جندي فيهم الروماني والبربري والاسباني وغيرهم من المرتزقة ، وهو عدد قليل بالنسبة لسعة البلاد التي كان ينبسط عليها الحكم الروماني ، ولكن قلة عدده تدل على دهاء الولاة ومهارتهم في ضبط الرعية وتصريف الأمور ، وكان القانون الروماني يقسم الناس الى طبقتين : طبقة الأحرار وطبقة العبيد ، للأولى كل المغانم ، وعلى الثانية جميع المغارم . وقد بذلت محاولات لتسوية الناس أمام القانون من طرف بعض الحكام المصلحين فكان الفشل حليفها بسبب تعنت طبقة الأحرار المستبدين .

وتوالى الولاة على المغرب منذ عهد الأمبراطور كلوديوس ، ونعمت أقطاره على عهد الأسرة الأنطونية بفترة هدوء واستقرار ونظام ، وكان أفراد هذه الأسرة التي دشنت حكمها على يد الامبراطور طراخان (97 — 117 م) كلهم من المقاطعات التابعة لروما ، ولما تولى عرش روما الامبراطور هادريان (117 — 138 م) قرب اليه اليه المغاربة وأشركهم في الحكم المحلي والمركزي ولم يحد عن سياسة أسلافه في تأليف قلوبهم وسلوك جانب الرفق بهم الا آخرهم الامبراطور كومود الذي كان متعجرفا بليداً ، فلما اغتيل سنة 198 م انتقل الحكم المركزي الى أسرة القساة Les Sévères التي انتهت سنة 235 م من

غير أن تطول مدتها ، وبعدها نشبت بين الرومان أنفسهم في روما وبلاد المغرب فتن وثورات استمرت الى سنة 285 كان سببها التنافس على الحكم .

وفي عهد الديوليكسيون Diolection (285 ــ 305) عدل الرومان النظام الادارى المتبع في المغرب . وأصبحت موريتانيا الطنجية تابعة لأسقفية اسبانيا تحت نظر قومس محلى ، فلما تولى الملك قسطنطين الكبير (306 ــ 337) صارت تحت نظر والى الغال (فرنسا) الذى كان يعين مندوباً عنه لحكمها ولجنة من خمسة أشخاص لادارة شؤونها المالية .

وقد كان هذا الامبراطور مشهوراً بعزمه وحزمه وعدله وتسامحه ، وهو الذى اعتنق النصرانية وأعلا من شأنها وجعلها ديناً رسمياً للدولة وأمر ببناء المعابد والكنائس بجميع جهات الامبراطورية الرومانية ، ولكنه لم يلزم أحداً من الرومان ولا من رعاياهم بالدخول فيها ، بل أصدر المرسوم المعروف بمرسوم ميلان الذى يمنح به الحرية فى الاعتقاد ولقد عاشت هذه الحرية مدة حياته ، فلما توفى ألغى الرومان ــ وقد صاروا جميعا نصارى ــ ذلك المرسوم وسنوا بدله قوانين صارمة للضرب على أيدى الوثنيين والمارقين !

واجتاحت الامبراطورية الرومانية بعد موت قسطنطين الأكبر موجة من الاضطرابات السياسية والخلافات الدينية ، واختل النظام وساءت سيرة الولاة بروما وشمال أفريقيا ، وكان ذلك كله نذيراً بانهيار روما وزوال سلطانها ، وكان يحكم بلاد المغرب يومئذ القائد الرومانى الشهير الكونت بونيفاس من مقر حكمه بمدينة سبتة ، وقد سعى به أعداؤه لدى الامبراطورة (بيلا سيد ية) فعزلته سنة 427 م ، ولكنه لم يبال بقرارها واستمر فى مكانه الى أن هاجمته جيوش روما سنة 429 م فصمد لها وانتصر عليها ثلاث مرات ، ولما شعر بوهنه استجاش بالفندال أصهاره ، ووعدهم بالتنازل عن جميع غرب المملكة الرومانية لقاء مساعدته ، فعبروا البحر لنجدته تحت قيادة رئيسهم جنسريق فى شهر مايو سنة 429 م وكان عددهم 80.000 واكتسحوا السواحل مخربين مدمرين ، ولما رأى الكونت بونيفاس سلوكهم الوحشى

ندم على ما صدر منه والتمس بكل قواه المغفرة من الامبراطورة بواسطة القديس أوغسطين فعفت عنه وانقلب على الفندال يحاربهم فهزمـوه بناحية قالمة من المغرب الأوسط ففر الى هبونة (عنابة) ، واستمر الفندال يثبتون أقدامهم ببـلاد المغرب ويبسطـون عليها سلطانهم ويستخلصونها من ولاة الرومـان وجندهم حتى صفت لهم بفتح قرطاجنة عنوة يوم 19 أكتوبر سنة 439 م فطويت بذلك الفتح صفحة الحكم الرومـاني للشمال الافريقي بعد أن ظلت مفتوحـة مـدة 576 سنـة .

واذا ألقى الانسان نظرة عامة على الوجود الروماني بالبلاد المغربية وما كان له فيها من آثار فسيرى أن الحكم الروماني لم يشملها جميعاً ، وانما كان قاصراً على السواحل والمناطق المجاورة لها ، ولقد ضبط الرومان مناطـق نفوذهم بخط (الليميس) الذى هـو عبارة عن طريـق معبد أو خندق عميق أو سلسلة من المعسكرات المعدة لاقامـة الجند المحارب المكلف بحفظ الأمـن والنظام . وكـان هـذا الخط يمتد من طرابلس الغرب الى نهر أبي رقـراق ، ولم يثبت تاريخياً أن الرومان تجاوزوه أو أنشأوا لهم مراكز حربية أو تجارية على ساحل المحيط الأطلسى فيما دون الرباط ، فاحتفظ جل البلاد المغـربية ولاسيما المناطق الجبلية بحريته واستقلاله ، بينما خضع الجزء المحتل لنظام عسكرى تعسفي يهدف الى استغلال خيراتـه وتزويد رومـا بها مع استعمال وسائـل العنف والشدة لاجبار الأهالى عـلى القيام بالأعمال اللازمـة لذلك ، فكانت كراهية الوطنيين للرومان بسبب ذلك شديدة ، وحتى النصرانية التى اعتنقها بعضهم على أيديهم كانت سطحية لم تنفذ الى أعماق قلوبهم ، ولذلك ارتدوا عنها بسرعة اثر زوال حكمهم ولا سيما بعد مجيىء الاسلام المبنية قواعده على التسامح مع الأديـان وعدم اكراه الواقعين تحت ذمته على تـرك دياناتهم واعتناقه ، على أن هذا لا يمنع من القول بأن بعض حكام روما انتهجوا أو حاولوا أن ينتهجوا سياسة عدل ورفق مع الأهالى ، وان البلاد المغربية نعمت بفترات سلم وهدوء واستقرار ، وانها استفادت كثيراً مما سنته العبقرية الرومانية من نظم سياسية وادارية وأقامته من منشآت عظيمة تدل على علو كعب الرومان فى المدنية وبراعتهم الفائقة فى الصناعة . ولا تزال آثارهم بكل جهة من جهات

المغرب ناطقة بعظمتهم ، شاهدة على قدرتهم على التفنن والابداع ، فمن وليلى بالمغرب الأقصى الى طرابلس وما وراءها من المغرب الأدنى يوجـد أكثر من ستين مستعمرة رومانية ما بين مدن وقرى وحصون كانت كلها على جانب كبير من الرقي والحضارة والعمران ، وكان لكل بلدة منها ساحة عمومية (فوروم) لعقد الاجتماعات واقامة الحفلات ، ومسارح وملاعب وهياكل للعبادة وحمامات وسقايات وسواقي لجلب المـاء كمـا كانت تربطها شبكة طرق معبـدة وجسور محكمة ، ويمكن القول باختصار ان التأثير الروماني فى البلاد المغربية وأهلها ياتى فى المرتبة الثانية بعد التأثير الاسلامى — العربى .

الحكم الفندالي

429 م — 534 م

الفندال شعب قديم من شعوب الأمـة القوطية الغربية التى سكنت شمال نهر الدانوب ، وكانت مواطنهم فى القرن الثالث قبل الميلاد بشمـال جرمانيا ما بين نهر الفيستولا ونهر الأودير على سواحل البحر البلطيقى ، وهم منحدرون من السلالة السلافية ، وبعد ما انتشر هذا الشعب فى جنوب ألمانيا فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد زحف على أوربا الغربية فاستولى على بلاد الغال (فرنسا) واجتاز جبال البرينى منحدراً الى اسبانيا سنة 409 فاحتلها ونزل بجنوبها فى نواحى غرناطة وجيان واشبيلية وقرطاجنة ، فنسبت البلاد كلها اليهم وصارت تسمى فاندلوسيا أى بلاد الفندال ، وهو الاسم الذى جاءت منه كلمة (أندلس) التى أطلقها العرب على اسبانيا فيما بعد .

ولما كانت بلاد الشمال الافريقى خصيبة والحياة فيها هينة يسيرة فأن دعوة الكونت بونيفاس الوالى الرومانى لهم وجدت منهم آذانـاً صاغية ، وهكذا اكتسحوه بسرعة عجيبة ساعدهم عليها تضعضع الحكم الرومانى من جهة واعانة البربر الذين كانوا ينتظرون مجيئهم أو مجيىء غيرهم لتخليصهم من المظالم والمغارم الرومانية من جهة ثانية ، وبعد سنتين فقط من عبورهم

أسسوا بالمغرب دولة ملكية سنة 431 م . ثم استولوا على ولاية تونس (البروقنصلية) ودخلوا قرطاجنة سنة 439 م ، وبعد ذلك عبروا البحر الى جزيرة صقلية فأصبحت روما نفسها مهددة منهم بخطر محقق .

وكان الفنداليون أثناء زحفهم على الشمال الافريقي ومطاردتهم لفلول الجيش الرومانى يخربون المبانى ويحرقون الزروع ويقطعون الأشجار ، كما كانوا يطاردون أتباع مذهب دونات Donat ولذلك تقترن ذكريات حكمهم بصور الخراب والدمار حتى صار اسمهم نفسه يدل على الهمجية والوحشية ، ورغم أن الرومان استجمعوا قواهم وقووا حامياتهم العسكرية بسردانيا وطرابلس ومصر وساحل عنابة فان جنسريق ملك الفندال استطاع ان يحطم تلك القوى فى كل مكان واجهها فيه ، واضطر حكام روما سنة 476 الى الاعتراف بسيادته على عدة أقطار من الشمال الافريقى ، فكان ذلك موذنا بانهيار الامبراطورية الرومانية الغربية نفسها ، اذ لم تمض سنة على ذلك الاعتراف حتى انتقلت السلطة منها الى امبراطور القسطنطينية .

أنشأ الفنداليون دولة ببلاد المغرب توارث عرشها ستة ملوك من آل جنسريق ، وكانت عاصمتهم الأولى مدينة هيبونة (عنابة) سنة 431 ثم انتقلوا منها الى مدينة صلداى (بجاية) ثم انتقلوا مرة أخرى الى قرطاجنة سنة 455 م .

ولم يكن نفوذهم يشمل البلاد المغربية بأسرها ، فمن المؤكد تاريخيا ان موريتانيا الطنجية (المغرب الأقصى) نجت من حكمهم ، وحتى نزولهم بها عند عبورهم الى المغرب مشكوك فيه ، أما الجهات الأخرى فانهم مروا بها كالاعصار ، ولم يكن لهم مستقر ثابت الا فى شرق الجزائر وولاية تونس .

ولما مات الملك جنسريق سنة 477 تولى الملك ابنه هونيرك الذى أحرق خصومه وعذب الكاثوليكيين ، وبعد وفاته سنة 484 أضرم البربر نار الثورة ضد المحتلين ، كما حدثت بين الفنداليين أنفسهم منازعات على الملك أدت الى تدخل الأمبراطور جوستينيان ملك الامبراطورية الرومانية الشرقية لفائدة الملك الفندالىهيلديريك وضد خلفه الملك جيليمير ، ووجه البيزنطيون أسطولهم الى

بلاد المغرب تحت قيادة القائد بليزير ، فوقفت قطعه البالغ عددها 500 قطعة أمام سوسة وقرطاجنة ، ثم نزلوا الى البر واحتلوا قرطاجنة وسائر المراكز الفندالية ووقع الملك جيليمير نفسه فى قبضتهم فنقلوه الى بيزنطة وأتموا بعده عملية الفتح حتى صفت لهم البلاد فى شهر دجنبر سنة 534 بعد ان دام حكم الفنداليين لبعض جهاتها 103 سنين .

لم يخلف الفنداليون بالبلاد المغربية آثاراً تذكر بهم ، ولا أنشأوا بها نظماً ولا سنوا أحكاماً على غرار ما فعله الرومان من قبلهم ، بل كانوا قوماً قساة مضطهدين ، لا يخضعون لنظام ولا يتقيدون بقانون ، وقد واجهوا خلال القرن الذى تسلطوا فيه على بعض البلاد المغربية ثورات القبائل البربرية ومقاومة الأمبراطورية الرومانية ، ولم يكادوا يغلبون الرومان حتى نشبت بينهم النزاعات والخصومات التى أفضت الى تدخل البيزنطيين وقضائهم على ملكهم ، ولهذا لم يكن لهم تأثير على المغرب الا الفساد الذى صاحب وجودهم فيه .

الحكم البيزنطي

534 م ـــ 643 م

يعرف البيزنطيون فى الكتب العربية القديمة باسم الروم ، وهم منسوبون الى بيزانس رئيس الماغريين (1200 ق . م) مؤسس مدينة بيزنطة التى جددها فيها بعد الأمبراطور قسطنطين الكبير واتخذها عاصمة له وسماها القسطنطينية ، ثم سماها الأتراك العثمانيون عند ما فتحوها فى القرن الخامس عشر مدينة الاسلام (اسلام بول = اسطنبول) ، وليسوا يرجعون الى أرومة واحدة ، بل هم مزيج من الرومان واليونان والسلاف واللتين .

ولما رسخت أقدامهم فى بعض المناطق الساحلية من تونس تقدموا الى الجهات الغربية يحاولون فتح مدنها وقراها ، وقد استطاعوا بالفعل فتح هبونة (عنابة) وسيرته (قسنطينة) وقالمة ، ووصلت وحداتهم الاستطلاعية

الى نواحى أوراس والحضنة والزاب ، ونزلوا الى بعض المراكز الماهولة بوسط الجزائر وغربها ، ولكن لم يثبت لهم وجود بالمغرب الأقصى الا ما يردده بعض المؤرخين من غير تأكيد من أنهم وصلوا الى سبتة وطنجة ، كما لم يثبت لهم وجود فى داخلية البلاد ولا سيما الجهات البعيدة عن السواحل التونسية .

وقد عين الأمبراطور جوستنيان بعد القضاء السريع على الفندال القائد سالمون حاكماً على المنطقة المفتوحة ، وجعل مقر حكمه فى مدينة قرطاجنة ، ولكن لم يكن فى وسعه ولا فى وسع الحكام الذين جاءوا من بعده تمهيد البلاد واستئلاف سكانها رغم ما تظاهروا به فى الأول من رفق ولين ، فقد كان البربر يضيقون عليهم الخناق في كل مكان وجدوهم فيه ، ومما أعان على تألب البربر عليهم محاربتهم للمعتقدات والمذاهب الدينية التي كانت سائدة في الشمال الافريقي ، ومحاولتهم اجبار الناس على اعتناق المذهب الكاثوليكي الذى صيره الملك جوستينيان المذهب الوحيد للأمبراطورية سنة 535 م ومن أكبر قادة النضال ضد البيزنطيين فى البلاد المغربية الزعيم البربرى (يابداس) رئيس قبائل جبل أوراس الذى كان يشد عضده الزعيمان (كوتسينا) و (أورناباس) فقد التف حولهم 40.000 من البربر ساروا تحت قيادة يابداس فغزوا نوميديا وسلبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد وخربوا العمران ، وانهزم البيزنطيون أمامهم وحاولوا انشاء خطوط دفاعية يتقون بها هجمات البربر على قلاعهم وحصونهم ، ولكن ذلك لم يثن من عزيمة البربر على القضاء على حكم الأجنبى الدخيل ، فما زالت الانتصارات تواكبهم حتى وصلوا أبواب قرطاجنة فضربوا عليها الحصار سنة 597 واضطر الروم الى عقد هدنة معهم صاغرين ، ولكن سرعان ما نكثوا العهد ومكروا بهم ففت ذلك فى عضد البربر ، حتى اذا كانت سنة 610 اعتلى هرقل عرش بيزنطة وكان رجلا حكيما اعتنق فكرة التوحيد التى بلغته أصداؤها من جزيرة العرب حيث ظهر النبى الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يدعو اليها . وقد نعمت المقاطعات البيزنطية فى افريقيا على عهد هذا الأمبراطور بشيء من الهدوء والرخاء ، ولكن العرب بدءوا يكتسحون الامبراطورية البيزنطية منذ سنة 632 على عهد الخليفة أبى بكر الصديق ، كما كان الجيش البيزنطى يعانى مرارة التفرق ، وكان على هرقل أن يواجه صراعاً

جديـداً في الشمال الافريقي حيث أعلـن البطريـق كريكوريوس الثاني الذي يسميه العرب جرجير ثورته على الحاكم العسكري الذي كان يشاركه في الحكم (607)وقطع صلات الشمال الافريقي ببيزنطة وتحصن بسبيطلة ابتعاداً عن خصومه بقرطاجنة ، ولم ينقذ البلاد المغربية من الفوضى التي عمتها ويعد اليها الاستقرار المادي والاطمئنان النفساني الا ظهور الاسلام بها على يـد الجيوش العربية التي جاءت تحمل اليها الهدى والنور .

العصـر الاسلامي

643 م ـ 1830 م

العرب جنس من البشر يسكن شبه الجزيرة المنسوبة اليهم بجنوب غرب القارة الآسيوية ، وهم من شعوب الأمة السامية ومن أقـدم الأمم وجوداً وأعرقها أصولا وأكثرها في فم الزمان ذكراً ، ولغتهم لغة غنية جميلة غزيرة المادة تساعد على التعبير عن ألطف خلجات النفس وأدق المحسوسات والمرئيـات لوفرة ألفاظها ومرونة اشتقاقها ، وقد اشتهرت هذه الأمة بخصال حميـدة وسجايا كريمة ، وعرف عنها حبها الشديد للحرية وأنفتها من الذل ومقاومتها للاستعباد .

ورغم انها كانت أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ــ كانت تجل الفصحاء ، وتحترم الحكماء ، وترفع منزلة الشعراء والخطباء ، وكانت قبائل منها تحترف التجارة وتسيير القوافل بين الشام واليمن ناقلة بضائع أحدهما الى الآخـر ، وأحرز بعض أبنائها ثروات طائلة بسبب ذلك كما اكتسبوا التجارب وخبروا الحياة .

وعند ما بعث الله عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم سنة 610 من ميلاد المسيح كانت الأمة العربية متهيئة لأن تقوم بأكبر دور قامت به أمة في التاريخ ، فبعد مقاومة للنبي استمرت عدة سنوات خالطت بشاشة الاسلام

قلوب أبنائها فأذعنوا لشريعته ، وأظهروا حمية وحماساً في نصرته ، وأبدوا استعدادهم لنشره خارج جزيرتهم وتبليغ هديه الى أبعد البلدان وأقصاها عن بلدهم ، ولم يكد رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتحق بالرفيق الأعلى (632 — 11 هـ) حتى شرع الخليفة الأول أبو بكر الصديق بعد ما قضى على فتنة المرتدين — فى توجيه الجيوش الاسلامية الى خارج الجزيرة العربية ، فأمكنها فى آخر أيام خلافته وأثناء خلافة عمر بن الخطاب (634 — 644) أن تتغلب على دولتين من أكبر دول الدنيا يومئذ : فارس والروم ، وتلحق بهما الهزيمة ، وتستولى على الأقطار التى كانت تحت سيطرتهما وتفتح بلاد فارس نفسها . وتصل بعد بضع سنوات فقط من شروعها في الفتح الى بلاد الأرمن والترك بآسيا الوسطى ، وتصبح سيدة الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

ولما قدم عمر بن الخطاب الجابية من أعمال دمشق سنة 639 (18 م) أتى اليه عمرو بن العاص أحد قواد الجيوش التى فتحت الشام ووصف له مصر وصف خبير لما كان له من معرفة سابقة بها أيام الجاهلية عندما كان يتردد عليها تاجراً ، واستأذنه في فتحها مبيناً له ضرورة استيلاء المسلمين عليها تأميناً للجناح الغربي للجيوش الاسلامية الضاربة ، فتردد الخليفة أول الأمر ، ولما ألح عليه عمرو في الطلب وهون عليه أمر القبط والروم استأنس برأيه وأذن له بالسير اليها في أربعة آلاف جندى ، فانطلق عمرو بن العاص اليها في نفس السنة وكأنما نشط من عقال ، ففتح العريش واجتاز صحراء سيناء متوغلا فى أرض مصر ، فأمده الخليفة بأربعة آلاف أخرى فأكمل فتحها وعامل المسلمون أهلها بالرفق والحسنى فأسلم كثير منهم وأصبحوا من خيرة المسلمين .

بداية الفتح العربي لبلاد المغرب

643 م — 701 م

وكان من الطبيعى أن يتابع المسلمون فتوحاتهم ببلاد المغرب بعد ما أتموا فتح مصر ، كما كان على القائد المحنك عمرو بن العاص أن يؤمن ميسرة

الجيوش الاسلاميــة العاملة بها ويحميها من كل هجوم محتمـل يقـوم بـه البيزنطيون من ممتلكاتهم بشمال افريقيا . ولهذا لم يكد عمرو بن العاص يفرغ من فتح الاسكندرية في النصف الثاني من شهر شتنبر سنة 642 حتى شرع يعد العدة لفتح برقة . كما كان جنوده وقد ثملوا من خمرة النصر يتشوفون الى متابعة الغزو ومواصلة الفتح رغبة في الأجر وطمعاً في المغانم ، بل ان منهم من ذهبوا في غارات استطلاعية الى الواحات الغربية المجاورة لأرض مصر ، فلم يجدوا مقاومة من السكان .

ويذكر بعض المؤرخين أن بربر برقـة لما بلغتهم أخبار انتصارات عمرو بن العاص بمصر بعثوا اليه قبل أن يخلص من فتحها رسلا منهم يعرضون عليه الدخول في الاسلام ، ولما أفهمه الترجمان كلامهم أرسلهم الى الخليفة عمر بن الخطـاب الذي احتفـى بمقدمهـم واستقبلهـم بترحيب ، وسألهـم عـن بلادهم وسكانها وعاداتهم وعلاماتهم فأجابوه بتفصيل ، فبكى الخليفـة لأن النبي (ص) تنبأ بفتح بلاد تنطبق على أهلها تلك الصفات . ثم ردهم الى عمرو بن العاص محملين بالهدايا وأمره أن يقدمهم على الجند .

وكانت الأراضي الواقعة بين مصر وبرقة تسكنها قبيلة لواتة البربرية الشهيرة ، كما كانت تسكن واحات الصحراء الليبية بطون من قبائل هوارة ونفوسة وجرمة ، فلما أتم عمرو بن العاص استعداده أرسل سرية من الجيش تحت قيادة عقبة بن نافع الفهري الى أرض برقة سنة 643 (22 هـ) ففتح بعض مدنها وحصونها دون مقاومة تذكر ، وقابل بربر لواتة المسلمين بفرح كبير ، فلما وصلت الى عمرو أنباء عقبة المشجعة قرر الذهاب بنفسه لاتمام الفتح ، فسار على رأس جيش كبير فيه عدد من الصحابة وكبار التابعين ففتح مدينة انطابلس وصالح أهلها على الجزية . ثم أرسل عقبة بن نافع لفتح الواحـات الصحراوية تأميناً لميسرته ، وسار هو على طريق الساحل حتى نـزل عـلى طرابلس فحاصرها شهراً ثم فتحها من جهة البحر ، ثم أرسل بعثاً لفتح صبرة (سبرت) فدخلها على غفلة من أهلها ، ووجه بعثاً آخر تحت قيادة بسر بن أبي أرطاة لفتح ودان والمناطق الداخلية فأذعنت نفوسة لحكم الاسلام وعقدت مع المسلمين معاهدة .

ومن هناك كتب القائد الاسلامى الى الخليفة عمر يخبره بما فتح الله على المسلمين ، ويطلب منه توجيه المدد ويستأذنه فى فتح **افريقية** ، ولكن الخليفة أبى عليه ذلك ومنعه من التمادى فى الفتح محافظة على أرواح المسلمين ، وكان مما ورد فى كتابه عن افريقية : انها ليست بافريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت ، وكان الخليفة فى جوابه يصدر عن شعور بالمسؤولية ، ويتصرف تصرف حكيم لا تستهويه الانتصارات الأولى ، فلذلك لم يرد التغرير بالمسلمين ، ورفض الاذن لهم بالتوغل فى بلاد لا خبرة لهم بها ، ولا مراس لهم بقوة اهلها على الممانعة والمصابرة على القتال ، فلم يسع عمرو بن العاص بعد وصول جواب الخليفة واياسه من مجيىء المدد الا التخلى عن المناطق التى افتتحها من اقليم طرابلس والعودة الى مصر بعد ما رتب شؤون اقليم برقة الذى كان النفوذ الاسلامى استتب به ، وترك عقبة بن نافع على رأس الجيش العامل به ، وألحقه ادارياً بولاية مصر .

ووقف الزحف العربى بقية أيام خلافة عمر ، فلما توفى سنة 644 (ذو الحجة 23 هـ) وتولى الخليفة الثالث عثمان بن عفان أسند ولاية مصر الى أخيه من الرضاع عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وكان عبد الله قائداً عبقرياً ووالياً حازماً لا ينقص من قدره وعظمة الأعمال التى قام بها لخير الاسلام والعروبة بعض مواقفه المشوبة فى بداية الاسلام ودعايات خصومه السياسيين ضده ، فبدأ الوالى الجديد يستعد لاعادة الكرة على المغرب ، وكان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل الى افريقية فيصيبون من أطرافها ويغنمون ويكتب بذلك الى الخليفة عثمان لفتاً لنظره اليها واستدراجاً لاذنه بفتحها ، ثم استأذنه صراحة فى ذلك محذراً من وجود احتشادات للروم بالقرب من مراكز المسلمين ، وبعد ما استشار الخليفة كبار الصحابة صح عزمه على تلبية طلب ابن أبى سرح، وبدأ يحشد الجيش فى الجرف على بعد ثلاثة أميال من المدينة المنورة ، وفرق السلاح ووزع الأعطيات وأعان الجيش بألف بعير من ماله الخاص يحمل عليها ضعفاء الناس ، وانضم الى هذا الجيش عدد من كبار الصحابة وأولادهم حتى عرف بجيش العبادلة ، ولما كمل الاستعداد خرج الخليفة الى الجرف فخطب فى الجنود مرغباً فى الجهاد ، وودعهم فارتحل الجيش من المدينة فى أكتوبر

سنة 647 (محرم 27 هـ) قاصداً مصر تحت قيادة الحارث بن الحكم ، وكتب الخليفة الى عبد الله بن سعد يخبره بانفصال الجيش ويسند اليه قيادته عند ما يصل اليه ويأذن له فى فتح افريقية وبلاد المغرب .

ولما وصل الجيش الى مصر تولى القيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح كما أمر الخليفة ، وكان أخذ فى الاستعداد والتأهب لما بلغــه أن الخليفــة استجاب لمطلبه وشرع يحشد الجيش فى الجرف ، فلم يمض الا زمن قصير حتى كان الاستعداد تاماً ، فانفصل ابن أبى سرح بالجيش الذى أصبح يتألف من 20.000 جندى فيهم عرب الجزيرة وقبط مصر وبربر المغرب ، ولما وصل الى برقة انضم عقبة بن نافع اليه بمن كان معه فيها من المسلمين ، ثم قدم بين يديه الطلائع وبث السرايا فى كل ناحية ، فلما وصل طرابلس وجــد أهلهــا متحصنين وراء أسوارها فأقام يحاصرها أياماً ثم أمر الناس بالرحيل مخافة أن يشغله حصارها عما قصد اليه من غزو افريقية ، وسار حتى بلغ قابس فوجد أهلها قد تحصنوا فانصرف عنها حتى وصل الى قمونية أو قمودة فاستقر هناك ، وبدأت المفاوضات بينه وبين البطريق جريجوريوس (جرجير) حاكم افريقية المستبد المستقر بسبيطلة ، وكان المسلمون أصابهم شيء من الفتور بعد ما قطعوا هذه المسافة الطويلة ولما طلبوا المدد من الخليفة أمدهم ببعثة عبد الله بن الزبير التى هللوا لها وكبروا وتحمسوا لمقاتلة الروم ، فتقدموا نحو قمونية حيث كان جرجير متربصاً مع 120.000 مقاتل ، فدارت المعركة بين المسلمين وبينهم على مقربة من حصن عقوبة الذى يبعد عن سبيطلة 36 كلم فقتل جرجير فى المعركة وانهزم الروم شر هزيمة ، وانعقد الصلح بين الطرفين بعــد ذلك وانتشــر المسلمــون بأطــراف افريقيــة ، وتعقب الفاتحون فلول المنهزميــن الــى حصن الجــم (العجــم) فــى الشــرق فغلبوهــم وفتحــوا الحصن ، واثر ذلك أجمع رؤساء البربر على طلب الصلح ، فاشترط ابن أبى سرح عليهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد التراداد رد عليهم ، فوقع الاتفاق على ذلك ، وقسمت الغنائم بين الغزاة ، وجاء الأسطول من مصر لنقل أثقال المسلمين ، وعاد ابن أبى سرح الى مصر بعد غياب خمسة عشر شهراً من غير أن يستخلف بافريقية أحداً وأسرع عبد الله بن الزبير

الى المدينة ليقص خبر الفتح من فوق منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين .

وتجهل الأسباب الحقيقية التي جعلت عبد الله بن أبي سرح يقنع بالغنائم والأسلاب ويرجع عن افريقية بعد ما سحق الروم سحقاً في وقعة سبيطلة ووقعة الجم ، ولذلك صوب كثير من المؤرخين سهام النقد اليه . ولا جرم أنه كانت له أعذار وجيهة لم يمط التاريخ عن وجهها النقاب حتى الآن . وأياً كان فان الحالة ساءت بافريقية بعد رحيله ، واشتد ارهاق الروم لأهلها حتى حدثت بين الفريقين معارك دامية ، كما ساءت الحالة في المشرق آخر خلافة عثمان بن عفان وطيلة أيام الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ، ولما استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة 661 (41 هـ) ، اتفق أن التجأ اليه القائد جناحه Ghanaba الذي أقامه البربر بعد وفاة جرجير مقامه ، وذلك لما ناله ونال الأفارقة عن عسف البيزنطيين فحرضه على عودة العرب الى افريقية على أن يكون هو دليلهم على عورات القوم كما جاءه الصريخ من زعماء البربر يستحثونه على انقاذهم مما هم فيه ، وفي النهاية أصدر معاوية الأمر الى معاوية ابن خديج عامله على مصر بالعودة الى افريقية بعد غيبة استمرت 17 سنة ، فخرج اليها سنة 666 (45 هـ) في عشرة آلاف مجاهد فيهم كثير من الصحابة والتابعين ، وكان دليله في البداية القائد جناحه الذي مات في الطريق . وسار ابن خديج حتى اتى افريقية ففتح بعض مدنها ومعاقلها مثل جربة وسوسة وجلولاء وبنزرت ، ثم عاد الى مقر ولايته من غير سبب معقول .

وفي سنة 670 (50 هـ) عين معاوية عقبة بن نافع والياً على افريقية وهو من القواد العرب الأولين الذين دخلوا اليها عند بداية الفتح ، وكان خبيراً بشؤونها مطلعاً على أحوالها وثيق الصلات بمن أسلم من قبائلها أو ركن من غير اسلام الى ذمة المسلمين ، فسار اليها على رأس جيش قوامه 10.000 جندي ، وانضم اليه كثير من مسلمي البربر ، وتمكن في أمد قصير من فتح تونس ، ثم نظر في أحوال افريقية نظر الحاذق البصير فرأى انه لا يستقيم فيها أمر الا باستقرار المسلمين فيها بصفة نهائية وقال : ان افريقية اذا دخلها امام

تحوموا بالاسلام ، فاذا خرج منها رجع من كان اسلم بها وارتد الى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً وتكون عز الاسلام الى آخر الدهر ، فبنى لهم مدينة القيروان ، واشتغل ببنائها عن الغزو فقلت الغنائم التي يبعث بها الى ولاة المشرق . وكانت كثرتها هي المقياس الذي يقاس به اجتهاد القائد في قيادته ، ولما سمع والى مصر مسلمة بن مخلد بشروع عقبة في بناء مدينته داخلته الغيرة ، فسعى به لدى الخليفة فعزله بعد خمس سنوات من ولايته وعين أبو المهاجر دينار مولى مسلمة قائداً للجيش العربي بافريقية ، فوصل اليها وأسس تيكروان التي تبعد ميلين عن القيروان وجعل بها مركز قيادته ، ثم سار الى جبال أوراس حيث يخيم ملك البربر كسيلة ، فحقق انتصارات باهرة سنة 678 (59 هـ) ونقل مركز قيادته الى مدينة ميلة وبنى بها دار الامارة وأقام بها سنتين ، وتابع بعد ذلك فتوحاته غرباً حتى وصل الى حوز تلمسان ، وظفر فيه بكسيلة ، فعرض عليه الاسلام فأسلم محافظة على نفسه . وحينئذ خلى عنه أبو المهاجر وأبقاه معه ، ثم عاد الى المغرب الأدنى فحاصر الروم بقرطاجنة فنزلوا له عن شبه جزيرة شريك .

وفي سنة 682 (62 هـ) عزل الخليفة يزيد بن معاوية القائد أبا المهاجر وأعاد عقبة الى سابق عمله ، فجاء الى افريقية وبدأ عمله باصلاح القيروان وتوجه الى فتح ما بقي من البلاد في 15.000 جندي ، ففتح باغاية ، وقاتل الروم بلمبيس ، ثم دخل الزاب وفتح قراه البالغ عددها 360 ثم ذهب الى تيهرت ومن هناك انحدر الى السهل الساحلي وسار الى المغرب الأقصى ففتح تلمسان ودخل طنجة واحتل المدن والقرى حتى وصل ساحل المحيط الأطلسي فأدخل فرسه في الماء حتى بلغ لببه ، وشهر سيفه ورفع بصره الى السماء وقال بأعلا صوته : اللهم اني لم أخرج بطراً ولا أشراً ، وانك لتعلم اني أطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو ان تعبد ولا يشرك بك ، اللهم لو كنت أعلم وراء هذا البحر أرضاً لخضته اليها في سبيلك ! .

وعاد عقبة بعد ذلك أدراجه ، وقدم بين يديه أكثرية الجيش وقد دانت له البلاد . وكان يستصحب معه الزعيم البربري كسيلة موثقاً في الحديد

في مهانة وذل ، وكان أبو المهاجر كثيراً ما ينهاه عن ذلك وينصحه باستئلافه ومعاملته بالحسنى . فلما وصل الى تهودة وكان فى نحو الثلاثمئة من جنوده اعترضه كسيلة الذى كان تمكن من الفرار فى جموع البربر فاستلحمه وأصحابه بالمكان المعروف اليوم بسيدى عقبة من أرض الزاب سنة 683 (63 هـ) وقاتل أبو المهاجر دون عقبة حتى قتل ، وختمت بذلك حياة هذا القائد الفذ الذى يعتبر الفاتح الحقيقى للبلاد المغربية .

وبعد ذلك توجه كسيلة فى جموعه الى المغرب يريد احتلال مقر الولاية والقيادة الاسلاميتين بالقيروان ، وكان عقبة خلف به مساعده ورفيقه في الجهاد منذ بداية الفتح الاسلامى القائد زهير بن قيس البلوى مع حامية صغيرة من الجند عدتها 5000 جندي ، فلما وصلته أخبار استشهاد عقبة بتهودة عزم على القتال وأخذ يتأهب له ولكن القائد حنش الصنعاني ومن معه من الجنود المصريين خالفوه وعادوا الى مصر ، فاضطر زهير الى الجلاء عن القيروان سنة 684 (65 هـ) ولم يبق بها الا أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين ، فلما وصل كسيلة طلبوا منه الأمان فأمنهم .

وكان لزاماً على الخليفة عبد الملك بن مروان أن يثأر لشهداء تهودة ويستعيد ولاية المغرب التى أسلم عدد كبير من قبائلها ، وأصبح للمسلمين بها قيروان وربط ومساجد . ورغم الخطر الذى كان يواجهه من جَرّاء ثورة عبد الله ابن الزبير فانه أمر زهير بن قيس الذى كان يقيم ببرقة بعد انسحابه من القيروان بالعودة الى المغرب سنة 688 (69 هـ) وأمده بأربعة آلاف جندى فقاد ذلك الجيش عن طريق الساحل بعدما انضم اليه ألفان من مقاتلة البربر ، وسار حتى وصل الى القيروان فتخلى له كسيلة عنها ، ورحل الى ممش فتبعه زهير اليها فدارت بين الفريقين معركة حاسمة انجلت عن مقتل كسيلة وكثير من انصاره . وبعدما تفقد زهير أعمال القيروان عاد مسرعاً الى برقة ، وفى الطريق أبصر جنود اسطول بيزنطى نزلوا الى البر وأسروا جماعات من المسلمين فسار لانقاذهم وقاتل حتى استشهد هو وأصحابه دونهم فى حومة الوغى .

ولم يصرف مقتل زهير الخليفة عبد الملك بن مروان عن التفكير في اعادة الكرة على المغرب ، حتى اذا خلص من متاعبه سنة 695 (76 هـ) أعد جيشاً قوامه 40.000 جندي أسند قيادته الى القائد حسان بن النعمان ، فسار به الى المغرب وهو أكبر جيش اسلامي يدخله ، وكان عدده يتضخم اثناء الطريق بانضمام متطوعة البربر اليه ، فاجتاز ببرقة وطرابلس، وسار أولا الى القيروان، ثم توجه لاخضاع قرطاجنة التي كانت لا تزال بأيدي البيزنطيين فاخضعها وطرد الروم منها . ثم سار الى الكاهنة أميرة قبيلة جراوة بجبل أوراس فهزمته بوادي نيني قرب مدينة مسكيانة واسرت 80 من رجاله ، وتبعه جنودها حتى اخرجوه من افريقية ، فتقهقر الى برقة وأقام بها ثلاث سنوات ، وخلال ذلك أمرت الكاهنة جنودها بتخريب البلاد المغربية تأييساً للعرب منها بزعمها ، فانطلقوا يعيثون فيها فساداً : يخربون المدن وينسفون الحصون ويقطعون الأشجار . وأثارت هذه السياسة الخرقاء أحقاد السكان فبعثوا الى العرب مستغيثين ، فعاد حسان ــ وقد وصله المدد ــ الى المغرب سنة 700 (81 هـ) ، ولما أحست الكاهنة بدنو العرب منها استأمنت لولديها بواسطة خالد بن يزيد القيسي الذي كان أسيراً لديها وعيناً لحسان بمجلسها ، وبعد ذلك جرت الحرب التي انتهت بمقتلها فتم بموتها فتح المغرب بصفة نهائية ، واسلم البربر وانخرط كثير منهم في سلك الجندية ، وكان ذلك في أكتوبر سنة 701 (رمضان 82 هـ) .

وبعد ذلك ساد افريقية وبلاد المغرب كلها الهدوء والاستقرار ، وانصرف حسان الى توطيد أركان الاسلام والعروبة فيها ، وادخل كثيراً من النظم والاصلاحات الادارية والمالية ، وأنجز عدداً من الأعمال العمرانية التي منها بناء مدينة تونس وانشاء مصنع للسفن (دار الصناعة) ، ثم أعفي من منصبه سنة 704 (85 هـ) وعين موسى بن نصير اللخمي والياً على المغرب وقائداً للجيش الاسلامي المرابط فيه ، فجاء اليه وقد أسلم أهله واطمأنوا للحكم العربي ، وعم الأمن وساد الهدوء ، ولكن موسى عزم مع ذلك على اتمام فتح بعض المراكز المنعزلة التي لم تشملها بعد سلطة الوالي ، فاستمال اليه حاكم سبتة يوليان الغماري (الكونت جوليان) وأوطأ خيله وادي درعة وتخوم

الصحراء الغربية ، ثم أرسل طارق بن زياد الليثي الى المغرب وأنزل معه بطنجة 27.000 من العرب ، وأمره بعبور البحر لفتح الأندلس فاجتاز اليها يوم الاثنين 27 ابريل سنة 711 (5 رجب عام 92 هـ) على رأس جيش يتألف من 12.000 بربري وبضع مئات من العرب . وكان في نية موسى أن يستمر في فتح أوربا حتى ينتهي الى القسطنطينية ويتصل عن طريقها بعاصمة الخلافة ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك استقدمه سنة 715 (96 هـ) ، وتوالى بعده الولاة على بلاد المغرب وقد حسن اسلام أهلها . وبعث اليهم بعض الخلفاء من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين .

ولم تنج البلاد المغربية بعد ما تم اسلامها من فتن وثوارت قام بها البربر سكانها الأصليون والعرب الطارئون عليهم الذين أصبحوا يشعرون أنهم مواطنون . وقد نشأت بعض هذه الثورات احتجاجاً على جور بعض الولاة وتعسفهم وشططهم في سلب الرعية ما لها من أهل ومال ومتاع ، ونشأ بعضها الآخر عن انتقال عدوى الخلافات السياسية والمذهبية التي ذر قرنها بالمشرق الى المغرب ، ولاسيما المذهب الخارجي الذي تسرب اليه على يد أتباعه الآتين مع الجيوش الاسلامية ؛ ووجد من البربر قبولا واستحسانا فاعتنقته قبائل كثيرة منهم عن حسن نية وقاتلت دونه بحماس وحمية ، وساعد على تأجج نيران الفتن والثورات ضعف الخلافة الأموية وبعدها عن المغرب ، وانقسام العرب الى قيسية ويمنية وما نشأ عن ذلك من خلاف وشقاق ، وتشوف المغاربة الى الاستقلال بشؤونهم انسياقاً مع جبلتهم التي فطروا عليها ، وقد تمكنوا من ذلك في النهاية ، فانفصلوا عن الخلافة العباسية . وأنشأوا ممالك وامارات مغربية صرفة زاحم بعضها الخلافة في المشرق بالمناكب وتطلع الى استلحاق بعض ولاياتها .

كان الفتح الاسلامي للمغرب فاتحة عهد جديد لقحت فيه الأمة المغربية بدم جديد ، واعتنقت فيه ديناً سمحاً تآلفت به قلوب أبنائها . واقتبست لغة توحدت بها ألسنتهم وتقاربت مفاهيمهم ومقاييسهم ، وأصبحت تتوفر فيهم الصفات التي لا تكون أمة بدونها ، فانطلقوا بعد ذلك يبنون ويشيدون ،

ويؤيدون المبادىء السامية للانسانية وينصرون مثلها العليا بقلوب مومنة وعقول واعية وعزائم قوية ، فأنشأوا حضارة جديدة وخلقوا ثقافة متينة استمدوا لهما من حضارات الأمم التى سبقتهم وثقافاتها وزادوا عليها بعدما نقحوها وجددوها ثمار قرائحهم ونتاج عقولهم فكانت مثلى الحضارات وفضلى الثقافات ، استنار بها قروناً طويلة هذا البلد الطيب وما حف به من بقاع وأصقاع .

دول المغرب الأقصى :

الدولة الادريسية

788 — 985

فر ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب صحبة مولاه راشد الى المغرب سنة 786 (169 هـ) بعد انهزام أخيه محمد النفس الزكية فى معركة فخ القريبة من مكة أمام الجيوش العباسية ، ولما وصل اليه نزل على اسحاق الوربى شيخ قبيلة وربة (أوربة) فى يوم السبت 9 غشت 788 (أول ربيع الأول 172 هـ) ، ولم تلبث القبائل البربرية ان عرفت فضله وقربه من النبى ، فالتفت حوله وبايعته ملكاً على المغرب ، فخرج بها الى أريافه يمهد الأمن وينشر الدين حتى بلغ الى ماسة بجنوب اقليم سوس ، ثم سار مشرقاً حتى بلغ تلمسان ونزلت جيوشه خارجها فبايعه أميرها محمد بن خزر المغراوى ومن هناك من القبائل فدخل تلمسان واستقر بها ، ولما بلغت اخباره الخليفة هارون الرشيد اغتم وخشي أن يمتد نفوذه الى الشرق فبعث من اغتاله فى شهر غشت 793 (منسلخ ربيع الثانى 177) وخلف ادريس جارية بربرية حبلى فى السابع من أشهر حملها ، فولدت ولداً ذكراً سمى باسم أبيه . وقام مولاه راشد بالوصاية عليه وتدبير شؤون الدولة الى أن بلغ الحادية عشرة من عمره، فأخذ له البيعة فى يناير802 (ربيع الأول 186 هـ) فقام على صغر سنه بالأمر أحسن قيام يعينه مستشاروه من عرب وبربر ، ولما

كبر سلطانه وتوطد ملكه وفد عليه الناس من افريقية والأندلس ، وجماعات من القبائل العربية كقيس والأزد والخزرج ويحصب والصدف وطوائف أخرى من الفرس ، فاعتز بهم ادريس ورفع منازلهم وجعلهم بطانته ، وانصرف الى تنظيم الدولة فأسس فاس عاصمتها الجديدة في يناير 808 (ربيع الأول 192 هـ) وبعد ما رتب الحكومة والادارة بدأ يتجول في البلاد ولاسيما في جبال الأطلس الكبير الذى كانت لا تزال فيه بقية من البربر على فطرتها الأولى فبلغها الدين ، ووطد بينها أركان الأمن ، ثم سار الى تلمسان في شهر شتنبر 814 (محرم 199 هـ) فأقام بها ثلاثة أعوام أصلح خلالها أسوارها وجدد الجامع الذى بناه والده باكدير منها ثم رجع الى فاس وقد تهدنت البلاد ، فلم يزل مقيماً بها الى ان توفى في 20مايو 828 (أول ربيع الأول 213 هـ) . فولى بعده ابنه محمد الذى قسم المملكة بين اخوته باشارة من جدته كنزة فانفتح بذلك باب فتنة أضعفت الدولة وأذهبت الهيبة . ولما توفى سنة 836 (221 هـ) خلفه ابنه على الملقب بحيدرة الذى حسنت الأحوال في عهده ، وبعد وفاته في يبراير 849 (رجب 234 هـ) تولى الملك أخوه يحيى بن محمد الذى كثرت في عهده العمارة بفاس وبنى جامع القرويين وجامع الأندلس ، وبعده انتقل ملك الأدارسة من بنى محمد بن ادريس الى بنى أخيه عمر بن ادريس فكثرت الفتن وساءت الأحوال ، وبدأ الأمويون بالأندلس والعبيديون بافريقية يتدخلون في الشؤون المغربية مستعينين ببعض أمراء البربر ، وقد استطاع هؤلاء أن يقضوا على الدولة الادريسية بفاس ويضطهدوا ملوكها وأمراءها ، فانحازوا الى الشمال واعتصموا بقلعة حجر النسر ، وكان من أشهر أمرائهم القاسم كنون بن محمد ابن القاسم بن ادريس الذى دعا للعبيديين ، وابنه أبو العيش الذى دعا للأمويين ثم الحسن بن كنون الذى لفظت الدولة الادريسية أنفاسها بوفاته سنة 985 (375 هـ) .

كانت المملكة الادريسية مملكة واسعة الأطراف ، امتدت من المحيط الأطلسي الى نهر شلف (12) فشملت المغرب الأقصى والنصف الغربي من

---

12) واد ينبع في وسط القطر الجزائرى خلف جبال ونشريس ، ثم يسير الى الشمال والشمال الغربي مارا ببوغارى ، وخميس مليانة والاصنام حتى يصب في البحر المتوسط شمالي مستغانم ، وهو من أهم أودية الجزائر وأطولها ، وحوضه من أخصب أراضيها .

الجزائر الحالية باستثناء أربع امارات صغيرة هي امارات بني عصام بسبتة (13) وبني صالح بنكور (14) وبني مدرار بسجلماسة (15) وبني رستم بتيهرت (16) ورغم وجود هذه الامارات فان فضل الدولة الادريسية على الوحدة المغربية عظيم ، لأنها استطاعت أن تنظم في سلك الطاعة قبائل عنيدة شديدة المراس تحتل بلاداً شاسعة الأطراف لم يسبق لقوة من القوى ان أخضعتها لسلطة مركزية واحدة ، ويذكر التاريخ أن محمد بن ادريس الثاني قسم المملكة بين اخوته ، ولكنه لم يكن الا تقسيماً ادارياً اقطاعياً ، لأن فاس ظلت هي مصدر الحكم وينبوع السلطان ، ومع ذلك فان ما فعله محمد ابن ادريس يواخذ عليه في عرف السياسة ، لأنه وان لم يجزىء المملكة الى ممالك جر اليها ضعفاً أدى في النهاية الى التدخل الأجنبي في شؤونها والقضاء عليها .

ولقد كان شرف نسب الأسرة الادريسية وقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم عاملا قوياً لنشر الدين الاسلامي واخماد نائرة بعض المذاهب المتطرفة التي تسربت من المشرق الى المغرب ، ولم يمتنع على الأدارسة الا قبيلة برغواطة التي كانت تسكن منطقة تامسنا (17) فقد ظلت هذه القبيلة تمارس طقوساً دينية غريبة كصوم يوم الخميس وأداء عشر صلوات في اليوم والامتناع من أكل البيض ولحم الديك ورؤوس السمك .

---

13) بنو عصام أسرة بربرية استقلت بحكم سبتة سنة 741 (123 هـ) وظلت تحكمها حتى استولى عليها الناصر الأموي بعد قرنين ونيف .

14) بنو صالح بن منصور أسرة حكمت بعض القبائل المغربية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وهم الذين بنوا مدينة نكور القريبة من المزمة (الحسيمة الحالية) ، واستمر حكمهم لتلك الناحية حتى قضى عليهم الفاطميون في بداية القرن الرابع الهجري .

15) أنشأ عيسى بن يزيد المكناسي مدينة سجلماسة سنة 757 (140 هـ) وأنشأ بها امارة خارجية انتقل ملكها بعد حين الى ابي القاسم سمغون بن يزلان الزناتي الملقب بالمدرار المتوفى في يوليوز سنة 813 (آخر ذي القعدة 197 هـ) فتوارثها عشرة من أبنائه آخرهم محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله الذي أرسل اليه معد بن اسماعيل العبيدي قائده جوهر فحاصره بسجلماسة ثلاثة أشهر ثم ملكها سنة 960 (349 هـ) .

16) امارة خارجية أنشأها بمدينة تيهرت القاضي عبد الرحمان بن رستم الأباضي سنة 776 (160 هـ) ودامت الى سنة 909 (296 هـ) وسنخصها بالذكر لدى الكلام على دول المغرب الأوسط.

17) اقليم مغربي قديم كان يمتد من نهر أبي رقراق الى وادي أم الربيع ، وقد اندثر اليوم هذا الاسم ويقى ما يذكر به كباب تامسنا بالرباط ، والنسبة اليه (مسناوي) .

كما سارت البلاد المغربية على عهد الأدارسة فى طريق التعريب ، وذلك بوفادة القبائل العربية على المغرب للاقامة أو للعبور الى الأندلس ، وتنظيم الحكومة على أساس عربى ، وانشاء مدن ذات طابع عربى ، وبناء المساجد والمدارس والمعاهد وترتيب الفقهاء والعلماء بها لتعليم القرآن وأحكام الدين وقواعد اللغة العربية ، ومن أعظمها جامع القرويين ، وقد بدأ التاريخ يسجل لنا فى هذا العصر الشعر والخطب والمراسلات ، فكان ذلك بداية لنشوء أدب عربى مغربى .

ولا يقل دور الأدارسة الحضارى والعمرانى عن دورهم السياسى والديني فقد تمصرت في عهدهم أصيلة وزاوية وليلى (زرهون) ، وجددت أسوار تلمسان وبني جامعها الكبير يومئذ ، وبنيت جراوة (18) وترنانة (19) وأرشكول (20) وقلعة حجر النسر (21) والبصرة (22) ، اما فاس فهى أكبر منشآتهم ، بناها ادريس الثانى دفينها فأحكم بنيانها وكثر مرافقها وأنشأ بها وحولها المصانع والغروس وشجع بها الزراعة والتجارة فلم يمض على تأسيسها خمسون سنة حتى صارت مدينة من أكبر المدن فى غرب العالم الاسلامى .

---

18) مدينة بناحية بني يزناسن ما زالت أطلالها موجودة قرب وادى كيس ، بناها السليمانيون أبناء عم الأدارسة وولاتهم بتلمسان سنة 871 (257 هـ) كانت لها اربعة أبواب وخمسة حمامات ومساجد عديدة منها مسجد جامع من خمس بلاطات .

19) مدينة أسست فى العهد الادريسى بجبال ترارة ، لا تزال أطلالها ماثلة الى اليوم على بعد بضع كيلومترات من مدينة ندرومة .

20) مدينة أسست فى العهد الادريسى على الضفة الشرقية لوادى تافنا شمالى تلمسان ما زالت آثارها موجودة بقبيلة ولهاصة ، وتنسب اليها جزيرة صغيرة واقعة أمام مصب وادى تافنا فى البحر المتوسط .

21) قلعة في الشمال الغربى للمغرب الأقصى أسست فى العهد الادريسى سنة 929 (317 هـ) لا تزال أطلالها موجودة الى الآن بأرض قبيلة سوماتة .

22) مدينة فى الشمال الغربى للمغرب الأقصى كانت تعرف ببصرة الالبان ، وبصرة الكتان ، أسست فى أواسط القرن الثالث الهجرى .

ولا يعاب على الأدارسة الا شدة اعتمادهم على شرف نسبهم واهمالهم لانشاء جيش قوى يقضى بالمرة على شقاق بعض الطوائف فى الداخل ويحمى الدولة من أن تمتد اليها أنظار الاطماع من الخارج . كما يعاب على بعض ملوكهم ظلمهم للرعية واقبالهم على الملذات والشهوات ، الشيء الذى جعل الرعية تثور فى وجه جورهم ، وسهل على القوى الخارجية أن تتدخل فى شؤون دولتهم وتحتل عاصمتهم وتضيق على من التجأ منهم الى الجبال المنيعة ثم تقضى فى النهاية عليهم .

الامارات الزناتية

أو

المغرب بين المروانيين والعبيديين

لا يمكن للمؤرخ أن يعد الامارات التى أنشأها بالمغرب بربر زناتة من أعقاب دولة الأدارسة الى قيام دولة المرابطين — دولة لها ما للفظ الدولة من مدلول فى الاصطلاح السياسى القديم والحديث . لأنها لم تكن فى الحقيقة الا امارات ضيقة تخضع لزعامات قبلية متنافسة ، ويغلب عليها طابع التنقل والارتحال الذى تمتاز به حياة القبائل الزناتية ، يضاف الى ذلك انها لم تكن فى غالب أيامها مستقلة بالتصرف ولا منفردة بالتدبير ، فقد كان أمراؤها لا يستقلون بأمورهم حيناً حتى يدخلوا أحياناً فى طاعة العبيديين أو المروانيين.

واشتهر من هذه القبائل الزناتية فى بداية القرن الرابع ثلاث قبائل : **مكناسة** ، و **بنو يفرن** ، و **مغراوة** .

أما مكناسة فكانت مواطنها فى سهول وادي ملوية ، وكانت تتجمع اذا داهمها خطب فى الجبال القريبة من تازة ، ولا تزال بقية منها هناك الى اليوم معروفة باسمها ، وقد تقدم أنهم أسسوا دولة بنى مدرار بسجلماسة ،

وفى بداية القرن الرابع كان يتزعم القبيلة موسى بن أبى العافية ، ولما قدم المغرب مصالة بن حبوس قائد عبيد الله الشيعى سنة 917 (305 هـ) واستولى عـلى فـاس تقرب اليه موسى بن أبى العافية وهاداه ، فلما انصرف الـى القيروان ولاه على المغرب فازداد أمره عظمة ونفوذه قوة ، ثم عاد مصالة الى المغرب بعد سنتين وقبض على الأمير يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس الثاني ملك فاس وولى عليها عند رجوعه ريحان المكناسي ، ولكن الأدارسة استردوها بعد ثلاثة أعوام سنة 922 (310 هـ) واستقام بها وبالمغرب أمر الأمير الحسن بن محمد الملقب بالحجام الذى خرج فى السنة الموالية لقتال موسى ابن أبى العافية فهزمه وقتل من جيشه عدداً كبيراً ، وعاد الحسن الى فاس منتصراً ، ولكن عامله بها حامد بن حمدان الهمداني غدر به وحبسه ، وارسل الى موسى يستقدمه ليمكنه من المدينة . فجاءها واستولى عليها وعـلى جميع بلاد المغرب ، وتتبع الأدارسة قتلا وتشريـداً ، ثم استولى عـلى تلمسـان ونواحيها ونكور وسائر بلاد الريف ، ولما تم له الأمر بايع عبد الرحمان الناصر الأموى وقام بدعوته ، فبعث اليه عبيد الله الشيعى سنة 932 (320 هـ) قائده حميد بن يصليتن الكتامى فى 20.000 فارس فالتقى الجمعان بفحص المسون قرب نهر ملوية وانهزم موسى واعتصم بعين اسحاق من بلاد التسول، فاحتل حميد فاس وتنفس الأدارسة المحصورون بقلعة حجر النسر الصعداء وطردوا جنود موسى المحاصرين لهم ، وضيق قواد العبيديين الخناق على موسى وبنيه حتى قتلوه ببعض بلاد ملوية سنة 952 (341 هـ) وضعف أمر اسرته مـن بعـده .

أما بنـو يفرن فقد كانت مواطنهم الأولى بافريقية ، ثـم ما بيـن تلمسان وتيهرت واشتهر منهم فى بداية القرن الرابع أبو يزيد مخلد بن كيدان اليفرنى الذى ثار ضد العبيديين وهددهم فى القيروان ، ويعلى بن عبد الله بن بكار الذى دعا لعبد الرحمان الناصر الأموى ، وبنى مدينة فكان (23) واستـولى عـلى وهـران وفـاس بعـد ما ضعف أمـر بنى أبـى العافيـة ،

23) بين معسكر وسيدى بلعباس من عمالة وهران على بعد 25 كلم من الأولى ، تعرف اليوم بعين فكان ، وكانت تدعى فى العهد الزناتي أفكان .

ولما قدم القائد جوهر الصقلى الى المغرب سنة 958 (347 هـ) انضم اليه يعلى وقطع دعوة المروانيين ، ولكن جوهر الذى لم يكن يثق بالزناتيين دبر مكيدة لاغتياله في وادى شلف ، فاختفى ولده يدو وتفرق شمل اليفرنيين وأجاز كثير منهم الى بلاد الأندلس ، ولم يظهر يدو بن يعلى اليفرنى على مسرح السياسة والحرب من جديد الا عند ما قدم الحسن بن كنون الادريسي سنة 983 (373 هـ) بجيش من افريقية يحاول استرداد ملكه ، فلما قتل الحسن سنة 985 (375 هـ) حدثت بينه وبين منافسه على ملك المغرب زيرى بن عطية المغراوى فتن وحروب ، وكان كل منهما يستولى على فاس مدة ثم يتخلى عنها ليستولى عليها الآخر ، واستمر الأمر بينهما كذلك الى ان قتل يدو بن يعلى سنة 993 (383 هـ) فانسحب بنو يفرن الى ناحية شالة وتادلة حيث واصلوا صراعهم مع بنى عمهم المغراويين .

أما مغراوة فقد كانت مواطنهم بالمغرب الأوسط كسائر زناتة ، وكانوا شيعة لبنى أمية منذ أسلم جدهم صولات بن وزمار على يد الخليفة عثمان بن عفان ، وعندما قدم بلكين الصنهاجى سنة 980 (369 هـ) وفتك بزناتة انحازوا مع بنى عمهم اليفرنيين الى المغرب الأقصى ، وكانت رئاسة مغراوة آلت الى زيرى بن عطية ، فدعا لهشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر ، واستولى على جميع بوادى المغرب ودخل فاس سنة 987 (377 هـ) وجعلها مقر ملكه ، فعلا أمره وعظم سلطانه ، ثم خرج لحرب أبى البهار الصنهاجى بأمر المروانيين ، فاستولى على تلمسان ووهران وجبال ونشريس وانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الأقصى الى الزاب ، وبعد ما قضى على منافسه يدو بن يعلى اليفرنى سنة 993 (383 هـ) لم يبق له فى المغرب منافس وهابته الملوك . وفى غشت 994 (رجب 384 هـ) اختط مدينة وجدة وجعلها عاصمة ملكه لكونها واسطة مملكته ، ثم سمت نفسه الى الاستقلال بأمر المغرب فطرد عمال المروانيين وأجلاهم الى سبتة واقتصر على الدعاء للخليفة وحده فوق منابر مملكته ، فجهزوا اليه الجيوش من الأندلس ودارت بين الفريقين حرب كانت فى الأول سجالا ثم انهزم زيرى أمامهم فى النهاية فتخلى لهم عن المغرب الأقصى وانسحب الى المغرب الأوسط حيث توفى محاصراً

لأشير سنة 1002 (391 هـ) فولى بعده ولده المعز فضبط قومه خير ضبط وقام بالملك أحسن قيام ، وصالح المروانيين ودعا لهم فعقدوا له على فاس وسائر المغرب سنة 1003 (393 هـ) وعم المغرب بعد ذلك الهناء والرخاء الى ان توفي في مايو 1031 (جمادى الأولى 422 هـ) فتولى بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية ، فثار عليه بسلا الأمير تميم اليفرني وانتزع منه فاس في مايو 1033 (جمادى الأخرى 424 هـ) ففر الى وجدة ، ثم حشد قبائل مغراوة في مدينة تنس وأعاد عليه الكرة سنة 1040 (431 هـ) فطرده من فاس ، واستمر حمامة ملكاً بها الى ان توفي سنة 1048 (440 هـ) فولى بعده ابنه دوناس وكانت ايامه ايام رخاء وهناء ، ولم يشتغل بشيء غير البناء والتشييد الى ان توفي في نونبر 1060 (شوال 452) . فخلفه ابنه فتوح بن دوناس ، وحدثت بينه وبين أخيه عجيسة فتن وحروب الى أن قضى عليه ، فلم يزل الفتوح ملكاً على فاس الى أن ضيق عليه المرابطون بالحصار والغارات فتخلى عنها في غشت 1065 (رمضان 457 هـ) لابن عمه معنصر بن المعز بن زيري بن عطية المغراوي ، وقضى أيامه في محاربة المرابطين الى أن فقد في بعض الوقائع سنة 1068 (460 هـ) فدخل يوسف بن تاشفين فاس بالأمان ، وترك بها عامله مع مئة فارس وخرج لجبال غمارة ، ولكن الأمير تميم بن معنصر خالفه اليها وقتل من بها من لمتونة ، وأقام بها وضبطها ، فعاد اليها المرابطون ودخلوها عليه بعد قتال شديد سنة 1070 (462 هـ) وانتهت بذلك أيام هذه الامارات الزناتية بعد ما حكمت المغرب نحو قرن .

لم تكن أيام مغراوة وبني يفرن حرباً كلها ، ولا فتنة وفوضى جميعها . فقد نعم المغرب فيها رغم ما صاحبها من اضطرابات وتقلبات بفترات هدوء واستقرار طويلة انصرف فيها الأمراء الى البناء والتشييد والتعمير وتنشيط الأعمال التجارية والفلاحية والصناعية ، وفي أيامهم تحضرت فاس وزيد في جامعيها الأندلسي والقروي زيادات كبيرة ، وبنيت مدينة وجدة ، وكثر الاتصال والتنقل ما بين الأندلس والمغرب فكان لذلك تأثير كبير على تطور الحضارة والثقافة بالبلاد المغربية ، كما كثر الاختلاط والاندماج ما بين قبائل المغرب الأقصى وقبائل المغرب الأوسط ، وما بينها وبين العنصر

العربى الذى أصبح يتقوى شيئاً فشيئاً ، وضعفت فى أيامهم دعــوة الشيعة والخوارج على السواء ، وتلاشت نحلة برغواطة . وانتصر مذهب الامام مالك بن أنس . ولم تفسد الحالة الا فى أواخر أيامهم لما جاروا على الرعية وأخذوا الأموال وسفكوا الدماء بغير حق ، فانقطعت الموارد وكثر الخوف واتصل الجوع والغلاء ، فآذن ذلك بزوال حكمهم وظهور دولة أخرى قوية تمهد الأمن وتضمن للرعية العدل والرخاء .

الدولة المرابطية

1147 — 1038

خرج الفقيه عبد الله بن ياسين من الصحراء المغربيــة بقبائــل صنهاجة بعد ما نشر فيها الدين وبين الأحكام وأقام الحدود الشرعية وأنشأ ربط الجهــاد على نهــر السنيغال وتخوم الســودان ، واتجه نحــو الشمال ليضع حداً للمظالم التى كانت فاشية ببعض المدن المغربية التى كاتبه أهلها ، ويقــضى على العقائــد الفاسدة المنتشرة يومئذ فى بعض القبائل ، وكــان هو يقوم بدور المرشد الدينى الذى يامر باسم الدين فيطــاع ، فافتتــح سجلماسة واستولى على منطقة درعة سنة 1055 (447 هـ) ، ثم أخضع اقليم سوس وأقر به مذهب الامام مالك بن أنس ، وبعد ذلك قطع بقبائله جبال الأطلس الكبير وانحدر الى السهول الواقعة فى شمالها فأطاعته أغمات ثم تتبع أميرها لقوط الغمارى الى تادلة ففتحها سنة 1057 (449 هـ) ثم مال غربــاً الى اقليم تامسنا لمحاربة برغواطة التى كانت تنتحل ديناً محلياً غريباً فمات فى المعركة سنة 1059 (451 هـ) وواصل جيشه مقاتلة البرغواطيين حتى رضوا أن يتخلوا عن معتقداتهم ويذعنوا للاسلام .

كانت امارة المرابطين ساعتئذ للامير أبى بكر بن عمر من قبيلة لمتونة ، وكانت القيادة العامة للجيش مسندة الى ابن عمه القائد العظيم يوسف بن تاشفين الذى أصبح ملكاً فيما بعد ، فبعد ما تم لهم تمهيد الأقاليم

الكبرى الثلاثة : **الحوز** و **تادلة** و **تامسنا** أقام الأمير أبو بكر بن عمر مدة بأغمات ، ثم بلغته أنباء حدوث فتن بالصحراء بين قبائلها فانصرف اليها لتهدينها سنة 1060 (452 هـ) وخلف بأغمات ابن عمه يوسف بن تاشفين الذى شمر عن ساق الجد لتنظيم الأقاليم والجهات المفتوحة اداريا وعسكريا ولما عاد أبو بكر وجد الأمر قد استقام ليوسف والشعب ملتفا حوله فرجع الى الصحراء وظل بها ينشر الاسلام بين قبائل السودان الى أن توفى سنة 1087 (480 هـ) .

أصبح يوسف بن تاشفين ملكاً على البلاد منذ سنة 1061 (553 هـ) وكانت عزيمته قوية ونظره بعيداً ، فاختط مدينة مراكش سنة 1062 (554 هـ) لتكون عاصمة ملكه ، وواسطة بين الأقاليم القريبة والبعيدة من المملكة المغربية ، ثم أنشأ جيشاً كبيراً من قبائل صنهاجة وزناتة والمصامدة بلغ عدد فرسانه 100.000 زحف به من مراكش لفتح ما بقى من حواضر المغرب الأقصى وأقاليمه خارجاً عن سلطته ، فاستولى على جبال فازاز (الأطلس المتوسط) وجبال الريف ، وفتح فاس الفتح الأول والثانى فتم له اخضاع المغرب سنة 1070 (462 هـ) ولم يبق خارجاً عن طاعته الا طنجة وسبتة اللتين خضعتا بدورهما سنة 1078 (470 هـ) ، وبعد ذلك توجه قائده مزدلى لفتح المغرب الأوسط فاستولى على تلمسان وملك المدن والقرى الواقعة حول نهر شلف .

وما كاد الأمر يستتب ليوسف بن تاشفين وصيته يذيع وينتشر حتى بدأت أنظار المسلمين فى الأندلس تتطلع اليه وقد كانوا فى ضيق شديد من النصارى الذين احتل ملكهم الفونسو السادس طليطلة سنة 1085 (478 هـ) وأخذ يهدد الحواضر الاسلامية الأخرى ، وبعد ما استصرخ بيوسف مسلمو الأندلس وأمراء طوائفها جاز اليها على رأس الجيوش المغربية وهزم النصارى هزيمة كبرى سنة 1086 (479 هـ) فى سهل الزلاقة القريب من بطليوس ، ثم عاد الى المغرب ، وجاز مرتين أو ثلاثاً أخرى الى الأندلس تمكن خلالها من صد عادية النصارى وضم الأندلس الى المغرب ، وما كاد يموت سنة 1107

(500 هـ) حتى كانت أحكام المرابطين سارية من وسط السودان الى وسط الأندلس ، ومن جزائر بني مزغنة (الجزائر) الى المحيط الأطلسي .

وتولى الملك بعده ولي عهده علي بن يوسف ، وكان ضابطاً حازماً وفقيهاً أديباً ، بذل قصارى جهده في الدفاع عن الأراضي الاسلامية بالأندلس وانشاء المباني وتشجيع الحركة العلمية ، ولكنه ابتلي في آخر ايامه بظهور دعوة الموحدين على يد الفقيه محمد بن تومرت الهرغي وتلميذه عبد المومن بن علي الكومي ، فلما توفي سنة II43 (537 هـ) خلفه ابنه تاشفين . وكان أمر الموحدين عظم واشتد ، ودارت بين المرابطين والموحدين معركة فاصلة بتلمسان انهزم فيها المرابطون وفر ملكهم تاشفين الى أحد الحصون المبنية على وهران فقتل به في 23 مارس II45 (27 رمضان 539 هـ) وهو ينتظر ورود قطع الأسطول التي ستنقله الى الأندلس أو المغرب ، فتولى الملك بعده ولي عهده ابراهيم ، ولكنه كان عاجزاً عن التدبير فخلعه المرابطون وولوا مكانه عمه اسحاق بن علي، ولكن الموحدين لم يتركوا لهم مهلة يستجمعون فيها أمرهم ، فقد استولوا على فاس سنة II45 (540 هـ) ، ثم زحفوا على مراكش فدخلوها عليهم في مارس II47 (شوال 54I هـ) .

لقد كان أثر المرابطين في الحياة السياسية والاجتماعية المغربية عظيماً ، فهم الذين أنشأوا بالمغرب الأقصى على انقاض الامارات الزناتية الصغيرة المتنازعة مملكة قوية جمعت شمل أهله ووحدت كلمتهم ، فاستطاعوا في فترة قصيرة أن يبسطوا السلطة والنظام في جزء هام من المغرب الأوسط ، ويصدوا غارات النصارى على بلاد المسلمين بالأندلس ، ويقضوا على امارات الطوائف التي شجعت بتفرقها وتخاذلها على ذلك فصارت العدوتان (24) وطناً واحداً ، ولقد كان لهذا التوحيد فائدته في زيادة التمازج والتعارف والتبادل بين سكان هذه المملكة ، كما كانت له فائدته في انتشار الثقافة العربية وازدهار الحضارة الاسلامية واختفاء كثير من النحل والبدع التي كانت

---

24) المغرب والأندلس .

فاشية بين السكــان ، ومما يذكر للمرابطين من المآثر تأسيسهم لحاضرة مراكش التي هي ثانية عواصم المغرب واحدى كبريات قواعده ، وكذلــك تأسيسهم لتلمسان العليا (تكرارت) التي أصبحت منذ أيامهم مركز الادارة والجيش ومقر الأسر الوجيهة ، وايثارهم جانب العدل وجنوحهم الى الليــن والرفق وتوقفهم عن الاضطهاد وسفك الدماء ، ومع ان كل هذه الصفات أمالت اليهم قلوب الرعية حتى سلمت البلاد على سعتها في ايامهم من الفتن والثورات ونعم أهلها بالهدوء والاستقرار فان تقديرهم للفقهاء وتحسين الظن بجميع تصرفاتهم جرأ عليهم الفقيه محمد بن تومرت مهدى الموحدين وخليفته عبد المومن بن على اللذين قوضا ملكهــم باسم الفقــه وقضيا عــلى حكمهم تحت شعار الدين .

الدولة الموحديـة

1262 — 1147

عاد الفقيه بن تومرت الهرغي الذى عرف فيما بعد بمهدى الموحدين الى المغرب سنة 1116 (510 هـ) بعد ما قضى فى المشرق عشر سنوات طالباً للعلم ، وفى طريق رجوعه التقى بالفتى عبد المومن بن على الكومي فتوسم فيه الذكاء والنجابة فاصطحبه معه الى بلاده وكان كلما دخل قرية أو مدينة انتصب بالمساجد والأسواق العمومية للوعظ والارشاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأقبلت عليه العامة لما وهب من قوة حجة وسهولة اقناع وقدرة على التعبير باللسانين العربى والبربرى ، ولما ضاق سلاطين المرابطين به ذرعاً جمعوا لمناظرته الفقهاء والعلماء فأفحمهم وأعجزهم وبكى السلطان أمام الجلساء متأثراً من كلامه ، وعندما أحس ابن تومرت بما يدبر له فى الخفاء التحــق بقبيلته فى جبال المصامدة (الأطلس الكبير) وأسس هيأة للدعاة وشرع فى قتال المرابطين الذين سماهم المجسمين بينما سمى أنصاره الموحدين ، وما زال أمره يعظم حتى حاصر مراكش سنة 1123 (517 هـ) ولكن المرابطين هزموه وقتلوا عدداً من أصحابه ، ولما بلغه ذلك قال : (ما بقى عبد المومن فلم يهلك أحداً) ! .

وفى سنة 1130 (524 هـ) توفى ابن تومرت ودفن بتنمل ، فخلفه فى قيادة الموحدين تلميذه عبد المومن ، فما زال ينتقل بهم من نصر الى نصر حتى قضى على خصومه واستولى على عاصمتهم مراكش سنة 1147 (541 هـ) وحينئذ أطاعته البلاد كلها ، وجاءته البيعات من الصحراء والأندلس والمغرب الأوسط ، وبعدما قضى فترة تمكن فيها من تنظيم الدولة الجديدة خرج بجيش كثيف الى المغرب الأوسط ، فاستولى على الجزائر سنة 1151 (546 هـ) ثم استولى على بجاية وقسنطينة وقلعة بنى حماد ، ولما عاد ترك ولده عبد الله والياً على المغرب الأوسط فضيق على مملكة الصنهاجيين بافريقية ثم استولى عليها سنة 1158 (553 هـ) وفى السنة التالية خرج عبد المومن بنفسه الى المغرب الأدنى فأتم فتحه ، وأطاعته طرابلس وبرقة ، وازداد نفوذه قوة بعدما استرجع المهدية من أيدى النورمانديين سنة 1160 (555 هـ) ، واثرها عاد الى المغرب وشرع فى ادخال الاصلاحات المالية والادارية والعسكرية ، ولكن المنية عاجلته سنة 1163 (558 هـ) فبويع ابنه يوسف الملقب بالعسرى الذى بذل جهوداً مشكورة فى الدفاع عن الأندلس الاسلامية حتى استشهد بشنترين من أرض البرتغال سنة 1184 (580 هـ) فبويع لابنه يعقوب الملقب بالمنصور الذى بلغت الأمة المغربية والدولة الموحدية فى عهده أوج عظمتهما ، وهو الذى أدخل العرب الهلاليين الى المغرب ، وأتم بناء مدينة الرباط ، وهزم الاسبانيين يوم 19 يوليوز 1195 (9 شعبان 591 هـ) عند حصن الأرك ، وازدهرت فى عهده الثقافة وانتشر العمران ، وكانت وفاته سنة 1198 (595 هـ) فخلفه ابنه محمد الملقب بالناصر الذى سار على نهج سلفه فى حماية حوزة المملكة وتوفير الهناء للشعب ، ولكن الحظ خانه فى غزوة العقاب (1209 — 609) التى هزمه فيها نصارى الأندلس ، فاغتم لذلك وفسدت طباعه وعاجلته المنية فى السنة الموالية ، وبعد وفاته وولاية ابنه يوسف المستنصر بدأ الضعف يدب الى الدولة ، فأقبل السلاطين على ملذاتهم وأهملوا النظر فى الأمور . واشتد التنافس بين الأمراء واستعانوا على بعضهم بقواد الجيش وولاة الأقاليم ، فكثر الثوار ، واستقل بعض الولاة بولايوتهم ، وتشوفت قبائل زناتة الى التملك من جديد رغم أن قبيلة كومية التى تنتمى اليها الاسرة الملكية الموحدية واحدة

منها فكان لها ما أرادت ، واحتل بنو مرين منها مراكش سنة 1270 (668 هـ)
وانقضى أمر الموحدين من المغرب بعدما استمر فيه أزيد من قرن ، وقامت على انقاض دولتهم بالمغرب العربي أربع دول : الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى ، والدولة الزيانية العبد الوادية بالمغرب الأوسط ، والدولة المرينية بالمغرب الأقصى ، والدولة النصرية الاحمرية بالأندلس .

كان من أبرز أعمال الموحدين جمع شتات الأقطار المغربية والأندلسية تحت راية واحدة وانشاء دولة قوية أنقذت المغرب الأدنى من فتن العرب الطارئين وتهديد النصارى النورمانديين ، كما صدت غارات الممالك والامارات الاسبانية على الأندلس الاسلامية وأقفت الى حين تقدمها ، ومما لا يجادل فيه مؤرخ انه لولا تدخل المرابطين ثم الموحدين واستماتة المغاربة فى الجهاد لسقطت الأندلس مبكرة في أيدى النصارى وكان مصيرها ومصير صقلية المسلمة واحداً .

وقد عاشت البلاد المغربية على عهد الموحدين أحسن عصورها الثقافية والحضارية ، وكانت متمتعة بنظام حكومي وادارى متين سواء على الصعيد الحكومي أو الصعيد الاقليمي ، وأنشأ سلاطين الموحدين الذين تلقبوا لعظمتهم بالخلفاء جيشاً قوياً وأسطولا مرهوباً وأحدثوا بكل مكان الأبنية العظيمة والمنشآت الرفيعة التى منها مدينة الرباط وقصبة المهدية وقرية تينمل ، وعدد لا يحصى من المستشفيات والمساجد والقصبات والربط ، ولا تزال أبنيتهم العظيمة كصومعة الخيرالدة باشبيلية وجامع الكتبيين بمراكش وجامع حسان بالرباط تشهد بعظمتهم وشدة اهتمامهم بالعمران ، أما الحركة العلمية والثقافية فانهم أخذوا بضبعها وشجعوا هيآتها ورجالها ، وكان بلاطهم يغص بمئات من الفلاسفة والأطباء والفقهاء والكتاب والشعراء الذين ألفوا فى كل الفنون والعلوم ، وكان من بين خلفاء الموحدين وأمرائهم من شارك بنفسه فى الحركة العلمية والثقافية وكانت له آراء واجتهادات كما كانت له أشعار وترسلات .

وفى عصر الموحدين ازداد تمازج العناصر المتساكنة فى مملكتهم من بربر وعرب وأندلسيين ، وقطعت البلاد المغربية مراحل أخرى فى طريق تعربها باستقرار القبائل العربية الهلالية والسليمية فى جميع جهاتها وانتشار الثقافة العربية بين أهلها ، وقوى التبادل الاقتصادى بين أقاليمها الدانية والقاصية من جهة ، وبينها وبين البلاد الأوربية والعربية والافريقيــة مــن جهة ثانية .

أما الوضع الدينى والمذهبى فانه استمر كما كان فى عهد المرابطين ، وقد حاول بعض خلفائهم ان ينشروا فى الأول المذهب الظاهرى من خــلال التحمس للكتب الفقهية والعقائدية التى وضعها (الامام المعصوم ، المهدى المعلوم) محمد بن تومرت ، ولكنه فشل . وتخــلى خلفاؤهم الأخيرون عــن القول بعصمة المهدى . فاستمرت البلاد سنية كما هى الآن ، تتبع فى الأصول مذهب أبى الحسن الأشعرى ، وتعتمد فى الفروع مذهب مالك بن أنس .

الدولة المرينيــة

1465 — 1270

نزح بنو مرين فى بداية القرن السابع الهجرى من مواطنهم الأصلية بين تيهرت وتلمسان الى الجنوب الشرقى من المغرب الأقصى حيث أقاموا فيه ينتجعون ويمتارون على عادة البدو الرحل ، وكان ملوك الموحدين كثيراً ما يستعينون بهم فى الخدمات المخزنية (الحكومية) ويجيزونهم الى الأندلس للجهاد ، فلما دب الوهن الى الدولة الموحدية بعد وقعة العقاب تشوف بنو مرين الى الملك ، فبدءوا يشنون الغارات على أطراف المغرب ، ودام الصراع بينهم وبين الموحدين من سنة 1216 (613 هـ) الى سنة 1270 (668 هـ) .

وكانت زعامتهم فى بداية أمرهم لبطلهم عبد الحق بن محيو ، فلما توفى توارثها أربعة من أبنائه ، أشهرهم وآخرهم يعقوب بن عبد الحق الذى

أصبح سلطاناً للملكة بعد القضاء على آخر خلفاء الموحدين بمراكش وتلقب بأمير المسلمين ، وقد انصرف فى السنين الأولى لخلوص الملك له الى تنظيم الدولة وكان من أول ما عمله بناء فاس الجديد (21 مارس 1276 — 3 شوال 674 هـ) واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة ، ثم أخضع الامارات والمناطق التى ظلت خارجة عن حكمه ، وكبح جماح بنى عمه عبد الواد ملوك تلمسان ، ثم استجاب لصريخ مسلمى الأندلس وحكومتها ، وجاز اليها أربع مرات انتصر فى كل مرة منها انتصارات عظيمة ذكرت بايام يوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور ، ولما توفى سنة 1286 , 685 هـ) كانت الدولة فى أوج المجد وغاية التنظيم . وخلفه ابنه يوسف بن يعقوب الذى كان مثل أبيه كرماً وشجاعة ومحبة فى العلم واهتماماً بأمور الشعب ، وسار على خطته فى انجاد الأندلس الاسلامية وامدادها بالأقوات والرجال ، ولما غاظته تحرشات بنى عبد الوادى غزا تلمسان عدة مرات بنى خلالها رباط تازة ، وحصن تاوريرت ، ووجدة ، وشحنها بالمقاتلة ، ثم حاصر تلمسان الحصار الكبير الذى استمر من سنة 1299 (698 هـ) الى سنة 1307 (706 هـ) ، فاغتاله فيها أحد عبيده بعدما أطاعته مدن المغرب الأوسط وقبائله وبنى بظاهر تلمسان مدينته **المنصورة** التى بقيت عاصمة للدولة ثمانية أعوام ، فبويع حفيده أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف فارتد الى المغرب واستقدم الحاميات العسكرية من المغرب الأوسط وأسلم البلاد لبنى عبد الواد ، وبعد سنتين من ولايته توفى مسموماً . فتوالى الملوك من نسل عبد الحق على ملك المغرب ، وكان من اشهرهم السلطان أبو الحسن (1331 — 1351) الذى أعاد للبلاد المغربية وحدتها القديمة ، وابنه أبو عنان (1351 — 1358) الذى خلف آثاراً عظيمة فى جميع جهات المغرب ، وخلال ذلك كانت الحالة تسير فى طريق السوء رغم ما كان يظهر على البلاد من مظاهر الرخاء الاقتصادى والازدهار الثقافى ، فقد كثر الشقاق بين أمراء البيت المالك ، واستبد الوزراء على الملوك فأخذوا يتصرفون التصرف الحقيقى باسمهم ، وواصل النصارى غاراتهم على ما بقى من المملكة الاسلامية بالأندلس واجتزاء مدنها وقراها مدينة بعد مدينة وقرية بعد قرية، وتفاقم الأمر فى بداية القرن الرابع عشر عندما شرع البرتغاليون

والاسبانيون في احتلال الشواطىء المغربية (25) واستهان السلاطين بعواطف الشعب حتى ولى عبد الحق المريني الوزارة وأمانة المال لليهود . فثار عليه الشعب سنة 1465 (869 هـ) وقتله ، وانقرض بموته الفرع العبد الحقي من دولة بني مرين .

ورث المرينيون عظمة الدولة الموحدية وبذخها ولكنهم لم يعرفوا كيف يحتفظون بذلك ، ورغم المحاولات التي بذلها في الأول السلطان يعقوب بن عبد الحق وابنه السلطان يوسف ، والمحاولات التي بذلها في الوسط السلطان أبو الحسن وابنه السلطان أبو عنان فانهم لم يستطيعوا المحافظة على وحدة الأقطار المغربية كما لم يستطيعوا ايقاف الزحف النصراني على الأندلس في النهاية ، وقد كان من الممكن أن تبلغ المملكة المغربية في عهدهم مبلغاً رفيعاً لو ان البلاد سلمت من الثورات المتوالية والفتن المتواصلة التي كان يضرم نارها في الغالب أمراء البيت المالك ، ومما أنهك قوى المرينيين حروبهم التي لم تنقطع مع ملوك تلمسان الزيانيين العبد الواديين ، تلك الحروب التي استمرت ثلاثمئة سنة وكان الرابح فيها خاسراً ، ولم يسجل التاريخ المغربي دولة سفكت فيها الدماء وسيق الملوك والأمراء والوزراء فمن دونهم الى المذابح سوق الأغنام كما سجل ذلك في العهد المريني . ومع كل ذلك — تعتبر الدولة المرينية من أعظم الدول المغربية وأطولها أياما ، وقد تحققت خلالها بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط كثير من الأعمال العمرانية كبناء المدن والمساجد والمدارس والحمامات والسقايات التي بلغت منتهى الروعة والجمال ، كما سنت فيها كثير من القواعد الحكومية والعادات الاجتماعية التي لا تزال تطبع الدولة والمجتمع في المغرب الى الآن . ومما تمتاز به الدولة المرينية نشاط الحركة العلمية والأدبية والدينية ، واحتضان ملوكها لعدد لا يحصى من الشعراء والكتاب والعلماء والفقهاء الذين خلفوا وراءهم ثروة طائلة من المؤلفات طرقوا فيها كل باب من أبواب العلم والفن ، فهي دولة عبد العزيز الملزوزي ،

25) ابتدأ احتلال المراسي المغربية باستيلاء البرتغاليين على سبتة يوم 21 غشت سنة 1415 وتتابع الغزو بعد ذلك حتى لم ينج منه الا مرسى الرباط ومرسى سلا .

وابن أبي زرع ، وعبد الرحمان بن خلدون ، ولسان الدين بن الخطيب ، وأبي الحسن الصغير ، والخطيب ابن مرزوق . والقاضي محمد المقرى ، ولم تكن الحركة الاقتصادية بأقل من الحركة الثقافية ازدهاراً ، فقد قوى الاتصال بين المغرب والاقطار الأوربية والافريقية وكثر التبادل التجارى بينه وبينهـا ، مما أدى الى ظهور عدد من الصنائع التى كانت تلبى الاحتياجات المغربية والأجنبيـة .

الدولة الوطاسيـة

1549 — 1465

بنو وطاس فرقة من قبيلة بني مرين المتقدمة ، تولوا ملك المغـرب بعد القضاء عـلى الفرع العبد الحقى منها فلذلك يعد بعض المؤرخين أيـام الفريقين واحدة ، وينسبون دولتيهما الى الأصل الكبير فيدرجونهما معاً تحت اسم الدولة المرينية .

كانوا بنو وطاس شديدى المنافسة للملوك من بني عمهم عبد الحق ، وكان هؤلاء يترضونهم باسناد الوزارة اليهم تأليفاً لقلوبهم واتقاء لعصيانهم ، فلمـا آل الملك الى السلطـان عبد الحـق آخـر ملوك بنى مريـن أسنـد وزارته الى أبى زكرياء يحيى بن زيان الوطاسى ، ثم الى ابن أخيه على بن زيان ولما توفى سنة 1459 (863 هـ) استوزر السلطان ابن عمه يحيى بن يحيى المتقدم ، ثم لم يلبث ان بطش به وبقومه بعد 70 يوماً ، ولم ينج من القتل الا أخوا الوزير : محمد الشيخ الذى فر الى جهة أصيلة . وأخوه محمد الحلو الذى اختفى أيام البطش .

ولما نما الى السلطان عبد الحق ان الناس نقموا عليه ايقاعه بالوطاسيين لج فى عتوه وغلوائه ، وأسند الوزارة وبيت المال الى يهوديين من خاصته ، فاغتاظ العامة والخاصة وخلعوا بيعته وقتلوه فى 23 مايو 1465 (27 رمضان

869) وبايعوا محمد بن علي العمراني الادريسي نقيب الشرفاء ، ولكن لم يلبث محمد الشيخ الوطاسي الذي كان هرب الى أصيلة ان جاء الى فاس واستولى عليها وأسس بها الدولة المرينية التي أصبحت تعرف في عهدها الجديد هذا بالدولة الوطاسية ، واستمر محمد الشيخ يواجه الشدائد والأزمات من فتن بالداخل وأطماع برتغالية واسبانية بالساحل ، وفي عهده استولى النصارى على مدينة غرناطة آخر معقل للاسلام بالأندلس ، والتجأ اليه أميرها أبو عبد الله بن الاحمر آخر ملوك بني نصر الأندلسيين ، واستمر محمد الشيخ ملكاً على المغرب الى ان توفي سنة 1505 (910 هـ) فخلفه ابنه محمد المعروف بالبرتغالي ، ثم أخوه علي بن محمد الشيخ المعروف بأبي حسون للمرة الأولى سنة 1526 (932 هـ) ولكن ابن أخيه الأمير احمد بن محمد البرتغالي خلعه بعد أشهر من توليه واستمر ملكاً الى ان أسره محمد الشيخ السعدي سنة 1549 (956 هـ) وقتله بعد ذلك ففر أبو حسون المتقدم الى المغرب الأوسط واستصرخ الأتراك الذين كانوا استقروا به فأجابوه الى مطلوبه وبعثوا معه جيشاً احتل به فاس سنة 1554 (961 هـ) فعاد السلطان محمد الشيخ السعدي الى فاس واستولى عليها في نفس السنة وقتله ، وبموته انتهى ملك الوطاسيين .

كانت أيام بني وطاس أيام فتن وحروب تدهور فيها المغرب وذهبت هيبته وتكالب عليه أعداؤه من كل جهة ، ورغم أنهم كانت لهم رغبة صادقة في الجهاد واصلاح الأحوال فان الظروف التي كانت تحيط بهم وبالعالم الاسلامي كله لم تساعدهم على تحقيق مرغوبهم ، وقد احتل الاسبانيون والبرتغاليون في عهدهم جل شواطىء المغرب ، وألح الأتراك العثمانيون الذين استقروا بالجزائر على الأقاليم المغربية الشرقية والشمالية بالقتال ، ونبغت نابغة السعديين بالجنوب فكانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم ، ولم يسجل التاريخ لهم مآثر عمرانية ذات بال، أما الحالة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية فكانت سيئة الى أقصى حدود السوء ، ومن الملاحظ ان عناصر بشرية جديدة قوية انحازت من الأندلس الى المغرب في آخر أيام المرينيين وأيامهم وكان لها تأثير عظيم على الصناعة والفلاحة والحضارة والعمران .

الدولة السعديــة

1562 — 1549

ينتمي السعديون الى النسب النبوى الشريف ، وكـان خصومهـم يطعنون في انتسابهم الى الرسول عليه السلام ويقولون انهم من بنى سعد ابن بكر بن هوازن . ولم يزالوا منذ قدموا الى المغرب من ينبوع النخل مقيمين بدرعة الى استولى البرتغاليون على بعض المراكز الساحلية باقليم سوس ، وكان نفوذ الوطاسيين يومئذ فيه اسمياً ، فبحث السوسيون على أمير تجتمع عليه كلمتهم ، ويجاهدون تحت رايته عدوهم ، فعثروا بتاكمدارت من اقليم درعة على الشريف محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن مخلوف بن زيدان الذى لقب فيما بعد بالقائم بأمر الله فبايعوه ملكاً عليهم حوالى سنة 1510 (915 هـ) فشرع في تنظيـم امارتـه واستولى على الاقليم السوسى وهاجـم المراكـز البرتغالية من غير جدوى ، وفي سنة 1516 (922 هـ) تجاوزت جنوده جبال الأطلس الكبير الى الشمال فأخضعت قبائل حاحة والشياظمة وعبدة ، واستولت على مراكش ، ثم ولى عهده ولده الأكبر الأمير أحمد الملقب بالأعرج ، واستخلف بسوس ولده الأصغر محمد الملقب بالشيخ . وانتقل الى أفغال من بلاد حاحة فلم يزل مقيماً بها مسموع الكلمة الى ان توفي سنة 1517 (923 هـ) فبويـع أحمد الأعرج الذى واصل التضييق على البرتغاليين وحقق بعض الانتصارات عليهم ، مثلما انتصر على الوطاسيين الذين هالهم ما أصبح له من السمعـة العظيمة والصيت الكبير فجاءوا لمحاربته . ولم يلبث أخوه الأصغر محمد الشيخ الذى كان بقى والياً على اقليم سوس منذ عهد أبيه ان شق عليه عصى الطاعة بعد ان دخل الوشاة بينهم فغلبه واعتقله ، وأصبح محمد الشيخ سلطاناً بعد ان كان والياً فقط وتلقب بالمهدى وذلك سنة 1539 (946 هـ) ، فشمر على ساق الجد لطرد البرتغاليين من السواحل المغربية فطردهم من حصن فونتي سنة 1540 (947 هـ) ومن مدينة آسفي سنة 1542 (948 هـ) وتخلوا له عن أزمور وأصيلة فيما بعد ، وبعدما أنشأ مرسى اكدير (1543 — 949 هـ) ونظم شؤون دولته بمراكش نهض الى فاس فقضى على الوطاسيين سنة 1549

(956 هـ) وتاقت نفسه الى طرد الأتراك من الجزائر فجهز جيشاً عظيماً ذهب به الى تلمسان فاحتلها في 9 يونيو 1550 (23 جمادى الأولى 957 هـ) وانتشر حكمه في أعمالها الى وادي شلف ، ثم كر الأتراك عليها واستردوها ، ولما رآه الأتراك خطراً يهدد أملاكهم في المغرب الأوسط ، وحجر عثرة يحول دون تحقيق أطماعهم في الاستيلاء على المغرب الأقصى أرسلوا اليه طائفة من جواسيسهم اغتالوه في 23 أكتوبر 1557 (29 ذي الحجة 964 هـ) فولي بعده ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله الذي صد الزحف التركي على المغرب في السنة الموالية ، ومع انه حاصر مدينة البريجة (الجديدة اليوم) حتى كاد يستردها من البرتغاليين فان خوفه من الأتراك أداه الى مصالحة الأسبان والسماح لهم باحتلال بعض المراسي بشمال المغرب ، وكانت وفاته سنة 1574 (981 هـ) فخلفه ابنه محمد المتوكل الذي خرج عليه عمه عبد الملك بن محمد الشيخ ، واستعان بالأتراك على انتزاع الملك منه ، فذهب المتوكل الى البرتغال وتطارح على ملكها الدون سيبستيان لكي يعينه على استرجاع ملكه فأجابه الى طلبه ، وخرج ملك البرتغال على رأس جيشه صحبة السلطان المخلوع فدارت بين البرتغاليين والمغاربة معركة بوادي المخازن قرب مدينة القصر الكبير هزم فيها البرتغاليون هزيمة كبرى يوم الاثنين 4 غشت 1578 (30 جمادى الأولى 986 هـ) وقتل ملكهم والسلطان المخلوع محمد المتوكل . كما مات السلطان عبد الملك من مرض أصابه في الطريق والمعركة دائرة ، فلهذا تسمى هذه المعركة عند النصارى بمعركة الملوك الثلاثة ، وبويع في ساحة القتال خليفته بفاس أخوه أبو العباس أحمد الملقب بالمنصور وبالذهبي ، فعاش المغرب في عهده سنين مجيدة تمكن فيها من استعادة وحدته وتقوية كيانه وبسط سيطرته على ممالك السودان ، كما ازدهرت في عهده الحركة الأدبية والعلمية التي خبت شعلتها منذ العصر المريني المتوسط ، وشيدت المباني الرفيعة كقصر البديع بمراكش ، ودخلت تجديدات على المخزن (الحكومة) والادارة والجيش أكثرها مقتبس من النظم التركية التي كان السلطان أحمد المنصور مفتوناً بها ، بيد ان بوادر الانحلال بدرت في آخر حياته اذ شق عليه عصا الطاعة ولده المامون ، ثم سمه ولده زيدان أو طعن

فمات يوم الاثنين 24 غشت 1603 (16 ربيع الأول 1012) فانطلقت الفتنة بين أبنائه من عقالها . واصطلت البلاد بنيران حروب أهلية مريرة كان من نتيجتها استيلاء الاسبانيين على العرائش سنة 1610 (1019 هـ) والمعمورة سنة 1614 (1023 هـ) وظهور رؤساء محليين أقوياء جزءوا المملكة الى مناطق نفوذ ، من أشهرهم المجاهد محمد العياشي ، والفقيه أحمد السجلماسي المعروف بأبي محلي ، والرئيس يحيي بن عبد المنعم الحاحي، والمرابط أبو حسون السملالي ، ولكن لم يبلغ أحد من هؤلاء ما بلغه مرابطو زاوية الدلاء وشرفاء سجلماسة العلويون من الشفوف والظهور ، وقد كتب النصر في النهاية للشرفاء العلويين فعادت بهم وحدة المغرب الأقصى الى سالف عهدها كما ستراه فيما بعد .

ان المتتبع لأيام السعديين يراها امتداداً لأيام من تقدمهم من متأخرى المرينيين والوطاسيين المطبوعة بالفتنة والفوضى والتدهور المادى والأدبى واشتداد التدخل الاسباني والبرتغالي والتركي في الشؤون المغربية ، باستثناء أيام السلطان أحمد المنصور الذهبي التي تعد بحق أياماً ذهبية انتعشت فيها الأمة وامتدت آفاق الدولة وازدهرت الحركة العلمية حتى ظهر في المغرب من جديد علماء وشعراء وكتاب ومؤرخون وفقهاء مبرزون يعدون أداة الربط بين الماضي والمستقبل ، ويمتاز العصر السعدى أيضاً باستئناف الأعمال العمرانية التي وقفت منذ عهد بني مرين، ونمو العلاقات الديبلوماسية والتجارية بين المغرب والممالك النصرانية ودخول عناصر اسبانية وسودانية كثيرة العدد الى المغرب ، وورود عدد كبير من القبائل العربية والبربرية (شراقة) التي لم ترض بحكم الأتراك للمغرب الأوسط عليه، وأعظم ما يحفظ للسعديين من المآثر السياسية بالاضافة الى وقعة وادي المخازن — صدهم للاتراك العثمانيين وايقاف زحفهم على المغرب ، فاحتفظت البلاد بذلك بطابعها الاسلامي العربي المغربي المميز ، ولم تصب الثقافة العربية فيها بنكسة كما أصيبت بها كل الأقطار الاسلامية الأخرى التي خضعت للحكم التركي .

الدولة العلوية

1659

استقر الشرفاء العلويون بسجلماسة منذ نزح اليها جدهم الحسن بن قاسم الملقب بالداخل سنة 1266 (664 هـ) من بلدة ينبوع النخل بأرض الحجاز وأقاموا في قصورها موفوري الفضل مشهوري الصلاح الى أن تقدموا لجمع الكلمة وتوحيد البلاد بعد ما عراهما من تفرق وانقسام اثر وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي .

واشتهر من هؤلاء الشرفاء في النصف الأول من القرن السابع عشر مولاي الشريف بن علي الملقب بأبي الأملاك ، وكان رجلا وجيهاً يقصده الناس في الملمات ويستشفعون به في الأزمات ، ويهرعون اليه في الجليل والحقير من الأمور ، وقد حدثت بينه وبين أبي حسون السملالي المكنى بأبي دميعة المستولي على اقليم سوس ـ عداوة بسبب سعاية أهل تبوعصامت ، فقبض عليه ونقله الى سوس واعتقله باحدى قلاعها . فأنف ابنه مولاي محمد (بفتح الميم) من ذلك وجمع جيشاً من أهل سجلماسة وأعمالها سنة 1635 (1045 هـ) وشرع في تحريض العامة على سلطة أبي حسون ، وفي سنة 1640 (1050 هـ) بايعه أهل سجلماسة واستتب فيها أمره وامتد سلطانه الى منطقة درعة، وبعدما افتدى والده من أبي حسون بمال كبير التفت الى الأقاليم الشمالية التي كانت خاضعة لنفوذ الزاوية الدلائية ، ودارت بينه وبين الدلائيين وقائع كثيرة تغلبوا عليه فيها في النهاية فانسحب الى بسيط أنكاد من شرق المغرب ، فبايعه عرب معقل وأخضع بني يزناسن وقضى على شيعة الترك بوجدة ، ثم شن الغارات على تلمسان وأحوازها وأوقع بالحاميات التركية ، واثر ذلك توغل بجيشه في الصحراء ووصل الى الاغواط وعين ماضي ، ولما ضاق به الأتراك ذرعاً بعثوا اليه مع اثنين من علماء الجزائر وأعيانها رسالة استعطاف (26) مؤرخة في 10

---

26) نشر نص هذه الرسالة في عدد من الكتب التاريخية ، منها كتاب **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** 7 : 22 . أما جوابها فقد عثرنا عليه بعد جهد جهيد في مجموع محفوظ بخزانة القصر الملكي بالرباط تحت عدد 4485 وتاريخه أواخر شعبان عام 1064 . وهو من انشاء محمد بن مبارك بن حفيد الحسني بشهادة الفقيه أحمد التاجموعتي والقاضي أبي نعيم رضوان بن عبد الملك .

يونيو 1654 (15 رجب 1064 هـ) وبعد مفاوضات اتفق الطرفان على الصلح وجعل وادى تافنا حداً فاصلا بين الأيالتين . واثناء ذلك ظهر أخوه مولاى رشيد بن الشريف ، وكانت القلوب مالت اليه بسبب قتله لليهودى ابن مشعل وتخليص الرعية من جوره واهاناته ، وتحارب الأخوان حرباً قتل فيها مولاى محمد يوم 2 غشت 1664 (9 محرم 1075 هـ) فانحشرت جموعه الى جموع أخيه المولى الرشيد الذى بويع بالملك البيعة العامة ، ومازال ينتقل من نصر الى نصر حتى استولى على فاس فى السنة الموالية وجعلها عاصمة ملكه ، ثم فتح زاوية الدلاء فى 18 يونيو 1668 (8 محرم 1079 هـ) وغرب أهلها الى فاس وتلمسان ، وبعدما قضى على امارة الشبانات بمراكش ، وامارة السملاليين بسوس ، وبعدما تمهدت له البلاد ودانت الرعية استأنف أعمال البناء والتشييد التى كانت توقفت منذ وفاة المنصور الذهبى ، وأنشأ جيشاً نظامياً من قبائل تلمسان التى نزعت اليه كبنى عامر وأشجع (الشجع) ومديونة وهوارة وبنى سنوس ، وأرسل الطلائع الأولى لمهاجمة النصارى المحتلين لمراسى الساحل . ولكنه توفى فجأة فى حادثة فروسية يوم 11 ابريل 1672 (11 ذى الحجة 1082) فتولى بعده أخوه وخليفته بمكناس السلطان العظيم المولى اسماعيل بن الشريف الذى بسط السلطة وفرض النظام طيلة عهده الذى استمر أكثر من نصف قرن ، وحقق انتصارات عظيمة على المحتلين الأوربيين بالساحل ، فطردهم من المهدية (1681 — 1092 هـ) وطنجة (1684 — 1095 هـ) والعرائش (1689 — 1101) وأصيلة (1690 — 1102 هـ) وكاد يفتح مدينة سبتة ، ومن منجزاته العظيمة تجديد مدينة مكناس ، وبناء عدد لا يحصى من المساجد والمدارس والأضرحة والقصبات والحصون ، وبعث الحركة العلمية من مرقدها ، وتنشيط الأدب والشعر والمكافأة على التأليف ، وانشاء جيش عتيد من عرب الوداية وعبيد (البخارى) وسعيه فى افتكاك وهران من أيدى الأسبانيين وقمع التحرشات التركية بالحدود الشرقية والصحراوية وتأكيد الاتفاقيات السابقة معهم بشأن جعل وادى تافنا حداً بين الأيالتين . وفتح المراسى للتصدير والتوريد واقامة علاقات ديبلوماسية محكمة مع الدول الأجنبية ، ولم يلتحق بالرفيق الأعلى فى 21 مارس 1727 (28 رجب 1139 هـ) حتى كانت المملكة

المغربية تنعم بالاستقرار والهناء وعزة الجانب ، ولكن الفترة التى تلت موته عادت بها الى حالة الفوضى بسبب تنازع أبنائه على الملك وتدخل قواد الجيش في الشؤون السياسية ، وقد انقضت هذه الفترة بوفاة السلطان مولاى عبد الله بن اسماعيل فى 10 نونبر 1757 (27 صفر 1171 هـ) وتملك ولده السلطان سيدى محمد بن عبد الله الذى كان عالماً كبيراً وسياسياً عظيماً استطاع بحسن سياسته وشدة حزمه أن يهدن البلاد ويقضى على تنطع القواد العسكريين ومن اعماله العظيمة استرجاع البريجة (الجديدة) من أيدى البرتغاليين (10 مارس 1769 ـ 2 ذى القعدة 1182 هـ) وبناء الصويرة وأنفا (الدار البيضاء) وفضالة (المحمدية) وانشاء أسطول قوى وتقوية العلاقات الديبلوماسية مع الدول الاسلامية والدول الأوربية وارساله السفراء الى البلاد النصرانيـة لافتكـاك الأسارى المسلمين واستخلاص الكتب الاسلامية من خزائنها ، وهو أول رئيس دولة فى العالم اعترف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية ، ولما مات سنة 1790 (1704) خلفه ابنه اليزيد ، ثم أخوه المولى سليمان بن محمد بن عبد الله (1792 ـ 1206) الذى كان عالماً تقياً ، وهو الذى أعاد الترك الى نهر تافنا سنة 1796 (1211) بعد ان كانوا تجاوزوه أيام الفترة ، وفى عهده ثارت تلمسان والعمالة الوهرانية كلها على الترك (1805 ـ 1220 هـ) وبايعه أهلهما وأرسلوا وفودهم حاملين بيعاتهم الى فاس ولكن المولى سليمان الذى كان حريصاً على احترام الاتفاقيات المعقودة مع الاتراك أرسل قائده عياد بن أبى شفرة الوديى الى تلمسان لاصلاح ذات البين بين أهلها وبين العثمانيين ، واذ ذاك لم تر كثير من الأسر التلمسانية وقبائل الواسطة (27) مندوحة من الهجرة الى المغرب والاستظلال بعلم سلطانه فراراً من مظالم الأتراك ، وفى سنة 1822 (1238 هـ) توفى السلطان المولى سليمان فخلفه ابن أخيه السلطان مولاى عبد الرحمان بن هشام وكان ملكاً حازماً سعى جهده فى تمهيد البلاد وتهدين الرعية ، وكـاد ينجح فى أعماله الاصلاحية لولا ان ابتليت البلاد المغربية بغزو الفرنسيين لواسطتها (1830 ـ 1246) وما تلا ذلك من دخول القسم الغربى من الجزائر

---

27) كان الجزائريون يعرفون قديماً فى المغرب بأهل الواسطة والنسبة اليها واسطى ، وذلك لتوسط بلادهم بين المغربين الأدنى والأقصى .

فى طاعة السلطان ، وتوجيه خليفة سلطانى وجيش مغربى الى تلمسان ثم انسحابه عنها تحت الضغط الفرنسي ، وانصراف السلطان وجميع رعاياه الى مساندة كفاح الشعب الجزائرى تحت قيادة الأمير عبد القادر بن محيى الدين ضد المحتلين ، وقد نتج عن اندحار الأمير عبد القادر واندحار الجيش المغربى في معركة يسلي (I844 ــ I260) ان خسر المغرب الأقصى جزءاً من ترابسه الوطنى ، وهاجرت من المغرب الأوسط اليه أسر كثيرة وقبائل عديدة فاستقرت به وصارت معدودة من أهله ، ثم توفى سنة I859 (I276 هـ) وتولى بعده ابنه المولى محمدبنعبد الرحمان فكان أول ما واجهه فى ملكه اعلان اسبانيا الحرب على المغرب واحتلالها لتطوان ، ثم انسحابها منها بعدما حصلت من المغرب على غرامة مالية وتنازلات ترابية . وابتداء من هذا التاريخ كثر تدخل الدول الأوربية فيشؤونالمغرب وحصولها علىامتيازات سياسية وقضائيةوتجاريةصيرت رعاياها القاطنين فيه غير خاضعين لسلطته الشرعية . وقد حاول السلطان مولاى الحسن الأول (73 ــ I894 ــ I290 ــ I3II هـ) أن يحد من هذه التدخلات ويدخل اصلاحات عصرية على مملكته تجعل أهلها ينعمون بمزايا التطور الصناعى والاجتماعى الذى استفادت منه أوربا كثيراً ، ولكن أوربا القوية سارت قدماً فى تنفيذ سياستها الخاصة بالمغرب ، ثم اتفقت دولها على القضاء على استقلاله وتمزيق وحدته ، ففرضت عليه فرنسا واسبانيا معاهدة الحماية (I9I2 ــ I330 هـ) وقسمتاه الى مناطق نفوذ ، وألحقتا بعض أجزائه بمستعمراتهمـا الافريقية ، فانطلق الشعب المغربى يقاومهما بما أوتى من قوة فلم تتغلبا عليه بصفة نهائية الا سنة I934 ، وقبل ان تنتهى المقاومة العسكرية كانت البلاد تشهد ميلاد المقاومة السياسية وقد بلغت هذه المقاومة ذوتها خلال السنين التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية حتى جن جنون الاستعمار الفرنسى فنفى ملك البلاد وقائد نهضتها جلالة الملك المرحوم **محمد الخامس** وسمو ولى عهده (جلالة الملك اليوم) الأمير **مولاى الحسن** وسائر الأسرة الملكية الـى جزيرة كورسيكا ثم الى جزيرة مدغشقر (I953) ولكن فرنسا اضطرت الـى ارجاعه الى بلده وعرشه (نونبر I955) تحت ضغط المقاومة الشعبية ، ثم اعترفت هى واسبانيا باستقلال المغرب (مارس I956) وواصل الملك **محمد**

الخامس بعد ذلك تنظيم الدولة المغربية على أسس جديدة تضمن الأمن والعدل والرخاء والعزة لشعبه الى ان توفي يوم الأحد 26 يبراير 1961 فحمل المشعل بعده جلالة الملك العظيم **الحسن الثاني** الذى دخلت البلاد فى عهده الميمون فى طور التنمية الحسية والمعنوية .

أوقف تربع العلويين على العرش تدهور الدولة وانحلالها ، فأعاد الى البلاد وحدتها وحفظ كيانها وأوجد فيها حكومة شرعية تنطق باسمها وتذود عن حوزتها ، ورغم المصاعب التى واجهت الملوك العلويين من الداخل والخارج استطاعوا أن يصدوا الغارة المشنونة على الشواطىء المغربية ويطهروها من الاحتلال البرتغالى والاسبانى والانجليزى باستثناء مدينتى سبتة ومليلية وجزيرتين صغيرتين بساحل الريف ، كما حالوا بين الأتراك وبين أى توسع على حساب المغرب فى أقاليمه الصحراوية والشرقية ، وقد أنشأوا جيوشاً نظامية وسعوا سعياً متواصلا لتزويدها بأحسن الأسلحة ، وشيد واحد من مصلحيهم السلطان الحسن الأول مصنعاً عصرياً بفاس لصنع أسلحة الجيش من بنادق ومدافع وذخيرة ، كما أنشأوا أسطولا مرهوباً لحماية الشواطىء وصد كل هجوم عليها ، وكان اتصالهم بالشعب وثيقاً . فلم يفتأوا يتجولون عبر مملكتهم متصلين بالرعية مستمعين لتظلماتها مستجيبين لرغباتها تستوى فى ذلك الجهات القاصية والدانية حتى قيل عن عروشهم انها على صهوات أفراسهم ، وكان لهم تمسك شديد بالدين ومحافظة قوية على السنة . واشتهروا بحلقات العلم التى تعقد بين أيديهم ومشاركتهم فيها بأنفسهم . كما اشتهروا بما يسروا من أسباب العلم على طالبيه ، أما العمران فلهم فيه يد بيضاء لا تجحد ، فحيثما ولى الانسان وجهه يرى آثارهم من مدن أحدثوها ، وأخرى جددوها ، وقصبات شيدوها ، وبروج أقاموها ، ومساجد ومدارس ومكتبات علمية أنشأوها ومرافق عمومية من حمامات وسقايات ومياضىء وقناطر سهلوا بها على شعبهم الحياة ، واذا كان المغرب حلت به نكبات واكتنفته أزمات منذ منتصف القرن الماضى فان ذلك كان نتيجة حتمية للتدهور الذى بدأت الأمة الاسلامية تتردى فيه قبل ذلك بقرون ، ولشروع الدول الأوربية فى تنفيذ مخططاتها الاستعمارية وعجز المغرب وسائر الشعوب المتخلفة عن مواجهة تفوقها الصناعى وتقدمها العلمى ،

ومما يسجله التاريخ بمداد الفخر للملوك العلويين أنهم كانوا دوماً مخلصين لشعبهم محافظين على الأمانة الموضوعة بين أيديهم ، ولم يثبت أنهم فكروا في ساعات العسرة في أنفسهم أو تآمروا ـ كما حدث لملوك آخرين بأقطار أخرى ـ على مصير بلادهم ، بل كانوا يعملون على توقي الأخطار وتخفيف الأضرار ما استطاعوا واغتنام الفرص لتقوية كيان بلدهم ووضع الآصار عن شعبهم كلما بدرت بادرة مواتية أو لاحت لهم بارقة ملائمة ، ولقد عملوا منذ هزيمة يسلي (1844) على ادخال عدد من الاصلاحات على الحكومة والادارة والجيش والمالية ، كما عملوا على افادة الأمة المغربية من مزايا التقدم المادي وساروا قدماً في ذلك ، ولكن أوربا الطاغية بتفوقها الصناعي والمندفعة بدافع التعصب المسيحي كانت تجهض بمؤامراتها وتدخلاتها وافتياتها على السيادة المغربية جميع الأعمال الاصلاحية التي قام بها الملوك العلويون حتى تم لها ما أرادت من احتلال المغرب وتقسيمه الى مناطق نفوذ واقتطاع أجزاء هامة منه ، ذلك الاحتلال الذي لم تلبث الأمة المغربية أن خلعت نيره تحت قيادة الملك الشعبي المجاهد **محمد الخامس** رحمه الله .

دول المغرب الأوسط :

الدولة الرستمية

909 ـ 776

هي أول دولة مستقلة أسست في الجزائر بعد الاسلام ، أسسها القاضي عبد الرحمان بن رستم الفارسي الأصل بمدينة تيهرت سنة 776 (160 هـ) لتكون موئلا للخوارج الأباضيين ، فوجدوا فيها الطمانينة والأمن وأشبعوا نهمهم الى اقامة دولة على قواعد مذهبهم . ولما توفي القاضي عبد الرحمان الذي أصبح بعد مبايعته يلقب بالامام سنة 787 (171 هـ) خلفه ابنه الامام عبد الوهاب ، وكان مثل والده متضلعاً في علوم الشريعة والفقه ،

كما كان على جانب كبير من الدهاء والحزم ، وقد واكب تربعه على كرسى الامامة ظهور الدولة الادريسية بالمغرب الأقصى وانبساط سلطتها على تلمسان وغرب الجزائر الى نهر شلف ، ولما توفى سنة 805 (190 هـ) خلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب الذى طالت ايامه خمسين سنة ، وكانت كلها أيام رخاء ويسر ، الا ما كان من تضييق اغالبة تونس عليه وتأسيسهم لمدينة العباسية بقرب تيهرت ، الشىء الذى اضطره الى مصانعة المروانيين فى الأندلس ، ولما توفى سنة 854 (240 هـ) تولى الامامة ابنه أبو بكر بن أفلح الذى كان جواداً كريماً سهل الخلق ميالا الى الدعة والرفاهية مهملا للنظر فى الأمور ، فقامت الفتن والثورات فى وجهه حتى اضطر الى الهروب من تيهرت سنة 855 (241 هـ) فتولى زعامة الأباضيين ببعض جهاتها أخوه أبو اليقظان بن أفلح وبقى يتجول بهم سنين الى ان اعانه اباضية نفوسة على الرجوع اليها فاستقر بها اماماً الى أن وافته المنية سنة 894 (281 هـ) وفى هاتيك الأثناء كانت البلاد المغربية تضطرم فتنة . كما كانت الحالة الاجتماعية سيئة لاشتداد المجاعة وفتك الاوبئة بالناس ، ولما خلفه ابنه أبو حاتم كانت الامامة مشرفة على الانهيار ، فقد ثار عليه عمه يعقوب وأخرجه من تيهرت ، ولم يتغلب عليه أبو حاتم الا بعد سنين ، ولكن منافسيه من أسرته بقوا يتربصون به الدوائر السيئة حتى اغتالوه سنة 906 (294 هـ) فخلفه أخوه اليقظان الذى قتله أبو عبيد الله الشيعى فى يونيو سنة 909 (شوال 296 هـ) وانتهت بموته الامارة الرستمية .

كانت الدولة الرستمية امارة أو امامة صغيرة لا يتعدى نفوذها أسوار تيهرت فى غالب الأحيان ، والمنطقة المحيطة بها فى أقل الأحيان ، فقد كان يزاحمها أدارسة المغرب الأقصى وأغالبة تونس من كل جانب ، ولكن نفوذها الروحى كان يعم جميع الطائفة الأباضية المتفرقة جماعاتها بين تيهرت والصحراء وجبل نفوسة ، فكانت هذه الجماعات تمدها بالزكاة الشرعية ومختلف الاعانات . وقد خرج الأئمة الرستميون فى بعض ايام قوتهم لنجدتها وتفقدها كما التجأوا اليها كلما حزبهم أمر فوجدوا لديها ما يبغون من عون ومدد ، ومما يسجل للرستميين بمداد الفخر أنهم كانوا على جانب كبير من العلم والأدب والميل الى العدل والرفق بالرعية، ولكن كان ينقصهم الحزم والدهاء

والأخذ بوسائل السياسة التي تكون في غالب الأحيان غير شريفة ، فلذلك قصرت مدة امامتهم ولم تستقم لهم الأمور .

الدولة الحمادية الصنهاجية

1014 — 1153

هي ثاني امارة نظامية تنشأ بالمغرب الأوسط أنشأها حماد بن بلكين بن زيرى الصنهاجي الذى كان في بداية أمره عاملا من قبل ابن أخيه باديس بن المنصور بن بلكين أمير المغرب الأدنى ـ على مدينة أشير ونواحيها منذ سنة 997 (387 هـ) ثم طمحت نفسه الى الاستقلال بجهته ، فبنى القلعة المنسوبة الى أسرته (قلعة بني حماد) سنة 1007 (398 هـ) وأتم تحصينها في عامين ، وبعد منازعات بينه وبين السلطة الشرعية بالقيروان أعلن حماد انفصاله عنها سنة 1014 (405) فانقسم بنو زيرى يومئذ الى فرقة بني باديس بالقيروان ، وفرقة بني حماد بالقلعة . وقد حدثت بين الفريقين حروب تلتها المصالحة والمهادنة .

وفي سنة 1028 (419 هـ) مات حماد فخلفه ابنه المسمى القائد وكان مثل أبيه حصيف الرأى حسن التدبير ، اشتغل عنه بنو عمه باديس بزحف الاعراب الهلاليين بينما زحف عليه حمامة بن المعز بن عطية المغراوى أمير فاس فهزمه ورجع خائباً ، وفي سنة 1041 (432 هـ) خلع القائد دعوة بني عبيد ، ودعا لبني العباس ، ولكنه عاد الى اظهارها بعد ستة أعوام ، فأنعم عليه الفاطميون بلقب شرف الدولة . ثم عاد فنقض بيعتهم وبايع العباسيين واستمر على ذلك الى ان توفي سنة 1054 (446 هـ) فخلفه ابنه محسن بن القائد وكان شديداً قاسياً ، ثارت الفتنة بينه وبين أعمامه ، ولاسيما عمه يوسف الذى خرب مدينة أشير واستباح أموالها ، وبعد سنة من ولايته قتله عمه بلكين بن محمد بن حماد الذى احتل القلعة ليلا ودعا لنفسه فبايعه الناس وكان شجاعاً فاتكاً سفاكاً للدماء حتى ملته الرعية لكثرة حروبه وكرهته الخاصة فقتله ابن عمه الناصر بن علناس سنة 1062 (454 هـ) الذى بويع اميراً على القلعة ، وكان

جواداً كريماً وفاتكاً كمياً ، بنى المباني العجيبة ، وشيد المدائن العظيمة ، وفي أيامه استولى المرابطون على تلمسان ووهران وتنس وجبـال ونشريس ومدائن شلف وصارت حدودهم تمتد من مدينة الجزائر الى الغرب ، ودخـل الاعراب الهلاليون الى المغرب الأوسط وزاحموه في موطن عزه ودار امارتـه حتى اضطر الى الالتجاء الى مكان حصين على ساحل البحر بتراب قبيلة بجاية فبنى فيه مدينة سماها (المحمدية) واستمر الناس يسمونها باسم القبيلة المذكورة (بجاية) وجعلها عاصمة امارته ، ولم يزل مقيماً بقصره خارجها حتى توفى سنة 1088 (481 هـ) فخلفه ابنه المنصور بن الناصر وكان أديبـاً شريف النفس عـالي الهمة ساس الرعية بحكمة وحصافـة ، وأتم ما بدأه والده من أعمال عمرانية ، ومن أعظم مآثره بالقلعة قصر الملك وقصر المنار وقصر الكوكب وقصر دار السلام ، وببجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميون ، وهو الذى أقطع دلس لبنى صمادح أمراء ألمرية بعد جلائهم عنها لما استولى عليها المرابطون ، وقد حدثت بينه وبين المرابطين حروب ملكوا عليه فيها مدينة اشير وأغار هو عليهم في مدينة تلمسان ، وبعد ما تم الصلح بين الطرفين عاد الى بجاية فأقام بها حتى توفى سنة 1104 (498 هـ) فتولى بعده ولده باديس وكان قوى الشكيمة سريع الغضب سفاكاً للدماء ، وارتكب خلال أيامه القصيرة أعمالا شنيعة من قتل واضطهاد وتمثيل ، ومات بعد ثمانية أشهر من توليه ، فخلفه أخوه العزيز بالله بن المنصور ، وكان سياسياً حازماً استعان على تثبيت ملكه بالتزوج من بيوتـات خصومه فأمن ثوراتهم وعداواتهم ، وكانت وفاته سنة 1121 (515 هـ) فخلفه ابنه يحيى بن العزيز وكان اديباً فصيحاً مغرماً بالصيد واللهو وهو أول من ضرب السكة باسمه من الأمراء الحماديين ، وفي أيامه هاجم النصارى النورمانديون السواحل التونسية والجزائرية واستولوا على بعض مراسيها فهب الحماديون للدفاع عنها ولكن كيف يمكنهم أن ينقذوها والسلطان منهمك في ملذاته ، فكاتب وزيره ميمون بن حمدون الخليفة عبد المومن بن علي سراً يرغبه في انقاذ المسلمين ، فخرج عبد المومن من مراكش سنة 1151 (546 هـ) وسار مشرقاً حتى بلغ الجزائر واحتلها ثم نازل بجاية وحاصرها يومين واستولى عليها في يبراير سنة 1153 (ذو القعدة 547 هـ)

ففر يحيى بحراً الى عنابة ثم قسنطينة . وواصل عبد المومن زحفه على المملكة الحمادية فاحتل القلعة وحاصر قسنطينة . فلم يجد يحيى مندوحة من الاستئمان والاستسلام ، فأمنه عبد المومن وأرسله الى المغرب الأقصى وأسكنه قصر بنى عشرة بسلا ، وعاش في كنفه عزيزاً مكرماً وكان ذلك آخر العهد بملك بنى حماد .

كانت أيام بنى حماد على ما صاحبها من فتن واضطرابات أياماً لم تخل من أعمال عمرانية وحركة ثقافية ومناعة حربية ، وقد كان ملوك بنى حماد أنفسهم على جانب كبير من العلم والأدب يعقدون حلقات الدروس ومجالس المناظرة بين أيديهم ويشاركون فيها ، كما كانوا مولعين بالبناء والتشييد والغرس ، والنصوص الأدبية والتاريخية الباقية تدل على مدى ما بلغته الحواضر التى كانت تحت حكمهم من رقى وتقدم وازدهار . ولو أن الدول والامارات المجاورة لهم سالمتهم لشاهدت مملكتهم على أيديهم رقياً أعظم وتقدماً أكبر ، لكنهم ابتلوا فى الأول بمخاصمة بنى عمهم ملوك تونس ، ثم بعيث الاعراب الهلاليين ومزاحمة المرابطين وأخيراً بزحف الموحدين ، فلم يكن لهم طاقة بمواجهة كل هذه الأخطار ، فانهارت دولتهم ، وعفت آثارهم التى كانت من أعظم ما يؤثر من أعمال الحضارة والعمران .

الدولة الزيانية العبدالوادية

1554 — 1235

هى أكبر دول المغرب الأوسط وأطولها أياماً وأحفلها أعمالا أسسها فريق من قبيلة زناتة يدعى بنى عبد الواد ، وهم اخوة فريقها الثانى بنى مرين ملوك فاس وتلوهم فى قوة الجانب وكثرة العدد .

كانت مواطن بنى عبد الواد بين جبال سعيدة شرقاً ووادى ملوية غرباً وكانوا بدواً رحلا ينتجعون المراعى الخصبة بمواشيهم ويترددون على المدن للامتيار ، ولما كانت الدولة الموحدية فى عنفوان شبيبتها صدقوا لها

الخدمة ومحضوا النصيحة ، فأقطعتهم ناحية غليزان فاستقروا بها ، حتى اذا دب الهرم اليها تطلعوا الى الاستقلال عنها والتفرد بحكم أحد أقاليمها ، وقد تم لهم ذلك سنة I235 (633 هـ) عندما استولوا على تلمسان وصاروا أصحاب النفوذ الحقيقي فيها .

وكانت زعامة بنى عبد الواد فى هذه الفترة آلت الى بطلهم الشهير وقائدهم المغوار يغمراسن بن زيان . وقد اكتفى فى البداية بالاستبداد بتلمسان وما جاورها وأبقى الدعوة الموحدية قائمة والخطبة على المنابر باسم ملوكها ، ولكن الموحدين لم يقنعوا منه بذلك ، وخرج اليه الخليفة أبو الحسن السعيد الملقب بالمعتصم من مراكش فى جيش ضخم فأفرج عنها يغمراسن واعتصم بقلعة تمزردكت جنوبي وجدة وبعث الى الخليفة يبدى أعذاره ويطلب الصفح فلم يقبل منه ، وعند ما نشب القتال بين الفريقين (I248 ـ 646 هـ) انهزم الموحدون وقتل الخليفة السعيد واستولى العبدالواديون على خبائه وغنموا غنائم لا تقدر بثمن منها مصحف عثمان ، ونقلوا شلو الخليفة الهالك الى تلمسان فدفنوه بالعباد .

وأقبل يغمراسن بعد هذا الانتصار على شؤون دولته الجديدة ينظمها وكان يكفيه أن يكون صاحب السلطان الحقيقي دون اهتمام بالدعاء لمن يكون على المنابر والسكة باسم من تضرب ، فلذلك كان ينضوى تارة تحت الحفصيين وتارة تحت الموحدين ، وكانت امارته لا تستريح من غزو آتى من الشرق الا لتواجه غزواً آخر آتياً من الغرب ، ولم يكن ينقذها من السقوط النهائى بين أيدى خصومها الا قوة شكيمة القبيل العبدالوادى وشجاعة يغمراسن على الخصوص ، ولهذا لا يمكن لمؤرخ أن يثبت لهذه الدولة ـ سواء فى أيام يغمراسن بن زيان أو فى أيام خلفائه من بعده ـ حدوداً معروفة لأنها كانت دائماً بين مد وجزر . فقد كانت تتسع حيناً حتى تبلغ قرية تاوريرت غرباً وعمالة قسنطينة شرقاً . كما كانت تضيق أحياناً حتى لا تشتمل الا على منطقة تلمسان .

ولما توفي يغمراسن سنة 1283 (681 هـ) تولى ابنه أبو سعيد عثمان الذي أوصاه أبوه قبل مماته بمسالمة بني مرين ليتفرغ لفتح البلاد التي يملكها الحفصيون ، وقد عمل الأمير عثمان بوصية والده وصرف اهتمامه الى الايالة الشرقية فانتزع كثيراً من مدن عمالة وهران وعمالة الجزائر من أيدي رؤساء زناتة المتغلبين ، ولكن لم تلبث الحالة ان ساءت بينه وبين بني مرين الذين استأنفوا غزو تلمسان ومحاصرتها عدة مرات ، من أشهرها الحصار الطويل الذي دام ثمانية أعوام (1299 — 1307) ومات خلاله الأمير عثمان سنة 1304 (703 هـ) فخلفه ابنه محمد الملقب بأبي زيان الأول ، وبعد ثلاثة أعوام من ولايته اغتيل السلطان يوسف المريني بمدينته المنصورة التي بناها بظاهر تلمسان فارتفع الحصار عنها في الوقت الذي كان العبدالواديون يستعدون لذبح نسائهم وخوض المعركة الأخيرة مع بني مرين فخرجوا من الأسوار وكأنما نشروا من القبور ، وكان أول عمل بدءوا به هو تخريب مدينة المنصورة التي كانت من أجمل حواضر المغرب العربي قاطبة ، ثم ضربوا سكتهم ونقشوا عليها عبارة (ما أقرب فرج الله) تعجباً واستبشاراً ، وبعد ذلك تولى السلطان أبو حمو الأول الذي اغتاله ابنه أبو تاشفين الأول فساءت العلاقات بين بني عبد الواد وبين جيرانهم الحفصيين والمرينيين ، ونهض هؤلاء بتحريض من أولئك لمحاربة تلمسان تحت قيادة السلطان أبي الحسن المريني ، فغزوا المغرب الأوسط براً وبحراً واستولوا على تلمسان يوم 29 أبريل 1337 (27 رمضان 737) وقتلوا ملكها فكان ذلك آخر العهد بالدور الأول من دولة بني عبد الواد .

وحكم بنو مرين تلمسان وسائر المغرب الأوسط حكماً متواصلا الى سنة 1348 (749 هـ) ، وفي هذه السنة انهزم السلطان أبو الحسن المريني بالقيروان وغرق أسطوله بساحل بجاية ، فبويع ابنه أبو عنان الذي كان خليفة له بتلمسان ، ولما عاد أبو الحسن الى الظهور بعد ما ظن انه غرق ثارت بينه وبين ابنه أبي عنان فتنة استمرت ثلاثة أعوام اغتنمها العبدالواديون للعودة الى تلمسان ، لكن أبا عنان عاد اليها بعد ما فرغ من أمر أبيه فاستولى عليها

سنة 1352 (753) وضمها الى سلطنته ، فبقيت هى وجميع بلاد المغرب الأوسط بيده الى ان توفى سنة 1358 (759 هـ) فعاد اليها العبدالواديون فى السنة الموالية واستولوا عليها وبايعوا أبا حمو الثانى سلطاناً بها وصارت دولتهم منذ هذا التاريخ تعرف بالدولة الزيانية ، وكان أبو حمو هذا شجاعاً وأديباً كبيراً اشتهر باحتفالاته الفخيمة بعيد المولد النبوى وباجتماع عدد كبير من العلماء والأدباء ببلاطه ، ولكنه ظل فى المقيم المقعد من الغزو المرينى وثورة الأمراء ، فكان لا يستقر بتلمسان حتى يتخلى عنها لبنى مرين واستمر على تلك الحالة الى ان اغتاله ولده أبو تاشفين الثانى سنة 1389 (791 هـ) فتولى مكانه وضرب السكة تحت رعاية بنى مرين وحمايتهم . وبعده توالى الملوك من اسرته على عرش تلمسان كما تواصلت الفتن بين الأمراء وتتابع الغزو المرينى ، وزاد الطين بلة ظهور الحفصيين من جديد على مسرح الغزو والاستيلاء بعد أن كان بنو مرين منفردين وحدهم فى هذا الميدان ، وقد استغل الاسبانيون ضعف الزيانيين وانحلال دولتهم فشرعوا فى الاستيلاء على سواحل المغرب الأوسط مثلما استغلوا ضعف بنى مرين لاحتلال سواحل المغرب الأقصى ، فاستولوا على المرسى الكبير ووهران وبجاية ودلس وشرشال وهنين وحجرة الجزائر وعنابة وشرع ولاتهم فى التضريب بين الأمراء الزيانيين واعانة بعضهم على بعض حتى صاروا جميعاً يعترفون بحمايتهم ويؤدون الجزية اليهم ، بل بلغ الأمر بأولائك الأمراء الى ادخال الاسبانيين الى تلمسان نفسها وفى هذه الأثناء الذى بلغت فيها الدولة الزيانية منتهى الضعف والانحلال وصارت الدولة الوطاسية المرينية المجاورة عاجزة هى نفسها عن الدفاع عن نفسها وبالأحرى عن غيرها ظهرت فى غرب البحر المتوسط السفن الجهادية العثمانية فاستغاث المسلمون الجزائريون بقوادها فنزلوا الى بر المغرب الأوسط وشرعوا فى بسط سلطانهم عليه حتى احتلوا تلمسان وجعلوا ملوكها تحت حمايتهم ، ثم بدا لهم فعزلوا آخر ملوكها الزيانيين مولاى الحسن بن عبد الله الثانى سنة 1554 (962 هـ) فانتهت بذلك الأيام المضطربة لهذه الدولة التى استمرت فى الحكم أزيد من ثلاثة قرون .

ان المتتبع لايام بنى عبدالواد يجدها أياماً مضطربة تسودها الفتن والحروب وتطبعها الدسائس والمؤامرات ، واذا حاول المؤرخ أن يجد تعليلا لهذه الحالة ، ويقارن بينها وبين أحوال من تقدم من الدول الأخرى كالدولة المرابطية الموحدية فسيعتقد ان السبب الرئيسى فى ذلك راجع الى ان الدولة الزيانية العبدالوادية قامت على أساس قبلى بحت ، فبينما كانت الدولة الادريسية تحوطها هالة القداسة لقرب ملوكها من رسول الله (ص) ، وبينما قامت الدولتان الموحدية والمرابطية على أسس دعوة دينية وزعامات قبلية لا منافس لها اعتمد العبدالواديون على قوة قبيلهم وحدها حتى انهم أنكروا فى الأول على بعض متملقيهم أن ينسبوهم الى آل البيت ، وما كانت قوتهم لتكون وحدها كل ما يحتاج اليه الملك من ادوات ومؤهلات ، سيما وانها كانت قوة مزاحمة بقوة اخوانهم بني مرين الذين هم اكثر منهم عدداً وأقوى مدداً ، فلذلك اضطروا الى انتحال النسب النبوى فى الدور الثانى من تملكهم فصاروا زيانيين بعد ان كانوا عبدالواديين ، ووجدوا من بعض متملقة الفقهاء من يصنع لهم عمود نسب ، ويؤلف فى بيان شرفهم كتاباً (28) .

وهناك سبب آخر لتلك الحروب القاسية التى صاحبت أيام دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان ، وهو اتخاذ تلمسان عاصمة للدولة ، فهذه المدينة العظيمة كانت منذ الفتح الاسلامي جزءاً من مملكة المغرب الأقصى ، ولم يكن ملوك المغرب ليتخلوا عنها لدولة أخرى سيما وهى باب المغرب الذى يمر منه الصادر والوارد . وهذا هو السبب فى ان الملوك المغاربة لم تفتر لهم همة لاسترجاعها مع ما كلفهم ذلك من ضياع فى الأنفس والأموال .

ومهما يكن الأمر فان حرب (الثلاثمئة سنة) التى دامت بين الأسرتين الشقيقتين بنى عبد الواد وبنى مرين كانت السبب الأول فى انحلال الأقطار المغربية كلها وتقهقر الثقافة والحضارة فيها ، وتملك الأجانب لسواحلها

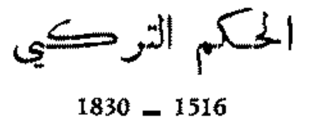
---

28) هو الفقيه المؤرخ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني المتوفى سنة 1493 (899 هـ) أما الكتاب المشار اليه فاسمه (**نظم الدر والعقيان ، فى بيان شرف بني زيان ، ومن ملك من سلفهم الأعيان ، فيما مضى من الأزمان**) .

وتدخلهم فى شؤونها الداخلية ، وضياع الأندلس التى كان أهلها لا يحيون ولا يصمدون في وجه أعدائهم الا بما يرد عليهم من الاقوات والغزاة وسائر أنواع المدد الذى يوجهه اليهم اخوانهم المغاربة من وراء البحر .

على أن أيام الدولة العبدالوادية ـ الزيانية التى تتداخل مع أيام بنى مرين سيما طيلة القرن الثامن ـ لم تكن شؤماً كلها ، فقد نعمت فيها تلمسان والبلدان التابعة لها بفترات هدوء انصرف فيها السلاطين الى البناء والتشييد وتنمية الصناعة والتجارة والفلاحة وتشجيع الفقهاء والأدباء والعلماء، واشتهرت تلمسان على الخصوص بمابنى فيها فى هذا العصر من قصور سلطانية ، ودور رفيعة ومساجد فخيمة ومدارس أنيقة ما زالت بقيتها التى سلمت من التخريب والخراب تذكر اليوم بعظمة الماضى ، كما اشتهرت تلمسان بانتشار العلم فيها واقبال طلبة الآفاق عليها للتعلم بها وظهور شخصيات علميـة وأدبيـة عظيمة كانت زينة المجالس وبغية المؤانس ، وكان من بين ملوك بنى عبد الواد أنفسهم من أخذ نفسه بالتأليف وجادت قريحته بالشعر البليغ .

وفى العصر العبد الوادى ـ المرينى لم يبق المغرب الأوسط وطن زناتة وحدها فقد خالطتهم فيه القبائل العربية التى قطعت به أشواطاً فى طريق التعريب وصارت صاحبة الكلمة فى سهوله ، كما طرأت فى هذا العصر عليه عناصر جديدة من غز وأندلسيين ، وهؤلاء على الخصوص كان لهم تأثير لا يزال الى اليوم ظاهراً على المجتمع فى بعض المدن .



الحكم التركي

1830 — 1516

ظهر فى بداية القرن السادس عشر قائدان بحريان مسلمان بالبحر الأبيض المتوسط يعملان لحسابهما الخاص مع جماعة من الغزاة الأقـوياء ، فكانا يعترضان بسفنهما الجهادية السفن النصرانية ويغنمان ما فيها من ناس ومتاع ، كما كانا يعرجان على سواحل اسبانيا الجنوبية فينقلان مسلمى الأندلس

المضطهدين الى السواحل الاسلامية ، وقد طارت شهرة هذين القائدين الأخوين (عروج - خير الدين) بسبب ذلك وبعد صيتهما حتى تشوفت اليهما أنظار أهل المغرب الأوسط الذين كانوا يعيشون من جراء الاحتلال الاسباني لمراسيهم في ذلة وهوان .

وكان أول اتصال بينهم وبينهما على يد أهل بجاية الذين أرسلوا اليهما وفداً يطلب مساعدتهما على انقاذ مدينتهم من أيدى الاسبانيين ، فلبى عروج الطلب وجاء لمهاجمة بجاية سنة 1512 ولم يمنعه من احتلالها الا اصابته بقذيفة اسبانية نتج عنها بتر ذراعه ، فانسحب وعاد الى مهاجمتها مرة ثانية بعد سنتين ، ولما لم يحصل هذه المرة على طائل قرر الانسحاب الى مرسى جيجل والاستقرار به لمراقبة الحالة وانتظار الفرص المواتية ، وهناك جاءه وفد عن سكان مدينة الجزائر يستنجد به لهدم الحصن الذى بناه الاسبانيون بأحدى الجزر الصغيرة الواقعة فى مدخل المرسى فجاء لنصرتهم ، ولكنه عجز عن احتلال الحصن ، فاحتل مدينة الجزائر بدله ، وقتل أميرها وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، وحاول الاسبانيون أن يقصوه بكل قواهم فاندحروا أمامه شر اندحار ، واثر ذلك شرع عروج فى توسيع حدود سلطنته ، وتمكن بسهولة من احتلال تلمسان (1517 - 923 هـ) والوصول الى الحدود المغربية ، ولكن الزيانيين ملوك تلمسان طردوه منها باعانة الاسبانيين الذين نصبوا له كميناً بمكان قريب من الوادى المالح جنوبى غربى وهران فقتلوه (1518) واحتزوا رأسه وأرسلوه الى اسبانيا فطيف به فى مدنها تسكيناً للرعية التى كانت ترتعد فرائصها من ذكره ، وسمي المكان الذى قتل فيه بشعبة اللحم لكثرة ما تناثر فيه من أشلاء وجثث المتقاتلين .

ولكن هذه المصيبة لم تثن عزم جماعة عروج عن مواصلة العمل الذى بدأته فى المغرب الأوسط ، فاعلنت خير الدين الملقب فى كتب التاريخ بباربا روشا - أى ذو اللحية الشقراء - أميراً بالجزائر ، وكان خير الدين رجلا عاقلا رأى أنه لا يستقيم له أمر ان بقى يعتمد على جماعته وحدها ، فكتب الى السلطان سليم الأول العثمانى يعلن له ولاءه ، ويضع الأراضى التى فتحها هو

وأخوه بالشمال الافريقي تحت سلطته ، فابتهج لذلك السلطان سليم وبعث اليه يشكره على صنيعه ، ورقاه الى رتبة بايلارباي أي باي البايات . وأمـده بالفين من الجنود النظاميين المزودين بالمدفعية ، وأربعة آلاف من المتطوعين الاناضوليين ، فقوى بذلك جانب خير الدين الذى أصبح والياً عثمانياً وليس أميراً مستقلا كما كان أخوه عروج . ودل ذلك على بعد نظره ومهارته السياسية .

وواجهت خير الدين في البداية مصاعب كثيرة من الداخل والخارج ، فقد شدد عليه الاسبانيـون الحصـار ووالـوا الغارات بدون طائـل ، وثـار ضده بالداخل زعيم من أهل البلاد يدعى احمد بن القاضى فاضطره الى الانسحاب من مدينة الجزائر الى جزيرة جربة ولكنه عاد سنة 1525 الى مهاجمة سواحل المغرب الأوسط فاستولى على مدينة الجزائر وعدد من المدن الأخرى ، ودك بالمدافع الحصن الاسبانى على رأس حاميته يوم 27 مايو 1529 واجتناباً لما عسى أن يحدث من عودة الاسبانيين اليه قرر بناء رصيف يصل الساحل بالجزر المتناثرة أمامه (29) فكان ذلك الرصيف أصل مرسى الجزائر الحالى ، ثم ذهب خير الدين الى تونس سنة 1533 ففتحها وقضى على سلاطينها الحفصيين الموحدين، وفي العام التالى جاء كارلوس الخامس (شرلكان) ملك اسبانيا فاستولى عليها فذهب خير الدين الى جزر الباليار وأمعن فيها قتلا وأسراً وتخريباً ، فكانت هـذه بتلـك .

واثر هذه الانتصار عظم خير الدين فى عين السلطان العثمانى فاستدعاه الى اسطمبول سنة 1536 ورقاه الى رتبة قبطان باشا وعينه قائداً عاماً للأسطول العثماني تقديراً لأعماله ، فخلفه حسن آغا (36 ـ 1543) الذى هزم الأمبراطور كارلوس الخامس (شرلكان) وجيشه أمام أبواب الجزائريوم 23 أكتوبر سنة 1541 هزيمة شنيعة ، وغنم الجنود الأتراك جميع أسلحته وأمتعته ، فلم تعد دولة أوربية تحدث نفسها منذ ذلك التاريخ بالاستيلاء عـلى المغـرب الأوسط ، وازدادت محبة السكان للأتراك لأنهم رأوا فيهم المنقذين الحقيقيين ، وفى سنة

(29) هذه الجزر التى ادغمت فى رصيف المرسى هى أصل تسمية الجزائر بالجزائر .

1544 عين حسن باشا بن خير الدين والياً على المغرب الأوسط ، فصرف عنايته الى الناحية الغربية ، وهاجم الاسبانيين فى وهران واستولى على تلمسان ثم تخلى عنها (1547) وذهب لانقاذ مستغانم التى كان يحاصرها الخنرال الاسبانى الكونت دالكاوديتى الشهيرحاكم قلعة وهران، وخلال ذلك استنجد التلمسانيون بالشرفاء السعديين الذين صفا لهم ملك المغرب فجاء سلطانهم محمد الشيخ الملقب بالمهدى واحتل تلمسان فى 9 يونيو 1550 (23 جمادى الأولى 957 هـ) ومن هناك توجهت محلة مغربية تحت قيادة أحد أبنائه فاستولت على مستغانم ، وبسطت الحكم المغربى علىجميع مدن شلف. ولكن حسن باشا أرسل جيشاً عظيماً تحت قيادة قائد أوربى الأصل يدعى حسن قورصو فاستعاد مستغانم وطارد الجيش المغربى الى سهول أنكاد ، ولما عاد الى تلمسان قتل عدداً كبيراً من أهلها واستولى على جميع ما بها من ذخائر وأمتعة ، ونصب على عرشها سلطاناً زيانياً اسمه مولاى الحسن بن عبد الله الثانى وأقام بجانبه حامية عسكرية دائمة ، ثم بدأ للأتراك فخلعوا هذا السلطان سنة 1554 (962 هـ) فكان ذلك آخر العهد بسلاطين بنى زيان العبدالواديين .

وجاء بعد حسن باشا صالح رايس أحد أعوان أبيه خير الدين ، فاتجه بفتوحاته نحو الغرب والجنوب ، وحدثت بينه وبين الملوك السعديين حروب كثيرة ، واسترد سنة 1555 مدينة بجاية من الاسبانيين ، وطردهم من المهدية فى العام التالى واستولى على طرابلس ، وبعد موته حدث خلاف بين فرق الجيش التركى ، وبلغ الأمر بقواده الى رفض قبول الوالى الجديد الذى عينه السلطان ، ولم يعد المياه الى مجاريها الا عودة حسن باشا بن خير الدين الى الولاية فى شهر يونيو 1557 فوطد دعائم السلطة ، ثم هب لانقاذ الحامية التركية التى كانت تحاصرها القوات المغربية بمشور تلمسان ، وفى سنة 1558 ألحق بالاسبانيين هزيمة شنعاء بمستغانم قتل فيها الكونت دالكاوديتى حاكم وهران وقتل فيها وأسر من جنودهم أكثر من عشرة آلاف ، كما أباد أسطوله الذى كان يقوده درغوث باشا الأسطول الاسبانى (الأرمادا) بساحل جربة ، وبعد محاولات عديدة لفتح وهران استدعى الى اسطمبول (1567) حيث عينه

السلطان قائداً عاماً (قبطان باشا) للأسطول التركي وهو المنصب الذى تولاه أبوه من قبله ، فخلفه علج على الايطالى أصلا وهو آخر الولاة العثمانيين الذين كانوا يحملون لقب بايلارباى . احتل تونس وقضى على بقايا الدولـة الحفصية ، ونظم الأسطول وقواه فأصبح يبعث الرهبة فى قلوب الأوربيين ، واشترك بنفسه في عدة وقائع بحرية بين الأسطول العثمانى والأساطيـل الأوربية . ثم استدعى الى اسطمبول وأسندت اليه قيادة الأسطول وبقـى يحكم الجزائر من هناك بواسطة أعوانه الى ان توفى سنة 1587 .

وبموت علج على رأى سلاطين آل عثمان أن الوقت قد حان لتنظيم الأقطار المغربية المفتوحة (طرابلس – تونس – الجزائر) على أسس ادارية جديدة ، فقد استتب الأمر للدولة التركية ، وكفت الدول الأوربية عن محاولاتها لاحتلال الشواطىء المغربية بعد الهزائم المتتالية التى لحقتها منذ ظهور الأتراك بغرب البحر المتوسط واستقرارهم بضفته الجنوبية ، فألغوا منصب البايلاباى وأخذوا يرسلون الى الجزائر والياً يحمل لقب باشا يحكمها مدة ثلاثة أعوام ثم يرجع الى تركيا ويخلفه وال جديد . وقد أدى هذا التنظيم الى اقبال الباشوات على الاستغناء وجمع الأموال لحسابهم الشخصى سواء عن طريـق القرصنــة البحرية أو فرض الضرائب وجمع الهدايا بمناسبة وغير مناسبة . كما أدى أيضاً الى حدوث استياء فى أوساط الجيش والأسطول التى كانت ترى نفسها أحق بحكم البلاد من الباشوات الآتين من اسطمبول ، وقد تفاحش هذا الاستياء الى درجة فقد معها الباشا بالتدريج كل سلطة على ولايته حتى أصبح مجرد ممثل شرفي للسلطان ابتداء من سنة 1659 عندما اجتمع الانكشارية وقرروا أن تكون السلطة التنفيذية بين أيدى الاغوات (رؤساء الجند) على أن يتولاها أحدهم كل شهرين على التعاقب ، فكان من نتيجة هذا النظام الفوضوى العجيب أنه لم ينج من نقمتهم أى واحد من رؤسائهم الذين تعاقبوا على الحكم ما بين سنة 1659 وسنة 1671 بل قتلوا جميعهم بأيدي جنودهم من غير استثناء ، واذ ذاك استولى على الحكم رؤساء الأسطول (الرياس) ووضعوا للحكم نظاماً يقتضى أن يتولى واحد منهم الحكم مدى الحياة ويلقب بلقب (الداى) ولمـا رأى السلاطيـن

العثمانيـون أنهم لا يطيقون فـرض ارادتهـم كفـوا عن ارسال الباشوات الى الجزائر ، واكتفوا بارسال الخلع والفرمانات لكل داى يوليه الديوان ، على ان انتخاب الديوان ومصادقة السلطان (الباب العالى) لم يكونا كافيين لحماية الدايات من بطش الجنود الذين تعودوا الفوضى والثورة لأدنى سبب ، وكان هؤلاء الجنود اذا عزموا على الثورة خرجوا من معسكراتهم وبين أيديهم قدور الطبخ مقلوبة على وجوهها ، وقصدوا قصر الداى فيقبضونـه ويطردونـه أو يقتلونه وينصبون غيره فى مكانه الى أن يجيىء دوره .

ورغم كل هذا الخلل والفوضى فقد امتاز بعض الدايات بشدة الحزم وقوة الارادة وحسن السياسة ، كالداى محمد بكداش الذى طرد الاسبانيين من المرسى الكبير ووهران سنة 1708 ، والداى محمد بن عثمان الذى طردهم منها مرة ثانية سنة 1791 بعدما كانوا رجعوا لاحتلالها سنة 1732 .

وخلال تلك السنين كانت الحروب لا تخمد نارها بين بايات تونس ودايات الجزائر ، وبين هؤلاء وسلاطين المغرب الأقصى ، وقد تقدمت قوات السلطان مولاى اسماعيل داخل التراب الجزائرى مرتين سنة 1691 وسنة 1701 وكان قصد مولاى اسماعيل رفع الضرر عن المسلمين بطرد الاسبانيين من وهران ، ولكن مولاى اسماعيل تراجع الى داخل حدود مملكته تحت ضغط قوات الداى شعبان فى المرة الأولى وضغط الداى الحاج مصطفى فى المـرة الثانية من جهة ، واحتراماً للأوفاق المعقودة مع سلفه من قبل والتى تجعل نهر تافنا حداً فاصلا بين الأيالتين من جهة أخرى .

أما العلاقات مع الدول الأوربية فكانت سيئة فى أغلب الأحوال بسبب مطاردة أسطول الدايات للسفن الأوربية ووجود عدد كبير من الأوربيين أسارى بالجزائر ، وقد كانت تحدث بسبب ذلك اصطدامات بحرية وهجومات برية اشتركت الولايات المتحدة نفسها مرة فى بعضها سنة 1815 .

وفى بداية القرن التاسع عشر كانت فرنسا ثملة بخمر ثورتها عـلى ملوكها وانتصارات قواتها بقيادة نابليون ، فعزمت على احتلال الجزائر رغم أن

الدايات ساعدوا ثوار فرنسا بالميرة وأقرضوا حكومة الدريكتوار (30) مبلغ مليون فرنك من غير فائدة ، وقد اغتنمت فرنسا فرصة مطالبة الداى حسين (1818 ــ 1830) لقنصل فرنسا ديفال Deval بالديون التى بذمة دولته ولطمه اياه بمروحة كانت بيده ثلاث مرات بعدما أساء الرد عليه ، فقطعت علاقاتها مع الجزائر وأرسلت تجريدة عسكرية تطلب من الداى أن يعتذر فرفض ، فضربت حصاراً على الجزائر رد عليه الداى بتخريب مركزها التجارى بالقالة ، واذ ذاك قررت فرنسا غزو ايالته فخرج أسطولها من مرسى طولون يوم 25 مايو 1830 متجهاً نحو الجزائر ، فوصلها يوم 31 منه ، ثم تحول عنها الى شبه جزيرة سيدى فرج التى تبعد عنها 25 كلم غرباً ، ونزل الجنود الفرنسيون الى البر يوم 14 يونيو ، ثم تقدموا نحو الجزائر حتى استولوا على الكدى المشرفة عليها ، وأرسلوا الى الداى صك الاستسلام ليوقعه ، فوقعه يوم 5 يوليوز بعد ان اشترط على الفرنسيين حفظ أمواله والاذن له بمغادرة البلاد الى حيث يشاء ، واحترام الشعائر الدينية للمسلمين ، فقبلوا شروطه ، وأمر جنوده بالكف عن المقاومة فاحتل الفرنسيون الجزائر بغير قتال .

انتهى الحكم التركى للجزائر بعدما استمر أزيد من ثلاثة قرون ، واذا ذكرت محاسنه فمن أعظمها أنه أنقذ مراسيها من الاحتلال الاسبانى وأعطاها كياناً جغرافياً محدداً واسماً دولياً مميزاً ، ولفت اليها أنظار العالم وجعلها حديث كل لسان لما كان يقوم به أسطولها من مغامرات جريئة ، وتعج به مدنها الساحلية من أسارى ، وقد نظم العثمانيون البلاد الجزائرية تنظيماً حكومياً وادارياً لا عهد لها به من قبل ، فكانت السلطة التنفيذية بيد الوالى الذى ينتخبه قواد القوات البرية (الانكشارية) وقواد القوات البحرية (طائفة الرياس) يساعده ديوان لا يبرم أمراً أو ينقضه بدون استشارته وموافقته ، أما الادارة الاقليمية فكانت تحت سلطة بايات يعينهم الوالى على مقاطعات قسنطينة وتيطرى (المدية) ووهران بينما كان هو يحكم مقاطعة الجزائر

---

30) نظام حكومى قام فى فرنسا من 27 أكتوبر سنة 1795 الى 9 نونبر سنة 1799 وقد قلب نابليون هذا النظام الى نظام يعرف بالنظام القنصلى .

بنفسه ، وكانت القوة العسكرية تتركب من الجند العثماني المشتمل على التركي والأرمني واليوناني والسلافي والأرناءوطي وحتى الايطالي والكورسيكي والاسباني ، ومن قوات مساعدة تشتمل على عرب وبربر من أهل البلاد يقودها ضباط عثمانيون .

أما مساوىء هذا الحكم فانها تجل عن الحصر ، ومن أعظمها انه كان حكماً طاغياً عنصرياً لا يختلف في شيء عن الحكم السائد الآن ببعض الأقطار الافريقية ، تجرع أهل البلاد في ظله الصاب والعلقم ، اذ أقصاهم عن الوظائف والحياة العمومية باستثناء بعض الوظائف الدينية في حين كان المتظاهرون بالاسلام من طليان ويونان وأرمن يرتقون بسهولة الى منصب الوالي وقائد الجند ورئيس الأسطول وأمين المال ، وحوربت اللغة العربية وحلت محلها في الدواوين اللغة التركية وضعف التعليم فغاض معين الثقافة وصوح نبت الترسل والشعر والتأليف ، وفي العصر التركي دخلت الى الجزائر عناصر بشرية جديدة مشتملة على كل الأجناس التي كانت خاضعة للحكم التركي بأوربا وآسيا وافريقيا . وقد تزوج بعض هؤلاء الطارئين على البلاد من نسائها فولدوا جيل (الكورغليين) الذين لم يسلموا هم أيضاً من احتقار الأتراك الأقحاح واستصغارهم بسبب الدماء العربية التي تجري في عروقهم من جهة أمهاتهم كما دخل اليها المذهب الحنفي وبعض الطرق الصوفية الواردة معهم من الشرق ، أما الآثار العمرانية فأكثرها كان منشآت حربية وأقلها كان قصوراً ومساجد وحدائق وحمامات .

دول المغرب الأدنى :

الدولة الأغلبية

909 — 800

كان ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي عاملا على مدينة طبنة عندما ثار الناس بالقيروان على والي افريقية من قبل بني العباس محمد بن مقاتل

العكي رضيع هارون الرشيد سنة 799 (183 هـ) فاستنجد الوالى بالعامل فخرج معه لقمع الثائرين فعاد الوالى منتصراً الى مقر ولايته ، ولكن الرعية بقيت على كراهيتها له ، وعملت على خلعه بمداخلة العامل ابراهيم بن الأغلب ، فكتب ابراهيم في ذلك الى الخليفة ملتزماً بدفع 40.000 دينار مسانهة الى بيت مال الخلافة ببغداد ، واسقاط 100.000 دينار التى كانت خزينة الخلفاء تمد بها الامارة بالقيروان ليستعين بها الوالى على تدبير أمور افريقية وسائر المغرب وينفقها فى المصالح العمومية، وبعدما استشار الخليفة أهل شوراه أشاروا عليه بقبول ذلك تخفيفاً عن كاهل الخلافة الذى أعياه تدبير أمبراطورية تترامى أطرافها ما بين الهند والصين شرقاً والمحيط الأطلسى غرباً ، ودفعاً للدعوتين العلوية والمروانية اللتين أقامهما بالمغرب الأقصى والأندلس ادريس بن عبد الله الكامل الحسنى ، وعبد الرحمان الداخل الأموى ، وصدر أمر هارون الرشيد وسط جمادى الثانية عام 184 هـ (يوليوز 800 م) باقالة محمد بن مقاتل العكى عن ولاية افريقية واسنادها الى ابراهيم بن الأغلب وجعلها وراثية فى عقبه مع منحه سلطات واسعة فى التصرف ، فكان ذلك اعترافاً ضمنياً من الخلافة باستقلال المغرب الذى كانت بعض أقطاره وجهاته استقلت فعلا من غير ان تنتظر من خلفاء بغداد ان ينعموا عليها بالاستقلال .

وأقام ابراهيم أميراً اثنتى عشرة سنة نظم فيها امارته ، وبنى القصر الكبير (العباسية) على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، ونقل اليه سلاحه وسكنه بحاشيته ، وكان فقيهاً أديباً حسن السيرة رؤوفاً بالرعية ، ولما توفى سنة 811 (196 هـ) خلفه ابنه عبد الله المكنى بابى العباس ، فأحدث عدداً من الضرائب نفرت منه الرعية ، وبعد خمسة أعوام وبضعة أشهر من ولايته توفى (817 ــ 201 هـ) فخلفه أخوه زيادة الله الذى كان عالماً أديباً ضم اليه العلماء وأدنى منه أهل المعارف ، وهو الذى أغزى أسطوله وجيشه صقلية سنة 827 (212 هـ) تحت قيادة القاضى الشهير أسد بن الفرات . ولما أراد منه الخليفة المامون العباسى ان يدعو لعبد الله بن طاهر بن الحسين والى مصر رفض ذلك بشمم ، وناول رسول الخليفة كيساً فيه ألف دينار أكثرها مضروب باسم الأدارسة ملوك المغرب الأقصى ففهم الخليفة أنه تلويح بتحويل الدعوة اليهم

اذا ألح عليه في ذلك فغض عنه الطرف ، وكانت وفاة زيادة الله سنة 838 (223 هـ) فتوالى الأمراء من آل الأغلب بعده ، من أشهرهم تاسعهم ابراهيم بن أحمد (875 — 902) الذى اشتهر بكثرة سفكه للدماء . قتل حتى بناته وخاصة جنده فكان ذلك سبب انحلال دولته . وهو الذى نقل العاصمة الى تونس وبنى قصبتها واتخذ بها القصور والمباني ، وأبو مضر زيادة الله بن عبد الله الذى هزمه الداعية العبيدى أبو عبد الله الصنعانى سنة 908 (296 هـ) فلم ير بعدها بدأ من اسلام البلاد اليه . وجمع آله وماله وغادر افريقية متوجهاً الى طرابلس ومصر فمنعه عاملها من الدخول اليها ثم أذن له الخليفة العباسي بالاقامة بالرملة فأقام بها الى ان توفى سنة 915 (303 هـ) على أسوأ حال . وانقضت بخروجه من المغرب الأدنى دولة الأمراء من بنى الأغلب بعد ان دامت 111 سنة .

كانت الامارة الأغلبية دولة عربية دماً ولحماً ، ظلت تعترف بالتبعية للخلافة العباسية ولكنها كانت في الحقيقة تتمتع بكامل الاستقلال ، وقد أفادتها العلاقات الطيبة مع بغداد فوائد كثيرة سواء في التنظيم أو التحضير أو التعريب ، اذ كانت الوفود السياسية لا تفتأ غادية رائحة بين القيروان وبغداد، كما كان طلبة العلم من أهل افريقية يقابلون بترحاب فى مدارس العراق ثم يعودون الى بلدهم مملوئي الوطاب علماً وأدباً ، وقد كاد المذهب الحنفى يستتب في افريقية بسبب ذلك لولا أن أنصار المذهب المالكى بالمغرب الأقصى والأندلس والقيروان نفسها بذلوا مجهودات قوية لنشره وتعميمه حتى اختفت أمامه سائر المذاهب .

وكانت حدود الامارة الأغلبية تمتد من طرابلس شرقاً الى السزاب وجبال كتامة (زواوة) غرباً ، وبقيت القيروان وما بنى بضواحيها عاصمة للامارة الى ان انتقل أحد الأمراء الى تونس فاستقر بها ، وكان الأمراء يستعينون على الحكم بموظفين سامين ، فكان لهم وزير وحاجب وصاحب شرطة وبريد وجباة للزكاة والضرائب ، وقواد للجيش والأسطول ، أما القضاء فكان مقدساً ولقضاة افريقية في ذلك العصر نوادر فى العدل والتسوية فى الأحكام بين

الأمير والمأمور ، وقد بلغ من أعمية القضاء أن أسد بن الفرات لما ولاه زيادة الله بن الأغلب قيادة الجيش والأسطول عند غزو صقلية عد ذلك حطاً لمرتبته ، وقال لزيادة الله : أصلح الله الأمير : أبعد القضاء والنظر فى الحلال والحرام تعزلنى وتولينى الامارة ؟ ولم تطب نفسه حتى أخبره زيادة الله انه قاض وأمير ؟

وكان أمراء بنى الأغلب على ولوعهم بالخمر والغناء والصيد مولعين بالبناء والتشييد، فقد أصلحوا مسجد عقبة بالقيروان وبنوا القصرالقديم ورقادة بضواحيها ، وجددوا بغاية وبلزمة ، وعمروا تونس وبنوا قصبتها وجامعها الكبير (الزيتونة) وعدداً كثيراً من المساجد والحصون والمحارس والربط ، وكانت مجالسهم فى نطاقها الضيق تشبه مجالس خلفاء بغداد فى نطاقها الواسع، يكثر فيها انشاد الشعر ولحن الغناء ويجتمع فيها الشعراء والأدباء ، وكان لهم جيش قوى وأسطول كبير استطاعوا به غزو صقلية ، ولم يسىء الأغالبة الى دولتهم بشىء كما أساءوا اليها بظلم الرعية وتكثير الضرائب والغاء الزكاة الشرعية التى كانت تطيب بها النفوس ، وامعان بعضهم فى سفك الدماء حتى ان منهم من قتل بناته وبطائنه وحرسه الخاص . فلم تطق دولتهم بسبب ذلك الصمود فى وجه بنى عبيد .

الدولة العبيدية

972 — 909

ولد عبيد الله الملقب بالمهدى الذى تنتسب اليه الدولة العبيدية ببلاد المشرق سنة 873 (260 هـ) وهو من نسل الحسين بن الامام على بن أبى طالب على ما أكده ابن خلدون فى تاريخه ، ولما كبر بدأ حركته فى مدينة السلمية الصغيرة الواقعة قرب حماة بسوريا ، وبنى خطته السياسية على فكرة القول بظهور الامام المهدى الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وهى فكرة طالما استعملها **الشيعة** لجمع الناس حول آل البيت واثارتهم على ملوكهم بنى أمية ثم بنى العباس .

وكان من جملة الدعاة الذين أرسلهم عبيد الله الى الأقطار الاسلامية لبث دعوته الداعي أبو عبد الله الصنعاني الذى كان المغرب من حظه ، فجاء مع حجاج لقيهم بمكة سنة 893 ونزل معهم بحصن ايكجان بتراب قبيلة **كتامة** المستقرة بشرق جبال البابور بين مدن جيجل وسطيف وقسنطينة ، وهناك شرع يبث دعوته التي وجدت من البربر آذاناً صاغية وقلوباً واعية لشدة تعظيمهم لآل البيت ، ولما استوثق له الأمر جهر بالدعوة وأعلن الثورة على بني الأغلب وأرسل الى عبيد الله المهدى يستقدمه وكان يومئذ مختفياً بمصر بعدما فر اليها من الشام لما طلبه الخليفة العباسي المكتفى ، وشرع فى احتلال مراكز حكم ولاة بنى الأغلب فاستولى على ميلة أولا سنة 902 ثم على سطيف سنة 904 وعلى طبنة وبلزمة فى السنة التالية . وأثناء ذلك خرج عبيد الله المهدى الى المغرب صحبة ابنه أبي القاسم وأبي العباس احمد الصنعانى أخى داعيته وكانوا جميعاً في زى التجار ، وطارده ولاة بني العباس وجواسيسهم فلم ينته به المطاف الا فى سجلماسة بأقصى المغرب ، فأكرمه أميرها اليسع بن مدرار ، ثم اعتقله وابنه في غرفة داخل داره بعدما وردت عليه كتب الخليفة العباسي والأمير الأغلبي بالقبض عليه .

وواصل أبو عبد الله الصنعاني حروبه ضد بني الأغلب ، ودارت المعركة الفاصلة بينه وبين آخرهم زيادة الله الثالث بالأربص سنة 909 (296 هـ) ثم احتل رقادة يوم 27 مارس سنة 909 (26 جمادى الثانية 296 هـ) بعد ان تخلى عنها زيادة الله وفر الى المشرق ليموت فيه بئيساً .

وكان أول عمل بدأ به الداعية بعد قضائه على بنى الأغلب هو السعى فى تخليص عبيد الله من الأسر ، فخرج فى جيش كثيف متوجهاً الى المغرب ، وعرج فى طريقه على تيهرت فمحامنها دولة بنى رستم . ثم واصل زحفه نحو المغرب وكتب الى اليسع بن مدرار متلطفاً مخافة على عبيد الله وابنه الحبيسين بداره ، فقتل اليسع الرسل وخرج للقائه ، فانهزم وقتل ، ودخل أبو عبد الله الداعى الى سجلماسة ، واستخرج عبيد الله من مكان ثقافه ، فلما رآه ترجل وبكى ، ومشى بين يديه حتى أوصله لمحلته وسلم الأمر اليه ثم رجع معه الى القيروان وأنزله برقادة في شهر يناير 910 (ربيع الثاني 297 هـ) .

وأمسك عبيد الله مقاليد الدولة في الحين ، وجمع الفقهاء في رقادة ثاني يوم دخوله اليها ، فتلقب بالمهدى وتسمى بأمير المومنين وأخذ العهد لولده أبي القاسم وألف حرساً خاصاً من العبيد يبلغ عدده 12.000 مملوك ما بين رومي وحبشي ، وجيشاً قوياً من رجال كتامة ، واستفاد كثيراً من الجهاز الاداري الأغلبي الذي بقي قائماً ، فاستقر الولاة الجدد بالمدن والقرى دون صعوبة ، وواصلت الدواوين والمكاتب الادارية أعمالها العادية ، وبدأت الجبايات تتدفق من مختلف انحاء البلاد على بيت المال كذي قبل ، وبالجملة برهن عبيد الله المهدى من الساعات الأولى على أنه رجل دولة ممتاز حتى انه لم يستعص عليه قتل داعيته أبي عبد الله الصنعاني وأخيه أبي العباس سنة 911 (298 هـ) لما راما الاستبداد عليه وبدآ يستنقصانه .

وبعد ما أخمد المهدى بعض الفتن أنشأ عاصمة جديدة بالساحل سماها باسمه (المهدية) وانتقل لسكناها سنة 921 (304 هـ) واثر ذلك شرع في تحقيق الحلم الذي كان يستبد دائماً بفكره ، وهو أن يصبح خليفة على المسلمين قاطبة ، فارسل حباسة بن يوسف الى المشرق فاستولى على كثير من البلدان ، ثم وجه ابنه أبا القاسم مرتين الى مصر فاستولى على الاسكندرية وبلغ الفيوم ورجع ، ولم يزل عبيد الله المهدى آمناً مظفراً الى ان توفى سنة 934 (322 هـ) فقام بالأمر ولي عهده ابنه أبو القاسم محمد الملقب بالقائم بأمر الله الذي كان على سنن أبيه نجدة وحزماً وتورعاً ، فقوى الجيش والأسطول ، واستولى على مدينة جنوة بايطاليا ، وبنى مدينة المسيلة التي يسميها الشيعة (المحمدية) ، وثار عليه مخلد بن كيداد اليفرني المعروف بصاحب الحمار ، وكان خارجياً نكارياً يسب علياً وشيعته ، فاستولى على القيروان وتونس واستباحهما ، وتوفى القائم بأمر الله سنة 946 (334 هـ) ومخلد صاحب الحمار على حصار سوسة ، فخلفه ابنه أبو الطاهر اسماعيل الملقب بالمنصور ، ولكنه كتم موت أبيه حتى قضى على الثائر الخارجي (947 — 336) واثر وفاته أعلن المنصور للناس موت أبيه . وأمر ببناء مدينة صبرة على بعد ميل من القيروان وسماها المنصورية وانتقل لسكناها سنة 948 (337 هـ) وشرع بعد ذلك في تجهيز الأساطيل لغزو أوربا فأتيحت له مغانم وفتوحات لم ينعم بها طويلا لأنه

توفى سنة 953 (341 هـ) متأثراً من علة الأرق التى ابتلى بها ، فخلفه ابنه معد بن اسماعيل المكنى بأبى تميم والملقب بالمعز لدين الله ، وكان سياسياً كيساً يتحلى بما يجب ان يتحلى به الملوك من صفات تجتذب القلوب وتصطنع الناس ، وهو الذى وجه قائده جوهر الصقلى الى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى سنة 958 (347 هـ) فسار مدوخاً قبائلهما حتى وصل الى فاس فاستولى عليها ، ثم توجه الى تطاون (تطوان) ومنها الى سبتة فتعسر عليه فتحها فقصد سجلماسة واستولى عليها وقتل محمد بن الفتح الشاكر لله أميرها واثناء وجهته هذه فر الحسن بن كنون الادريسى أمامه والتجأ الى قرطبة ، وبعد سنة عاد جوهر الى افريقية .

وفى شهر غشت سنة 972 (شوال 361 هـ) خرج المعز لدين الله من المنصورية راحلا الى المشرق ونقل معه جميع أمتعته وذخائره ، واستخلف على افريقية وسائر أملاك العبيديين بالمغرب بلكين بن زيرى الصنهاجى ، فكان ذلك بداية ملك الصنهاجيين من آل زيرى بالمغرب الأدنى .

لم تكن أيام بنى عبيد الذين أصبحوا بعد انتقالهم الى مصر يسمون بالفاطميين طويلة بالبلاد المغربية ، لأن غايتهم كانت من الساعة الأولى هى الاستيلاء على الشرق واقتعاد كرسى الخلافة ببغداد . فلم يكن المغرب الا مرحلة أولى لقطع المراحل التالية ووسيلة لبلوغ غايتهم النهائية ، ولما عزم المعز عن الرحيل ضن على البلاد التى آوت أسرته ونصرتها حتى بجثث آبائه التى اصطحبها معه فى توابيت كما اصطحب جميع آل عبيد الله جده لأن البلاد المغربية بالنسبة لهم وله بلاد أجنبية ، ونظراً لقصر مدتهم فى المغرب واشتغالهم بتمهيد أقطاره فان الآثار التى خلفوها به قليلة وأعظمها مرسى المهدية ومدينة المسيلة ، أما الفكرة الشيعية التى جعلوها محور دعوتهم فانها لم تلق قبولا كبيراً من طرف السكان الذين كانوا يتخلصون أيضاً من المذاهب الخارجية ليستمسكوا بمذهب أهل السنة ، والحقيقة أن الناظر فى سيرة ملوك بنى عبيد وقوادهم فى طور دولتهم الأول بالمغرب يجدها تتسم بالتناقض مثلما يجدها تتسم به فى طورها الثانى بالمشرق ، ولكن شيئاً واحداً كان يطبع

سلوكهم هنا وهناك أكثر مما عداه ، هو شدة البطش وقسوة الأخذ وكثرة اراقتهم للدماء وازهاقهم للأرواح .

الدولة الزيرية الصنهاجية

1160 — 972

ينتسب ملوك هذه الدولة الى **صنهاجة** احدى قبائل البربر البرانس التى سيأتى التعريف بها ، وكان الفريق الذى ينتمي اليه منشئها يسكن ما بين **زواوة** شرقاً **وزناتة** غرباً ، وأكبر معاقلهم جبل تيطرى الشهير الواقع جنوب مدينة الجزائر .

ولما عزم المعز لدين الله أبو تميم معد العبيدى على نقل ملك بنى عبيد الى الشرق فكر فيمن يكفيه لاستبقاء ما حازه من ملك المغرب ودفع من يخشاه من ملوك المغرب الأقصى وأمراء زناتة المعقودة أيديهم بملوك بنى أمية بالأندلس ، فدله بعد نظره على اختيار رجل من قبيلة صنهاجة التى كان بينها وبين زناتة عداوة عظيمة وحسائف ظاهرة وكامنة ، كما كان لها تشيع كبير وولاء مكين لبنى عبيد .

وكانت رئاسة صنهاجة للأمير زيرى بن مناد بانى مدينة أشير (31) وهو أول من ظهر منهم بالمغرب الأقصى وعقد الألوية وقاد الجيوش ، وأبلى البلاء الحسن فى قتال مخلد بن كيداد الخارجى صاحب الحمار مع المنصور العبيدى ، فصار من أعيان شيعتهم وعظماء دولتهم ، فلما قرر المعز الرحيل الى مصر أسند ولاية المغرب الى ابنه بلكين بن زيرى ، وفوض اليه فى أموره ما عدى صقلية وطرابلس ، وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ، ولقبه بسيف العزيز ، وكتب الى جميع الولاة بطاعته .

---

31) تقع هذه المدينة الى الجنوب الشرقى من مدينة البرواقية ولا تزال أطلالها باقية الى اليوم عند الكاف الأخضر على المنحدر الجنوبى الشرقى لجبال تيطرى ، وكان انشاؤها سنة 324 (936) .

وارتحل المعز من المنصورية يوم الاثنين 6 غشت سنة 972 (22 شوال 361 هـ) ورجع بلكين بن زيرى ـ بعد ما شيعه ـ الى مقر عمله ، فاتخذ وزيراً وفوض له ، واعاد تنظيم ادارة الولاية ، وكان أهم ما يقلقه مزاحمة المروانيين والأدارسة وأمراء زناتة للدعوة العبيدية وتحالفهم ضدها ، وقد اضطر الى الذهاب بنفسه الى المغرب من افريقية يوم 28 مارس سنة 979 (25 شعبان 368 هـ) بجيوش ضخمة ، فسار حتى وصل الى فاس فاستولى عليها وأطاعه المغرب كله ولم تستعص عليه الا سبتة التى أيقن ـ لما شاهد مناعتها ـ انها لا تنال الا بالمراكب البحرية ، وأقام أبو الفتوح بالمغرب الأقصى يدير منه أمور ولايته من سنة 979 الى سنة 984 وكانت الرسائل والسجلات ترد عليه لفاس وغيرها مع البريد من مصر والأقاليم فيدرسها ويبعث أجوبته عنها الى القيروان بعد مدة قصيرة من تاريخ وصولها اليه ، ولما بلغه قيام الثائر خزرون الزناتي بسجلماسة رحل اليه واعتل فى طريقه بقولنج مات منه بعدما انفصل عن سجلماسة فى موضع بينها وبين تلمسان فى 25 مايو 984 (21 ذى الحجة 373 هـ) فبويع بعده ابنه أبو الفتح الملقب بالمنصور بمدينة أشير وبقى أميراً الى ان توفى يوم 26 مارس 996 (3 ربيع الأول 386 هـ) وقد حافظ خلال هذه المدة على ولائه للفاطميين ، وسعى فى اعادة المغرب الأقصى والمغرب الأوسط الى سلطانه بعدما انفصلا عنه اثر وفاة أبيه وأرسل لهذا الغرض أخاه يطوفت ولكن زيرى بن عطية المغراوى أجلاه عن فاس وهزم جنوده فلم يقفوا الا بتيهرت ، وكان أبو الفتح المنصور سياسياً وديعاً يقابل الثائرين عليه بالصفح ويستميل الناس اليه بالاحسان ، لا يستثنى من ذلك الا بطشه بوزيره عبد الله الكاتب وابنه يوسف لأمور نقمها (986 ـ 376 هـ) ولما توفى تولى الامارة ابنه وولى عهده باديس المكنى بأبى مناد والملقب فيما بعد بنصير الدولة ، فكثرت فى أيامه الطويلة الفتن والثورات والحروب وضيق عليه زيرى بن عطية المغراوى ملك فاس حتى أداه الحال الى تولية عمه حماداً وتمليكه على ما يفتحه من الأراضى الغربية فانقسم ملك بنى زيرى الصنهاجيين الى قسمين : قسم بالقيروان ، وقسم بالقلعة التى بنها حماد ونسبت اليه ، وكانت وفاته سنة 1016 (406 هـ) فتولى بعده ابنه المعز بن باديس الذى خلع دعوة

الفاطميين وأنكر المذهب الشيعي وسائر المذاهب الأخرى وحمل الناس على مذهب الامام مالك بن أنس ، فأشار الوزير على اليازورى على المستنصر الفاطمى أن يسرح اليه عرب **هلال** و **سليم** ليكفوه مخالفته ، فأباح لهم عبور النيل ودخول برقة والمغرب ، فجاز منهم ما لا يقل عن نصف مليون نسمة ، وتقدموا الى المغرب ناهبين مخربين واشتدت وطأتهم على البلاد وسكانها حتى اضطر المعز الى التخلى لهم عن القيروان (1057 — 449) والالتجاء الى المهدية حيث توفى سنة 1062 (454 هـ) فخلفه ابنه تميم بن المعز ، فابنه يحيى بن تميم (1108 — 501 هـ) ثم على بن يحيى (1116 — 509 هـ) ثم الحسن بن على (1121 — 515 هـ) الذى كثر عيث النورمانديين فى شواطىء المغرب الأدنى على عهده ، ولم ينقذ البلاد التونسية من الفوضى والوهن الا استيلاء القوات المغربية عليها سنة 1160 (555 هـ) بقيادة عبد المومن بن على الذى أبقى الحسن المذكور والياً على المهدية حتى استقدمه يوسف بن عبد المومن الى المغرب فتوفى فى الطريق سنة 1171 (566 هـ) .

كانت أيام بنى زيرى الصنهاجيين فى بدايتها امتداداً لأيام بنى عبيد الذين أسندوا اليهم الأمر ورحلوا الى المشرق . ولكن بنى زيرى بدءوا يشعرون مع مرور الزمان بأنهم فى حاجة الى اعلان استقلالهم ، ولم يكن يؤخرهم عن الجهر بذلك الا اشتداد الصراع بينهم وبين أقتالهم الزناتيين ملوك فاس ، ذلك الصراع الذى كان فى حقيقته قبلياً بين صنهاجة وزناتة أكثر منه دينياً بين الشيعيين والسنيين وسياسياً بين العبيديين والمروانيين ، حتى جاء المعز بن باديس فنبذ الدعاء للخليفة الفاطمى ودعا للقائم بأمر الله العباسى وأتاه التقليد منه ، ومع أن حفيده يحيى بن تميم راجع طاعة بنى عبيد واعاد الدعاء لهم على المنابر فان ذلك لم يكن سوى أمر شكلى ، لأن فاطميى القاهرة وعباسيى بغداد لم يبق لهم أى سلطان حقيقى على المغرب ، على أن ارتباط آل زيرى الأسمى بالخلافة فى المشرق أفاد المغرب كثيراً ، اذ استمرت الوفود تتنقل بسهولة ما بين المشرق والمغرب العربيين ، كما ظلت معاهد القاهرة وبغداد والحرمين الشريفين مفتوحة فى وجه الطلاب المغاربة ، وأتيح للحضارة العربية أن ترسخ سيما بعدما هاجر الاعراب الهلاليون والسليميون الى هذه البلاد التى أخذت بهم

طابعها العربي النهائي رغم ما كلفتها هجرتهم من تضحيات وسببت لها من خسارات .

وقد حاول الملوك الصنهاجيون أن يؤسسوا أمبراطورية ونجحوا في لحظات معينة من توحيد أقطار المغرب وجمع شمل سكانه ، ولكنها كانت لحظات قصيرة تلتها الفرقة والخلاف ، كما نعمت البلاد المغربية بفترات هدوء ازدهرت فيها الفلاحة ونمت الصناعة وكثرت الأموال ، ولكن الشعب لم يكن يستفيد كثيراً من خيرات بلاده لأن أفراده كانوا يرهقون بكثرة ما يؤخذ منهم من مال برسم الضرائب أو الهدايا الموجهة الى خلفاء المشرق . وكانت الحركة العمرانية بين مد وجزر فبينما كان بنو زيرى يبنون مدناً مهمة وقصوراً فخيمة كانوا يخربون أخرى كما فعلوا بالبصرة فى المغرب الأقصى وميلة في المغرب الأوسط ، ومثل ذلك معاملة رجال الدولة من أمراء ووزراء وعمال للرعية كانت تتصف حيناً بالعدل والرفق ، وأحياناً بالجور والقسوة التي ليس لها مثيل .

الدولة الحفصية

1573 — 1224

كان الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى جد الحفصيين ملوك تونس كبير قبيلة **هنتاتة** البربرية وأحد العشرة السابقين الى الاستجابة لدعوة الفقيه محمد بن تومرت مهدى الموحدين ومنشيء دولتهم ، وقد أبلى البلاء الحسن فى تثبيت دعوتهم وقاد جيوشهم المنطلقة لحرب أعدائهم بالمغرب والأندلس ، ولما توفى سنة 1181 (571 هـ) رعى الخلفاء من بنى عبد المومن لبنيه سابقة أسرتهم فى الدعوة ، وحميتها في النصرة ، فكانوا يقلدونهم الولايات ويسندون اليهم قيادة الجيوش ، ولما نهض الخليفة الناصر بن المنصور الموحدى الى افريقية سنة 1204 (601 هـ) للنظر في أمورها بعد ظهور الثائر ابن غانية كان فى صحبته أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، فاطلع الخليفة الناصر على الأحوال ودرس الأمور عن كتب ، ورأى أنه لابد من رجل قوى يسد في افريقية مسد

الخلافة ويكون له منها التفويض نظرا لبعد مراكش عن الصريخ ، فاختار أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الذى امتنع من الولاية فى الأول ثم قبلها بشروط . فاعلن الخليفة ولايته ورحل الى المغرب ، وشيعه أبو محمد عبد الواحد الوالى الجديد الى باجة ، ثم عاد الى تونس فاستقر بقصبتها يوم 10 مايو 1207 (10 شوال 603 هـ) فكان ذلك بداية عهد الحفصيين بولاية تونس ، وبعدما أوقع بالثائر ابن غانية وقائع مشهورة ومهد الأمن وسدل رداء العافية التمس من الخليفة أن يعيده الى المغرب ، لأنه كان اشترط عليه ألا يقيم بالولاية أكثر من ثلاث سنين ، ولكن الخليفة أجابه بشكر صنيعه وسوفه واعتذر عن استقدامه . فأقام بتونس محمود المقاصد الى ان توفى سنة 1221 (618 هـ) فقام بالأمر ابنه عبد الرحمان ريثما جاء الوالى الجديد وهو عم الخليفة المستنصر أبو العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المومن فحارب ابن غانية حتى شرده وتوفى سنة 1223 (620 هـ) فقام بأمر الولاية بعده ابنه عبد الرحمان بن ادريس فبسط فى الناس يد الجور ، ولما بلغت أخبار مظالمه الى العادل بن المنصور الموحدى بادره بالعزل وبدأ يجيل فكره فيمن يوليه على المغرب الأدنى فوقع بصره على عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص فاستدعاه وسأله عن حاله فأجابه متمثلا بقول الشاعر :

حال متى علم ابن منصور بها * * جاء الزمان الى منها تائبا

فاستحسن الخليفة الجواب واستظرف التشكى ، وولاه مكان أبيه ، فخرج الى تونس ووصلها سنة 1224 (شعبان 621 هـ) ومعه أخوته ، وقعد بها يعانى حروب ابن غانية ، وساءت الحالة بينه وبين أخيه أبى زكرياء وأشياخ الموحدين ، فلم ير بدأ من التخلى عن الولاية ، فقدم الأشياخ ورؤساء الجيش أخاه أبا زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (1228 — 625 هـ) فأقر الخليفة اختيارهم ، وقام أبو زكرياء بالأمر ، وأقبل على حرب ابن غانية حتى شتت جموعه ، ونمت اليه أنباء انحلال الخلافة فى مراكش فبدأ يتشوف الى الاستبداد بالولاية حتى بلغ به الحال الى صرف بعض العمال الذين بعثهم اليها الخليفة المأمون ، ثم أمر سنة 1237 (634 هـ) بذكر اسمه على المنابر فى الخطبة مقتصراً على لقب الأمير .

ويعتبر أبو زكرياء المشيد الحقيقي لدولة بني حفص فقد قوي أمره حتى جاءته البيعات من المغرب والأندلس ، وأصبحت تونس قبلة الأنظار لما أقر فيها من سلطة ونشر من أمن وبنى من مساجد وقصور ونمق من حدائق وغروس ، وفي سنة 1249 (647 هـ) توفي أبو زكرياء فتولى ابنه المستنصر الذي ازدادت في عهده الدولة قوة ومهابة والرعية رفاهية وهناء ، لكنه كان شديد البطش غير متوقف في سفك الدماء ، ومن ضحاياه الكاتب الكبير أبو عبد الله بن الأبار القضاعي صاحب المؤلفات الأدبية النفيسة ، وفي أيامه غزا ملك فرنسا سان لويس تونس (1269 — 668 هـ) فمات وكثير من جنده بالوباء وانسحب الفرنسيون منها بعد أربعة أشهر على أسوأ حال ، وتوالى على عرش المملكة الحفصية بعد وفاته (1277 — 675 هـ) أربعة وعشرون ملكا وأميراً من أسرته الا في فترات قصيرة خرج فيها الملك من بين أيديهم كفترة الدعي ابن أبي عمارة (82 — 1284) وفترة استيلاء بني مرين على تونس (1347 — 748 هـ) ومن أشهر ملوكهم بعد المستنصر أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (1370 — 1394) وابنه أبو فارس عبد العزيز (1394 — 1433) وحفيده عثمان بن المنصور بن عبد العزيز (1435 — 1488) وختم ملكهم بالسلطان محمد بن الحسن (1572 — 1573) الذي قضى الرياس الأتراك على دولته وعلى حماته الاسبانيين ونقلوه الى السلطان سليم العثماني باسطمبول فاعتقله بها خشية رجوعه الى تونس حتى هلك في اعتقاله .

وانتهى باستيلاء الأتراك العثمانيين على المغرب الأدنى حكم بني حفص بعد أن دام أزيد من ثلاثة قرون ونصف عاشت خلاله تونس عصراً من أحفل عصورها التاريخية بالوقائع والأحداث التي تسر وتسوء ، ولقد كان من بين ملوك الأسرة الحفصية ملوك امتازوا بحسن السياسة وقوة الشخصية فأطاعتهم الرعية وسعد بهم الناس وكثرت في أيامهم الأعمال العمرانية ونشطت الحركة الثقافية وانبسط نفوذهم على جميع المغرب الأدنى وجل المغرب الأوسط ، كما كان منهم ملوك وأمراء ضعفاء أخلدوا الى ملذاتهم وشهواتهم ووضعوا مقاليد الدولة بين أيدي موظفين انتهازيين أرهقوا الرعية بالمغارم وساموها ذلا وخسفاً ، وأقطعوا البادية مشايخ الأعراب فأضرموها حرباً وعاثوا

فيها فساداً ونسفا ، وكانت دولتهم في شكلها النظامي صورة مصغرة لدولة الموحدين الأصلية ذات وزراء وحجاب وأصحاب أشغال وقضاة وكتاب وجباة أموال وقواد جيوش وأساطيل ، وقد تخلوا عن القول (بالامام المعصوم المهدى المعلوم) بعدما تخلى عن ذلك الخلفاء أنفسهم بمراكش ، فازداد مذهب أهل السنة تثبيتاً واختفت من البلاد جميع المعتقدات والأفكار المنافية له ، ولكن انتشرت بدلها الزوايا الصوفية وقوى حسن الاعتقاد في الأولياء والصلحاء والبله والمخرقين الذين أصبح لهم تأثير على الدولة وتدخل في شؤونها .

ويعد العصر الحفصي بتونس عصراً خصيباً من الوجهة الفقهية العلمية لكثرة من ظهر فيه من الفقهاء والعلماء ، وما ألف فيه من التآليف النفيسة التي ضاع أكثرها في الثورات والحروب سيما أيام الاحتلال الاسباني ، وكان لجامع الزيتونة أثر كبير في تكوين أولئك العلماء والفقهاء لما كان يلقى فيه من دروس في مختلف الفنون والعلوم ، وقد استفادت تونس كثيراً ممن انحاز الى ملوكها في البداية من علماء الأندلس وأدبائها ، كما استفادت في النهاية ممن استقر بضواحيها من مهاجرى الأندلس الذين جددوا فلاحتها وحملوا اليها صنوفاً من المدنية وأعرافاً اجتماعية جديدة ، أما من الوجهة السلالية واللغوية فان العنصر العربى والمتعرب أصبح هو السيد ، ولم يبق للغة البربرية سبيل الى الحياة الا ببعض الجهات المنعزلة ، وحتى موظفو الدولة وجنود القوات العسكرية التي جاءت من المغرب الأقصى مع بني حفص أو خلفها الموحدون بتونس — وجلهم ينتمى الى قبائل **المصامدة** البربرية — انصهروا في بوتقة العروبة مع من كان يساكنهم من العرب والمتعربين فأصبحوا عرباً وكان استقرارهم بتونس والتحامهم مع أهلها بالصهر عاملا قوياً في تقوية الروابط السلالية بين سكان المغرب قاطبة . وكان اختلال نظام ولاية العهد وميل رجال الدولة ومشايخ الأعراب الى هذا أو ذاك من الأمراء أكبر أسباب الفتن والحروب التي أوهنت عظم الدولة الحفصية وجرأت عليها الأجانب وسهلت في النهاية وقوعها بين أيدى الأتراك العثمانيين .

الحكم التركي

1573 — 1881

جعل القائدان الأخوان عروج وخير الدين من جزيرة جربة الواقعة أمام ساحل تونس الشرقي مقراً لقيادة أسطولهما الجهادي ، فكانا ينطلقان منها للاغارة على السفن النصرانية والسواحل الأوربية ، ولم يستقرا بها حتى اتفقا على ذلك مع أمير البلاد محمد بن الحسن الحفصي ، فكانا يرسلان اليه خمس الغنائم ، ويختاران له هدايا من أنفس ما يقع بين أيديهما من أسلاب ، ودام الحال كذلك فترة من الزمان الى أن أوجس منهما السلطان الحفصي خيفة ، فامتنع من تزويدهما بالبارود لما نفد ما عندهما منه وهما يحاصران الاسبانيين ببجاية ، وبدأ يكيد لهما عند ملوك تلمسان ومشايخ الأعراب بالمغربين الأدنى والأوسط ، ولقد كان هذا التحول من السلطان الحفصي سبباً في تحول الأخوين عروج وخير الدين عنه الى السلطان العثماني بعد ان كانا يعملان لحسابهما الخاص ، بل كان سبباً في بسط الحكم التركي على تونس والجزائر ، وهكذا توجه خير الدين اثر رجوعه من احدى رحلاته الجهادية الى المشرق — نحو بنزرت فاستولى عليها ولما علم بفرار السلطان الحفصي توجه الى حلق الوادي باسطوله ، فاحتل تونس (18 غشت 1534) دون مقاومة تذكر ، وبعدما سكن الروعة أعلن نهاية حكم الحفصيين وشمل الناس بعفوه ، وأقام حامية عسكرية بالقيروان ، وبسط حكمه على جميع مراسي الساحل ، وهبت لاعانته القبائل القوية الساكنة بجنوب اقليم قسنطينة .

وحاول السلطان الحفصي الحسن بن محمد استرجاع ملكه ولكنه فشل ، فتوجه الى الأمبراطور كارلوس الخامس ملك اسبانيا يستنجد به ، وصادف هذا الاستنجاد استحساناً من البابا كما اقترن بعودة فكرة الجهاد الصليبي الى أذهان الأوربيين ، لذلك ارسلت اسبانيا حملة الى تونس تتركب من 30.000 جندي تحملهم 400 سفينة ، فاستولوا على حلق الوادي (14 يوليوز 1535) ثم

دخلوا تونس بعد ستة أيام فأمنعوا في أهلها قتلا ونهبا ، وأعادوا الى عرشها السلطان المستنجد بهم ، اما خير الدين فانه بعدما انسحب الى عنابة توجه باسطوله الى مرسى ماهون بجزر الباليار فخربه وأسر 6000 من أهله ، وكانت واحدة بواحدة .

وبعد أخذ ورد خرج أسطول تركي من اسطمبول تحت قيادة الوزير سنان باشا ، وقلج علي قبطان باشا فوصل أمام تونس يوم 24 يوليوز 1573 (24 ربيع الأول 981 هـ) ونزل العسكر العثماني الى البر ، وجاء لنجدته جيش طرابلس بقيادة مصطفى باشا ، وجيش القيروان بقيادة حيدر باشا فحاصروا حلق الوادي الذي اعتصم به الجيش الاسباني حتى فتحوه يوم 3 شتنبر (6 جمادى الأولى) ثم حاصروا بتونس محمد بن الحسن الحفصي ومن معه من الاسبانيين ففتحوها وتملكوا قصبتها ، وفر السلطان الى البستيون (البرج) الذي بناه الاسبانيون فتبعوهم اليه ولم يزالوا يضيقون عليه حتى دخلوه عنوة يوم 22 شتنبر (25 جمادى الأولى) واستأصلوا من فيه قتلا وأسرا ، واعتقلوا محمد بن الحسن الحفصي وارسلوه للحبس بتركيا فكان آخر الملوك الحفصيين .

واستقر سنان باشا بالحضرة التونسية يتلافى ما بقي من رمقها ويرتب الأمور ويتألف الناس ، وكانت البلاد وصلت الى حال من الفوضى والوهن والفقر لا أعظم منه الا الفناء ، فكان أول ما بدأ به تنظيم الفرق العسكرية المكلفة بحفظ الأمن في العاصمة والأقاليم ، وتعيين الموظفين السامين ، ووضع مجموعة من القوانين يرجع اليها الناس لمعرفة ما لهم وما عليهم ، وأمر بحضور أعيان أهل البلاد في اجتماعات ديوان العسكر تأليفاً للقلوب ، ورجع الوزير سنان باشا وقلج علي القائد العام للاسطول (قبطان باشا) بعد ذلك الى اسطمبول فاستمر الترتيب الذي تركه على حاله الى ان فتك الجند بكبار الديوان في وقعة تعرف بوقعة البلكباشية سنة 1591 (999 هـ) وصار قادة الوحدات العسكرية ينتخبون (داياً) منهم للنظر في أمور الجيش وحفظ العاصمة ، ومن أشهر هؤلاء الدايات الذين صاروا هم أصحاب السلطة الحقيقية الداي عثمان (1591 — 1610) الذي مهد الأمن وقوى الأسطول ووضع للولاية شبه دستور ، وفي أيامه

وصلت الى تونس طوائف جديدة من مهاجرى الأندلس المسلمين فاكرم مثواهم وأنس غربتهم وأقطعهم ما اختاروا من الأرض فحييت بهم الصناعة وانتعشت الفلاحة ، والداى يوسف (1610 ـ 1637) الذى أنجز فى عهده أعمالا عمرانية عظيمة وازدادت عنايته بالاسطول وحارب أتراك الجزائر على الحدود ، وعاش البايات الذين هم أكبر من الدايات رتبة واوسع اختصاصاً وكذلك الباشوات الذين هم أصحاب الولاية بدون سلطة ولا نفوذ ، الى أن استطاع واحد من البايات اسمه مراد (1612 ـ 1631) أن يرقى الى رتبة باشا ويحرز على موافقة السلطان بتوارث ذريته لتلك الرتبة ، ومن ذلك الوقت بدأ أمر الأسرة المرادية يعظم حتى غطى أمر الدايات ، فقد استطاع الباى حمودة باشا (1631 ـ 1659) بن الباى مراد ان يدوخ القبائل العربية ويلحق جزيرة جربة بباشوية تونس ، ويصلح ما أحدثه من خسائر هجوم فرسان مالطة على الاسطول بحلق الوادى (1640) ، أما ابنه الباى مراد (1659 ـ 1675) فانه خضد شوكة الجند وألقى فى السجن أحد داياته ، وانتقل الى سكنى قصر باردو وأقام به عاهلا محترماً ، ولكن تلت موته فتنة بين أفراد أسرته دامت عشرين سنة أتاحت لأتراك الجزائر أن يتدخلوا منتصرين فى القضايا التونسية ، وانتهت أيام المراديين على يد الآغا ابراهيم الشريف قائد صبايحية الترك الذى قضى على جميع أفراد أسرتهم سنة 1702 (1114 هـ) وتولى الامارة وجاءه التفويض من السلطان بعد ذلك ، ولكن لم يكد يستتب له الأمر حتى بسط فى الرعية يد الجور ، وأظهر ما يكنه فى صدره من حقد للعرب وسكان البلاد الأصليين ، ومن حسن الحظ ان أيامه لم تطل ، لأنه دخل فى نضال مع أتراك طرابلس وأتراك الجزائر خرج منه مهزوماً أسيراً (1705) وفر من ساحة العراك أحد قواد جيشه حسين بن على آغا الصبايحية الى زاوية الشيخ حسين السيجومى خارج تونس وأرسل من يأتيه بأهله وما خف من متاعه ليذهب بهم الى مكان يأمنون فيه ، ولكن أتراك تونس خرجوا اليه واستعطفوه والحوا عليه أن يبقى بين ظهرانهم ، ولما قبل دخلوا به الى العاصمة وأعطوه صفقة ايديهم بالامارة يوم الأحد 12 يوليوز 1705 (20 ربيع الأول 1117 هـ) فاعتصم بالقصبة ، وشرع يجمع فلول الجيش المنهزم وينظم الدفاع عن

العاصمة ، فنجح في ذلك ولم يسع أتراك الجزائر الا أن يرتدوا على أعقابهم خاسرين بعدما حاصروا تونس 40 يوماً ، واذ ذاك التفت الباي حسين الى تنظيم شؤون الولاية الداخلية ، وكان عليه أن يخضد قبل كل شيء شوكة بعض الرؤساء العسكريين الذين لم يكونوا يطيعون أميراً في يوم الا ليعصوه في غده ، ثم جمع مجلساً لتنظيم وراثة السلطة (ولاية العهد) ونجح في جعل الامارة وراثية في عقبه (1710) وفي عهد هذا الباي عرفت تونس ازدهاراً اقتصادياً وتوسعاً عمرانياً وأمنت الطرق وانتعش السكان ولكن الباي حسين ابتلي بثورة قام بها ابن أخيه علي باشا بمساعدة أتراك الجزائر (1729) فعادت الفوضى الى سابق عهدها ولم تنته الا بانتصار الباشا الثائر وقتل عمه حسين (1740) على يده ، فجلس علي باشا على كرسي الامارة ووضع حداً لتدخل القناصل الأوربيين فيما لا يعنيهم من شؤون البلاد الداخلية ، وشيد كثيراً من البنايات ذات المنفعة الخاصة والعامة ، وحدثت في آخر سنوات حكمه ثورة قام بها أحد أبنائه واغتنمها أتراك الجزائر للهجوم على ولايته ، فتمكنوا بسهولة من احتلال العاصمة التونسية واعتقلوه وقتلوه (1756) ونصبوا محمداً ابن الباي السابق حسين والياً واشترطوا عليه أن يؤدي لهم جزية سنوية ، ولكن الباي الجديد لم يحكم الا ثلاثة أعوام (56 — 1759) استطاع خلالها أن يثبت الأمن ويفرض النظام ، فخلفه أخوه علي باي (59 — 1782) الذي أظهر مهارة في تسيير شؤون الدولة وحسن علاقة حكومته بالحكومات الأوربية وفتح المراسي والسواحل التونسية في وجه التجارة الدولية مستعيناً على ذلك كله بصهره ووزيره مصطفى خوجة الذي كان بدوره ادارياً ماهراً ، وبعد مماته خلفه ابنه الباي حمودة بن علي (1782 — 1813) وكان شاباً ذكياً حازماً قاوم التدخل الأوربي وخلع نير التبعية للجزائر واغتنم ثورة قام بها الأنكشارية (1811) فأخمد نائرتهم وحل بمساعدة السكان هذه القوة المتعسفة التي سببت كثيراً من المآسي منذ استقرارها بتونس في أول سنوات الاحتلال التركي ، وخلال السنين الطويلة التي حكم فيها هذا الباي بنى عدداً من القصور والمباني الفخمة من أعظمها قصر دار الباي القريب من القصبة ، وقصر منوبة الذي عمل فيه صناع مغاربة ، كما بنى وزيره القوي يوسف صاحب الطابع مباني مهمة كالمسجد الواقع برحبة الحلفاوين .

وبعد موت حمودة باى تملك أخوه عثمان باى ، ولكنه لم يبق فى الامارة الا ثلاثة أشهر وقتل ، فخلفه ابن عمه محمود باشا بن محمد بن حسين يوم الأربعاء 21 دجنبر 1814 (9 محرم 1230) الذى ألغى تجارة الرقيق (1819) وشعر بضرورة الاتفاق مع وجاق الجزائر لتستطيع كلتا الولايتين مقاومة التدخل الأوربى فى شؤونها ، فتم عقد صلح نهائى بين الايالتين تحت اشراف مفوض عثمانى مبعوث من اسطمبول يوم الثلاثاء 20 مارس 1821 (15 جمادى الثانية 1236) وبعد وفاته (1824) تولى الامارة ابنه الباى حسين باشا فكثر فى أيامه التنافس بين الدول الأوربية على الاستئثار بأسواق الايالة التونسية وسائر الأقطار المغربية ، وهذا الباى هو الذى وجه الأسطول التونسى (الاثنين 7 غشت 1826 — 3 محرم 1242) تحت قيادة الأميرال كشك محمد لاعانة الدولة العثمانية فى حربها ضد اليونانيين ، فسحقه الأسطول الفرنسى فى معركة نافارين فى السنة التالية ، وبعد ثلاثة أعوام احتل الفرنسيون الجزائر وأرسلوا الى تونس أسطولا حربياً لتعديل الاتفاقات المعقودة من قبل بين فرنسا وتونس وفرض أوفاق جديدة ، فأمضى الباى الأوفاق ، وتدخل بعد ذلك لصالح الاحتلال الفرنسى للجزائر ، فنفر ذلك منه قلوب الرعية ، وفى سنة 1835 (1251) توفى الباى فتولى مكانه الباى مصطفى بن الباى محمود وتوفى بعد سنتين فخلفه ابنه أحمد الذى قوى الجيش ، وسوى بين علماء المذهبين الحنفى والمالكى ، وأدخل اصلاحات كثيرة على الدولة وسن قوانين تضبط التصرف والتعامل ، وكانت له رحلة الى فرنسا سنة 1846 (1263 هـ)ولما توفى سنة 1855 (1271 هـ) خلفه ابن عمه البـاى محمد بن حسين بـن محمود فواصل سن القوانين وادخـال الاصلاحات التى بدأهـا سلفه ، ومن أعظم اصلاحاته اعلان الدستور (عهد الامان) فى يوم الأربعاء 9 شتنبر 1957 (20 محرم 1274) ، وبعد سنتين توفى (1859) فتولى بعده أخو محمد الصادق باى الذى دخلت تونس على عهده فى طور التحضر والتقدم وكثر التدخل الأوربى فى شؤونها الداخلية حتى أفضى ذلك الى فرض الحماية الفرنسية عليها سنة 1881 فاستمر البايات من آل حسين بن على على عرش الامارة الى استعادت البلاد التونسية استقلالها سنة 1956 واعلنت النظام الجمهورى فى السنة التى تليها وفرض على الباى محمد الأمين آخر أمراء الأسرة الحسينية الاقامة الجبرية وظل معتقلا حتى توفى بعد ذلك ببضع سنين .

العصـــر الحديـــث

1830

هذا العصر هو ثالث العصور الكبرى للتاريخ المغربي ، وهو في الحقيقة جزء من العصر الذى قبله باعتبار أن الأمة المغربية بقيت فيه متمسكة بعقيدتها الاسلامية ، ولكن ينبغى في نظرى أن يعتبر عصراً متميزاً عما سبقه ، لأن الآثار التي خلفها في حياتها والتطورات التي شاهدتها اثناءه في جميع المجالات لا تقل أهمية عن الآثار والتطورات التي طبعتها في العصور التي قبله .

ويبتدىء هذا العصر بالاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 ، واذا كانت تبعات هذا الاحتلال لم تشمل في الحين سائر أقطار المغرب العربي فانها شملتها بالتدريج حتى لم يبق منها شبر الا وأصابته بالطل والوابل ، ومثل ذلك حدث اثناء الفتح العربي — والقياس مع الفارق — فان العرب لم يستولوا على المغرب في سنة واحدة ، ولم يطبعوه بطابع الدين الذى حملوه اليه في عقد أو عقدين من السنين ، وانما تمكنوا منه بعد سنين طويلة عانوا خلالها المشاق واصطلوا بنيران الحروب .

وبالنظر الى ان التطورات التي فرضت نفسها على أقطار المغرب العربي انما لحقت كل واحد منها على حدة ، وفي فترات معينة ، ولأسباب خاصة ، رأينا أن نتحدث عن هذه الأقطار واحداً واحداً كما فعلنا في العصر الماضي .

الجزائر في العصر الحديث

كانت الدولة الفرنسية تنتظر بفارغ الصبر سنوح فرصة للاستيلاء على الجزائر ، وقد سنحت لها يوم 27 أبريل سنة 1827 عندما لطم الداى حسين قنصلها على وجهه وهو يذكره بالدين الجزائرى المترتب بذمتها ، فقطعت علاقاتها مع الجزائر وحاصرتها بحراً ، ثم أرسلت اليها حملة عسكرية تحت قيادة الجنرال دى‌بورمون وزير الحرب فاحتلها يوم الاثنين 5 يوليوز 1830 (13 محرم 1246 هـ) .

ووجد الجزائريون أنفسهم وجهاً لوجه مع الفرنسيين ، لأن الداى الذى كان من الواجب عليه أن ينسحب الى داخل البلاد لتنظيم المقاومة رحل بأهله ومتاعه الى الخارج بعدما تعهد له الفرنسيون بذلك فى وثيقة الاستسلام ، ولما كان الحكم التركي حال بين أهل البلاد وبين ادارتها ثلاثة قرون وقضى على كل زعامة وطنية — لم يبق للجزائريين أمل الا فى سلطان المغرب الأقصى بعد ما رأوا باى تونس التركى يؤيد المحتلين ، وبالفعل استجاب السلطان مولاى عبد الرحمان بن هشام لرغبة الوفود التى حملت اليه بيعة سكان الجزائر الغربية ، فأنشأ خلافة سلطانية بتلمسان ، ووجه اليها ابن عمه الأمير مولاى على معززاً بوحدات من الجيش النظامي ، ولكنه اضطر بعد قليل الى سحب خليفته وجيشه منها تحت ضغط الفرنسيين وتهديد أسطولهم للمراسى المغربية، واذ ذاك اختير الشريف عبد القادر بن محيي الدين الادريسي المعسكرى ليقود المقاومة الشعبية تحت نظر السلطان ، فقام بأمر الجهاد حق القيام ، واظهر مهارة فائقة فى التنظيم والتدبير والقيادة ، وصدق فيه جميع الظنون وحقق كل ما علق عليه من آمال ، وكانت له مع الفرنسيين وقائع كثيرة انتصر عليهم فى كثير منها حتى اضطروا الى الاعتراف به وبسلطته ، ولكنه تراجع فى النهاية أمام نمو قواتهم المتصاعد — الى داخل التراب المغربى ، فتبعه الفرنسيون حتى تجاوزوا وادى تافنا ، فعد سلطان المغرب ذلك انتهاكاً لحرمة مملكته ، وأرسل لصدهم جيشاً كبيراً هزموه بوادى يسلى قرب وجدة فى معركة عنيفة قاتل فيها المغاربة والجزائريون جنباً الى جنب فى سبيل القضية المشتركة (1844) .

وساءت حالة الأمير عبد القادر اثر ذلك بعدما اكره المغرب على التخلى عنه ، ولكنه واصل كفاحه رغم سوء حاله ، واستطاع ان يلحق بالفرنسيين هزيمة كبيرة فى معركة دارت قرب ضريح سيدى ابراهيم غير بعيد عن ندرومة، واذ ذاك عبأ الفرنسيون قوات كبيرة وأرسلوها الى حدود المغرب الجديدة تتربص به ، فلم يكن له مناص فى النهاية من الرضا بالقضاء المحتوم ، فاستسلم للجنرال لاموريسيير يوم 28 نونبر سنة 1847 .

على ان مقاومة الأمير عبد القادر لم تكن هى المقاومة الوحيدة التى واجهت جيش الاحتلال فى الجزائر ، فقد قاوم أهل قسنطينة تحت قيادة الباى الحاج أحمد ، وأهل **زواوة** تحت قيادة بومعزة المغربى ، كما أن استسلامه لم يكن يعني نهاية المقاومة كلها ، فقد واصل الشعب الجزائرى نضاله ضد جيش الاحتلال ولم تكن تسنح له فرصة دون ان ينتهزها للانقضاض عليه والتنكيل بجنوده ، ففى سنة 1849 تزعم القائد بوزيان ثورة قبيلة **الزعاطشة** الساكنة قرب بسكرة ، وبعدها ثارت قبائل جرجرة وجرت بينها وبين الفرنسيين معارك كثيرة من أشهرها معركة **بنى منكلات** ، وما كاد الجيش الفرنسى يتغلب على تلك القبائل حتى واجهته ثورة **أولاد سيدى الشيخ** بالحدود المغربية الجزائرية ، واستمر القتال بين الفريقين عنيفاً قاسياً خمسة أعوام تمكن فى نهايتها الجيش الفرنسى من قهر المجاهدين (1869) .

وكان الفرنسيون بدأوا من الساعات الأولى لاحتلالهم ينظمون الجزائر تنظيم من يستهدف استعمارها الدائم ولا ينوى الرحيل عنها ، ففى 22 يوليوز 1834 قرر البرلمان الفرنسى اعتبار الأراضى الجزائرية المفتوحة أرضاً فرنسية واعتبار أهلها مواطنين فرنسيين ، وأثناء هذه التنظيمات وضعت السلطات المحتلة يدها على أراضى سهل متيجة الغنية ووزعتها على أوربيين ممن رافقوا جيش الاحتلال للقيام بالأعمال الزراعية، ولما حدثت الثورة فى فرنسا سنة 1848 أرسلت حكومتها 20.000 من العاطلين الباريسيين الى المستعمرات الزراعية بالجزائر بعد ما تم طرد سكانها العرب منها ، ولكن هؤلاء القادمين فشلوا فى المهمة التى أنيطت بهم اذ لم تكن لهم خبرة بالفلاحة ، واذ ذاك بدأت فرنسا تستدعى معمرين أوربيين من مختلف الأجناس لتضايق بهم أهل البلاد الأصليين.

وبينما كانت فرنسا منهمكة فى القضاء على المقاومة وتكثير سواد الأوربيين شرعت فى تطبيق سياسة ادماج الجزائـر فيها ، ففى 18 ابريل 1845 صدر مرسوم يقضى بتقسيم المنطقة الشمالية الى ثلاثة أقاليم (الجزائر — قسنطينة — وهران) وآخر يقضى بتطبيق قانون البلديات الجارى به العمل فى فرنسا ، ثم صدر قانون 4 مارس 1848 الذى يؤكد ان الجزائر جزء متمم

للتراب الفرنسي ، وينص على حق الفرنسيين القاطنين بها في ارسال نوابهم الى البرلمان بباريس وتمتيعهم بكافة الحقوق المخولة لاخوانهم القاطنيـن بفرنسا ، ثم صدر قانون 16 غشت الذي يلحق القضاء والتعليـم والمالية بالوزارات الفرنسية ذات الاختصاص ، ومن البديهي ان ثمار هذه التنظيمات انما كان يجنيها المستعمرون الفرنسيون ، اما المواطنون الجزائريـون أو (الأهالي Les Indigènes) كما كانوا يسمونهم فانهم بقوا محرومين منها .

ولما اعتلا الأمبراطور نابليون الثالث عرش فرنسا سنة 1852 أولى الجزائر وافر الاهتمام ، وانتهج حيال أهلها سياسة رشيدة لا تتجاهل حقوقهم كما وقع منذ الاحتلال ، ورغم ان المستعمرين ثاروا ضد هـذه السياسـة وانتقدوها بشدة مضى الأمبراطور قدما في تنفيذها ، ومن أعظم أعماله اصدار قانون السيناتوس كونسولت يوم 22 ابريل سنة 1863 بعدما شارك في تحريره مجلس شورى الدولة ووافق عليه مجلس الشيوخ ، فحطم هذا القانون الذى يعترف للمسلمين بملكيتهم للأراضى المشاعة آمال المستعمرين الذين كانوا ينوون مواصلة الاستيلاء عليها ، ثم جمع الأمبراطور يوم 5 مايو 1869 لجنة لتحرير قانون أساسى للجزائر وقدمه الى مجلس شورى الدولة ، وبينما هو يدرس فصوله فوجئت فرنسا باعلان ألمانيا الحرب عليها ، فانهار صرح النظام الأمبراطورى الفرنسي . واستسلم نابليون الثالث للأسر ، فانطوت باختفائه صفحة سياسة معتدلة دام تطبيقها عدة سنوات .

وقبل قيام تلك الحرب شهدت الجزائر سنوات جفاف هلك فيها الحرث والنسل ، وعمت الفاقة وانتشرت الأوبئة ، فاغتنم الفرصة الكاردينال لافيجرى أسقف الجزائر ، وخرج الى القرى والدواوير العربية حاملا الصليب في يد والخبز والـدواء في أخرى ، والتقط منها عدداً كبيراً من اليتامـى وأرسلهم الى الكنائس ليتربوا في أحضانها ، فكانت تلك محاولة من الكنيسة لتنصير المسلمين بعد ما تمكن العسكريون والسياسيون من احتلال بلادهم وادماجها في فرنسا .

وبعد سقوط الأمبراطورية واعلان الجمهورية الثالثة اضطربت الادارة فى الجزائر ، وكان اليهودى كريميو يمثل الجزائر فى لجنة الدفاع الفرنسى ، فاستصدر قانون 24 اكتوبر 1870 الذى يعتبر يهود الجزائر مواطنين فرنسيين، فاغتاظ المسلمون لهذا الميز العنصرى ، واحتقروا حكومة يستطيع أن يفعل فيها يهودى ما يشاء ، وأعلن الباشاآغا الحاج محمد المقرانى الثورة فى جبال زواوة ، واكتسح الثائرون كثيراً من المراكز الفرنسية باقليم قسنطينة واقليم الجزائر ، فأسرع بسمارك مستشار المانيا الى تسريح الجيش الفرنسى المعتقل لديه ، فجاء هذا الجيش ونكل بالمجاهدين تنكيلا تقشعر منه الأبدان ، واستشهد الحاج محمد المقرانى قائد الثورة في ساحة الشرف يوم 5 مايو 1871 وبعد خمود الثورة حكمت فرنسا على 6.000 جزائرى بالاعدام ، ونفت 500 من أحرار الجزائر الى جزيرة خاليدونيا الجديدة بوسط المحيط الهادىء فبقوا بها معتقلين حتى هلكوا جميعاً ، وفرضت على أهل الجهات التى ثارت ضدهم خطيئة مبلغها 26.000.000 فرنك ، ولما عجزوا عن أدائها صادرت أملاكهم وأجلتهم عنها ، وأحلت محلهم فيها مشردى مقاطعتى الألزاس واللورين .

ووجهت فرنسا عنايتها بعد اخماد الثورة الى طرد العرب من أراضيهم واعطائها لمعمرين أوربيين من كل جنس ، وهو نفس العمل الذى يقوم به الصهيونيون اليوم فى أرض فلسطين ، وكمثال لهذا المجهود الاستعمارى تذكر ان الفرنسيين أنشأوا خلال ست سنوات فقط (71 — 1877) 198 مستعمرة فلاحية أسكنوا فيها 30.000 من المعمرين ، وأن عدد الفرنسيين انتقل خلال عشر سنوات (71 — 1881) من 30.000 الى 195.000 كما ارتفع عدد الأجانب الآخرين خلال المدة نفسها من 115.000 الى 181.000 أما السكان المسلمون فان عددهم لم يسجل زيادة تذكر .

ولم يكن المرسوم المتعلق بتجنيس اليهود الجزائريين هو كل ما استصدره اليهودى كريميو ، بل أصدرت لجنة (الدفاع الوطنى) التى كان عضواً فيها 57 قراراً آخر تتعلق بالجزائر بناء على توصياته ، ومن

هذه القرارات ما طبق فوراً ومنها ما لم يطبق البتة ، وكان أهم ما تضمنته هذه القرارات : الغاء الحكم العسكرى واقامة حكم مدنى يعمل بالتدريج على ادماج الجزائر فى فرنسا ادماجاً كلياً ، وتعيين حاكم عام مدنى للجزائر كلها ملحق بوزارة الداخلية ، يكون مرجعاً للسلطتين المدنية والعسكرية وترتبط به جميع المصالح الحكومية باستثناء التعليم والمالية والقضاء (غير الاسلامى) والمواصلات المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالوزارات المختصة فى باريس .

وفى سنة 1882 اشتركت القبائل بالحدود المغربية الجزائرية فى الثورة على الفرنسيين ، وكان يقودها الشيخ بوعمامة ، فلم يتمكن الفرنسيون من اخمادها الا بعد ثلاث سنوات ، واضطر زعيم الثورة الى الانسحاب الى داخل المغرب الأقصى كما التجأ اليه — فراراً من التنكيل الفرنسى عدد من قبائل الحدود مثل **المهاية** و **حميان** و **أولاد سيدى الشيخ** و **العمور** .

وقد اغتنمت فرنسا فرصة اخماد هذه الثورة فألحقت فى 30 نونبر 1882 بلاد **مزاب** بالأراضى الفرنسية ناكثة بذلك معاهدة الحماية التى فرضتها سنة 1853 على ذلك الطرف من الوطن الجزائرى .

واثناء ذلك وبعده بدأت سلطات الاحتلال توفد بعثات استطلاعية الى داخلية الصحراء الجزائرية والمغربية تمهيداً لاحتلالها . فلقيت من أهلها مقاومة عنيفة ، وفتك **الطوارق** ببعثة فلاتير سنة 1881 وبعثة بلات سنة 1886 ، وبعثة دولس سنة 1889 وبعثة موريس سنة 1895 .

والى جانب هذه المقاومة المسلحة ظهرت حركات عديدة للمقاومة السياسية السلمية ، وكانت هذه الحركات تنتظم وتتطور حسبما تقتضيه الأحوال ، وأول حركة جزائرية من هذا النوع هى الحركة التى نظمها السيد احمد البدوى أحد مثقفى مدينة الجزائر ، فقد انتهز فرصة ثورة العموم بباريس سنة 1871 فنظم هيأة للمطالبة بمنح حقوق كاملة للمسلمين الجزائريين ، ولكن هذه الحركة لم تستمر الا بقدر ما استمرت ثورة العموم الباريسية .

وفى سنة 1892 أحس الفرنسيون بمظهر الاستياء العام فى الشعب الجزائرى فحاولوا التمويه عليه باصلاحات جزئية ، وأسسوا النيابات المالية على أن يكون ثلثاً أعضائها من المستوطنين الفرنسيين ، والثلث الباقى من الوطنيين الجزائريين .

ولما أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة سنة 1901 استولت على الاحباس (الأوقاف) الاسلامية وضمتها الى أملاك الدولة ، فكان ذلك مظهراً آخر من مظاهر الاستعباد الروحى بعد الاستعباد الجسمى .

وواصل الفرنسيون سياسة ادماج الجزائر وفرنستها ، وأصبح شغلهم الشاغل اضعاف الشخصية الجزائرية شيئاً فشيئاً كخطوة فى طريق محوها ، ولم يتركوا وسيلة لتقوية عدد الأوربيين وتسهيل مقامهم بالجزائر الا لجأوا اليها فأصدروا سنة 1881 قانوناً يمنح الجنسية الفرنسية لأبناء الأجانب المولودين بالجزائر ، وواصلوا انشاء القرى الاستعمارية حتى تجاوز عددها 800 قرية قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، وخلقوا الفكرة البربرية للتضريب بين المسلمين من أصل عربى والمسلمين من أصل بربرى ، وحرموا التعليم الحر وضايقوا التعليم الدينى ، وأطلقوا على المدن والقرى الجزائرية أسماء فرنسية ، ولكن الشعب الجزائرى واصل فى مقابل ذلك مقاومته ، وأظهر تجلداً عجيباً فى الاستمساك بقوميته ، وعبر عنها بمختلف الوسائل ، وانبعثت حركته الاحتجاجية فى شكل جديد هو الهجرة الجماعية الى الأمبراطورية التركية والمغرب الأقصى ، وفى سنة 1910 بدأت الأقلام الجزائرية تتحرك للمطالبة بالمساواة ، وشرع الرعيل الأول من المثقفين الجزائريين المتخرجين من كليات فرنسا يطالب بتحسين حالة الشعب الجزائرى واراحته من الظلم الذى يعانيه ، ومن هؤلاء المثقفين المحامى أحمد بودربة ، والصحافى الصادق دندان ، والنائب المالى الحاج عمار .

وفى سنة 1912 فرضت فرنسا قانون التجنيد الاجبارى على المسلمين فازداد الاستياء وفضل كثير من الأسر الاسلامية الهجرة الى الشام والتضحية بكل المصالح الشخصية على الامتثال لذلك القانون .

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 جندت فرنسا 400.000 جندى من الجزائر وساقتهم الى مختلف ميادين الحرب ، كما عبأت 80.000 من المدنيين وأرسلتهم الى فرنسا للعمل فى مصانعها ، وبذل المسؤولون الفرنسيون للجزائريين وعوداً لا حصر لها بتحسين حالهم ، حتى اذا وضعت الحرب أوزارها لم تزد مكافأتهم على اصدار قوانين 4 يبراير 1919 التى تلغى قانون الأنديجينا l'Indigénat الزجرى وتوسع حقوق الانتخاب وتسوى فى الضرائب بين المسلمين والفرنسيين ، وهى مكافأة لا تتناسب مع تضحياتهم الكبيرة التى بلغت 100.000 قتيل فى تلك الحرب ، واذ ذاك تشكل وفد من الضباط الجزائريين يترأسه القبطان خالد الهاشمى حفيد الأمير عبد القادر وتقدم الى الرئيس ولسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وهو فى فرنسا يطالبه بتطبيق مبادئه على الأمة الجزائرية ، وبعد ذلك أحيل القبطان خالد على التقاعد ، فجاء الى الجزائر وشكل هيأة للدفاع عن حقوق الجزائريين سماها (كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين) وأصدر جريدة (الاقدام) باللغتين العربية والفرنسية لنشر أفكاره ، فارتاع المستعمرون من هذه الحركة التى نجحت فى زعزعة النفوذ الفرنسى من نفوس الأهالى ، وكونوا حركة مضادة شارك فيها عدد من المتعاونين المسلمين ، نجحت فى حمل الوالى العام ستيغ على ابعاد الأمير خالد عن الجزائر فالتجأ الى الاسكندرية ، ثم سمح له بالعودة الى فرنسا بعدما سقطت وزارة بوانكرى سنة 1924 وانتصرت كتلة اليسار بزعامة ليون بلوم وهيريو فأسس هيأة ثانية من أبناء الشمال الافريقى ، ثم سافر الى مصر بعدما اشتد القتال بين المغاربة والفرنسيين والاسبانيين باقليم الريف سنة 1925 واتهمه الفرنسيون بالتآمر على فرنسا وأقنعوا البوليس الانكليزى بتسليمه اليهم ، فأخرجوه من مصر مكبولا بالحديد وأرسلوه الى سوريا حيث بقى الى ان مات سنة 1936 .

وعينت فرنسا السيد موريس فيوليت حاكماً عاماً للجزائر ، وكان رجلا متحرراً أظهر نيته فى انصاف أهلها الأصليين ، فشن عليه المستعمرون حملة اضطرته الى ترك منصبه مأسوفاً عليه من طرف المسلمين ، وحلت بعد ذلك الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسى (1930) فأمل المسلمون أن تكون

ناتجة عهد ينصفون فيه من المظالم التى توالت عليهم طوال قرن كامل ، ولكن آمالهم خابت عندما رأوا تلك الذكرى تكتسى مظهراً كنسياً الى جانب مظهرها الاستعمارى ، ولم يعمل الفرنسيون شيئاً أكثر من الغاء المحاكم الزجرية الابتدائية التى كانت ترهق المسلمين .

وفى شهر أبريل 1931 قدمت الى الجزائر لجنة برلمانية تحت رئاسة السيد موريس فيوليت الحاكم العام السابق ، فقابل المسلمون مقدمها بجفاوة ، وخرج لاستقبالها لما وصلت الى قسنطينة عشرون ألفاً ، وأسمعوها شكايات حارة من الحالة التى يعيشون فيها ، ثم رجعت ومعها تقرير مفصل عن أحوالهم ومطالبهم الكلية والجزئية .

وفى فرنسا حيث تكاثر عدد الجزائريين بعد نهاية الحرب أسس شاب تلمسانى الأصل سرح حديثاً من الجندية اسمه الحاج أحمد بن مصلى المعروف بمصالى الحاج جمعية (نجم الشمال الافريقى) التى كانت فى طورها الأول جمعية خيرية لاعانة المغاربة ، ثم تحولت فى مارس سنة 1926 الى جمعية سياسية للدفاع عن كيان المغرب العربى ، وأسست لها جريدة (الأمة) باللغة الفرنسية ، وبذلت مجهوداً كبيراً فى لم شعث العمال المغاربة وتربيتهم تربية سياسية واجتماعية وطنية ، ولما أحس المستعمرون بخطرها عليهم عبأوا كل أبواق دعاياتهم لتشويه سمعتها وتصويرها فى صورة هيأة شيوعية متطرفة وعميلة ، كما أقام وكيل الجمهورية بمحكمة السين دعوى ضدها فحكمت المحكمة بحلها فى 20 نونبر 1929 ولما لم ينفذ الحكم بصفة رسمية استأنفت الجمعية بعد ستة أشهر نشاطها أقوى من ذى قبل ، وشد عضدها فى تلك الأثناء بتأسيس جمعية مغربية أخرى بباريس ذات طابع ثقافى اسمها (جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين) ، وفى 22 مايو 1933 عقدت جمعية (نجم شمال افريقيا) مؤتمراً قرر برنامجاً للعمل يتضمن استقلال الجزائر وجلاء القوات الفرنسية عنها وانشاء برلمان جزائرى ونزع أملاك المستعمرين ، ولكن محكمة السين عادت لمتابعة الجمعية دون نجاح فى شهر مارس سنة 1934 وواصلت الجمعية نشاطها حتى اصطدمت مع الحزب الشيوعى

الفرنسى اصطداماً عنيفاً أدى الى تظافر الجبهة الشعبية الفرنسية عليهـا ، وانتهى الأمر بأن أصدر ليون بلوم قراراً مؤرخاً فى 26 مارس 1937 يقضى بحلها.

ومن جهة أخـرى فقد أسس الشيخ عبد الحميد بن باديس جمعية دينية سنة 1928 سماها (جمعية العلماء المسلمين الجزائرييـن) التفت حولها البقية الباقية من رجال العلم والدين فى الجزائر كالأساتذة البشير الابراهيمى والعربى التبسى والطيب العقبى ، فقامت لتنشر فى الظاهر المبادىء السلفية القويمة ، ولتعمل فى الباطن على دعم جانب الحركات السياسية ببعث مقومات القومية الجزائرية من دين ولغة وتاريخ ، وجعـل لسانها مجلتـه (الشهاب) التى كان أنشأها من قبل وكانت لها مواقف شريفة فى الدفاع عن القضايا المغربية ، ثم أنشأت الجمعية جرائد أسبوعية كان الاستعمار يصادرها الواحدة تلو الأخرى كجرائد (الشريعة) و (السنة) ثم (البصائر) بعد نهاية الحرب العظمى الثانية ، كما أنشأت فى طول الجزائر وعرضها مدارس لتعليم الناشئة الجزائرية أحكام دينها وقواعد لغتها وأمجاد ماضيها والحقيقة ان هذه الجمعية كانت ــ فى العمق ــ أخطر من كل خطر على فرنسا ومستقبلها بالجزائر ، وأن فضلها على الجزائر قبل ثورتها التحريرية وأثناءها وبعدها فوق كل تقدير .

وكمثال على نمو الشعور الدينى والقومى الذى بثته الجمعية المذكورة فى نفوس الجزائريين نذكر رد الفعل الذى قابل به مسلمو مدينة قسنطينة بول جندى يهودى يدعى الياهو خليفة على جدار مسجد من مساجدها وسبه المسلمين جهاراً مساء يوم 3 غشت 1934 فقد هاجوا وحدثت بينهم وبيـن اليهود مشادة تجرأ فيها هؤلاء الأخيرون على ضربهم بالرصاص ، وتمت الليلة بسقوط عدد من القتلى والجرحى فى صفوف الجانبين ، وفى الغد أرسلت الحكومة فرقاً من الجيش لحفظ الأمن بزعمها وكان بينهم عدد من اليهود بدأوا يتحرشون بالمسلمين فتجدد القتال بين الجيش والأهالى ، وبيـن الأهالى والمدنيين اليهود الذين جاءوا من أحيائهم لمواصلة الانتقام من المسلمين ، ولم يخمد القتال الا بعد ما سقط عدة مئات من القتلى والجرحى واستدعيت الى قسنطينة قوات مسلحة كبيرة .

وقد خلف هذا الحادث أثراً عميقاً فى فرنسا حتى طالب بعض المسؤولين فيها بارسال خمسمئة طائرة حربية لتعزيز القوات الموجودة في الجزائر ، كما تمخض عن ظهور شخصيات جديدة على المسرح السياسى الوطنى كالدكتور ابن جلول ، والصيدلي عباس فرحات الذى أصبح رئيساً للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية فيما بعد .

وواكب تأسيس جمعية العلماء تأسيس عدد من المنظمات الجزائرية القومية ، كالفرق الرياضية والكشفية ، والأندية الثقافية والأجواق الموسيقية والفرق التمثيلية وصدور عدد من الصحف والمجلات ذات اتجاهات واختصاصات متعددة ، فكان لكل ذلك أثر قوى فى بروز الشخصية الجزائرية.

وبعد انتصار الجبهة الشعبية فى فرنسا انعقد فى الجزائر يوم 7 يونيو 1937 مؤتمر اسلامى تحت رئاسة الدكتور ابن جلول ومشاركة جميع الهيآت الجزائرية ما عدى جمعية نجم الشمال الافريقى ، وبعد مداولات وضع المؤتمر لائحة من المطالب من أهمها مشاركة المسلمين فى الانتخابات النيابية مع احتفاظهم بحالتهم المدنية والغاء بعض القوانين الجائرة والاعتراف باللغة العربية لغة قومية فى الجزائر ، وعين المؤتمر وفداً للذهاب الى باريس ودعته الأمة في مظاهرات عظيمة، واستقبله ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية يوم 23 يوليوز وأخبره ان حكومته ستدرس المطالب بكل عناية ، وانها تستعد لادخال عدة اصلاحات في الجزائر ، وكان لهذا الاستقبال صدى ابتهاج لدى الشعب الجزائرى الذى راح يعبر عن فرحته بمختلف التعابير ، ولكن ادارة الجزائر ومستعمريها أعادوا تمثيل الدور الذى مثلوه عند ظهور حركة الأمير خالد عقب نهاية الحرب الأولى، فجمعوا مؤتمراً ضم شيوخ البلديات الفرنسيين، وشيوخ الطرق الصوفية المسلمين وعارضوا تلك المطالب على تفاهتها بدعوى انها تؤدى الى القضاء على الشخصية الفرنسية ، واغتنمت الادارة الفرنسية اغتيال مفتى الجزائر كحول ابن دالى أحد كبار المتعاونين معها فقامت بحركة قمع وقدمت بعض أعضاء المؤتمر الى المحاكمة .

أما أنصار جمعية نجم الشمال الافريقي الذين لم يشتركوا في المؤتمر فانهم ظلوا يمثلون الفكرة القومية الصحيحة ويعارضون كل خطة لا تستهدف الاعتراف باستقلال الجزائر وسيادة شعبها ، وأسسوا في مارس 1937 هيأة جديدة سموها (حزب الشعب الجزائري) جعلوا نظمها وخططها موازيـة لنظم وخطط الحزب الوطني بالمغرب والحزب الدستوري بتونس ، ولكـن الادارة الفرنسية اعتقلت هيأة الحزب الجديد في 17 غشت من نفس السنة ، وحكمت على زعيمه مصالي الحاج وآخرين بالسجن لمدة سنتين ، ولما أطلق سراحه سنة 1939 كانت جميع الطبقات الجزائرية الحية تشعر شعوراً واحداً ، غير أن الوضع الدولي كان بلغ نهاية التأزم ، وأخذت بوادر الحرب العالمية تلوح في الأفق ، ولذلك ما كاد مصالي الحاج يعود الى استئناف نشاطه حتى اعيد هو وثلة من المخلصين الى السجن في 4 اكتوبر 1939 وبعد ما قضى 17 شهراً في الحبس الاحتياطي حكم عليه يوم 28 مارس سنة 1941 بالسجن 16 سنة مع الأشغال الشاقة ، وبالنفي 20 سنة ، وبثلاثين مليون فرنك خطيئة .

وفـي 3 مارس 1943 ـ والحرب العالمية الثانية حامية الوطيس وفرنسا ترزح تحت نير الاحتلال الألماني أنشأ عباس فرحات حزب هيـأة أصدقاء البيان ، مطالبة بتأسيس جمهورية جزائرية وبرلمان منتخب انتخاباً حراً ، فلم يزد جواب الجنرال دوكول رئيس لجنة التحرير الفرنسية عـلى اعلان قبوله لفئات من المثقفين الجزائريين في حظيرة الأسرة الفرنسية ، وكان لهذا الجواب صدى اشمئزاز في نفوس المثقفين الذين يعنيهم القرار ، وجيء بمصالي الحاج من منفاه بالصحراء بقصد التفاوض معه فأبى التفاوض الا على أساس المبادىء والمطالب التي سجن من أجلها فأعيد الى منفاه السحيق بالصحراء ، ثم دعي عباس فرحات وعبد القادر السائح للحضور في اجتماعات بدار الحاكم العام ولما امتنعا من الحضور ارسلا الى السجن فوراً .

وبعد ما استسلمت المانيا النازية للحلفاء سنة 1945 تقرر الاحتفال بالنصر يوم 8 مايو في بلدان جميع الدول التي شاركت في قهرها ، واستعد الشعب الجزائري بدوره للتظاهر احتفالا بنصر شارك في احرازه بـ 300.000

من أبنائه ، وضحى بعشرات الألوف منهم ، ولكن الادارة الاستعمارية دبرت مكيدة لقلب الأفراح الى أتراح ، فأرسلت في ذلك اليوم جيشها المدجج بأحدث الأسلحة وأشدها فتكاً للبطش بالمتظاهرين المسلمين فى عمالة قسنطينة ولاسيما فى مدينة سطيف، واشترك في الفتك سلاح الطيران وسلاح البحرية، ودمرت قرى برمتها وحرقت أخرى على سكانها وانجلت المذابح عن استشهاد 45.000 جزائرى لا ذنب لهم الا أنهم حرروا فرنسا نفسها من مهانة الاحتلال ورجوا أن تمنحهم حريتهم احتراماً للمبادىء التى كان الحلفاء يبشرون بها .

وفي شهر غشت 1945 عندما كانت شعوب كثيرة تنفض عنها غبار الاستعمار والاحتلال وتستنشق ملأ رئتيها نسمات الحرية استجابت فرنسا لمطلب قديم تقدم به الوطنيون الجزائريون سنة 1920 ! فقرر برلمانها أن يسوى في العدد بين النواب الذين يبعثهم اليه المسلمون والآخرين الذين يبعثهم اليه المستوطنون الفرنسيون .

وفي شتاء سنة 1946 وافق المجلس التأسيسي الفرنسي الأول على قانون العفو فسرح من السجون وأعيد من المنافى 5000 جزائرى فيهم عباس فرحات ومصالى الحاج . وأعاد الأول تأسيس حركته تحت اسم (الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى) وأعاد الثانى تأسيس حزبه تحت اسم (حركة انتصار الحريات الديمقراطية) واتجهت المنظمتان اتجاهاً ايجابياً فشاركتا فى الانتخابات البلدية والاقليمية والبرلمانية ونجحتا بذلك فى اسماع صوت الجزائر المسلمة العربية من فوق منابر مؤسسات شرعية لا يستطيع أحد أن يطعن فيها ، كما نجحتا فى تنمية الشعور الوطنى فى الجزائر وتعبئة كافة قواها الحية ليوم موعود ، أما فرنسا فانها لجت فى عتوها وواصلت تجاهلها لارادة الشعب الجزائرى ووضع مجلسها التأسيسى الثانى فى 20 شتنبر 1947 قانوناً أساسياً للجزائر لا يخرجها من الجامعة الفرنسية ولكنه يعترف بشخصيتها المدنية واستقلالها المالى ونظامها الخاص ، وحتى الفوائد الهزيلة الصورية التى تضمنها القانون الجديد لم يكن للمسلمين أن يجنوا ثمارها ، لأن ارادة الهيأة الحاكمة والجالية الفرنسية فى الجزائر كانت

أكبر من القانون نفسه وهكذا زورت الانتخابات التي جرت في مارس 1949 تزويراً فظيعاً وصارت كلمة (الانتخاب على الطريقة الجزائرية) تدل في فرنسا وغيرها من البلدان على تدخل الحكومة المكشوف في التزييف والتزوير ، وظهر الى الوجود من جديد جماعة من « المنتخبين » المتعاونين الذين سماهم الوطنيون (بني وي وي Les Beni Oui Oui) لأنهم كانوا يسمعون فيطيعون .

وبذلك سدت الأبواب جميعها في وجه الشعب الجزائري وخاب خيبة مريرة ورأى ان الأحزاب السياسية أتمت تمثيل الأدوار التي عهـد اليهـا بتمثيلها ، وأن اقناع فرنسا وجاليتها القاطنة في الجزائر والمستحوذة على خيراتها لا يكون الا عن طريق القوة ، واقترن هذا الشعور الجديد بانشقاق حصل في حركة انتصار الحريات الديمقراطية في ببراير سنة 1954 وظهور لجنة ثورية للاتحاد والعمل (C. R. U. A.) تضم اطارات للتنظيـم السياسي والتنظيم الخاص (O. S.) وشرعت هذه اللجنة منذ صيف سنة 1954 تعد العدة لاعلان ثورة مسلحة ، فأحصت الشبان القادرين على حمل السلاح ، وجمعت أسلحة وذخائر من مختلف الأحجام ، ونظرت في مشاكل التموين والمواصلات ، ومع ان الشرطة الفرنسية نجحت في القضاء على هيأة التنظيم الخاص فان لجنة من ستة أعضاء واصلت اجتماعاتها اليومية في الجزائر ، فقسمت البلاد الى مناطق ونواحي وجهات وعينت المسؤولين عنها ، ووزعت الأسلحة الأتوماتيكية ، وانطلق المسؤولون الى الأماكن التي حددت لاقامتهم لاحكام التنظيم ، وبعدما تمت الترتيبات كلها تقرر تأسيس جبهة للتحرير الوطني تنصهر فيها جميع المنظمات القومية الجزائرية ، وحدد اعلان الثورة المسلحة في الدقيقة الأولى من صباح يوم 1 نونبر 1954 وأخبر السادة أحمد بن بلة ، ومحمد الخيضر ، والحسين آيت أحمد الذين كانوا يمثلون الجزائر في مكتب تحرير المغرب العربي بالقاهرة بكل ذلك ، وطلب منهم تبليغه الى الحكومة المصرية في الوقت المناسب .

وفي ساعة (الصفر) من ليلة الاثنين 1 نونبر 1954 (5 ربيع الأول 1374) اندلعت الثورة المسلحة التي لم يجد الجزائريون وسيلة غيرها لنيل

حقوقهم واسترجاع حريتهم ، فكان ذلك بداية ما عرف فيما بعد بحرب الجزائر وايذاناً أيضاً بميلاد الدولة الجزائرية الحرة المستقلة ، وأقبل الشبان والشيوخ والنساء والفتيات على التطوع في صفوف جيش التحرير بينما بدأت الحكومة الفرنسية تتورط شيئاً فشيئاً في معركة لا مخرج لها منها الا بالهزيمة فأرسلت القوات تلو القوات الى الجزائر حتى ارتفع عددها من 80.000 جندى سنة 1954 الى 500.000 جندى سنة 1957 ولم يسبق لفرنسا أن جردت حملة استعمارية بهذه الضخامة أو رصدت من المال أو أعدت من الأسلحة والذخائر الخفيفة والثقيلة ما رصدت وأعدت لمواجهة ثورة الشعب الجزائرى .

وقامت فرنسا فى جميع انحاء القطر الجزائرى بحملات ارهاب واسعة النطاق ، وأنشأت معسكرات للاعتقال فى طول البلاد وعرضها وتفننت فى تعذيب الأهالى وانتهاك حرماتهم وبنت سدوداً من الأسلاك الشائكة المكهربة على طول الحدود الممتدة شرقاً وغرباً مئات الأميال ، ولكن ذلك لم يفت فى عضد الشعب الجزائرى الذى ضاعف ضرباته للفرنسيين وألف قادة الثورة حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية يوم 19 شتنبر 1958 جعلوا مقرها أولا فى القاهرة واعترفت بها دول الجامعة العربية والدول الأخرى المؤيدة للحرية وقبلت المملكة المغربية والمملكة الليبية والجمهورية التونسية التى استعادت حديثاً حريتها أن تقاسم الجزائر المصير، فجعلت من ترابها الوطنى مراكز لتدريب جنود جيش التحرير وخزن أسلحتهم وتكوين أطرهم الادارية ، ومنطلقاً لشن الغارات على الفرنسيين والتسرب الى داخل الجزائر ، الشىء الذى كان يعرض على الدوام المدن والقرى الواقعة بحدود تلك الدول الثلاث وسكانها للانتقام من طرف الطائرات والمدافع الفرنسية .

وبعد حرب قاسية دامت أزيد من سبع سنين ، واللجوء الى عدد من التجارب والحلول ، وانقلابات كادت تعصف بالكيان الفرنسى نفسه لم تر فرنسا مناصاً من التفاوض مع الممثلين الشرعيين للشعب الجزائرى على أساس الحل الوحيد الذى لا يقبلون غيره ، وهو الاعتراف باستقلال الجزائر ، ففى شهر يوليوز 1961 اجتمع ممثلو جبهة التحرير الوطنى مع ممثلى

الحكومة الفرنسية فى لوكران Lugrain على الحدود الفرنسية ـ السويسرية ، ولكن الاجتماع انتهى الى فشل ، وفى II يبراير I962 استؤنفت المفاوضات بايفيان EVIAN وانتهت يوم I8 مارس بالتوقيع على اتفاقيات تتعلق بايقاف الحرب ، والاستقلال ، والتعاون ، ولبلوغ هذه الغاية اتفق على تأليف هيأة تنفيذية مؤقتة لتسيير الادارة الداخلية واعداد الأجواء لاجراء استفتاء حول تقرير المصير ، وبالفعل جرى الاستفتاء يوم I يوليوز فاختار الشعب الجزائرى الاستقلال بأغلبية 72 ، 99 ٪ (5.975.58I صوتاً ضد I6.537 صوتاً) ، ونتيجة لذلك اعترف الجنرال دوكول رئيس الجمهورية الفرنسيـــة باسم فرنســا باستقلال الجزائر وفى نفس اللحظة سلم مندوب فرنسا السامى جميع سلطات السيادة الى رئيس الهيأة التنفيذية المؤقتة .

واستقر بعض أعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية فــى العاصمة لتسيير دفة الشؤون الخارجية فى حين احتفظت الهيأة التنفيذية بتسيير الشؤون الداخلية ، وشرعت وحدات جيش التحرير التى كانت معسكرة فى المغرب وتونس تدخل الى الجزائر .

وفى 6 يوليوز صدر العدد الأول من الجريــدة الرسميــة للدولة الجزائرية ، وعين عمال مسلمون على اقليمى وهران والجزائر ، وحدد يوم I2 غشت لانتخاب مجلس وطنى .

وبعد خــلاف بين الحكومة المؤقتــة وقيادة جيش التحرير التف العسكريون حول السيد أحمد بن بلة ، وألفوا يوم 22 يوليوز فى تلمسان مكتباً سياسياً لجبهة التحرير تمكن من الاستقــرار بقلب العاصمة يــوم 3 يوليوز ، وتلت استقراره اضطرابات فى صفوف الجيش والهيآت السياسية أدت الى تأخير الانتخاب عن الموعد المحدد له فى الأول ، فلم يجر الا يوم 20 شتنبر ، ولما جرى فازت قوائم النواب المرشحين من طرف المكتب السياسى ، وفى يوم 25 اجتمع المجلس الوطنى وتسلم السلط التى كانت بين أيدى الهيأة التنفيذية المؤقتة وسمى الدولة باسم (الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية) وانتخب السيد فرحات عباس رئيساً له ، وكلف فى يوم الغد

السيد احمد بن بلة بتأليف أول حكومة وطنية في وطن محرر ، فألفها وقدمها الى البرلمان يوم 28 وألقى بمناسبة تنصيبها خطاباً شرح فيه سياستها .

وشرع السيد أحمد بن بلة يدير دفة السفينة وسط بحر عاصف الأمواج ، ويحاول تطبيق سياسة اقتصادية قوامها التأميم والتسيير الذاتي ، وأسرعت الأقطار المغربية والعربية والاشتراكية الى مساعدة الدولة الناشئة كي تتغلب على مصاعبها ، وزار الملك **الحسن الثاني** الجزائر يوم الأربعاء 13 مارس 1963 (17 شوال 1382) وحمل الى الجيش الجزائرى عتاداً ثقيلا هدية من الجيش المغربى ، وأبرمت أثناء وجوده فى الجزائر أوفاق عديدة للتعاون بين القطرين المتجاورين فى مختلف الميادين ، ولكنه لم يكد يرجع الى مملكته حتى ظهرت حالة توتر بالحدود وشرع فى اضطهاد المغاربة القاطنين بالجزائر ، ومع أن وفداً مغربياً (32) ووفداً جزائرياً اجتمعا بوجدة يوم السبت 5 أكتوبر 1963 (16 جمادى الأولى 1383) لتصفية الجو وتفريج الأزمة واتفقا على عدد من النقط الكفيلة بذلك صدر بها بلاغ مشترك هاجم الجيش الجزائرى يوم الثلاثاء بعده (8 أكتوبر ـ 19 جمادى الأولى) عناصر الأمن المغربى المتمركزة فى مركزى حاسي البيضاء وحاسي تينجوب داخل التراب المغربى وفتك بها فتكاً ذريعاً ، ثم وسع مناطق العمليات الى جهات أخرى ولكن الجيش المغربى كر عليه وأجلاه عن المراكز المحتلة وأسر مئات من رجاله كما أسر بعض ضباط الجيش المصرى الذى جاء لنجدته، وكادت العمليات تتطور الى حرب عامة بين البلدين لولا ان تدخل بعض الرؤساء الأفارقة قصد تسوية المشكل فانعقد اجتماع بباماكو عاصمة مالى أسفر عن صدور بلاغ مشترك يوم الأربعاء 30 أكتوبر (12 جمادى الثانية) .

واستمر السيد أحمد بن بلة فى الحكم يحاول تطبيق التجربة الاشتراكية من جهة والتغلب على معارضيه من جهة ثانية ، ولكن هؤلاء تغلبوا عليه فى النهاية وأقصوه عن الحكم يوم 19 يونيو 1965 فحل محله فيه الكولونيل بومدين الهوارى وزير الدفاع الوطنى الذى أصبح يحكم الجزائر منذ ذلك الحين باعتباره رئيساً لمجلس الثورة

---

32) تراس وفد المغرب الاقصى فى هذا الاجتماع السيد احمد رضا قديره المدير العام للديوان الملكى ، وتولى مؤلف الكتاب الذى كان عضواً فى الوفد تلاوة البلاغ المشترك ، أما الوفد الجزائرى فكان برأسة السيد عبد العزيز بوتفليقة وزير الخارجية الجزائرية .

تونس فى العصر الحديث

بدأ التدخل الفرنسى فى تونس بمجرد ما ثبتت فرنسا أقدامها فى مدينة الجزائر ، فبعد شهر واحد من احتلالها لعاصمة المغرب الأوسط أرسلت قطعاً من أسطولها الحربى الى تونس (17 غشت 1830 ــ 27 صفر 1246) طالبة تعديل شروط المعاهدات المعقودة معها من قبل والتى كانت ترى فيها اجحافاً ، ولم يكتف الباى حسين باشا بقبول التعديلات المقترحة ، بل قبل فوق ذلك أن يتعاون مع جيش الاحتلال الفرنسى ، وكان الحامل له على ذلك حب الانتقام من أتراك الجزائر الذين كان أتراك تونس يحقدون عليهم والطمع فى نيل حظ من الغنيمة الجزائرية ، وهكذا وجه الباى رسائل الى علماء الجزائر وأعيانها يدعوهم الى الاستسلام للجيش الفرنسى ، ثم اتفق مع المرشال كلوزيل قائد الجيش الفرنسى بالجزائر على ارسال أحد أفراد أسرته على رأس قوة عسكرية الى وهران لضبطها ، فارسل خير الدين آغا على ظهر سفينة فرنسية يوم 19 يناير 1831 (5 شعبان 1246) رغم معارضة أكثرية رجال أسرته وأعضاء حكومته ، وبعد وصوله الى وهران أمده بثلاثمئة من المخازنية وعسكر زواوة ، ولكن خير الدين عجز عن ضبط المدينة وصد الاعراب الذين كانوا شمروا عن ساق المقاومة والجهاد ، فاضطر بعد ثمانية أشهر الى العودة الى تونس وقد كان شاع فيها نبأ غضب الخليفة العثمانى على الباى الذى منع أحد مبعوثيه من النزول الى البر التونسى وتجاهر بالتعاون مع الفرنسيين .

وكانت البلاد التونسية تعيش تحت نظام عسكرى قاهر ، وأهلها مرهقين بكثرة الضرائب والمغارم ، والولاة يتلاعبون بأموال الدولة ولا يدعون فرصة للاستغناء ولو على افقار الناس واجاعتهم الا انتهزوها ، وقد بلغ الأمر ببعضهم الى القيام بمضاربات تجارية ــ ولا سيما فى شراء الزيت وتصديره ــ لم تكن تدفع الفلاحين ومتوسطى التجار الى رفع العقيرة بالشكوى فقط ، بل وتيسر الأسباب أيضاً لتدخل القناصل الأجانب فى الشؤون التونسية الداخلية والنيل من هيبة الدولة وكرامتها .

وقد أصبح من المألوف أن تبعث الدول الأوربية بما فيها الدول الصغيرة كدولة سردانيا ودولة نابولى ـ سفنها الحربية الى تونس لأتفه الاسباب فتملي شروطها وترجع مزهوة فخورة والمدافع التونسية تحيي بطلقاتها أعلامها القومية ، وبلغ الحال ببعض القناصل الى التدخل حتى فى تأديب الباى لخدام قصره الداخليين ، والتهديد باعلان الحرب لمجرد طلبه نفي بعض رعاياهم المجرمين .

وكان البايات ورجال دولتهم وأعضاء حاشيتهم نهباً لعاملين عاطفيين : عامل الاحتفاظ بالتبعية الاسمية للسلطنة العثمانية مع ما يسببه ذلك من العزلة لهم وازدياد الطمع الأوربى فى الاستيلاء على ايالتهم ، وعامل قبول التبعية الفعلية لها مع ما يجره ذلك من القضاء على حريتهم الواسعة فى التصرف، وازاء الحاح الحكومات العثمانية المتتالية عليهم بقبول التبعية المطلقة كانوا يتخلصون بأصناف الهدايا وأنواع المراوغات والاعتذارات ، وأخيراً حددت العلاقات بين تونس وتركيا بمقتضى مرسوم (فرمان) سلطانى صدر سنة 1288 (1871 م) يجعل تونس ولاية عثمانية لواليها الحق فى تولية المناصب العسكرية والشرعية والمالية لمن يكون أهلا لها وفى اجراء المعاملات العادية مع الدول الأجنبية ما عدا أمور السياسة والحرب ، وسعت الحكومة التركية (الباب العالى) فى موافقة الدول الأجنبية على مضمن هذا المرسوم فوافق أكثرها وأبت فرنسا لأنه يعاكس نياتها المبيتة لاحتلال تونس ، ورغم الخيوط الواهية التى كانت تربط البايات بسلاطين آل عثمان استفاد القطر التونسى كثيراً من التجارب الاصلاحية والتنظيمات العصرية التى كانت تركيا شرعت فى ممارستها وتطبيقها ، وقد اهتدت حكومة البايات أخيراً ـ بتوجيه الوزير المصلح خير الدين الى أن أحسن وسيلة لمقاومة التدخل الأوربى هو اصلاح أنظمة الدولة العتيقة ، والأخذ بأسباب العلم والحضارة والتنظيم التى جعلت دول أوربا وشعوبها تتفوق على غيرها من الدول والشعوب ، وأصدر الباى محمد باشا ـ تحت تهديد القناصل الأوربيين ـ دستوراً (**عهد الامان**) يوم الأربعاء 9 شتنبر 1857 (20 محرم 1274) وأنشأ (المجلس الأكبر) لشرح مواد العهد ودراسة القضايا وعرضها عليه .

وكان من الممكن أن يدشن (عهد الأمان) عهداً جديداً من التعاون بين الحكومة والشعب فى تونس ، ولكن الدول الأوربية التى وضعت نصب عينيها احتلال الأقطار الاسلامية والاستحواذ على خيراتها لم يكن ليرضيها أن تقتبس تونس من النظم أو تدخل من الاصلاحات ما يقيها الكارثة ، ولذلك سعت جهدها فى التنفير من الاصلاحات العصرية بدعوى أنها تتنافى مع الدين، ووجدت من العلماء والفقهاء الجامدين خير معين لها على بلوغ مآربها فكانوا هم ايضاً يثيرون العامة ضد كل اصلاح ، والحقيقة أن الباى ورجال حكومته وحاشيته لم يكونوا راضين عن وجود قانون ومؤسسات تحد من سلطتهم ، وكانوا يتجاهلون عهد الأمان والمجلس الأكبر كلما ظهر لهم أن يقروا أمراً فيه مصلحة خاصة بهم ولو كان فيه ألف مضرة بالشعب عملا بالمثل التركى الذى كان شعاراً لهم : (**العربى خذ مالو واقطع راسو**) وقد عمدوا سنة 1863 الى مضاعفة الضرائب المفروضة على الشعب فثار الناس ضد هذا القرار تحت رئاسة البطل على بن غداهم المساهلى الماجرى فى فاتح مايو 1864 (24 ذى القعدة 1280) وكان حضر أسطول فرنسى الى تونس قبل ذلك بيومين ونـزل قائده وضباطه الى البر وتوجهوا صحبة قنصلهم شارل دوبوفال الى الباى وطلبوا منه تعطيل الدستور فعطله فى فاتح مايو (24 ذى القعدة 1280) .

وساءت الحالة المالية بعد ذلك سوءاً كبيراً نتيجة التبذير والاختلاس وسوء التصرف فبدأت حكومة البايات تستدين من المؤسسات الأوربية والتجار الأجانب بربا مرتفع لمواجهة التكاليف ، ولما عجزت عن الاداء استغاث أرباب الديون بدولهم ، ففرضت هذه على الباى تأسيس لجنة (كوميسيون) تتركب من تونسيين وفرنسيين وانكليز وايطاليين لمراقبة المالية التونسية (6 يوليوز 1869 ــ 26 ربيع الأول 1286) ، فكان ذلك علامة على وقوع تونس تحت سيطرة الاستعمار المالى وتهيئها للاستعمار السياسى .

ومع ان الوزير خير الدين كان من كبار المصلحين المسلمين فى القرن الماضى فانه لم يكن رجـلا نزيهاً ، وانما كان من الأقطاعيين الكبـار الذيـن لا يحـول بينهم وبين قضـاء مآربهم وازع مـن ديـن ولا عاطفـة

وطنية ، ولذلك هيج بتصرفاته الرأى العام وأغضب الباى حتى أخره عن الوزارة يوم 21 يوليوز 1877 وقبل خروجه من تونس والتجائه الى تركيا باع عقاراته للشركة المرسيلية الفرنسية ، فرفض الباى الاعتراف بهذا البيع واضطربت الحالة في داخلية البلاد ، وأدى الأمر الى طلب قنصل فرنسا من الباى قبول الحماية الفرنسية فرفض واستعد الشعب للمقاومة ، واغتنمت فرنسا حدوث بعض الوقائع فى حدود الجزائر وامتناع الباى من معاقبة سكان جبال خمير المتهمين فيها فقررت حينئذ غزو تونس وأرسلت اليها جيشاً يشتمل على 30.000 جندى مزودين بأحدث الأسلحة وأقواها ، فاضطر الباى محمد الصادق الى التوقيع تحت الاكراه على معاهدة يضع بمقتضاها ايالته تحت الحماية الفرنسية ، وكان ذلك بقصر باردو يوم 12 مايو سنة 1881 .

وما كاد نبأ توقيع المعاهدة المفروضة يشيع حتى هاج الشعب التونسي وهبت طوائف منه بوسط البلاد وجنوبها للمقاومة ، وكان حامل لواء الثورة هو على بن خليفة أحد رجالات الدولة البارزين ، فأرسلت فرنسا أسطول البحر المتوسط فى أوائل يوليوز 1881 الى صفاقس فأصلى تلك المدينة الباسلة نيران مدافعه ، ثم نزل جنوده الى البر يوم 16 يوليوز فاحتلوا المدينة بعد قتال عنيف وفتكوا بالمقاومين والسكان المدنيين وأوجبوا عليهم دفع غرامة حربية كبيرة ، ثم احتل الجيش الفرنسى القيروان فصعب على الوطنيين مواصلة المقاومة بعد ما اشترك جيش الباى نفسه فى محاربتهم الى جانب الجيش الفرنسى ، فالتجأ على بن خليفة الى طرابلس وانفض من حوله جل رجاله بعدما بذل لهم الباى الأمان بطلب من المقيم الفرنسى ، وبعد ذلك عرض الفرنسيون معاهدة أخرى على الباى تلزمه بادخال الاصلاحات الادارية والعدلية والمالية التى تقترحها الحكومة الفرنسية، فوقعها بالمرسى يوم 8 يونيو سنة 1883 ، ومنذ ذلك التاريخ شرع المستوطنون الفرنسيون والأوربيون يفدون على تونس ويستحوذون على خيراتها الاقتصادية، وأخذت الاقامة الفرنسية تسن من القوانين وتدخل من التنظيمات ما يكفل مصالحهم ومصالح فرنسا بالدرجة الأولى ، وانتصب الحكام الفرنسيون فى طول تونس وعرضها يحكمون البلاد حكماً مباشراً متسترين بستار المراقبة .

واستتب الأمر فى تونس للفرنسيين ، ولكن ذلك لم يفت فى عضد المخلصين من أبنائها ، فتكونت حركة قومية بزعامة الشيخ محمد السنوسى أحد علماء جامع الزيتونة المتنورين ، ولكن السلطات الفرنسية نفته الى قابس وسجنت عدداً من أنصار الحركة ، ثم ظهر الشيخ المكى بن عزوز وأخذ ينشر الحركة السلفية ويدعو الى الاصلاح ، فتأثر بأفكاره عدد من الشبان أصدروا بعد هجرته الى الشرق جريدة (**المستقبل التونسى**) باللغة الفرنسية ، وجريدة (**حبيب الأمة**) باللغة العربية للدفاع عن مصالح التونسيين .

وفى سنة 1905 كان الرعيل الأول من الطلبة الذين ذهبوا الى فرنسا للدراسة عادوا الى تونس مشبعين بالأفكار التحررية ، وتقدموا لتنوير الرأى العام التونسى وقيادته ، وكان من أبرزهم وأقواهم شخصية السيد على أبوشوشة الذى أنشأ جريدة (**الحاضرة**) وجمع حولها كتلة قوية من أصدقائه وغيرهم من خريجى المعاهد الدينية والعصرية ، وقاموا بحركة قومية ودينية ترمى الى تقوية روابط تونس بحركة الجامعة الاسلامية وتطلب تنفيذ الدستور التونسى الذى لم تلغه الأوفاق المعقودة مع فرنسا ، وكانت هذه الحركة تتغذى بالأفكار الدينية والقومية التى دعا اليها زعماء الاصلاح الدينى وقادة النضال السياسى فى الشرق كالشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والاستاذ محمد فريد والزعيم مصطفى كامل .

وقد أثمرت هذه الحركة حدوث ثورة فى القصارين تحت زعامة عمر بن عثمان أحد شيوخ القبائل سنة 1907 قام بها الأهالى احتجاجاً على اغتصاب الأراضى التونسية وتسليمها الى المعمرين الفلاحيين الفرنسيين ، فساقت فرنسا حملة عسكرية على الناحية أخمدت ثورتها واعتقلت زعيم الثورة وأعدمته رمياً بالرصاص .

وحاولت فرنسا أثناء تلك السنوات تطبيق السياسة الرامية الى اضعاف الشعب التونسى وتكثير عدد الفرنسيين الأصلاء والمتجنسين ، وهى سياسة نفذتها فى الجزائر منذ بداية احتلالها ، ولما كانت هى نفسها مزاحمة فى تونس بعشرات الألوف من المستوطنين الايطاليين والمالطيين وكان هؤلاء لا رغبة لهم فى التخلى عن جنسيتهم الأصلية فقد كثرت مخاوفها وخشيت أن يتفقوا فى يوم من الأيام مع سكان البلاد الأصليين ويصبحوا وبالا عليها ،

فلم تر أمامها الا الطائفة اليهودية الوطنية فلوحت لأعيانها ومثقفي شبانها بالفوائد والمزايا التى حصل عليها اخوانهم المتجنسون فى الجزائر ، وربطت بين الفريقين حبل الاتصال ، فشنت — فى آن واحد سنة 1907 حملة قوية فى تونس وفرنسا ومستعمراتها مطالبة بمنح الجنسية الفرنسية لليهود التونسيين وفك رقابهم من المواطنة الأهلية ! وكان رد الفعل من طرف المسلمين عنيفاً ، وتصدت ثلة من الشبان المتحمسين تحت زعامة المرحوم على باش حانبة لمقاومة هذا التيار الدعائى وفضح مقاصد الحماة الفرنسيين وتبيين ان كل عمل من هذا النوع يعد خرقاً للأوفاق المعقودة واعتداء على السيادة التونسية وسلطة ملكها ، فلم تر الحماية بدأ من التراجع عن السياسة المرسومة ، وجنى اليهود فى مقابل ذلك ازدياد احتقار المسلمين لهم ومقاطعتهم لمتاجرهم .

وقد شجع هذا الظفر جماعة السيد على باش حانبة ، فكونوا حزباً وطنياً سنة 1908 أطلقوا عليه حزب (**تونس الفتاة**) وأنشأوا جريدة (**التونسي**) باللغة الفرنسية وأصدروا طبعة منها بالعربية كان يتولى تحريرها الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، كما حفزت مقاطعة المؤسسات التجارية اليهودية جماعة من التجار المسلمين على انشاء مؤسسات تجارية واقتصادية تونسية لحماً ودماً ، وعدم ترك اليهود مستأثرين بالأعمال التجارية الكبرى .

ولما اعتدت ايطاليا على طرابلس الغرب سنة 1911 قام على باش حانبة وجماعة (**تونس الفتاة**) بدور كبير فى تأليب الرأى العام فى المغرب العربى على الايطاليين ، وكان هو وأنصاره صلة بين السفارة التركية بباريس والقيادة التركية بطرابلس الغرب ، وصارت تونس بسبب ذلك ممراً سرياً يجتاز منه الضباط والاختصاصيون القادمون من تركيا عن طريق أوربا الى ميادين القتال فى ليبيا .

وقد كان من نتيجة الحقد الذى بثته جماعة (**تونس الفتاة**) فى صدور التونسيين على الايطاليين اثر اعتدائهم على طرابلس حدوث اصطدام عنيف بالجلاز بين الطرفين فى نفس السنة أسفر عن سقوط عدد عديد من القتلى والجرحى، واثر ذلك قرر المقيم العام الفرنسى حل حزب (**تونس الفتاة**)

ونفي مسيريه الى الجنوب وابعاد علي باش حانبة وأخيه محمد وعبد العزيز الثعالبي الى خارج البلاد ، فلحق الأولان باسطمبول وقاما بدور كبير في التشغيب على المستعمرين الفرنسيين والايطاليين والانكليز بالشمال الافريقي خلال الحرب العظمى ، وأقام الأخير بفرنسا .

والحقيقة أن الوطنية التونسية ـ بمعناها التنظيمي السياسي ـ انما ولدت في بداية هذا القرن على يد علي باش حانبة وجماعة (**تونس الفتاة**) وان هذا الحزب الذي كان متأثراً الى حد بعيد بالأفكار الثورية المقتبسة من حزب (**تركيا الفتاة**) والأفكار الاسلامية الاصلاحية المقتبسة من دعوات الزعماء المصلحين بالشرق دق المسمار الأول ـ الذي توالت بعده المسامير اثر نهاية الحرب العظمى الأولى ـ في نعش الاستعمار الفرنسي بتونس .

وواصلت جماعة (**تونس الفتاة**) العمل في الخفاء رغم رقابة الفرنسيين الشديدة ، وكانت تجتمع أحياناً داخل منزل الأمير محمد الحبيب الذي أصبح باياً فيما بعد ، وفي بداية الحرب تمكن الفرنسيون من اكتشاف جمع من أنصارها واعتقاله ، وظلت تلك الجماعة في غيابات السجون حتى وضعت الحرب أوزارها .

ولما كان الحلفاء يهيئون معاهدات الصلح مع الدول المهزومة ، ومشروع تأسيس جمعية الأمم تقدم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وصديقه السيد أحمد السقا الى الرئيس ويلسون بمذكرة يطالبان فيها باستقلال تونس ، ولكن تلك المذكرة ألقي بها في سلة المهملات كما ألقي بمذكرات أخرى تقدمت بها وفود وطنية أخرى ، فقرر الثعالبي اثر ذلك انتهاج خطة جديدة هي الاتجاه نحو الشعب الفرنسي نفسه لتنوير رأيه وفضح الموبقات التي ترتكب في تونس باسمه ، فاصدر في سنة 1920 كتابه المسمى (**تونس الشهيدة**) باللغة الفرنسية شرح فيه أعمال الاستعمار الفرنسي وما ارتكبه من أمور تتنافى مع الاعراف الدولية والحقوق الانسانية ، متخلصاً في النهاية الى المطالبة بتأسيس حكومة تونسية مسؤولة أمام مجلس يمثل الأمة التمثيل الصحيح ليتمكن الشعب من تدبير أموره والاطمئنان على مصيره .

وحينما كان الثعالبي ورفاقه يوالون جهودهم بفرنسا لصالح القضية التونسية بدأ زملاؤهم الذين لفظتهم السجون يتحركون ولكن في حذر شديد مراعاة للظروف التي كانت تحيط بهم والتي تختلف تمام الاختلاف عن ظروف أصدقائهم الموجودين في باريس ، ولما أحسوا بعطف الباي عليهم أسسوا حزباً جديداً سموه (**حزب الدستور**) ، وشرحوا في بيان نشروه على الشعب أهدافه التي تتلخص في تبليغ الوطن رشده ، وتحريره من الاستعباد كي يصبح الشعب التونسي حراً متمتعاً بكامل الحقوق ، والسعي لبلوغ هذه الغاية عن طريق نظام دستوري يسمح للشعب بحكم نفسه بنفسه .

ومن البديهي ان هذه الأهداف هي أقل بكثير من أهداف حركة (**تونس الفتاة**) السابقة التي كانت تنادي بالاستقلال التام ، كما أنها أقل بكثير من الأفكار التي كان ينادي بها أعضاء الحزب الموجودون في باريس ، ولكن هؤلاء – وفي مقدمتهم الثعالبي – اضطروا الى مسايرة الحركة وهم يؤمنون في قرارة أنفسهم بأن الحل الوحيد هو الاستقلال، ايماناً منهم بأن ما ذهب اليه أصدقاؤهم بتونس انما هو احتيال سياسي .

وواصلت هيأة الحزب الجديد العمل على أساس المبادىء التي أعلنت عنها ، وكانت تستغل كل فرصة للفت الأنظار اليها وجمع الصفوف من حولها ، وحدث ان الاقامة الفرنسية العامة حاولت الاستيلاء على الأحباس (الأوقاف) الخاصة التي تتصرف فيها بعض الأسر التونسية تمهيداً لاعطائها للمعمرين الفرنسيين ، واستقراض 250.000.000 فرنك لتكميل عجز الميزانية فثار الجمهور ضد ذلك ، وألف الحزب وفداً ذهب الى باريس نجح في الغاء مشروع الاستيلاء على الاحباس وطلب القرض ، وقدم للحكومة الفرنسية مطالب معتدلة جداً ، ثم تألف وفد جديد ذهب الى باريس سنة 1920 ولكنه عاد كالوفد الأول دون الحصول على طائل .

اما الثعالبي فانه واصل عمله الدعائي والتنويري بباريس ، ولكن الشرطة الفرنسية نفد صبرها أمام عمله الدؤوب فاعتقلته بتهمة بالتآمر على أمن الدولة ، وسلمته الى السلطات الاستعمارية التي زجت به وبثلة من

أصدقائه فى السجن العسكرى ، وبعد تسعة أشهر أطلق سراحهم ، فقاموا بتنظيم الحزب الدستورى على أسس جديدة ، وانتخب الثعالبى رئيساً له ، واحمد الصافى أميناً عاماً وأنشئت خلاياه وتشكيلاته فى جميع النواحى ، فاضطرت فرنسا لتعديل موقفها وبعثت لوسيان سان مقيماً جديداً الى تونس .

ولم يكد المقيم العام لوسيان سان يصل الى تونس يوم 6 يونيو 1921 حتى كان الحزب الدستورى هيأ وفداً من أربعين شخصاً يمثلون مختلف طبقات الشعب ـ قدم اليه لائحة من المطالب التى سبق للوفود الأخرى أن قدمتهــا الى المسؤولين فى باريس ، فأجابهــم بأنه مستعد لتنفيذ المطالب التى لا تتنافى مع معاهدة الحماية ، وكان المقيم لا يقصد الا بعض الاصلاحات الجزئية التى لا علاقة لها باعلان دستور ولا بتأسيس حكومة مسؤولة أمام برلمان منتخب ، ثم توجه الوفد عند الباى محمد الناصر فاقتبلهم بحفاوة واستمع الى مطالبهم وأعلن تأييده لها واستعداده لتأليف حكومة دستورية .

وكان السيد مليران رئيس الجمهورية الفرنسية يستعد لزيــارة تونس ، فوعدت فرنسا الباى بعزمها على تنفيذ الاصلاحات ان مرت الزيارة فى هدوء ، وطلبت منه أن يستعمل نفوذه لدى الحزب لاقناعه بضرورة مجاملة رئيس الجمهورية اثناء زيارته لتونس .

وزار مليران تونس وقوبل بالحفاوة المناسبة ، ولكنه اغضب شعبها لما خطب وأعلن أنها ستظل مرتبطة بفرنسا الى الأبد ، وتقدم لوسيان سان الى الباى ببعض الاصلاحات البسيطة والمشوهة فرفضها ، واثناء هــذا التوتــر والغليان نشرت صحيفة فرنسية حديثاً نسبته الى الباى زعمت فيه أنه غضبان على رجال الحركة الوطنية لأنهم شيوعيون ، ولما اطلع عليه الباى ثارت ثائرته وأمر رئيس وزارته ومدير تشريفاته بتكذيب مزاعم الصحيفة ، ولما لم يفعلا ذلك خوفاً على أنفسهما من الفرنسيين عقد الباى ندوة صحفية كذب أثناءها ما نشر ، وأعلن عزمه على اعفاء وزيره الأول ومدير تشريفاته .

وحاول الباى تنفيذ عزمه ، وهو حق من حقوقه التى لا غبار عليها ، ولكن الفرنسيين تمسكوا ببقاء الشخصين المغضوب عليهما ، فقابل الباى هذا التحدى باعلان تنازله على العرش ، واذ ذاك ثار الشعب تأييداً لملكه ،

واستنكاراً لسياسة الحماية ، ووقعت مظاهرة كبرى يوم 5 أبريل 1922 أدت الى اعتقال عدد كبير من الوطنيين والوجهاء ، فتراجع الباى ازاء هذا التأييد عن قرار التنازل ، ولكن المقيم الفرنسى توجه الى القصر على رأس فرقة من جند افريقيا ، وقدم الى الباى لائحة تشتمل على أسماء 36 من زعماء الحركة الوطنية طالباً المصادقة على قرار ابعادهم فرفض الباى ذلك بشمم ، وبعد قليل فوجىء الناس بموته فى ظروف غامضة ، فخلفه الباى محمد الحبيب الذى صادق على الاصلاحات المرفوضة وبدأ الفرنسيون ينفذون سياسة القمع من جديــد .

وكان أهم هذه الاصلاحات تأسيس مجلس كبير يشتمل على أعضاء تونسيين وآخرين فرنسيين وانشاء غرفتين تجارية وفلاحية ! ولما ظهر الباى محمد الحبيب بمظهر الملك المتعاون بعد ما كان قبل اعتلائه على العرش يتظاهر بمظهر الأمير المخلص قرر الحــزب أن يسافر الثعالبــى الى الشرق للتعريف بالقضية التونسية ، فسافر سنة 1923 وزار عدداً كبيراً من الأقطار العربية والاسلامية وقام بدعاية قوية جعلته من زعماء المسلمين المشهورين ولم يرجع الا سنة 1936 ، اما فى داخل تونس فقد واصل الحزب الدستورى السير فى خطتــه تحت زعــامة أمينه العــام السيد أحمد الصافى ، وقــد ظهرت قوته من جديــد اثنــاء المظاهرات التى نظمهــا سنة 1925 احتجاجاً على اقامة تمثال للكردينال لافيجرى أسقف الجزائر ، وازداد الشعور الوطنى التهاباً أثناء الحرب التى كان يقودها السيد محمد بن عبد الكريم الخطابى فى منطقة الريف من المغرب الأقصى والتى تكبد فيها المستعمرون الفرنسيون والاسبانيون خسارات كبيرة فوقفت السلطات الفرنسية بالمرصاد للوطنيين التونسيين، ومنعتهم حتى من تمثيل بعض الروايات التى تذكر بالماضى المجيد ، واستولت على الأموال التى جمعت بقصد معاونة جرحى المجاهدين بالريف ، وحكمت على بعض الشبان الذين قاموا بهذا العمل الانسانى بالسجن خمسة أعوام مع الأشغال الشاقة وابعدت الى الجزائر الاستاذ أحمد توفيق المدنى من أجل كتابته مقــالات حماسية ، ثم وقعت مظاهرات واضرابات سنة 1926 احتجاجاً عــلى محاولــة فرنسا تعيين قضاة فرنسيين بالمحاكم التونسية ، ولما أعلن الباى محمد

الحبيب تضامنه مع شعبه فى هذا الاحتجاج تراجعت فرنسا عن مشروعها ، ولكنها قررت عرض القضايا السياسية على المحاكم الفرنسية انتقاماً من القضاة التونسيين الذين أعلنوا تضامنهم مع الوطنيين .

والذى شد عضد الحركة الوطنية وزاد تغلغلها فى كـل الأوساط صدور اكثر من 20 صحيفة ومجلة باللغة العربية ، وواحدة (**الحـر**) باللغة الفرنسية لبث الدعاية وترويج المبادىء الدستورية ، وظهور حركة نقابية اسلامية ابتداء من سنة 1924 تحت زعامة البطل السيد محمد على الذى أبعده الفرنسيون فيما بعد الى خاج تونس هـو وثلة من أصدقائـه فماتوا جميعاً فى الغربـة .

وخلال تلك الفترة ظهر على المسرح السياسى عدد من الشبان المتنورين فسح لهم الحزب مجال العمل ، وانضم واحد منهم وهو السيد الشاذلى خير الله الى اللجنة التنفيذية ، ولما أوقفت السلطات الفرنسية جريدة الحزب أصدر السيد الشاذلى جريدة (**العلم التونسى**) باللغة الفرنسية سنة 1927 ، ومع ان الجريدة الجديدة لم تكن تعبر ــ رسمياً ــ عن آراء الحزب استطاعت ان تجمع حولها الشبان الدستوريين المثقفين ، ولما أوقفتها السلطات الفرنسية سنة 1929 صمد الشبان الدستوريون وأصدروا جريدة (**صوت التونسى**) وكونوا لجنة لتحريرها وتوجيهها كان من بين أعضائها السيد الحبيب بورقيبة ، وبذلت هذه اللجنة جهوداً قوية فى الدفاع عن الأمانى القومية للشعب التونسى وفضح المكايد الفرنسية ، ثم استقل الشبان الدستوريون عن السيد الشاذلى خير الله وأصدروا جريدة (**العمل التونسى**) فى فاتح نونبر سنة 1932 مسندين رئاسة تحريرها الى السيد الحبيب بورقيبة بينما أصدر الحزب الدستورى جريدته الرسمية (**صوت الشعب**) باللغة الفرنسية .

وبينما كان الوطنيون التونسيون ــ كهولا وشبابا ــ يخوضون معركة التوعية السياسية خطرت للاستعماريين الفرنسيين فكرة الاحتفال بذكـرى مرور 50 سنة على فرض الحماية الفرنسية واضفاء حلة نصرانية عـلى هـذا الاحتفال بعقد مؤتمر مسيحى كبير يقترن به .

وكان هذا الخاطر الجهنمي مظهراً لسياسة جديدة قررت فرنسا تنفيذها في مستعمراتها ، فقد صرح وزير خارجيتها أمام مجلس النواب اثناء درس فصل من الميزانية يتعلق باعانة الجمعيات التبشيرية : (ان فرنسا اذا كانت لادينية في داخل حدودها فانها دينية في الخارج) ، اما أسقف تونس فانه صرح بدون ادنى تحفظ بأن المؤتمر المنوى عقده يعد حملة صليبية على تونس وان كان ملؤها المحبة والسلام !

وعرضت الاقامة الفرنسية العامة على المجلس التونسي شروع تخصيص اعتماد مالي لتنظيم المؤتمر ، ولما عارض النواب المسلمون المشروع منعوا من المناقشة ، وأقرت السلطة مشروعها كما تشاء ، وازاء هذا التحدى بدأ الشعب التونسي يحتج ويتظاهر ، ووقعت اضطرابات واصطدامات ، وحملت الصحافة الوطنية حملات عنيفة على السياسة الجديدة كان من نتائجها اخفاق المؤتمر وعدول الاستعماريين عن الاحتفال بالذكرى الخمسينية لفرض الحماية .

وفي سنة 1933 اتخذت الحكومة الفرنسية عدداً من الترتيبات لفتح باب التجنس بالجنسية الفرنسية في وجه التونسيين ، واستصدرت سلطات الحماية فتوى من رجال الشرع تجيز للمسلم التجنس بالجنسية الفرنسية دون أن ينسلخ عن الاسلام ، ففضحت الصحف الوطنية المؤامرة وشنت حملات عنيفة على رجال الشرع والحماية معا ، وقرر الأهالي مقاطعة المتجنسين ومنعهم من الدفن بالمقابر الاسلامية ، وحدثت بسبب هذه السياسة الجديدة الخرقاء وقائع دامية واضطرابات استصدرت بعدها الاقامة العامة يوم 6 مايو (أوامر علية) من الباى أحمد تبيح للمقيم الفرنسي أن ينفى كل شخص يقوم بعمل أو دعاية ضد نظام الحماية ، كما قررت السلطات الفرنسية تخصيص أماكن لدفن أموات المتجنسين ، فكان هذا القرار نصراً للقومية التونسية من حيث لم يحتسب الاستعماريون .

واثر ذلك عقد الحزب الدستورى مؤتمراً فوق العادة أسفرت أشغاله عن ميثاق يعلن (أن عمل الحزب في الميدان السياسي انما يرمى الى تحرير الشعب التونسي وتمكين البلاد من نظام بات وقار في شكل دستور يصون

الذاتية التونسية ويقرر سيادة الشعب) كما قرر المؤتمر ضم أعضاء أسرة **(العمل التونسي)** الى اللجنة التنفيذية ، فما كان جواب فرنسا عن هذا الميثاق الا حل الحزب وتعطيل صحفه وتعيين السيد مرسيل بيروتون المشهور بصرامته مقيماً عاماً جديداً .

ولم يحصل انسجام بين المسيرين القدامى والمحدثين للحزب ، فاستقال من اللجنة التنفيذية السيد الحبيب بورقيبة وطرد منها الآخرون ، وارتبط منذ ذلك الحين تاريخ الكفاح السياسي التونسي بـ **(الديوان السياسي)** الذي ألفوه .

وشرعت الهيأة الجديدة تطبق النظرية البورقيبية الرامية الى ابلاغ تونس مطامحها القومية على مراحل وبواسطة الحوار مع الفرنسيين ، وتمكنت من التغلغل في جميع الأوساط وخاصة في الأرياف ، فأقلق ذلك الفرنسيين واعتقلوا أعضاء الديوان السياسي وعدداً من الوطنيين البارزين يوم الاثنين 3 شتنبر 1934 ولم يسرحوهم الا في 23 مايو 1936 بعدما عمت المظاهرات تونس وسادها توتر كبير .

وكانت أحزاب اليسار الفرنسية المؤلفة للجبهة الشعبية تسلمت مقاليد الحكم بفرنسا ، فسافر السيد الحبيب بورقيبة الى باريس لفتح الحوار والتعريف بقضية بلاده وتنسيق العمل التحريري مع ممثلي الحركات الوطنية الأخرى في المغرب العربي ، ولاحت بوارق أمل لم تلبث الجالية الفرنسية أن عملت على اطفائها بما لها من جاه ونفوذ ، ولما سقطت وزارة ليون بلوم استسلمت الوزارة التي تلتها لتأثير الاستعماريين والرجعيين ، فاشتد الضغط على الوطنيين وقتلوا بالعشرات ، فيئس زعماء الديوان السياسي من كل حوار وبدءوا يستعدون لخوض معركة جديدة ، وجربوا قوتهم يوم 17 دجنبر عندما قرروا شن اضراب عام تضامناً مع وطنيي الجزائر والمغرب الأقصى ، فاكثرت السلطات الاستعمارية من الاعتقالات واوصلت المتابعات .

وتوالت المظاهرات الشعبية ابتداء من شهر يناير 1938 كما توالى سقوط المناضلين في ميادين الشرف فاضطر المقيم الفرنسي العام الى استصدار (أمر علي) يوم 9 أبريل يعلن حالة الحصار ويفوض السلط لقائد جيش

الاحتلال ، وفى فجر يوم 10 أبريل شرع الجيش والشرطة فى اعتقال زعماء الديوان السياسي وأعضاء الحزب البارزين ، وتوالت الاعتقالات طيلة الشهر ، وأصبحت المنافي والسجون غاصة بمئات الوطنيين .

واستمر الحزب يعمل فى الخفاء ، ولما اعلنت الحرب العظمى الثانية نقل الوطنيون الى السجون العسكرية فى الجزائر ونفذ فى بعضهم حكم الاعدام ، ثم نقل زعماء الديوان السياسي الى سجون فرنسا وظلوا بها حتى احتل الالمان منطقتها الحرة وسلموا السيد بورقيبة الى الايطاليين ، فحاول هاؤلاء استغلاله ولكنه استعصى عليهم ، وأخيراً أعادوه الى تونس يوم 7 أبريل 1943 فوجد أعضاء الحزب ما بين ضالع الألمان ومتحفظ مترقب ، ولما احتل الحلفاء تونس عين الفرنسيون الجنرال جوان المشهور بتهوره وحقده وعنفه مقيماً عاماً بالنيابة ، فنفى الباى محمد المنصف الى الجزائر وشن حملة انتقامية قتل فيها كثير من التونسيين ومثل بهم ، واختفى السيد بورقيبة عن الأنظار حتى توسط لمصلحته الأمريكيون الذين كان على اتصال بهم ، واثر خروجه قدم للجنرال ماست المقيم الفرنسى الجديد مشروع اصلاحات يرمى لتطوير نظام الحماية ، ولكن الفرنسيين قرروا فى مارس 1944 ويبراير 1945 ادخال (اصلاحات) قضت على قسم عظيم مما بقى من مظاهر السيادة التونسية ، فأدرك الوطنيون ان لا خير يرجى من (فرنسا الحرة) ولا من (الجمهورية الرابعة) التى أنشأتها وقرروا البحث عن التأييد الخارجى لقضية بلادهم .

وغادر السيد بورقيبة تونس متنكراً يوم 26 مارس 1945 فوصل القاهرة فى 28 أبريل بعد ما تكبد مشاق وعانى أهوالا ، وضم جهوده الى جهود الوطنيين المغاربة والجزائريين المقيمين بها ، وأسسوا (مكتب المغرب العربى) فى شهر مايو سنة 1946 واتخذوه قاعدة للتبشير بقضايا الشمال الافريقى ، ثم سافر الى الولايات المتحدة الأمريكية وشرع يتجول فى بعض الأقطار العربية ، وعاد أخيراً الى تونس فى 8 شتنبر 1949 فاستأنف الديوان السياسى تحت رئاسته الاتصال المباشر بالشعب ، ثم سافر فى 12 أبريل 1950 الى فرنسا وعرض مشروع اصلاحات فى سبع نقط يرمى مجموعها الى تحقيق الاستقلال الداخلى وعاد الى تونس يوم 3 غشت بعد ما خلفت اتصالاته وخطبه وتصريحاته

أثراً عظيماً فى الرأى العام الفرنسى ، وبعد 13 يوماً تألفت وزارة برئاسة السيد محمد شنيق شارك فيها الحزب على أساس التفاوض مع فرنسا لانجاز الحكم الذاتى ، ولكن المفاوضات تعثرت نتيجة الضغط الذى قامت به الجالية الفرنسية ، ثم هدد الحزب بالانسحاب من الحكومة على اثر المجزرة التى دبرتها تلك الجالية ضد عمال النفيضة يوم 22 نونبر ، وغادر السيد الحبيب بورقيبة تونس يوم 2 يبراير 1951 للقيام بجولة طويلة حول العالم أوصلته الى جاكارتا شرقاً وسكنديناڤيا شمالا والولايات المتحدة غرباً وأجرى اتصالات مع كثير من المؤسسات السياسية والوطنية والنقابية ، وبعد ما اشتد الضغط على الوطنيين فى تونس بعثت الحكومة التفاوضية رسالة الى الحكومة الفرنسية فى 31 أكتوبر ذكرتها فيها بالغاية التى فتحت المفاوضات من أجلها ، وطالبتها بتحديد موقفها من وعدها القاضى بمنح تونس استقلالها الداخلى ، ولكن فرنسا ردت فى 15 دجنبر بأن الاستقلال الداخلى يعنى فى الواقع اقرار السيادة المزدوجة ، وانه لابد أن يكون للفرنسيين وجود فى الحكومة والهيآت النيابية ، وان بين تونس وفرنسا روابط أبدية لا تنفصم عراها ، فاضطربت تونس بعد ورود هذا الرد واضرب الشعب عن العمل ثلاثة أيام متوالية . ثم ازدادت الحالة تحرجاً عند ما قدمت الوزارة التونسية يوم 14 يناير 1952 شكوى ضد فرنسا الى الأمانة العامة لمنظمة الأمم المتحدة ، فاهتزت فرنسا للمباغتة وما انطوت عليه من تحد ، وتجددت فى تونس المظاهرات .

وبلغت الأزمة اشدها يوم 18 يناير حينما اعتقلت السلطات الاستعمارية السيد الحبيب بورقيبة من جديد ، ونفت عدداً كبيراً من مسيرى الحزب الى الصحراء ، ويوم 26 مارس حينما اعتقلت رئيس الحكومة السيد محمد شنيق وأعضاء حكومته ، فتشكلت لجان الارهاب ، وتعطلت دواليب الادارة، وتدهورت الحياة الاقتصادية ،فازداد حقد الاستعماريين على الحركة الثورية ، وتعاونت القوات (**النظامية**) مع منظمة (**اليد الحمراء**) التى ألفتها الجالية الفرنسية على الفتك بالتونسيين وانتهاك حرماتهم . ومن أشهر ضحايا الهيأة الأخيرة الزعيم النقابى السيد فرحات حشاد والمرحوم الهادى شاكر الذى اخرج من معتقله تحت انظار حراسه وأعدم وألقيت جثته على قارعة الطريق .

ونصبت فرنسا حكومة عميلة برئاسة صلاح الدين البكوش ، ثم حكومة عميلة أخرى برئاسة محمد الصالح المزالى ، وأدخلت فى مايو 1953 ومارس 1954 اصلاحات رفضها الشعب لأنها لا تستجيب لرغائبه فى وحدة السيادة واستكمال مقوماتها الأساسية ، وازداد لهيب الثورة اشتعالا ، ودرست القضية التونسية مرتين فى منظمة الأمم المتحدة ، وفى هاتيك الظروف الحالكة انهزمت القوات الفرنسية فى ديان بيان فو بالهند الصينى ، وأمسك السيد منديس فرانس بمقاليد الحكم فى فرنسا يوم 18 يونيو 1954 فسافر الى تونس يوم 31 يوليوز وأعلن فى خطاب رسمى أمام الباى بقصر قرطاجنة استقلال تونس الداخلى ، وتألفت يوم 2 غشت حكومة تفاوضية شارك فيها الحزب الدستورى .

وبدأت المفاوضات بين الجانبين التونسى والفرنسى يوم 4 شتنبر بتونس ، وانتقلت الى باريس فى الثالث عشر منه ، وتعثرت مرات عديدة نتيجة الجو السياسى المخيم على البرلمان الفرنسى ، وموقف غلاة الاستعمار بتونس الذين لم يسلموا بالأمر الواقع ، وأخيراً تم تحرير نصوص الاتفاقيات الضابطة للحكم الذاتى ووقعها المفاوضون بالحروف الأولى ، وعاد السيد الحبيب بورقيبة الى تونس فى فاتح يونيو 1955 وقوبل بحفاوة كبيرة ، واستطاع خلال جولاته الدعائية أن يفحم معارضيه ، وكانت فرنسا قد أعادت جلالة الملك المرحوم **محمد الخامس** من منفاه السحيق بمدغشقر ، واتفقت معه يوم 7 نونبر على تمكين المغرب من السير نحو الاستقلال فى دائرة التكافل، واثرها صرح السيد كى مولى رئيس الوزارة الفرنسية أمام البرلمان الفرنسى يوم 31 يناير 1956 ان اتفاقيات سنة 1955 لا تحول دون تمتيع تونس بالاستقلال على غرار المغرب الأقصى فى نطاق التكافل .

وفى يوم 13 يبراير 1956 طلبت الحكومة التونسية فتح مفاوضات جديدة مع الحكومة الفرنسية فقبلت فرنسا ذلك وابتدأت المفاوضات بوزارة الخارجية الفرنسية يوم 29 يبراير ، ووقع يوم 20 مارس على اتفاق تعترف فيه فرنسا علنا باستقلال تونس وبطلان معاهدة 12 مايو 1881 التى لم يعد فى امكانها ضبط العلاقات الفرنسية التونسية .

ودخلت تونس منذ ذلك التاريخ فى عهد جديد من حياتها القومية ، وعهد الى السيد الحبيب بورقيبة يوم 11 أبريل بتأليف حكومة جديدة بعد ما كان انتخب رئيساً للمجلس القومي التأسيسي ، فعمل في البداية على تصفية مخلفات الاستعمار والامساك بمقاليد البلاد ، وسعى في الحصول عى اعتراف الدول باستقلال بلاده فتم له ما أراد ، وفي يوم 12 نونبر صادقت الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة على قبول تونس فى عضويتها .

ومنذ ذلك الحين شرعت الهيأة الحاكمة فى تجديد النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكان من أكبر منجزاتها اعلان النظام الجمهورى يوم 25 يوليوز 1957 واعلان الدستور يوم 1 يونيو 1959 واجلاء القوات الفرنسية فى أكتوبر 1963 واسترجاع املاك الاستعمار فى مايو 1964 وتصفية امـلاك الكنيسة فى 27 يونيو من نفس السنة .

ليبيا في العصر الحديث

افتك سنان باشا قائد الأسطول التركى مدينة طرابلس من أيـدى فرسان القديس يوحنا يوم 16 غشت 1551 (13 شعبان 958 هـ) وجعلها قاعدة ولاية عثمانية جديدة ، وخلال قرنين عانت البلاد من الفوضى ما لا يمكن وصفه ، فكانت مسرحاً لثورات الأجناد ومؤامرات الولاة ودسائس القناصل الأوربيين ، حتى نادى الديوان بأحمد القرمانلي والياً عليها فى 27 يوليوز سنة 1711 فقضى على الفتن ووطد الأمن ، واعتمد على العنصر الوطنى فى الجيش واعتنى بالاقتصاد واهتم بالعمران .

ولما توفى سنة 1745 (1158 هـ) بعد حكم دام 34 سنة بقى حكـم الولاية في عقبه الى سنة 1835 التى خلع فيها السلطان على باشا الثانى آخرهم فأصبحت الولاية منذ ذلك الحين تحكم من قبل العثمانيين حكماً مباشراً .

وبدأ الولاة الأتراك يبعثـون لحكم الولاية من اسطنبـول ، ولم يكن بعضهم يستقـر فى الولاية أكثر من عام ، حتى بلغ عدد من حكم منهم خلال سبع وسبعين سنة (1835 ـ 1911) ثلاثة وثلاثين والياً ، وقد نتج عن ذلك

اهمال شؤون البلاد وضعف الاهتمام بمصالح السكان بالاضافة الى ما اثر عن الحكم التركى فى جميع أطراف الأمبراطورية العثمانية من قسوة واستبداد ، فانتشرت الأوبئة وساءت الأحوال الاقتصادية وخرب العمران وهاجر السكان الى الأقطار الاسلامية المجاورة وحتى الى جزر البحر الأبيض المتوسط واقطاره النصرانية ، ولم يعتن الا قليل من الولاة بشؤون الاصلاح والتنظيم والتجديد كالوالى محمد نديم باشا الذى مدت فى أيامه (1862 — 1869) أسلاك التلغراف بين طرابلس وبرقة ، وخلفه على رضا باشا الذى ألح سنة 1869 على حكومة اسطنبول في انشاء محاكم عصرية وسن قوانين ملائمة لها فأغضب ذلك القناصل الأوربيين الذين كانسوا يعتقدون ان تحسين أحوال ليبيا يحول بينهم وبين الاستيلاء عليها ، واحمد عزت باشا (1879 — 1880) الذى أنشأ مدرسة ومستشفى وسوقاً ورمم قسماً من سور طرابلس وبنى فناراً بمرساها ، وكذلك احمد راسم باشا الذى طالت مدة ولايته 15 سنة (1883 — 1898) انجز اثناءها عدداً كبيراً من الاعمال العمرانية .

وكانت ليبيا العثمانية منقسمة فى البداية الى ثلاث مقاطعات : طرابلس ومصراتة ، وبنغازى ، ثم صارت مقسمة ابتداء من سنة 1843 الى قسمين فقط : ولاية طرابلس ومتصرفية بنغازى ، وكانت المتصرفية الأخيرة تدار رأساً من قبل الحكومة المركزية ما عدى مسائل الجيش والبريد والديوانة والقضاء ، فكانت تخضع للسلطات العليا فى طرابلس .

ولما صدر قانون البلديات التركى سنة 1871 أصبح فى كل مدينة من مدن الولاية مجلس بلدى يتركب من عشرة أشخاص منتخبين ، يجتمع مرتين فى الأسبوع للنظر فى الشؤون البلدية كالنظافة والانارة واطفاء الحريق وتنظيم الأسواق ومراقبة الأماكن العمومية وايواء اليتامى والضعفاء وكانت موارد البلديات تاتى من الضرائب المحلية المفروضة على الأسواق والمجازر والمكاييل والموازين .

أما القضاء العصرى فقد ابتدأ تطبيقه فى المناطق الساحلية والأخرى الآهلة من ليبيا سنة 1869 ، وكانت تقوم به محاكم للصلح وأخرى للجنايات وثالثة شرعية ومحكمة اجراء ، وكانت المحاكم العثمانية تنظر فى القضايا التى

يكون أجنبي طرفاً فيها ، ولا تنظر المحاكم القنصلية الا في القضايا المدنية الخاصة بالأجانب من جنسية واحدة ، وكان جميع القضاة وحكام الصلح الذين تولوا مناصب عالية في القضاء يرسلون الى ليبيا من تركيا .

وكان الأتراك يمسكون بمقاليد الادارة والجيش وأهل ليبيا يحترفون الفلاحة والصناعة ويمارسون التجارة الصغيرة ، أما التجارة الكبرى فكانت تقوم بها الطائفة اليهودية المتجنسة والجوالي الأجنبية التي كانت غالبيتها تتألف من طليان وانجليز وفرنسيس ، وقد بلغ مجموع الصادرات 9.000.000 فرنك سنة 1898 ومجموع الواردات نفس المبلغ، وكانت انكلترا وايطاليا وفرنسا وتركيا أهم الدول المستوردة والمصدرة الى ليبيا في هذا العصر ، فكانت ليبيا تصدر اليها الشعير والحصر والحناء والسمن والفواكه الحمضية والحلفة والمواشي ، وتستورد منها المصنوعات الحديدية والشاي والسكر والمواد الصيدلية .

وكانت ايطاليا أكثر الدول الأوربية اهتماماً بولاية ليبيا ، فمنذ استكملت هذه الدولة وحدتها (1870) وقضت فترة من الزمان في اصلاح شؤونها الداخلية بدأت تتطلع الى انشاء مستعمرات لها في القارة الافريقية تأسياً بفرنسا وانجلترا وغيرهما ، وكانت أنظارها تتجه على الخصوص الى ولايتي تونس وليبيا العثمانيتين، ولكن فرنسا فوتت عليها الفرصة باحتلالها تونس سنة 1881 فلم يبق أمامها الا ليبيا ، ولذلك أخذت تمهد لبسط سلطانها بشكل واضح ، فاكثرت من فتح المدارس المجانية بطرابلس وبنغازي لنشر ثقافتها وشجعت هجرة الأسر والأفراد من مواطنيها الى ليبيا حتى بلغ عددهم 1.100 شخصاً سنة 1900 كما واصلت ارسال البعثات لأغراض علمية في الظاهر ورسم الخرائط والتعرف على القبائل وشيوخها في الباطن ، ثم اسست سنة 1905 فرعاً لبنك روما الذي أخذ يشتري الأراضي الزراعية من المواطنين بأثمان مغرية ويغذي بأمواله الخاصة نشاط الدعاية الايطالية بين السكان ويصرف الرواتب للجواسيس والعملاء ، وأخير فاتحت ايطاليا الدول التي سبقتها الى الاستعمار في شأن احتلالها لليبيا فحصلت على موافقة انكلترا وفرنسا مقابل سكوتها عن تصرفات الأولى في مصر والثانية في المغرب الأقصى .

وفى سنة 1909 عين ابراهيم باشا والياً على طرابلس ، وكان من رجال تركيا الحازمين ، ولما وصل أحس بخطر النفوذ الايطالى وسعى فى درئـه ، وسافر بنفسه الى اسطمبول لطلب نجدات عسكرية تحمى الولاية من الكارثة التى أوشكت أن تلم بها ، فاغتنمت ايطاليا فرصة غيابه ووجهت فجأة وبدون ادنى موجب انذاراً الى الحكومة التركية يوم 27 شتنبر 1911 تخبرها فيه بعزمها على احتلال طرابلس وتطلب منها مساعدتها عليه متعللة بسوء النظام فى طرابلس وبنغازى ، وتهديد الولاية لمصالح ايطاليا الحربية ، وتجاهل الدولة العثمانية لرغبات ايطاليا ومصالحها الاقتصادية واضطهاد الرعايا الايطاليين ، وحددت مدة الانذار فى 24 ساعة تعلن بعدها الحرب بين البلدين ان كان الرد التركى سلبيا.

ومع ان العلل التى تذرعت بها ايطاليا كانت واهية فقد ردت الحكومة التركية رداً متخاذلا وطلبت من ايطاليا تقديم لائحة مفصلة لمطالبها وأبدت استعدادها لاعطاء جميع الضمانات لرءوس الأموال الايطالية ووعدت بعـدم احداث أى تغيير عسكرى فى الولاية اثناء المفاوضات ، ولكن ايطاليا لم يقنعها هذا الرد ، وأعلنت الحرب على تركيا يوم 29 شتنبر ، وأرسلت أساطيلهـا وقوات برية عددها 34.000 من المشاة ، و 6300 من الفرسان مزودين بأشد الأسلحة فتكاً لاحتلال طرابلس والخمس وبنغازى ودرنة ، فقاوم الجيش التركى الذى لم يكن عدده يتجاوز 7.000 جندى ــ المعتدين ببسالة ، ودفع الايطاليون ثمن عدوانهم غالياً .

وأرسلت تركيا بعض القوات الى برقة لتنظيم القتال ضد العدو ، كما ظهر السيد عمر المختار شيخ زاوية القصور فى الميدان، ودارت بين العرب والطليان معارك أظهر فيها الأولون استماتة وصبراً ، منها معركة الضبط بقرب درنة التى لم يكن فيها النصر حاسماً لطرف على آخر، وأخيراً أحست تركيا انها لا تستطيع الاستمرار فى القتال نظراً لقلة جنودها وضعف بحريتها وبعد ميادين القتال عن ترابهـا الوطنى ، وتمالىء الدول العظمى عليهـا ، فاضطرت الـى عقد الصلح مع ايطاليا فى أكتوبر سنة 1912 وانسحب الجيش التركى من ليبيا ولم يبق منه الا جزء صغير ببرقة تحت قيادة الجنرال عزيز المصرى ، وقبـل

انسحاب الادارة والقوات التركية قام مندوب تركيا بزيارة السيد احمد الشريف السنوسي شيخ الطريقة السنوسية بزاويته في واحة جغبوب ، وأبلغه (اسناد أمر الأمة الليبية الى سيادته ، ومنح الخليفة الأمة الطرابلسية استقلالها تاركاً لها الحق فى تقرير مصيرها والدفاع عن نفسها) ، فكان ذلك بداية ظهور الأسرة السنوسية على المسرح السياسى والحربى بعد ان كان نشاطها دينياً محضاً .

أما ملك ايطاليا فقد أصدر منشوراً أخبر فيه أهل ليبيا أن بلادهم أصبحت خاضعة للسيادة الايطالية ، وانه عفا عنهم ، ووعدهم بالمحافظة على الشعائر الدينية ، وسمح لهم بذكر اسم السلطان العثمانى فى صلواتهم باعتباره خليفة للمسلمين .

وواصل الليبيون وحدهم القتال ، وازداد عطف العالم الاسلامى عليهم وتضامنه معهم ، ودارت بينهم وبين الغزاة معارك طاحنة ، وكان هاؤلاء كلما خاضوا معركة — غلبوا فيها أو غلبوا — صبوا جام غضبهم وأصلتوا سيف نقمتهم على سكان المناطق الخاضعة لنفوذهم حتى اضطر كثير منهم الى الهجرة الى تونس ومصر وما وراء الصحراء من سوادين .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى تحرجت حالة ايطاليا وازداد بطرابلس نشاط الوطنيين الذين كانوا يعملون بارشاد الضباط الأتراك ، وقد هزموا القوات الايطالية سنة 1915 فى موقعة القرضابية بفزان فتراجعت الى الشمال ، وانتهز الليبيون فرصة انسحابها فبدأوا يستعدون لمهاجمة الجهات الشرقية من اقليم طرابلس ، وظهر فى هذه الأثناء رمضان السويحلى من أهل مصراتة كزعيم للمقاومة الشعبية ، كما ظهر سليمان البارونى كممثل للخليفة العثمانى .

وبعد خروج تركيا من الحرب مهزومة اجتمع زعماء المقاومة فى مسلاتة ، وقرروا فى نوفبر 1918 اعلان الجمهورية الطرابلسية لمواصلة الجهاد ، واختاروا أربعة أشخاص لادارتها والفوا مجلساً استشارياً من 24 عضواً ومجلساً شرعياً للنظر فى المسائل القضائية ، ثم طلبوا من الدول الأجنبية الاعتراف بالجمهورية الجديدة ، واتصلوا بممثلى ايطاليا للوصول الى اتفاق مقبول ، وبعد التفاوض

وضع مندوبو الفريقين فى 21 أبريل سنة 1919 قانوناً أساسياً ووقعوا ميثاقاً بقبوله عرف بصلح بنيادم ، ولكن الايطاليين لم يلبثوا ان نقضوا الميثاق فاستؤنف القتال .

اما فى اقليم برقة فان الأتراك والألمان حملوا السيد احمد الشريف السنوسى على مهاجمة الانجليز بمصر سنة 1915 ولما فشل سلم قيادة الحركة الى السيد محمد ادريس السنوسى (ملك ليبيا الحالى) وغادر البلاد الى تركيا على متن غواصة المانية ، وكانت مهمة السيد محمد ادريس شاقة نظراً للقحط الذى كانت تعانى منه البلاد بالاضافة الى تفشى الأوبئة والأمراض ، فرأى من الحكمة أن يسالم العدو مؤقتاً ويعقد معه اتفاقاً يمكن أهل برقة من تحسين حالتهم ، وقد عقد اجتماع أول سنة 1916 بالزويتينة بين ممثليه وممثلى ايطاليا وانكلترا لم يسفر عن نتيجة مرضية ، ثم استؤنفت المفاوضات سنة 1917 فى عكرمة واسفرت عن عقد اتفاق ، فانصرف السيد محمد ادريس الى تنظيم المناطق التى ظلت تحت نفوذه وجعل مقره فى أجدابية ، واهتم بتنظيم الجيش ونشر التعليم ، ثم عقدت بينه وبين ايطاليا سنة 1920 اتفاقية الرجمة التى اعترفت فيها ايطاليا بامارته ، وصدر قانون أساسى لبرقة على غرار القانون الأساسى الذى صدر فى طرابلس وانتخب مجلس نيابى فى أبريل 1920 وعقد زعماء الحركة الوطنية فى طرابلس مؤتمراً بغريان سنة 1920 نادوا فيه بالسيد محمد ادريس أميراً عليهم ، وأرسلوا الى أجدابية وفداً حمل اليه بيعتهم فى شهر غشت 1922 .

ولكن الأحوال تبدلت فجأة بعد استيلاء موسولينى زعيم الحزب الفاشيستى على مقاليد الحكم فى ايطاليا فى أكتوبر سنة 1922 اذ اتخذ القادة الايطاليون الجدد الذين كانوا يحملون أفكاراً استعمارية متطرفة خطوات عملية لاحتلال ليبيا بأجمعها ، ولم تنته سنة 1923 حتى أتمت القوات الايطالية احتلال جميع المدن الساحلية وأخذت تتوغل فى داخلية البلاد ، فقاوم السكان ما استطاعوا سبيلا الى المقاومة ، وأخيراً التجأ الأمير محمد ادريس الى مصر فى دجنبر 1923 تاركاً أخاه محمد الرضا يدير الحركة السنوسية ، والزعيم عمر المختار يدير حركة المقاومة والجهاد ، وقد استماتت البرقاويون تحت قيادة

هذا الأخير فى الدفاع عن وطنهم وألحقوا بالعدو خسارات فادحة ، ولكن ايطاليا ارسلت الى حربه القائد كرازيانى المشهور بفتكه وبطشه فضيق الخناق على المجاهدين ، ومد على طول الحدود المصرية أسلاكاً شائكة جعلت التنقل من جهة لأخرى عبرها متعذراً ، وارتكبت ايطاليا من أعمال القمع والتنكيل ما تقشعر لذكره الجلود ، وكانت تلقى بالمجاهدين من الطيارات الى الأرض فتتمزق أشلاؤهم فى الفضاء ، وأخيراً أسرت الزعيم عمر المختار سنة 1931 وحاكمته فى سلوق ، وأعدمته شنقاً رغم شيخوخته ، فانتهت بموته حركة المقاومة المسلحة وتم اخضاع ليبيا للسيادة الايطالية بعد نضال استمر 20 سنة.

واثر ذلك انصرف المستعمرون الفاشيستيون الى تطبيق مخططهم الجهنمى الذى يتخلص فى القضاء على العنصر العربى واحلال العنصر الايطالى محله وطلينة البلاد ، ولبلوغ هذه الغاية أمعنوا فى التنكيل بالأهالى وشنق الأسرى وسجن البرءاء حتى اضطر كثير منهم الى الهجرة الى تونس ومصر وسوريا أو الهيام على وجوههم فى الصحراء ، كما أغروا الايطاليين بالمجيء الى ليبيا للاستقرار بها ، وقد بلغ عدد الوافدين منهم على اقليم طرابلس وحده 20.000 سنة 1938 ومن جهة أخرى حاربوا اللغة العربية ومنعوا تعلمها وتدخلوا فى الشؤون الدينية وأغلقوا الزوايا الصوفية وصادروا أملاكها العقارية كما صادروا الأملاك المحبسة على المساجد واجبروا قبائل برمتها على التنازل عن أراضيها مقابل أثمان رمزية وسلموا الجميع الى شركات ايطالية تستصلحها وتوزعها على الفلاحين القادمين من ايطاليا ، وفى سنة 1938 أجبروا العرب على التجنس بالجنسية الايطالية ، فلم يقبل على التجنس الا قلة من صغار الموظفين خابت آمالهم فى النهاية لأن المستعمرين ظلوا يعاملونهم معاملة سيئة .

أما الحريات والحقوق فلم يكن يتمتع بها فى العهد الفاشيستى الايطالى الأصيل فأحرى العربى المستعبد ، وقد كان ممنوعاً على الليبيين أن يجلسوا فى مقهى ايطالى ، أو يركبوا عربة يسوقها ايطالى أو فى الدرجة الأولى بسيارة عمومية ، كما لم يكن فى مقدورهم أن يعلموا أبناءهم ، وكانت المدارس الابتدائية القليلة التى أنشأوها مشوهة البرامج ، وكانت الجغرافيا قاصرة على

ايطاليا ومستعمراتها ، أما التاريخ الليبي فقد بتروه واختصروه فكان التلميذ ينتقل فجأة من نهاية الحكم الروماني لليبيا في أوائل القرن الخامس الى بداية الحكم الايطالي في أوائل القرن العشرين ، وكانت جميع القوانين الايطالية تنفذ في ليبيا كما كانت اللغة الايطالية هي وحدها لغة التعامل في المؤسسات الرسمية وغيرها .

وقد شاءت العناية الربانية أن تضع حداً لآلام الشعب الليبي عندما أعلنت الحرب العظمى الثانية وانضمت ايطاليا رسمياً الى المعسكر الألماني في يونيو سنة 1940 فقد جند الليبيون المقيمون بالخارج قوة تتركب من 14.000 جندي قاتلت الى جانب الحلفاء تحت قيادة الأمير محمد ادريس السنوسي ، ولما دخلت سنة 1943 كانت جميع الأراضي الليبية قد طهرت تماماً من قوات المحور (المانيا ــ ايطاليا) وأصبحت القوات الانجليزية مسيطرة على اقليمي طرابلس وبرقة ، والقوات الفرنسية مسيطرة على اقليم فزان ، وحل الحكام العسكريون الانكليز والفرنسيون في الادارة مستعينين ببعض الموظفين الايطاليين والليبيين ، فتنفس أهل البلاد الصعداء ، وعاد الى ليبيا كثير من أبنائها المهاجرين وبدءوا يسهمون في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعاد الى القومية العربية شيء من الاعتبار .

وفي سنة 1948 تألف حزب المؤتمر الوطني وقدم الى الدول الأربعة الكبيرة التي كسبت الحرب (الولايات المتحدة ــ الاتحاد السوفياتي ــ انكلترا ــ فرنسا) مذكرة باسم الأمة الليبية يطالب فيها بتنفيذ وعودها المبذولة اثناء الحرب بمنح ليبيا حريتها واستقلالها ، ولما أحس الشعب الليبي بان الحلفاء لا يهتمون بقضيته كثيراً قامت مظاهرات صاخبة في طول البلاد وعرضها، وفي سنة 1947 قرر وكلاء وزراء خارجية الدول الأربع المجتمعون بباريس للنظر في مصير المستعمرات الايطالية ارسال لجنة تحقيق لمعرفة أماني أهل تلك المستعمرات ، ووصلت هذه اللجنة الى طرابلس يوم 8 مارس 1948 وزارت أقاليم ليبيا الثلاثة واستمعت الى القادة وممثلي الأحزاب الوطنية ، ثم قدمت تقريرها في شهر يوليوز الى مجلس الوكلاء الذي فشل في ايجاد حل فتقرر احالة الموضوع الى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكانت مفاوضات سرية

تدور يومئذ بين بريطانيا وايطاليا صدر على اثرها مشروع بيفن ـ سفورزا الذى يقضى بوضع اقليم طرابلس تحت وصاية ايطاليا واقليم فزان تحت وصاية فرنسا ومنح اقليم برقة حكماً ذاتياً تحت الوصاية الانكليزية ، ولكن شعب ليبيا عبر عن سخطه على هذا المشروع بمظاهرات صاخبة ، وارسل وفداً الى منظمة الأمم المتحدة للدفاع عن وجهة نظره ، فرفضت هذه المشروع يوم 15 شتنبر 1948 وقررت تاليف مجلس استشارى لمساعدة أهل ليبيا على وضع دستور واقامة حكومة مستقلة تنقل السلط اليها .

ورغم موقف بريطانيا وفرنسا المشين من قرار الأمم المتحدة الخاص باستقــلال ليبيا ووحدة ترابهــا عينت الأمم المتحدة السيد أدريــان بلت الهولاندى مندوباً عنها فى ليبيا ، فتسلم منصبه رسمياً يوم فاتح يناير 1950 وبدأ اتصالاته بالهيآت السياسية فى طرابلس وبرقة وفزان وزار مقر الجامعة العربية بالقاهرة وممثل المهاجرين الليبيين بالخارج ، ثم قرر المجلس الليبى الدولى اجراء انتخابات محلية فى برقة وطرابلس وانتخاب مجلس وطني عام 1950 وتاليف حكومة مؤقتة واعلان الدستور فى سنة 1951 وتسليم السلط التى تمسك بها فرنسا وبريطانيا الى الحكومة الجديدة قبل فاتح سنة 1952 ، وفى صباح يوم 24 دجنبر أعلن الملك محمد ادريس السنوسى استقلال المملكة الليبية المتحدة ، كما قابل رئيس الوزراء فى مساء ذلك اليوم مندوب الأمم المتحدة وسلمه رسالة تتضمن اخبار الأمم المتحدة بأن ليبيا أصبحت مملكة مستقلة وطلب قبولها فى حضيرتها وحضيرة الهيآت الدولية الأخرى .

واقبلت الدولة الجديدة على نفسها تضمد جروحها وتستعيد قوتها بعد ما قضت قروناً فى محن تتواصل وعذاب لا ينقطع ، ولقيت فى البدايــة صعوبات لا حصر لها اذ كان عليها أن تبدأ كل شيء من العدم ، فلم تكن لها ثروات طبيعية مهمة تسدد منها نفقاتها ولا لأبنائها خبرة واسعــة بشؤون الادارة ومتطلبات الحياة الجديدة ، يضاف الى ذلك انها بقيت عرضة للتهديد الاستعمارى اذ احتفظت بريطانيا والولايات المتحدة ببعض القواعد والمطارات كما أن الدول التي تتاخمها جنوباً وغرباً لم تكن تحررت من السيطرة الاستعمارية، ولكن ليبيا عرفت كيف تصمد للأعاصير تحت قيادة ملكها وبفضل حكمــة

شعبها ، وقد انفرجت ضائقتها المالية بعد اكتشاف البترول بها والشروع فى استغلاله تجارياً ابتداء من سنة 1959 (33) فامتلأ بيت مالها وارتفع دخل أهلها ودبت فيها حركة جديدة وهى الآن بصدد انجاز عدد من المشاريع العمرانية والصناعية والثقافية ستعود عليها بالخير الوفير والرخاء العميم ، وقد جنحت فى السنين الأخيرة الى تقوية روابطها السياسية والاقتصادية بدول المغرب العربى التى تتمتع بالاستقرار بعد ما عاينت التقلبات التى لم تفتأ تتعرض لها النظم والسياسة فى أقطار المشرق العربى ، وهى فى كل حالة تقف الى جانب الحق وتدافع بحرارة عن قضايا العرب والمسلمين فى كل مكان وتتمسك بمبادىء الشرف والاخلاق .

المغرب الأقصى فى العصر الحديث

لم يستفد المغرب كثيراً من مزايا التقدم المادى الذى حققته أوربا فى عصر نهضتها رغم أن المسافة الفاصلة بينه وبينها لا تتجاوز فى أضيق مكان 17 كلم ، ويرجع السبب فى ذلك الى جو الريبة والحذر الذى كان يسود علاقاتهما باستمرار ، فقد دام الصراع بينه وبين بعض دولها قروناً طوالا فوق الميادين الأندلسية أولا ، ثم فوق التراب المغربى ثانياً بعد ما استصفى النصارى مملكة غرناطة فى نهاية القرن الخامس عشر ونقلوا الحرب الى الشواطىء المغربية ، الأمر الذى كان يجعل أى تعاون فى العلم أو تبادل فى الخبرة بين المغرب المسلم وأوربا النصرانية من قبيل المستحيل .

وقد قيض الله للمغرب فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ملوك الدولة العلوية ليجمعوا شتاته ويحفظوا وحدته ويستردوا مراسيه ، وهم شرفاء من آل البيت الطاهر هاجروا الى المغرب من ينبوع النخل واستقروا بسجلماسة وعاشوا معززين مكرمين أربعة قرون قبل أن يقتعدوا أريكة الملك ، وقد نجح

33) احتلت ليبيا سنة 1967 المرتبة السابعة فى العالم بين البلدان المنتجة للبترول ، اذ بلغ انتاجها منه فى تلك السنة 5 ،83 مليون طن ، كما قفز انتاجها من الغاز الطبيعى من 120 مليون متر مكعب سنة 1961 الى 10 ملايير و 429 مليون متر مكعب سنة 1969 ومن المقدر أن يتجاوز انتاج البترول فى ليبيا 100 مليون طن سنة 1968 .

منهم السلطان الجليل مولاى اسماعيل ابن الشريف فى استرجاع المعمورة (1681) وطنجة (1684) والعرائش (1689) وأصيلة (1691) كما نجح حفيده السلطان سيدى محمد بن عبد الله فى استرجاع الجديدة (1769) وكادا معا يوفقان فى استرجاع بقية المراسى والجيوب لولا شروع الدولة الاسبانيـة المحتلة في ادخال التنظيمات العصرية على قواتها وتزويدها بأحدث الأسلحة المصنوعة في بلادها أو المستوردة من الدول التي سبقتها فى مجالات العلم والاختـــراع .

ولما شرعت فرنسا في احتلال الجزائر (1830 ـ 1246 هـ) وقف المغرب موقفاً مشرفاً وهب لنجدة جارته والدفاع عن حريتها ، وأرسل قوات عسكرية الى تلمسان وأنشأ ادارة فى أقاليم الجزائر الغربية خلفت الادارة التركية المنهارة ، ثم اضطر الى سحب قواته وادارته تحت ضغط فرنسا الحربى والديبلوماسي ولكنه ساعد على تكوين حركة المقاومة في الجهات الغربية تحت قيادة الأمير عبد القادر بن محيى الدين الادريسى وأمدها بالمال والرجال والسلاح والميرة ، كما تزعم واحد من أبنائه (بومعزة) حركة المقاومة بجبال زواوة التى عملت فى البداية مستقلة عن حركة الأمير عبد القادر ثم بالاتفاق معه فـى النهاية ، وكان الأمير عبد القادر يدين بالطاعة لسلطان المغرب ويخطب باسمه على جميع منابر المناطق الخاضعة له ، واستمر التعاون وثيقاً بين المغاربة والجزائريين على قتال الفرنسيين حتى استولى هؤلاء على معسكر الأمير عبد القادر سنة 1843 فاضطر الأمير الى نقل حركته الى داخل المغرب والهجوم منه على قواعد جيش الاحتلال بالمغرب الأوسط .

واتصل المرشال بيجو الوالى الفرنسى والقائد العام للقوات الفرنسية بعامل وجدة وطلب منه ابلاغ الحكومة المغربية رغبة فرنسا فى طرد الأمير عبد القادر واحترام خط الحدود التقليدى الذى هو مجرى نهر تافنا ، ولكن السلطان مولاى عبد الرحمان رفض التخلى عن حركة المقاومة الجزائريـة ، فاجتاز المرشال بيجو وادى تافنا على رأس جنوده واحتل مدينة وجدة ثـم انسحب منها ولكنه خلف حاميتين فرنسيتين داخل التراب المغربى احداهما

بالغزوات والأخرى قرب ضريح الحاجة للا مغنية ، وبدأ الجنود الفرنسيون يتحرشون بالقبائل وبالقوات المغربية النظامية ، فعد السلطان تصرفات الفرنسيين انتهاكاً لحرمة مملكته وتعدياً على سيادتها وشرع يعبيء قواه لمجابهة العدوان الفرنسي ، وبينما بدأت جيوش المغرب تسير نحو الشرق جاء الأسطول الفرنسي الى شواطئه الغربية تحت قيادة الأمير دوجوانفيل وقنبل مرسى طنجة ومرسى الصويرة واحتل الجزيرة الواقعة أمامها ، وعلى مقربة من وجدة في وادي يسلي هزم الجيش الفرنسي القوات المغربية خلال معركة قصيرة استمرت من الساعة الثامنة صباحاً الى الزوال من يوم 13 غشت 1844 فاضطر المغرب الى التوقيع على معاهدة صلح بطنجة يوم 10 شتنبر ، ثم الى عقد اتفاقية حدود بللا مغنية يوم 18 مارس 1845 أفقدته طرفاً مهماً من أراضيه الشرقية .

كان لهزيمة يسلي عواقب وخيمة تكبدها المغرب في الحين وما زال يتجرع مرارتها حتى الآن ، فقد ذهبت بهيبته وأطمعت فيه من جديد دولا كانت تحذره منذ هزم البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة 1578 فأمسكت الدول البحرية عن دفع الاتاوة التي كانت تؤديها له سنوياً تاميناً لخطوط ملاحتها وسارعت اسبانيا الى احتلال جزائر ملوية الواقعة أمام ساحله المتوسطي ، أما فرنسا التي أحرزت النصر في المعركة فقد أصبحت لا تدع فرصة تمر دون أن تغتنمها لتوسيع مستعمرتها الجزائرية على حساب أقاليمه ، ولكن الهزيمة فتحت أعين طائفة من مفكري المغرب على مدى التقدم الذي أحرزته الدول الأوربية في مضمار العلم والاختراع ، وجدوى الضبط والنظام ، ونمت شعورها بضرورة الأخذ بالأساليب الحديثة في الادارة والجيش ، فتعالت صيحاتها بتجديد النظم الاقتصادية والمالية والعسكرية واصلاح الجهاز الاداري حتى يمكن مواجهة الغزو الأوربي وتحسين حالة الأمة المغربية ، ومن الانصاف الاقرار بأن تلك الصيحات لم يكن لها صدى كبير في المغرب الذي كان أهله يغطون يومئذ في سبات عميق ، ويرون طريق النجاة في الاتباع والتقليد ، ويشكون بالتالي في كل شيء يرد من أوربا ويحسبون التشبه بالنصارى كفراً ولو كانت الأمور المتشبه فيها بعيدة عن الدين .

ولم يكد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كان التنافس على المغرب بلغ أشده بين فرنسا واسبانيا سواء في الشمال حيث الجزائر ومليلية وسبتة ، أو في أقصى الجنوب الغربي حيث الجزر الخالدات والمراكـز الفرنسيـة بالسنيغال ، بينما كانت انجلترا تقف موقف اليقظ الحذر ، لأن كل تغيير في وضعية الضفة الافريقية لمضيق جبل طارق كان يهمها كثيراً .

ولما توفي السلطان مولاى عبد الرحمان سنة 1859 (1276) شرعت اسبانيا في تنفيذ مخططها الخاص بالمغرب ، فاتخذت من وقوع حادثة بسيطة بحدود مدينة سبتة التي تحتلها ذريعة لتوجيه حملة تجريدية الى المغرب تحت قيادة الخنرال أودونيل ، والخنرال بريم ، وقد نجحت الحملـة التي كانت تشتمل على 50.000 جندى والتي كانت معززة بالأسطول في احتلال مدينـة تطوان يوم 5 يبراير 1860 وبدأت تستعد للزحف على طنجة ، فاضطر المغرب ــ بعد توسط انكلترا ــ الى قبول شروط صلح مهينة فرضت عليه أن يتخـلى لاسبانيا عن بعض أراضيه المجاورة لسبتة وأراضى أخرى بالجنوب تنشىء بها مصايد أسماك (34) وأداء غرامة حربية مبلغها 20.000.000 ريال ، والسماح لمندوبين اسبانيين بمراقبة المراسي المغربية مع شروط وامتيازات اقتصادية وسياسية أخرى لصالح اسبانيا ، وكانت هزيمة تطوان نكبة لا تقل فداحة ووخامة عواقب عن نكبة يسلي .

ولم يكن للسلطان سيدى محمد بن عبد الرحمان (محمد الرابع) بد بعد النكبات المتوالية من تجديد الادارة واعادة تنظيم الجيش وفسح المجال أمام الشبان المغاربة ليتعلموا من العلوم والفنون ما انمحا عينه واثره بالمملكة منذ أمد طويل ، وكانت له محاولات في هذا الموضوع أيام خلافته عن والده بفاس ، فأنشأ مدرسة المهندسين بفاس لتدريس العلوم العقلية كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، وأخرى للترجمة ، ووجه أولى البعثات العلمية الى أوربا والشرق ، وشرع في تنظيم الجيش على الطرق الحديثة وأمر بتأليف الكتب العسكرية وترجمتها لافادة ضباطه منها ، وأسس مطبعة حجرية وجلب

34) هي أصل مستعمرة يفني الحالية .

كثيراً من الآلات الحديثة من أوربا الى المغرب ، ولكن تلك الجهود كانت تبذل من جهة في حذر وبطيء نظراً لتخلف المغاربة الفكرى وضائقة الدولة المالية ، وكان من المستحيل عليها — من جهة ثانية — أن تختصر الابعاد وتقرب المسافات بين أوربا منطلقة كالعملاق في طريق النمو الصناعي والعلمي وبين مغرب يحبو في مجال التطور حبو الرضيع ، وهكذا أمعنت الدولتان المجاورتان للمغرب — فرنسا واسبانيا — في غلوائهما وسارتا أشواطاً أخرى في احتلال أجزاء مهمة من شرق المغرب وجنوبه الشرقي وجنوبه الغربي ، بينما أعطتا للمعاهدات السياسية المعقودة مع الدول الأوربية تأويلات تناسب منطق القوى ، فمن محاكم تنشأ بالقنصليات الى « حمايات » تمنح بغير حساب لكل مارق من الوطنيين ، ومن عقارات تشرى بكل حرية الى بعثات تبشيرية تستقدم وكنائس تشاد بالرغم عن عواطف المسلمين ، ولم تشذ انكلترا هذه المرة عن القاعدة ، فقد امتدت يداها الى جزيرة المعدنوس المحاذية لشاطيء المغرب بمضيق جبل طارق وجزيرة طرفاية الواقعة باقليم الساقية الحمراء (35) جنوبي وادى درعة ، وهكذا لم يمت السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمان حتى كان المغرب يرزح تحت نير (الامتيازات الأجنبية) ويرسف في أغلال نظام الاستسلام Le Régime de Capitulation .

وواصل السلطان مولاى الحسن الأول (1873 — 1894) الاصلاحات التى بدأها والده السلطان محمد الرابع ، فبعدما قمع المتمردين ومهد الأمن في طول البلاد وعرضها وأرجع للدولة هيبتها اهتم بتنظيم الدولة وادخال الاصلاحات الكفيلة بايقاظ المغرب من سباته واقالته من عثرته ، فأسس تحت رئاسة الصدر الأعظم حكومة ذات وزارات متعددة تختص كل واحدة منها بمرفق من مرافق الدولة ، ووجه البعثات تلو الأخرى الى الدول الأوربية لتعلم مختلف العلوم والتمرس بالحرف والتدرب على الفنون العسكرية ، وأسس قوات حربية جلب لتنظيمها وتدريبها عدداً من الضباط (الحرابين) الأوربيين وجهزها

35) أخلا الانكليز طرفاية عقب حركة السلطان مولاى الحسن الاول لسوس سنة 1886 ثم عقدوا معه اتفاقية سلموها له بموجبها رسمياً ، فتمت استعادتها بعد وفاته بقليل على عهد خلفه السلطان مولاى عبد العزيز ، وفى الاتفاقية المذكورة النص على ان حدود المغرب تبتدىء من رأس بوخادور الواقع اليوم في تراب اقليم وادى الذهب الذى تحتله اسبانيا .

بمختلف أنواع الأسلحة وحصن الثغور وجدد الاسطول وأنشأ مصنعاً حربياً (دار السلاح) بفاس لصنع المدافع والبنادق والذخيرة ، وأحدث البريد وضرب السكة وساوى بين الدول في التعامل وقوى الروابط التي تصل المغرب بها بايفاد السفراء اليها وقبول السفراء المعتمدين من طرفها لديه ، كما نمى التبادل التجارى معها وساهم في معارضها بعرض الانتاج المغربي فيها ، والحقيقة ان هذا السلطان كان من كبار ملوك الاسلام المصلحين ، وان حزمه وسياسته الحكيمة واصلاحاته أخرت الاحتلال الأوربي للمغرب عشرات السنين.

وبفضل سياسة الاعتدال وعدم الانحياز التي كان يسلكها حيال الدول أمكن للسلطان مولاى الحسن الأول أن يجمع في مدريد 1880 مؤتمراً دولياً حضرته كل من ألمانيا والنمسا وبلجيكا والدانمرك واسبانيا وانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا وهولاندة والبرتغال والسويد والنرويج رغم معارضة فرنسا الشديدة ومناوراتها العديدة ، وكان الغرض منه وضع ضابط للحماية التي يمنحها القناصل الأجانب للمغاربة والمحاكم التي ينشؤونها بقنصلياتهم ، وبمقتضى الاتفاقية التي أمضيت في يوليوز بالعاصمة الاسبانية ، والاتفاقية الأخرى التي وقعت بطنجة في مايو سنة 1881 وضع ضابط تسير الدول الأجنبية وفقه وتتساوى ازاءه ، وبذلك لم تبق فرنسا واسبانيا وانكلترا وحدها في الميدان .

على ان اتفاقية مدريد لسنة 1880 اذا ضبطت قضايا الحماية والمحاكم القنصلية فانها لم تضبط أطماع فرنسا في احتلال المغرب ولم تضع حداً لتوغلها التدريجي فيه ، فبعد ما قضت فترة من الزمن في تضميد جروحها واصلاح أحوالها عقب هزيمتها في حرب السبعين أمام القوات الألمانية رسمت خطة لاحتلال أقاليم توات وتيديكلت وبشار وشنكيط (موريطا) كخطوة تمهيدية لاحتلال المملكة المغربية بأجمعها ، وقد وجدت في البداية تشجيعاً من الدولة الألمانية التي كانت تريد صرفها عن الميادين الأوربية الى الميادين الافريقية والآسيوية وتلهيتها بأراض تمتلكها في الخارج عن الأراضي التي فقدتها في الداخل ، كما ألهب فيها جذوة الحماس الاستعمارى نجاحها في

احتلال تونس سنة 1881 فتاقت لتكميل احتلال الشمال الافريقي كله ووصله بمستعمراتها في افريقيا الغربية التي ما فتئت تتسع ، وهكذا تأزم الوضع بين المغرب وفرنسا بشأن توات وبشار وتيديكلت في آخر أيام السلطان مولاي الحسن الأول الى ان تمكنت فرنسا من تنفيذ مخططها الاستعماري على عهد السلطان مولاي عبد العزيز عند ما احتل جنودها قرية عين صالح يوم 30 دجنبر 1899 (26 شعبان 1317 هـ) وتيميمون يوم 26 يناير 1900 وبقية قصور توات وقراه في الشهور الموالية ، وألحقت قبائل **العمور** الغرابة و **حميان** الجنبة و **بني ونيف** وجبال **بني سمير** بمقاطعة عين الصفراء ، وأصبح خط الحدود ملاصقاً لأسوار فكيك وايش .

ومن الطبيعي أن يلفت هذا الاحتلال أنظار الدول التي تنافس فرنسا في المغرب ، وهي اسبانيا وانكلترا بالدرجة الأولى والمانيا وايطاليا بالدرجة الثانية ، ولكي تتجنب فرنسا أي ضغط دولي يحول دون تحقيق مآربها قررت انتهاج سياسة ذات شعبتين احداهما خاصة بالمغرب نفسه ، والثانية تتعلق بالدول التي تنافسها فيه .

اما خطتها حيال المغرب فكانت تتلخص في انشاء جهاز دعاية قوى لها داخله وشراء الضمائر ونشر الفوضى فيه ، ولهذا الغرض أنشأت بطنجة عدداً من الجرائد والمجلات من أشهرها جريدة (**السعادة**) باللغة العربية وجريدة (**الديبش مروكان**) باللغة الفرنسية استقدمت لتحريرها عدداً من أبنائها المستعربين واجرائها اللبنانيين والجزائريين ، كما منحت حمايتها القنصلية بدون حساب لكل من طلبها من الرعايا المغاربة منغير احترام لاتفاقية مدريد ، وبدأت تستدرج الوزراء والعمال والأعيان الى خدمة مصالحها بتقديم الهدايا النفيسة والمخترعات الغريبة اليهم ، وأصبح كل ثائر على المخزن يحصل بسهولة لدى باعة السلاح بالجزائر وضباط الجيش الفرنسي فيها على كل ما يرغب في الحصول عليه من سلاح وذخيرة ، ومن أشهر هاؤلاء الثوار الجيلالي اليوسفي الزرهوني المعروف ببوحمارة الذي تلقى توجيهاته بجنوب الجزائر قبل أن يثور على السلطة الشرعية ويتخذ له حكومة وزير خارجيتها فرنسيووزير حربيتها ضابط صف جزائري !

واما خطتها حيال الدول المنافسة لها فكانت تتلخص في التفاهم معها على توزيع الغنائم الاستعمارية ، وقد أجرى وزير خارجيتها ديلكاسي مفاوضات سرية مع تلك الدول كلل جلها بالنجاح ، ففي سنة 1900 امضت فرنسا وايطاليا اتفاقاً سرياً أطلقت بموجبه يد الأولى في المغرب ويد الثانية في طرابلس الغرب، وفي 8 أبريل 1904 أمضت فرنسا وانكلترا (الاتفاق الودي) المتعلق بالمغرب ومصر ، وفي 3 أكتوبر 1904 أمضيت بين فرنسا واسبانيا الاتفاقية السرية المتعلقة بتقسيم المغرب .

وقد أثمرت سياستها الخاصة بالمغرب ثمراتها المنشودة ، فبالاضافة الى ثورة (أبي حمارة) المشار اليها آنفاً كثر الثوار بالمغرب والاعتداءات الفرنسية بالحدود الشرقية، فأوفد السلطان وزير خارجيته السيد عبد الكريم بن سليمان الى باريس لمفاوضة الفرنسيين بشأن تنظيم البوليس والديوانة والأسواق المشتركة بالحدود ، وعقد معهم اتفاقاً في 20 يوليوز 1901 كمل باتفاق 20 أبريل واتفاق 7 مايو 1902 وفي الحين أولت فرنسا الأوفاق تأويلا سيئاً فالحقت بمستعمرتها الجزائرية قبيلتي **أولاد جرير و ذوي منيع** المغربيتين ، ثم ضمت اليها مدينة بشار وناحيتها خرقاً لنصوص الاتفاقيات الصريحة ، وبادر ضباطها فسموا تلك الناحية (كولومب — بشار) تخليداً لاسم أحد ضباطهم الاستعماريين ولما قامت ضجة في البرلمان الفرنسي ضد هذا العمل اجابت الحكومة الفرنسية انها انما احتلت (كولومب) ولم تحتل بشار ! وفي أقصى الجنوب عبرت قوات فرنسية بقيادة الضابط كسافيي كابولاني نهر السنيغال وأخذت تتقدم نحو الشمال ، ومع انها تغلبت في البداية على مقاومة قبيلة **البراكنة** واحتلت قرية تيجيكجة فان أهل تلك المنطقة النائية كروا عليها في النهاية وفتكوا بها وقتلوا قائدها سنة 1905 وأوقفوا الزحف الفرنسي الى حين .

وازدادت الحالة ارتباكاً اثر هذه الاتفاقيات والاعتداءات ، وأصبح الخرق أكبر من أن يرتقه المخزن ، وقلت موارد بيت المال نتيجة الفوضى السائدة فاضطر المغرب الى استسلاف 62.500.000 فرنك من فرنسا فاشتطرت هذه وضع المراسي المغربية تحت مراقبتها فقبل المغرب ذلك كما قبل اسناد تدريب الجيش المغربي الى ضباط فرنسيين وتنظيم البريد والتلغراف التي

فنيين فرنسيين ، فغاظ هذا النمو المطرد للنفوذ الفرنسي في المغرب شعبه كما غاظ الدولة الألمانية ، فزار امبراطورها غليوم الثاني طنجة يوم 31 مارس 1905 وصرح تصريحات شجعت الحكومة المغربية على الدعوة الى عقد مؤتمر دولي لتحديد علاقات الدول الأجنبية بالمغرب والنظر في ادخال الاصلاحات اللازمة اليه ، ورغم اعتراض فرنسا في الأول على عقد هذا المؤتمر قبلت أخيراً أن تحضره ، وانعقد المؤتمر بمدينة الجزيرة الخضراء من أرض اسبانيا يوم 15 يناير 1906 بحضور ممثلي السلطان وممثلي 15 دولة أجنبية وأسفرت مداولاته عن توقيع عقد يوم 7 أبريل 1906 يقوم على ثلاثة مبادىء أساسيـة :

1) استقلال السلطان .
2) وحدة تراب مملكته .
3) تساوي الدول في التعامل الاقتصادي معه ، وينص على عدد من الاصلاحات كاحداث بنك مغربي ، وتنظيم الشرطة الخ .

ومن الواضح ان عقد الجزيرة الخضراء قضى على استئثار فرنسا بالشؤون المغربية ووضع حداً للامتيازات التي حصلت عليها فيه ، وأنه كان يصلح — في ذلك الوقت — لأن يكون نقطة انطلاق نحو ادخال اصلاحات نافعة وتنظيمات عصرية تحسن الأوضاع وتقضي على الكثير من الفساد ، ولكن تذمراً قوياً ساد جميع الأوساط ضده وكثر التعدي على الأوربيين ، فاغتنمت فرنسا قتل بعض رعاياها بمراكش والدار البيضاء فاحتلت منفردة وجدة يوم 29 مارس 1907 واحتلت بالاشتراك مع اسبانيا الدار البيضاء يوم 5 غشت من نفس السنة ، بينما توغلت قواتها المرابطة بافريقيا الغربية في جنوب المغرب تحت قيادة الكولونيل كورو فاحتلت أدرار سنة 1908 .

ومما زاد الطين بلة ثورة المولى عبد الحفيظ بن الحسن الخليفة الملكي بمراكش على أخيه السلطان عبد العزيز بعد مرور اسبوع على احتلال الدار البيضاء (16 غشت) ونشوب حرب أهلية بين الأخوين دامت سنة ونصفاً وانتهت بانتصار المولى عبد الحفيظ ، ولكن الدول الأجنبية لم تعترف به يوم 5 يناير 1909 حتى اعترف بجميع التزامات أخيه السابقة وتعهد بتنفيذها مع أنها كانت

احدى اسباب ثورته ، وهكذا وجد السلطان الجديد فى وضع أسوأ من وضع سلفه ، اذ كانت الجيوش الفرنسية استولت على شرق المغرب الى نهر ملوية ، ووسعت مناطق احتلالها فى **الشاوية** حتى بلغت نهر أم الربيع ووادى الشراط كما شرعت اسبانيا فى احتلال المناطق المحيطة بمليلية ، ومع ان السلطان المولى عبد الحفيظ تمكن من اخماد ثورة أبى حمارة فان قبائل قوية قريبة من العاصمة ثارت عليه بسعايات بعض شيوخ الطرق وتحريض عملاء فرنسا وحاصرته فى قصره ، فلم ير بدأ من الاستنجاد بجيش الاحتلال الذى سارع الى نجدته بقيادة الجنرال موانيى واحتل فاس يوم 21 مايو سنة 1911 ثم اتفقت فرنسا وألمانيا يوم 4 نونبر من نفس السنة على التسليم للأولى فى المغرب مقابل منح الثانية تعويضات ترابية فى الكونغو ، واذ ذاك أملت فرنسا على المغرب معاهدة حماية وقعها السلطان المولى عبد الحفيظ والسفير الفرنسى رينيو يوم 30 مارس 1912 (11 ربيع الثانى 1330 هـ) .

حافظت المعاهدة الممضاة على كيان المغرب الدولى ونفوذ السلطان الدينى والدنيوى ، ولكنها انتقصت كثيراً من السلط التــى كانت تمارسهـا حكومته من قبل كالديبلوماسية والأمن والدفاع ، وأباحت لفرنسا أن تحتل من التراب المغربى ما تشاء ووكلت اليها ادخال ما تراه مفيداً من الاصلاحـات الادارية والقضائية والتعليمية والاقتصادية والمالية والعسكرية ، كما أذنت لها بالتفاوض مع الحكومة الاسبانية فى شأن المصالح التى تخصهـا بسبب موقعها الجغرافى أو ممتلكاتها على الشاطىء المغربى، والاحتفاظ لمدينة طنجة بصبغة خاصة ، وهكذا فقد المغرب بجرة قلم وبصورة ذات شكل قانونى استقلاله الذى حافظ عليه فى ظل الاسلام مدة ثلاثة عشر قرنا ، ولكن هيهات هيهات أن يعترف شعبه الأبى بالوضع المزرى الجديد ، فما كاد خبر توقيع معاهدة الحماية يشيع حتى ثار الجيش الوطنى بالعاصمة يوم 17 ابريل 1912 على مدربيه الفرنسيين وفتك بهم بمساعدة الأهالى واضطرت فرنسا لتجريد حملة عسكرية قوية لاخماد الثورة ، وعينت الجنرال ليوطى المشهور بمهارته العسكرية والديبلوماسية مندوباً مقيماً عاماً بالمغرب ، فجاء وشرع ضباط الحماية وموظفوها فى التصرف تصرف الغالب المنتصر ، فلم ير السلطان المولى عبد الحفيظ بدأ من التنازل عن

العرش ، فبويع أخوه السلطان مولاى يوسف يوم 14 غشت 1912 (29 شعبان 1330) وانتقمت فرنسا من فاس العاصمة الثائرة فنقلت المصالح الحكومية والادارية منها الى الرباط .

وشرعت فرنسا اثر قمع ثورة الجيش الوطنى فى تنظيم المغرب على الطريقة التونسية مستعينة بضباطها وخبرائها الأفارقة الذين سبق لهم العمل بالمستعمرات ولاسيما بالجزائر وتونس ، فعقدت مع اسبانيا اتفاقية 27 نونبر 1912 التى أصبح المغرب بمقتضاها مقسماً الى منطقة حماية فرنسية ومنطقة حماية اسبانية (36) ومنطقة ادارة دولية (37) وأحدثت حكومة صورية تتركب تحت مراقبة مستشار فرنسى من صدر أعظم ووزيرين للعدليــة والأوقــاف ، وحكومة حقيقية تتركب تحت نظر المقيم الفرنسى العام من مديرين فرنسيين ، وقسمت البلاد تقسيماً ادارياً غريباً ، الى نواحى مدنية وأخــرى عسكريــة ، ومناطق أمن ومناطق خوف ، وانتصب المراقبون والضباط الفرنسيون فى كل مكان تمكنوا من احتلاله يحكمون البلاد يساعدهم فيما يخص شؤون الأهالى باشاوات بالمدن وقواد بالأرياف ، وطبقت القوانين والنظم الفرنسية على نطاق واسع ، واحتكر المستوطنون الفرنسيون التجارة والصناعة وسائر مرافــق الاقتصاد ، بينما سلمت لطائفة منهم يسمون المعمرين أجود الأراضى الفلاحية بعد استصلاحها لاستثمارها .

وحذت اسبانيا حذو فرنسا فيما يخص تنظيم وسبنلة منطقتها .

اما الشعب المغربى فانه استمات بكل مكان فى الدفاع عن حريتــه ومقاومة الغاصب المحتل ، وبهر الفرنسيين والاسبانيين والعالم أجمع بايمانه وصبره وشجاعته وما حقق من الانتصارات العظيمة رغم ضعفه المادى ولاسيما اثناء حرب **الريف** مما يستدعى الكلام عليه بتفصيل مجلدات طويلة ، ولم يلق السلاح الا سنة 1934 عندما احتلت فرنسا واسبانيا أقاليمه الجنوبية بعدما قضى 27 سنة فى كفاح مرير متواصل كلفه عشرات الألوف من الضحايا والشهداء .

---

36) كانت منطقة الحماية الاسبانية تشتمل على قسم يمتد من نهر ملوية الى المحيط الأطلسى على شاطىء البحر المتوسط ، وقسم جنوبى يمتد جنوبى وادى درعة من الدرجة الطولية 11 غربى كرينوتش الى المحيط الأطلسى ، أما اقليما الساقية الحمراء والداخلة (وادى الذهب) وقطاع سيدى يفنى فقد وافقت فرنسا اسبانيا على اعتبارها مستعمرات اسبانية .

37) هى منطقة طنجة التى حل محلها اقليم طنجة الحالى البالغة مساحته 334 كلم مربع .

ولكن قبل ان تتمكن فرنسا من اخماد انفاس النضال المسلح نشأت في البلاد حركة وطنية سياسية تشكلت في البداية بشكل ديني سلفي ، وكانت تقوم على اكتاف جماعة من العلماء المخلصين والأعيان المتنورين والشبان المثقفين المتحمسين الذين تأثروا كثيراً بالأفكار الاصلاحية التي كان يبثها كبار المصلحين المسلمين المعاصرين أمثال الأمير شكيب أرسلان والشيخ رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربي ، وقد عبرت هذه الحركة عن وجودها وقوة تأثيرها أكبر تعبير حين قامت مظاهرات عنيفة في كثير من مدن المغرب وأريافه اثر استصدار فرنسا للظهير المؤرخ في 16 مايو 1930 الذي يمنع الحكم بالشريعة الاسلامية في القبائل المسلمة التي يتكلم أهلها اللهجات البربرية ، وينشيء لها محاكم عرفية تستأنف أحكامها لدى المحاكم الفرنسية ، وتحولت الحركة الوطنية بعد تلك المظاهرات من شكلها الديني السلفي المحض الى شكلها الجديد ذي الطابع السياسي — الديني المزدوج .

وكان من حسن حظ المغرب يومئذ أن تولى ملكه (18 نونبر 1927) أمير شاب ممتلىء ايماناً وحمية واخلاصاً ، هو صاحب الجلالة السلطان **سيدي محمد بن يوسف** الذي أصبح يعرف بعد استرجاع الاستقلال بالملك **محمد الخامس** ، فقد أخذ بضبع الحركة السياسية وشجع مسيريها وقدم لهم مختلف المساعدات ، كما عملّ جاهداً في النطاق الذي كانت الحماية تسمح بالعمل فيه على تنمية الوعي وتيسير سبل العلم والثقافة على الشبان ، فأسست المدارس العربية الحرة وجددت نظم جامعة القرويين والمعاهد الدينية وحوربت الطرق الصوفية المنحرفة ومنعت من ممارسة بدعها ، وأنشئت المطابع ونشرت الكتب التاريخية والدواوين الشعرية التي تذكر بأمجاد الماضي وتعبر عن مطامح المستقبل ، ولم يمض الا وقت قصير على قضية الظهير البربري حتى أصبح الوطنيون السياسيون يعملون داخل اطار حزب سياسي أطلق عليه اسم (**كتلة العمل الوطني**) أنشئت له شعب في مختلف أطراف البلاد وانضم اليه كل غيور مخلص من الشبان الناهضين والكهول والشيوخ التائقين الى رؤية وطنهم يكسر أغلال العبودية ويعود سيرته الأولى قوياً عزيزاً مكرماً .

ولما كان محرماً على المغاربة اصدار الصحف قررت كتلة العمل الوطني اصدار مجلة بباريس لتنوير الرأي العام الفرنسي وتعريفه بما يجري

في المغرب من مظالم ومآثم ، فصدرت مجلة (**مغرب**) التي جمعت حولها ثلة من احرار فرنسا اليساريين ، ثم احتالت الكتلة حتى اصدرت بفاس جريدة (**عمل الشعب**) باللغة الفرنسية باسم سيدة فرنسية الجنسية متزوجة بمواطن مغربي ، ولما تأسست بالمنطقة الخاضعة لحماية اسبانيا كتلة عمل وطني اتفق رجال الكتلتين على اصدار مجلة وجريدة باللغة العربية فصدرت بتطوان مجلة (**السلام**) وجريدة (**الحياة**) ، وكان لصدور تلك المجلات والجرائد الأثر المرغوب والصدى المطلوب في الداخل والخارج .

وفي الوقت نفسه شهدت البلاد تأسيس جمعيات ثقافية ورياضية وفنية وتقرير الاحتفال بذكرى جلوس جلالة الملك على العرش وقيام عدد من العلماء بالقاء دروس دينية ومحاضرات علمية بالمساجد والنوادي ، وقد كانت السلطات الفرنسية تضيق ذرعاً بهذه الجمعيات والدروس والمحاضرات والجرائد والمجلات فتمنعها ، ولم تقر منها الا الاحتفال بذكرى التتويج المسمى (عيد العرش) رعياً لشخص المحتفى به ومقامه :

ولما ظهر لكثير من الفرنسيين ان الانتقادات التي تشنها كتلة العمل الوطني بواسطة صحفها وعرائضها ونداواتها انما هي عمل سلبي يدل على الاستياء من نظام الحكم المباشر ولا يعبر عن الرغبات الحقيقية التي يراد تعويضه بها ، وبدأت الصحافة الاستعمارية تتهم الوطنيين المغاربة بالتهييج من أجل اشياء لا يستطيعون هم أيضاً تحديدها قررت الكتلة تحدى السلطات الفرنسية بوضع برنامج للاصلاحات عرضته في سر على الطبقات الحية في البلاد للملاحظة والموافقة ، ثم قدمته في نونبر 1934 الى القصر السلطاني والمندوبية الفرنسية بالمغرب ووزارة الخارجية بباريس باسم (**مطالب الشعب المغربي**) .

وكان برنامج الاصلاحات أو مطالب الشعب المغربي يشتمل على خمسة عشر فصلا تتعلق بالاصلاحات السياسية والقضائية والاجتماعية والاقتصادية والمالية والحريات العمومية والفردية الخ التي تستهدف الغاء جميع مظاهر الحكم المباشر وتوحيد النظامين الاداري والقضائي لجميع البلاد وتقديم المغاربة في جميع فروع الادارة والفصل بين السلطات التي يقوم بها الباشوات والقواد واحداث مجالس بلدية واقليمية وغرف تجارية ومجلس وطني .

وقد كان لتقديم هذه المطالب صدى عميق فى الأوساط الفرنسية والمغربية وأمرت الحكومة الفرنسية مندوبيتها بالرباط بدراستها وتوجيه تقرير عنها ، فطبعتها هذه ووزعتها على الادارات المختصة ، وألفت لجاناً لدراسة كل فصل منها ، ونالت بعض الفصول استحسانا كاملا ، ولكن الفرنسيين ترددوا فى تنفيذها رغم القبول الحسن الذى حظيت به فى الجملة، لأنهم كانوا يتصورون ما يؤول اليه تنفيذها ، وقد عبر عن ذلك السيد جيراردان مستشار جلالة السلطان اذ قال : (ان تلك المطالب تشتمل على ثلاثة أقسام : قسم يمكن تنفيذه من الآن ، وقسم يمكن تنفيذه ولكن بعد حين ، اما القسم الثالث فلا يمكن تنفيذه لأننا لا نريد الجلاء عن المغرب من تلقاء أنفسنا) !

والحقيقة ان سلطات الحماية لم تنفذ من تلك المطالب شيئاً فى العاجل ولا فى الآجل ، بل بلغ الغرور بالمستوطنين الفرنسيين الى المطالبة بتمثيل برلمانى لهم فى المغرب على اثر اصطدام وقع بين ممثليهم وبين المقيم العام فى شهر نونبر سنة 1935 وقد فضحت كتلة العمل الوطنى المكيدة بكل ما أوتيت من قوة وجهد ، ووجدت تعضيداً كبيراً من جلالة السلطان وحكومته ، وأدى الحال الى دراسة القضية فى البرلمان الفرنسى ، ولما عجز المقيم العام السيد بونصو عن ارضاء مستوطنيه وقمع المغاربة عزلته حكومته فى يبراير 1936 واستبدلت به شخصية استعمارية شهيرة برعونتها وقسوتها ، هى شخصية مارسيل بيرتون الذى صرح وهو يتأهب للسفر من مرسيليا الى الدار البيضاء فى شهر ابريل أنه فخور بقضائه على الحزب الدستورى التونسى ، وانه ينوى القضاء على الكتلة الوطنية فى المغرب ، وان القوة والعنف هما الشعار الذى يجب أن يتبع فى سياسة الأهالى بشمال افريقيا ، ولكنه لم يكد يصل الى المغرب حتى نجحت الجبهة الشعبية فى الانتخابات بفرنسا وألف ليون بلوم حكومته اليسارية الشهيرة ، ولما جرت أولى المقابلات بين المقيم الجديد وممثلى كتلة العمل الوطنى اعرب خلال ثلاث ساعات من الكلام عن كل ما تكنه نفسه من حقد على الوطنيين التونسيين واليساريين الفرنسيين، فلما انقضت المقابلة اذاعت الكتلة فحواها فكانت عواقبها وخيمة عليه .

وفى تلك الاثناء حل دور انعقاد مؤتمر الطلبة المنتمين لـ (جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا) وكان مقرراً أن ينعقد فى تلك الدورة

بالمغرب خلال شهر شتنبر 1936 وحاول بيرتون أن يستغل فرصة انعقاده ليحضر حفلته الافتتاحية ويلقي فيها خطاباً يضمنه برنامج عمله في التعليم ، ولكن المؤتمر رفض حضوره وخطابه ، فغضب وقرر منع المؤتمر ، فعقدت بدله مؤتمرات سياسية احتجاجية لم تر الحكومة الفرنسية بعدها بدأ من اقصائه عن مندوبيتها السامية بالمغرب وتعيين الجنرال نوكيس مقيماً عاماً بدله .

وحدث في صيف تلك السنة حادث مهم كانت له تبعات سياسية عاجلة واخرى آجلة ، هو ثورة الجنرال الاسباني فرانسيسكو فرانكو على الحكم الجمهوري واستيلاء حركته على منطقة الحماية الاسبانية بالمغرب ، وقد سلك الثوار الاسبانيون في البداية مسلك الحذر حيال كتلة العمل الوطني في تلك المنطقة ، ثم عدلوا سياستهم بعد ما رأوا وقوف اليساريين الفرنسيين الى جانب النظام الجمهوري فعينوا في منصب المندوب السامي الكولونيل بيكبيدير الذي كان يفتخر بانه من تلاميذ المرشال ليوطي ، فدشن في تطوان عهداً من التعاون نال به المغاربة هناك بعض الحقوق وحققوا بعض المنافع ، وان كانت سياسته قسمت الكتلة الى حزبين سياسيين أحدهما سمي **حزب الاصلاح الوطني** ، والآخر دعي **حزب الوحدة المغربية** .

أما في منطقة الحماية الفرنسية فان كتلة العمل الوطني والت اتصالاتها بالمسؤولين عن الجبهة الشعبية ، وبعثت وفداً الى باريس للاتصال برجال حكومتها ولكنه عاد دون طائل لا يحمل معه الا الوعود والأماني ، وفي الحين شرعت الكتلة في عقد تجمعات في مختلف المدن المغربية لشرح المبادىء التي تدعو اليها وتبيين الغايات التي تسعى في الوصول اليها ، وعقدت مؤتمراً خارقاً للعادة يوم 25 اكتوبر 1936 وضعت خلاله مطالب مستعجلة وتقرر طواف الزعماء الوطنيين بمختلف مدن المغرب وأريافه لتنوير الرأي العام واستكتاب عرائض التأييد ، ولما وصل المقيم العام الجديد الجنرال نوكيس في نفس الشهر الى الرباط قدمت له تلك المطالب صحبة كتاب تقديم فوعد بالنظر فيها وتحقيق ما يمكنه من رغبات الشعب المغربي بعد رجوعه من سفر يعتزم القيام به الى باريس ، ولكنه أمر — بدل ذلك — بمنع مؤتمر كانت تعتزم كتلة العمل الوطني عقده بالدار البيضاء يوم 17 نونبر 1936 للمطالبة بحق المغاربة في اصدار الصحف والمجلات ، ثم أمر باعتقال السادة علال الفاسي ومحمد بن الحسن

الوزاني ومحمد اليزيدي ، فوقعت مظاهرات صاخبة بمدن عديدة اصطدم فيها الوطنيون بالقوات الاستعمارية التي اعتقلت مئات منهم ، ثم اضطر بتدخل السلطان وتعليمات حكومة الجبهة الشعبية الى تسريح الجميع قبل ان يمضي شهر على اعتقالهم ، واذن باصدار بعض الصحف فتنفس الوطنيون الصعداء وشرعوا ينظمون صفوفهم ، وهال المندوبية الفرنسية اقبال المواطنين على الانخراط في الكتلة وعدم تأثرها بانسحاب الاستاذ محمد بن الحسن الوزاني منها وتأسيسه لحركة قومية منفردة ، فاستصدرت يوم 17 مارس 1937 قراراً بحل الكتلة بدعوى أنها تتآمر على الملك ، ولكن رجال الكتلة واصلوا العمل معطين لحركتهم اسم (**الحركة الوطنية لتحقيق المطالب**) ثم عقدوا اجتماعاً في شهر ابريل بالرباط وقرروا تأسيس (**الحزب الوطني لتحقيق المطالب**) وفتحوا له مراكز في جميع جهات المملكة وشرعوا في تسجيل المنخرطين وأسسوا عدداً من اللجان الفرعية استطاعت في أمد قصير أن تنجز عدداً من المشاريع التقدمية ولاسيما في ميدان التعليم ، فتحركت السلطات الاستعمارية للعمل ، واعتبرت الحزب الجديد امتداداً للكتلة الممنوعة ، واغتنمت الاقامة العامة قيام مظاهرات بمكناس في شهر غشت احتجاجاً على اغتصاب ماء وادي أبي فكران لفائدة المعمرين الفرنسيين ، فأطلقت جنود اللفيف الأجنبي وفرق المستعمرات على الأهالي يفتكون بهم فتكاً ، ولكن المظاهرات امتدت الى جميع الجهات ، وشاركت فيها القبائل البربرية التي كانت فرنسا تعلق على ولائها كبير الآمال فقابلها الفرنسيون بقمع شديد قتل خلاله العشرات من الوطنيين واعتقل المئات ، واثر ذلك عقد الحزب بالرباط يوم الأربعاء 13 أكتوبر 1937 (7 شعبان 1356 هـ) مؤتمراً حضره نواب شعبه بجميع بلاد المغرب لدراسة الحالة الراهنة وتقرير الخطة التي يجب انتهاجها ازاء سلطات الحماية ، وقد وافق المؤتمرون على ميثاق وطني بلغ في الحين الى المندوبية الفرنسية فارتاعت له ، وأصدر المقيم العام يوم 25 أكتوبر قراراً باعتقال السادة : علال الفاسي ، وبعض رفقائه في الكفاح ، فثارت البلاد وسقط الضحايا بالعشرات ، واعتقل الوطنيون بالألوف ونقلوا الى الصحراء والسجون المعدة لكبار المجرمين ، ونفي الأستاذ علال الفاسي الى مستعمرة الكابون بافريقيا الاستوائية ، واعتقل أيضا الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني ونفي الى الصحراء وظلا منفيين حتى

وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وعاشت البلاد منذ ذلك التاريخ تحت وطأة حصار عسكرى شديد .

ولم تفد حركة الاحتجاج التى قام بها العالم الاسلامى وبعض أقطار أوربا شيئاً فى حل الأزمة ، فقد كان الجو فى أوربا ينذر بقرب نشوب الحرب ، وانصرفت أفكار المسؤولين الفرنسيين الى التأهب والاستعداد لمواجهة الخطر الفاشيستى ــ النازى المتصاعد ، فلما أوقدت نار الحرب العالمية الثانية فى خريف سنة 1939 أعلن جلالة السلطان تأييده للحلفاء وتضامن معه الوطنيون فى هذا التأييد ، وكانت سياسة رشيدة منه رحمه الله درأت عن المغرب كثيراً من الأخطار والمكاره فى تلك الظروف العصيبة ، ومع أن جلالته وقادة الوطنية رفضوا التعاون مع المحور بعد انهزام فرنسا ولم يلتفتوا الى عروضه فان الفرنسيين لم يحيدوا عن خطتهم ولم يخطر ببالهم ان يكافئوا المغاربة على مساهمتهم فى المجهود الحربى وتضحيتهم الكبيرة فى ميادين القتال ، ولذلك لم يكن من المعقول أن يظل المغاربة لائذين بالصمت الى ما لا نهاية له ، سيما وأن الحلفاء الانكليز والأمريكيين الذين نزلوا بالشمال الافريقى يوم 8 نونبر سنة 1942 كانوا يملأون الدنيا دعاية لحرية الشعوب واستقلالها ، وكان المنطق الطبيعى ان ينبذ المغرب سياسة الاصلاحات الجزئية ويطلب الاستقلال الكامل الناجز ليمكنه أن يصلح نفسه بأيدى ابنائه وفق ما يبتغون هم لأنفسهم لا ما يبتغى لهم الغير ، ولما بدأت العناصر الوطنية تتحرك فى الخفاء أوحى اليها جلالة السلطان **سيدى محمد بن يوسف** أن تطالب بالاستقلال ، فأعدت وثيقة بهذا المعنى رفعها يوم 11 يناير سنة 1944 الى جلالة السلطان وممثلى فرنسا وحلفائها نواب **حزب الاستقلال** الذى أسس فى نفس اليوم ، وقد لقيت الوثيقة تأييداً كاملا من القصر الملكى، واستدعى جلالة السلطان مجلساً وزارياً لدراستها يوم 13 يناير وعين وزيرين للاتصال بشأنها مع ممثلى فرنسا ومع اللجنة التنفيذية للحزب الجديد ، فى حين كانت الوفود والعرائض ترد على القصر الملكى من جميع نواحى المغرب مؤيدة متضامنة .

أما الفرنسيون فقد ذهلوا من مضمن الوثيقة ولكنهم لم يحركوا ساكناً خشية من ان تتدخل قوات الحلفاء لفائدة الوطنيين المغاربة كما تدخلت من

قبل في سوريا ولبنان ، حتى اذا تأكدوا من عدم تدخلهم طلب كابريال بيو مقيم فرنسا العام مقابلة السلطان يوم 18 يناير وأبلغه رفض اللجنة الوطنية للتحرير الوطني تغيير نظام الحماية واستعدادها فقط لادخال اصلاحات ، ثم نشرت الاقامة العامة بلاغاً بذلك وصار الجميع يتوقع قيام السلطات الفرنسية بحركة قمع ، وفي مساء يوم 28 يناير حينما كان السيد ماسيكـلي المفوض الوطني في الخارجية الفرنسية يعلن قبول فرنسا مشروع اصلاح مستعجل بالمغرب كان الولاة العسكريون يعتقلون مسيري حزب الاستقـلال بتهمـة الاتصال بالعدو ! ولم يكد نبأ اعتقالهم يشيع صباح اليوم التالي حتى أضربت البلاد واهتاجت الأفكار وبدأت السلطات الفرنسية تتحرش بالناس وتستفزهم فوقعت مظاهرات واشتباكات بين الوطنيين والقوات الفرنسية استشهد فيها عشرات من الوطنيين الأبرار واعتقل الآلاف وأبعدوا الى السجون والمنافـي وبدأت المحاكم العسكرية تصدر أحكامها بالاعدام الذي نفذ في البعض منهم .

وبعد مرور بضعة أيام أعلن المقيم العام عزمه على ادخال الاصلاحات ثم جاء السيد ماسيكلي يؤكد للسلطان قبول فرنسا لادخالها ، ولما بدأ المقيم يوم 22 مارس يترأس اللجان الاستشارية التي تدرسها ظهرت تفاهتها وأيقن المغاربة أن فرنسا تسخر من نفسها لا منهم ، ومع ذلك لم ينفذ منها شيء يلفت النظر ويحس المغاربة أن فيه نوعاً من الترضية لهم ، بل زادت الحالة سوءاً عند ما منح المستوطنون الفرنسيون حق المشاركة في انتخاب المجلس التأسيسي الفرنسي ، وتوالت الاحتجاجات من السلطان والهيآت الوطنية على ذلك .

وانتصر الحلفاء في الحرب واستردت شعوب كثيرة حريتها وسيادتها ، ووضع ميثاق الأمم المتحدة كدستور يضمن للبشرية جمعاء حياة حرة كريمة مثلى ، فكان لزاماً على فرنسا أن تبدل مندوبها المقيم الذي فشل في فـرض (اصلاحات) مزيفة سواء بطريق الرفق أو بطريق العنف وان تفعل شيئاً ما تظهر به للدول أنها وفية لميثاق الأمم المتحدة سائرة بمستعمراتها وبلدان حمايتها نحو الحرية والتقدم ، فعزلت كابريال بيو ، وعينت السيد اريك لابون مندوباً مقيماً عاماً ، وهو أحد ديبلوماسييها المشهورين الذين سبقت لهـم الخدمة بالمغرب وممن يهتمون كثيراً بالتنمية الاقتصادية ، فكان من أعماله

الأولى ارجاع الأستاذ علال الفاسي وغيره من الزعماء الوطنيين من منافيهم والسماح للمغاربة باصدار الصحف ولكن مع خضوعها للرقابة المفروضة على المطبوعات ، فاستبشر الناس خيراً بهذا الانفراج ، وحسبوا ان المقيم العام الجديد جاء بسياسة متحررة ، ولكن الخيبة عادت تساور النفوس بمجرد ما بدأت اتصالاته بالوطنيين ، اذ ظهر ان الرجل لا يحمل فى حقيبته الا برامج تنمية اقتصادية لفائدة دولته ، وبرامج (اصلاحات) موجهة بمقتضى العقلية الاستعمارية ، فقد كانت الخطة التى اهتدى اليها الفرنسيون لحل مشاكلهم بالمستعمرات وبلدان الحماية هى اشراك (الأهالى) فى التدبير والتقرير مع المستوطنين الفرنسيين ، ولكن بعد الاعتراف مسبقاً لهاؤلاء بكافة الحقوق السياسية ، ومعنى ذلك الاشتراك فى السيادة (38) على تلك الأوطان مع أهلها ، وهذا أقصى ما طرأ على العقلية الاستعمارية الفرنسية من تطور بعد الحرب العالمية الثانية !

ولقد كان من المقرر ان يزور جلالة السلطان فى ربيع سنة 1947 طنجة بعدما انسحبت منها الجيوش الاسبانية التى احتلتها اثناء الحرب وعاد اليها نظامها الدولى السابق . ولم يكن الفرنسيون يجهلون أهمية هذه الزيارة وعواقبها الوخيمة على سياستهم ، ولكنهم لم يجدوا بدأ من الموافقة عليها ، بيد أنهم دبروا مكيدة وحشية للحيلولة دونها يوم 7 أبريل ، فقد أطلقوا الجنود السنيغاليين على الأحياء العربية بالدار البيضاء يقتلون النفوس وينهبون الأمتعة ، ولم يعيدوهم الى معسكراتهم بعد عشر ساعات حتى قتلوا أكثر من 2000 مغربى فيهم المرأة المحجبة والعجوز المسن والولد الرضيع ، ومع ما خلفه هذا الاعتداء من شعور الأسى والسخط فى النفوس سافر جلالة السلطان يوم الأربعاء 9 أبريل سنة 1947 الى طنجة صحبة ولى عهده صاحب السمو الملكى أمير الأطلس **مولاى الحسن** وسائر أفراد أسرته وحاشيته ، وبعد ما تغذى جلالته بظاهر أصيلة مع ابن عمه وخليفته بمنطقة الحماية الاسبانية صاحب السمو الملكى الأمير مولاى الحسن تابع سيره الى طنجة فدخلها فى العشية واستقبل من أهلها استقبالا حماسياً ، ثم قابل السلك الديبلوماسى والقنصلى صباح يوم الخميس 10 أبريل وألقى خطابه التاريخى الشهير الذى أكد فيه

38) La Cosouveraineté

صبغة المغرب العربية ، وضرورة تحقيق وحدته الترابية وتحقيق أماني شعبه وتاسيس نظام حكم ديمقراطي ، كما خطب المومنين وأم بهم يوم الجمعة بعده ، بينما كان صاحب السمو الملكي الأمير مولاى الحسن وشقيقته الأميرة للا عائشة يلقيان في تلك الأيام خطبا شبيهة المعنى بخطب والدهما ، ثم عاد جلالته الى الرباط يوم الأحد 13 أبريل .

وقد كان للنجاح الذى أحرزته هذه الزيارة الملكية وقع أليم فى نفوس الفرنسيين ، الشيء الذى جعل السيد رماديي رئيس الحكومة الفرنسية يهذى في التعليق عليها هذيان المحموم ، ويقرر اعفاء المقيم العام السيد اريك لابون من منصبه ولما تمض على رجوع السلطان الا بضعة أيام .

واختارت الحكومة الفرنسية الجنرال الفونس جوان مندوباً مقيماً عاماً ، وهو ابن دركي ومن مواليد الجزائر ، حاد الطبع عصبي المزاج ، يتشبع فى منتصف القرن العشرين بأفكار رواد الاستعمار الاولين أمثال بيجو ولاموريسيير وبليسي وكافينياك ، لا يحس بالتطور السياسي والاجتماعي والاقتصادى الذى طرأ على العالم فى هذا القرن ، وأقل مايصفه به المؤرخ المتجرد النزيه أنه نذل لئيم ، وكانت الخطة التى جاء لتنفيذها تستهدف فرض اصلاحات على أساس اقتسام السيادة ولو أدى الحال الى تنازل اختيارى من السلطان عن العرش أو خلع تأمر به السلطات الفرنسية (39) ومن الاتصالات الأولى التى أجراها المقيم العام الجديد تبين جلالة السلطان وشعبه أن المغرب مقبل على أعمال عنف ، فقد بات المقيم يجادل حتى فى حضور السلطان حفلات تدشين المدارس وتلقيب صاحب السمو الأمير **مولاى الحسن** بأمير الأطلس وولى العهد ، وبلغت به المجرفة الى التطاول على السلطات التى يستمسك بها الملك والتى لم يخطر ببال أى مقيم سبقه أن يتطاول عليها ، كتسمية الموظفين المغاربة واعفائهم ، وكانت نشاطات الوطنيين بالخارج وحملات الدول العربية والاسلامية والدول الصديقة على سياسة فرنسا وبوادر تدويل القضية الوطنية لا تزيد الجنرال الا كلبأ وسعاراً ، واستمر الوضع يتأزم حتى استدعى السلطان لزيارة فرنسا

---

(39) Maréchal Juin : Le Maghreb en Feu (P. 72)

في خريف سنة 1950 ولكن **سيدي محمد بن يوسف** لم يقبل الدعوة حتى أكد له أن مستقبل المغرب سيكون من بين القضايا التي يتذاكر فيها مع المسؤولين الفرنسيين أثناء تلك الزيـارة ، وسافـر السلطان على ظهر سفينة حربية وبعد اقامة قصيرة ببوردو توجه الى باريس يوم الثلاثاء 11 أكتوبر ، وقوبل في كـل مكان حل به بحفاوة كبيرة ، ولما قدم مذكرته الأولى الى الحكومة الفرنسية جاء الجواب عنها يوم 31 أكتوبـر خاليا مـن أية اشارة الى مستقبل المغـرب ، أمـا المذكرة الثانية التي أرسلها بعد ذلك فانه لم يتلق عنها في فرنسا أي جواب ، وعاد **سيدي محمد بن يوسف** الى المغرب فوصل الدار البيضاء يوم 9 نونبر واستقبل من طرف شعبه استقبال الفاتحين .

وقد لوحظ باستغراب شديد تخلف باشا مراكش الحاج التهامي الكلاوي وقائد آخر من اقطاعيي الجنوب بفرنسا واجراؤهما محادثات مع المسؤولين الفرنسيين ، وان الكلاوي لم يحضر لتحية ملكه عند رجوعه الى الدار البيضاء كما لم يشارك في حفلات عيد العرش الشيء الذي دل على أن هناك مؤامرة تدبر في الخفاء .

وفعلا توالت الاحداث المزعجة بسرعة ، ففي شهر دجنبر طرد المقيم العام نواب حزب الاستقلال من مجلس شورى الحكومة لمجرد انهم حللوا فصول الميزانية تحليلا موضوعياً عده المقيم ماساً بكرامة فرنسا ، وبعد ذلك بقليل طرد السلطان **سيدي محمد بن يوسف** باشا مراكش من القصر لما طلب منه في قحة أن يتخلى عن الوطنيين ويخلي بينه وبينهم في ايالته ، واذ ذاك أنشأ الكلاوي بايعاز من السلطات الفرنسية حركة انضم اليها صنائع فرنسا من باشوات وقواد ، وعبأ المراقبون والضباط الفرنسيون فرسان القبائل لهذه الحركة وامروهم بالمرابطة حول فاس والرباط ، ثم اذاعت الدعاية الفرنسية أن أرياف المغرب (تحركت) ضد السلطان الذي يعرقل الاصلاحات وفي يوم الجمعة 26 يناير قدم المقيم العام للسلطان لائحة مطالب يرى من الضروري الاستجابة لها ، وبعد مداولات واتصالات برئيس الجمهورية الفرنسية قدم الى السلطان انذار ثان بقبول مطالب المقيم ينتهي اجله في الساعة السادسة من مساء يوم الأحد 25 يبراير 1951 ولم يكن **لسيدي محمد بن يوسف** اي خيار

فاما أن يقبل المطالب وأما أن تخلي فرنسا بينه وبين شعبه الناقم منه بزعمهم ، فوافق جلالته عليها اجتنابا لكارثة كان متأكدا انها ستحل بشعبه قبل أن تحل بشخصه وعرشه .

وأحاطت الدعاية الفرنسية قبول السلطان مطالب المقيم الفرنسي بهالة من التزييف والتبجح وأعطته صورة انتصار ما كان ليفخر به في الحقيقة جندي بسيط فأحرى ضابط عظيم ، ولكن نشاط الوطنيين المغاربة بالخارج ووقوف الدول العربية والاسلامية الى جانب المغرب في تلك المحنة كشف الستار عن حقيقة الوضع في المغرب والطريقة التي انتزع بها المقيم موافقة السلطان ، ومهما يكن فان ضغط الفرنسيين بذلك الشكل السافل على ملك كريم وشعب يريد الانعتاق والتحرر جعل الشعب المغربي يفكر جديا في ركوب متن العنف لطرد المحتلين ، كما جعل الحكومة الفرنسية تفكر جديا في أن تبعد عن المغرب الجنرال جوان الذي كانت له صلاحيات عسكرية واسعة في الشمال الافريقي والذي كان نفوذه المتصاعد لدى غلاة المستعمرين — عسكريين ومدنيين — بالمغرب العربي بدأ يثير الخوف في نفوس رجال الحكومة في باريس .

وبالفعل أعلن بباريس يوم 28 غشت 1951 بعد مخاتلات ومراوغات — عن اعفاء الجنرال جوان وتعيين الجنرال كيوم خلفا له في الاقامة العامة ، والمقيم الجديد هو أحد ضباط الأمور الأهلية المشهورين الذين اتسعت آفاق معرفتهم بالمغرب حتى صاروا لا يعرفون عنه شيئا ، وقد تقلب فيه في مناصب كثيرة سياسية وعسكرية وادارية ، ونظرته اليه والى أهله لا تختلف عن نظرة سلفه الذي اقترح تعيينه على حكومته فاستجابت له استعجالا لخروجه منه ، وقبل أن يصل الى المغرب كانت القضية المغربية تسير قدما في طريق التدويل ، فقد قررت الجامعة المغربية في دورتها المنعقدة بالاسكندرية يوم 27 غشت رفعها الى منظمة الأمم المتحدة ، ولما وصل المقيم الجديد يوم 2 أكتوبر ظهر من التصريح الذي أدلى به في ذلك اليوم ومن تصريحاته الأخرى وهو يزور المدن والارياف المغربية أنه نسخة طبق الأصل لسلفه ، فقد كان يندد بالوطنيين في كل مكان ويرميهم بالتعصب الديني والسلالي ، ويدعي انهم

لا يمثلون المغاربة ، وآلى على نفسه أن (يوكلهم التبن) وسعى جاهداً فــي اثاره العصبية السلالية بين البربر والعرب جاهلا أو متجاهلا انهم جميعــاً يشتركون في بغض المستعمرين ، ولما كانت القضية المغربية تعرض على انظار الأمم المتحدة نظمت سلطات الحماية يوم 1 نونبر انتخابــات الغرف التجاريــة على طريقتها فقاطعها التجار مقاطعة أذهلتها ، واثــر ذلك اجتمع القسم الفرنسي من مجلس شورى الحكومة للنظر في مشروع الميزانية فأعاد ممثلو الجالية الفرنسية المطالبة بتأسيس تمثيل برلماني لهم في المغرب يكــون لهم فيه الى جانب المغاربة حــق التقرير ، ومن أغرب حوادث تلك الظــروف ان السلطــات الاستعمارية اعتقلت خطبــاء المساجد بالمغــرب وأرسلتهم الى السجون لا لذنب سوى دعائهم في خطبة جمعية لدولة ليبيــا بمناسبة ارتقائها الى مصاف الدول الحرة ، كما اعتقلت الآلاف من المواطنين الذين تظاهروا يوم 30 مارس 1952 بمناسبة حلول الذكرى الأربعينية لفرض الحماية ، وازاء ازدياد الضغط والقمع عاد جلالة السلطان يوم 14 مارس فبعث الى رئيس الجمهورية الفرنسية مذكرة يطلب فيها اعادة النظر في معاهدة سنة 1912 فكان الجواب الفرنسي هذه المرة سلبياً أيضا ، وسارت الأمور وهي تتأزم أكثر فأكثر ، وبدأ الاستقلاليون يقومون ببعض الأعمال الفدائية ضد الخونة والمارقين ، وبلغت الأزمة ذروتها عندما اذيع صبيحة يوم 5 دجنبر 1952 نبأ اغتيال الزعيم التونسي فرحات حشاد على أيدي عصابة فرنسية ، فقرر حزب الاستقلال شن اضراب عام يوم 8 دجنبر تضامناً مع الشعب التونسي في مصابه الأليم ، ولكن العواطف انفجرت في ليلة ذلك اليوم ونهاره من الجانبين ، إذ جرت بين الوطنيين والاستعماريين اشتباكــات قتل فيها بعــض الأوربيين واستشهد أكثر من 500 وطني في حي الكاريير سانترال بالدار البيضاء وحده ، واعتقل الزعماء النقابيون المغاربة واتباعهم في نفس اليوم اثناء تجمع عقدوه بالدار البيضاء وسلم عدد منهم الى المستوطنين الفرنسيين فمزقوا آرابهم في الشوارع تمزيقاً (40) ، وقد وجد الجنرال كيوم في هذه الحوادث الفرصة التي كان ينتظرها ، فعطل الصحف الوطنية ، وأمر باعتقال الاستقلاليين البارزين

(40 Lynchage

فى جميع المغرب وارسالهم الى المنافى والسجون ، وأوعز الى أبواق دعايته بالمغرب وفرنسا بشن حملة على ملك المغرب وولى عهده اعتقاداً منه (أن الأفعى لا تموت الا بقطع رأسها) فكانت الصحف الاستعمارية تنادى بنفى **محمد بن يوسف** واعدام ولى عهده الأمير **مولاى الحسن** ، ثم شرع فى تنفيذ مخطط يستهدف نفى السلطان وأسرته ونصب دمية طيعة على العرش مستعيناً بباشا مراكش وعبد الحى الكتانى شيخ الطريقة المعروف ، فتم له ما أراد ظهيرة يوم 20 غشت 1953 فنفى السلطان وأسرته الى كورسيكا وأجلس محمد بن عرفة على العرش ، فكان يوم ذلك الحادث الجلل يوم بداية **(ثورة الملك والشعب)** التى استماتت فيها المغاربة دفاعاً عن ملكهم ووطنهم متحملين ما يطول الحديث عنه من التضحيات ، واضطرت فرنسا أن تعزل بعد ذلك الجنرال كيوم وتعين مقيماً بعد مقيم كان كل واحد منهم يفشل فى مهمته لأن الشعب المغربى لم يكن يريد بملكه الشرعى وحريته بديلا ، ولما اشتد عليها سخط الرأى العام الدولى وضاقت بها السبل فى المغرب سيما بعد انشاء جيش التحرير الوطنى الذى شرع فى مهاجمة المراكز الفرنسية بالأرياف تعزيزاً لحركة المقاومة فى المدن لم تر بدأ من الاذعان للحق وأنفها راغم ، فأعادت الى المغرب السلطان **سيدى محمد بن يوسف** يوم الأربعاء 16 نونبر 1955 (1 ربيع الثانى 1375) من منفاه الثانى بجزيرة مدكسكر على أساس الاعتراف بحرية المغرب وسيادته ، فكان يوم وصوله الى الرباط والأيام التى تلته أياماً خالدة مشهودة .

وشرع السلطان الذى أصبح منذ ذلك التاريخ يدعى بصاحب الجلالة الملك فى اتخاذ التدابير العملية لجعل الاستقلال المستعاد حقيقة ملموسة ، وكان عليه أن يبدأ من الصفر ويعمل فى حذر بالغ ، فألف حكومة وطنية يوم السبت 17 دجنبر (2 جمادى الأولى) جعل لها ثلاث مهمات : تدبير الشؤون العامة ، ووضع أنظمة ديموقراطية على أساس الانتخاب وفصل السلط ، والتفاوض لتحديد نظام الاستقلال ، ثم عين عمال الأقاليم بعد يومين ، وتسلم الموظفون المغاربة السلط من الفرنسيين الذين لم يبقوا محتفظين الا بالشرطة والجيش والديبلوماسية ، وبعد ذلك جرت مفاوضات بباريس اسفرت يوم الجمعة 2 مارس 1956 (19 رجب) عن صدور تصريح مغربى ـ فرنسى مشترك

يلغى عقد الحماية ويعلن استقلال المغرب ووحدة ترابه ، كما جرت مفاوضات أخرى بمدريد اسفرت يوم السبت 7 أبريل (25 شعبان) عن صدور تصريح مغربى — اسبانى مشترك بنفس المعنى ، واذ ذاك أنشأ جلالة الملك وزارتي الخارجية والدفاع وانشأ جيشاً وطنياً (14 مايو) ووضع مغربياً على رأس مصالح الشرطة .

ولكن المغرب المستقل الجديد وجد نفسه منذ تلك الساعات السعيدة أمام مشاكل لا حصر لها ، وقد أبت الدولتان الحاميتان أن تعيدا اليه أجزاء واسعة من ترابه الوطنى اغتصبتاها فى ظروف خاصة ولأسباب معينة وضداً على جميع المعاهدات الدولية ، فاسبانيا احتفظت باقليم طرفاية ولم تسلمه الا سنة 1958 كما احتفظت بالساقية الحمراء ووادى الذهب وقطاع يفنى وجميع الجيوب الواقعة فى الشمال (41) وفرنسا لم تكتف بالاحتفاظ بما اقتطعته شرقاً وجنوباً وألحقته بمستعمراتها بل دفعت خط الحدود الى الشمال امتثالا لمقتضيات ستراتيجية أملتها عليها الحرب التى كانت تخوضها يومئذ فى الجزائر ، فكان هذا العمل سبب النفرة التى حدثت بين المغرب وبين جارته الجزائرية فيما بعد ، ومع كل العراقل والصعاب سار المغرب تحت قيادة ملكه يحقق المكاسب تلو المكاسب ، فقد نظم الحكم فيه على أساس دستور ، وأجليت الجيوش الفرنسية والاسبانية والأمريكية عن القواعد التي كانت تحتلها ، وحرر الاقتصاد من التبعية، وأقيمت العدلية على أسس عصرية، وانتشرالتعليم على تعدد أقسامه ، واعترف للشعب بكافة الحقوق والحريات ، وقويت التجهيزات المادية، وصار للمغرب صوت مسموع على الصعيد الدولى ، وكان الفضل فى كل ذلك يرجع الى شدة الالتحام وقوة التجاوب بين جلالة الملك **محمد الخامس** والشعب المغربى، حتى اذا توفاه الله عشية يوم الأحد 26 يبراير 1961 (10 رمضان 1380) سار ولى عهده صاحب الجلالة الملك **الحسن الثانى** على هديه ، جاداً مجتهداً فى تحقيق التقدم المادي والرقى المعنوى لأمته ، صارفاً زهرة شبابه وثمرات ثقافته وتجربته فى سبيل اعزازها واسعادها ، وجعل في السنين الأخيرة **التنمية** شعاره ، وهو دائب على تعهد غروسها التى لن تلبث أن تؤتى أكلها فى مستقبل قريب .

---

41) سبتة ومليلية وجزر ملوية وحجرة نكور .

من مصادر هذا الفصل :

- **اتحاف أهـل الزمـان ، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** ـ تاليف أحمد بن أبي الضياف ـ تونس 1963 .
- **الأنيس المطرب ، بروض القرطاس ، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ـ لأبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع ـ فاس 1303 .
- **افريقيا الشمالية في العصـر القديـم** ـ لمحيي الديـن المشرفي ـ الدار البيضاء 1957 .
- **الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى** ـ لأحمد بن خالد الناصري ـ الدار البيضاء 1956 .
- **تاريخ الجزائر العام** ـ لعبد الرحمان الجيلالي ـ بـيروت 1965 .
- **تاريخ الحركات الاستقلالية في المغرب العربي** ـ تأليف الأستاذ محمد عـلال الفاسي ـ تـطـوان .
- **تاريخ المغرب العربي** ـ لمحمد علي دبوز ـ القاهرة 1964 .
- **تاريخ المغرب العربي** ـ للـدكتور سعـد زغلـول عبد الحميد ـ القاهرة 1965 .
- **التطورات السياسية في المملكة المغربية** ـ لدوكلاس آي . اشفورد ـ بيروت 1963 .
- **تونس وفرنسا** ـ لعبد المجيد المطوي ـ تونس 1957 .
- **الجزائر العربية** ـ للدكتور احسان حقي ـ بـيروت 1961 .
- **الحبيب بورقيبة : حياته وجهاده** ـ لكتابة الدولة للأخبار والارشاد ـ تونس 1966 .
- **كتاب الجزائر** ـ لأحمد توفيق المدني ـ الجزائر 1350 .
- **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من الملوك ذوي السلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون)** ـ لعبد الرحمان بن خلدون الحضرمي ـ بـيروت 1961 .

ـ **ليبيا بين الماضي والحاضر** ـ تأليف حسن سليمان محمود ـ القاهرة 1962 .

ـ **مدنية المغرب العربي في التاريخ** ـ لأحمد صفر ـ تونس 1959 .

ـ **المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب** ـ لعبد الواحد المراكشي ـ سلا 1938 .

ـ **المغرب في بداية العصور الحديثة** ـ للدكتور صلاح العقاد ـ القاهرة 1963 .

ـ **المسألة المغربية** ـ لمحمد خير فارس ـ القاهرة 1961 .

ـ **نضال ملك** ـ لمحمد الرشيد ملين ـ الرباط 1957 .

ـ **فتح العرب للمغرب** ـ لحسين مؤنس ـ القاهرة 1947 .

— F. Weisgerber - au Seuil du Maroc Moderne - Rabat 1947 .

— H. Terrasse - Histoire du Maroc - Casablanca 1950 .

— Maréchal Juin - Le Maghreb en Feu - Paris 1957 .

— J. L. Meège - Le Maroc et l'Europe - Paris 1961 .

— G. Granval - Ma Mission au Maroc - Paris 1956 .

— P. B. de Latour - Vérité sur l'Afrique du Nord - Paris 1956.



المغاربة القدماء

كان الرأى السائد بين المؤرخين الى وسط القرن الماضى أن البربر أول جنس بشرى سكن بلاد المغرب ، ولكن البحوث العلمية والاكتشافات الأركيولوجية أضعفت فى الوقت الراهن هذا الرأى ، اذ صار العلماء يعتقدون ان هناك مغاربة قدماء عمروا المغرب قبل البربر وسبقوهم الى سكناه .

ومن المعروف أن المؤرخين اصطلحوا على تقسيم العصور التى سبقت تدوين التاريخ الى عصرين :

1) عصر البليستوسين Pleistocene المسمى أيضاً بعصر الجليد .

2) والعصر الحجرى المنسوب الى الحجر الذى كان الانسان البدائى يستعمله فى كل ما تتوقف عليه حياته من اداة وسلاح .

وهذا العصر يقسم بدوره عندهم الى ثلاثة أقسام :

1) عصر حجرى قديم كان الانسان فيه حديث عهد بالطبيعة جاهلا طرق الانتفاع بها ، لا يختلف فى مفاهيمه وتصرفاته عن الحيوان الأعجم .

2) عصر حجرى متوسط تهذب فيه الانسان قليلا فأخذ يسكن الكهوف ويدفن الموتى ويتخذ الأسلحة والأدوات من عظام الحيوانات كالفيلة والوعول والكركدن والنعام .

3) عصر حجرى حديث ازداد الانسان فيه معرفة بأسرار الطبيعة وفهماً لمظاهرها ، فاكتشف النار وحاك الملابس واخترع الكتابة الهيروغليفية وصنع الآنية من الطين المجفف والمحروق .

ويأتى بعد هذه العصور الحجرية الثلاثة العصر المعدنى الذى اكتشف فيه الانسان الحديد والنحاس والقزدير والرصاص ، وهو يفصل بين عصر

التاريخ الذى صار فيه الانسان يدون وقائعه ويستعمل الوثائق المكتوبة ، وعصر ما قبل التاريخ الذى اضطربت أقوال العلماء فى تقدير مدته بين 5.000 و 240.000 سنة تبعاً لتفاوتهم فى الاجتهاد والاستنتاج ، واعتماد بعضهم على الحكايات الأسطورية والروايات الدينية .

ولقد كانت حالة المغرب فى تلك العصور تختلف كل الاختلاف عن حالته فى الساعة الراهنة ، وتدل الأبحاث والدراسات التى أجراها العلماء المتأخرون على أن البلاد المغربية كانت متصلة بأوروبا من طرفيها الشمالى الشرقى والشمالى الغربى ، وأن البحر الأبيض المتوسط لم يكن سوى مجموعة من البحيرات متناثرة من الشرق الى الغرب دون أن يكون لها اتصال بالمحيط الأطلسي ، وأن الأراضى القاحلة الموجودة خلف جبال الأطلس كانت تتخللها فى تلك العصور السحيقة الأنهار العظيمة والبحيرات العريضة ، أما الطقس فكان يشبه الى حدكبير الطقس الحالى لأراضى المنطقة الاستوائية حرارة ورطوبة ، فساعد ذلك على نمو النبات وتكاثف الشجر وتشابك الغاب ، الشىء الذى مكن لحيوانات بدينة ضارية أن تعيش فى أرجائه كالفيل والوعل والكركدن والزرافة .

وفى آخر العصر الحجرى القديم الذى مضى بين سنتى 20.000 و 6.000 قبل الميلاد حدث الانقلاب الجيولوجى العظيم الذى كان من نتائجه تراجع الجليد الى المناطق القطبية ، فأخذ المغرب منذ ذلك الحين شكله الطبيعى الحالى ، وأصابه الحر والجفاف ، وغاضت على الخصوص مياه أنهاره وبحيراته الجنوبية فلم يبق منها الا الأشباح .

وقد كان لهذا التغير المناخى تأثير كبير على حياة السكان الأولين للمغرب ، فالحر بعثهم على الانتشار وزيادة تعرف بعضهم على بعض واختلاط جماعاتهم ببعضها وأدى كل ذلك بالتالى الى وجود سلالات جنسية خليطة ، أما الجفاف فكانت له آثاره بعيدة المدى فى حياة الناس أيضا ، اذ صاروا يسكنون فى جوار الأنهار والآبار والعيون ، لأن الغذاء هو المطلب الأول للانسان فى كل يوم ، والماء جزء من الغذاء ، بل هو أكثر أجزائه أهمية .

ولقد اصطلح المؤرخون القدماء على ارجاع السلالات البشرية الى ثلاثة أصول اعتماداً على جدول الأنساب الوارد فى التوراة :

1) الأصل السامى المنسوب الى سام بن نوح .

2) الأصل الحامى المنسوب الى أخيه حام .

3) الأصل اليافثى (الآرى) المنسوب الى أخيهما يافث .

ويذكرون أن هاؤلاء الاخوة الثلاثة هم الذرية التى تشير النصوص الدينية — ومنها القرآن الكريم — الى أنها هى التى بقيت بعد الطوفان فتناسل منها البشر ونما عددهم بعد أن كادوا ينقرضون في ذلك الحادث ، وشك قليل من العلماء فى هذا التقسيم الثلاثى المترتب على أبناء نوح الثلاثة ، بينما جعلته طائفة منهم تقسيماً لغوياً لا سلاليا يدل على أصول اللغات لا على أصول المتكلمين بها ، ويرفضه العلماء المعاصرون كلية بدلالتيه السلالية واللغوية ، ويجعلون الناس ثلاث طبقات :

1) طبقة العصر الحجرى .

2) طبقة العصر الحديدى .

3) طبقة عصر سكب الرمـل ، ويعتمدون فى تقسيمهـم من حيث السلالات والأصول على قواعد علمية وضعوها بعد البحث والدراسة والمقارنة والاستنتاج ، لا دخل فيها للأسطورة ولا لنصوص الدين ، كشكل الجمجمة وحجم الجسم ولون البشرة ونوع السحنة وحالة المزاج ، فأشكال البشر عندهم أربعة اعتماداً على تلك القواعد :

1) الشكل القوقاسى الذى يمثله سكان أوربا وآسيا الغربية وسواحل البحر الأبيض المتوسط .

2) الشكل المغولى الذى يمثله سكان آسيا وأمريكا من السلالـة الصفـراء .

3) الشكل الزنجى .

4) الشكل الأمريكى القديم .

وكما اختلف العلماء وتعددت مذاهبهم فيما يتعلق بعمر الانسانية وأصول السلالات واللغات اختلفوا فى أصل المغاربة القدماء والطريق الذى سلكوه للوصول الى المغرب ، فمنهم من جعلهم أصل الجنس الأبيض كله ،

ذاكراً أن الانسان الأول لما هاجر من موطنه الأصلي في جزائر الهند الشرقية أو موطنه الثاني الذي هو ما بين النهرين بأرض بابل بحثاً عن الصيد وانتجاعاً للمرعى لم يكن أسهل عليه من النزوح الى شمال افريقيا (42) فوجد به ما تصبو اليه نفسه ويسد حاجته من وفرة مياه وكلأ واعتدال مناخ ، فكملت به عقليته وتكونت خصائصه العالية وتكيف بالشكلية البيضاء ، ومن الشمال الافريقي جاز الى أوربا على برازخ كانت تصل ما بين القارتين ، ومنها برزخ كان موجوداً في محل مضيق جبل طارق لا يزال جبل طارق بأرض الأندلس وجبل موسى المطل على سبتة بأرض المغرب يمثلان طرفيه الشمالي والجنوبي ، ولقد أصبح من الأكيد بعد دراسة بقايا الحيوانات والانسان الأول الذي عاصرها وما تركه من المخلفات بأوربا أن الشمال الافريقي هو المهد الأول للانسان الأبيض ، ويؤيد هذه النظرية ما يشاهد على شواطىء البلاد المغربية من المحيط الأطلسي الى خليج سرت من الأبنية الحجرية التي تشبه كثيراً الأبنية الموجودة باسبانيا وفرنسا وايطاليا الشيء الذي يدل على ان شعباً واحداً بناها قبل العصر التاريخي ، يضاف الى ذلك الاجماع الواقع على انه لا يوجد في العالم بلد سبق تونس الى استخدام الأدوات الحجرية ، وذكر جرجي زيدان في كتابه **(طبقات الأمم)** أن مقابلة جمجمة انسان من بقايا العصر الجليدي بأوربا — وهي أقدم جمجمة متحجرة وجدت هناك — بجمجمة انسان العصرالحجري بشمال افريقيا تدل على أن أوربا عمرها قوم من أهل العصر الحجري نزحوا اليها من شمال افريقيا كما يظهر من آثارهم في سكني غربي أوربا ان المشابهة تامة بين هذه الآثار وآثار أجدادهم بالضفة الافريقية ، وان هذه الآثار البنائية أكثر عدداً منها في سائر البلاد ، فقد وجدوا هناك نحو عشرة آلاف بناء مختلفة الأشكال والأقدار كلها يشبه ما بأوربا فتحققوا بذلك وأمثاله أن الانسان بعد ان ارتقى في شمال افريقيا حيث تكيف بالشكلية البيضاء انتقل بأدواته وصناعته الىأوربا فعمرها، وخلف أمما يطلق عليها العلماء **أورافريكان** Eurafricains أي الأوربيين —

---

42) اختلف المؤرخون والجغرافيون كثيراً في معنى افريقيا وأشهر تأويلات العرب منهم انها سميت كذلك لأنها فرقت بين مصر والمغرب ، والغالب انها مشتقة من كلمة (أفرى) التي أطلقها الفنيقيون قديماً على المغاربة الأصليين ، ومن ثم سميت المنطقة التي يقيمون أفريكان أي بلاد الافرى ، ويقال انها كانت قبل ذلك تعرف باسم لوبيا او ليبيا .

الافريقيين ، ومنهم الايبريون سكان اسبانيا القدماء ، ولا تزال ملامحهم ظاهرة في الباسك Baslones ،ومما يؤيد هذه القضية انه ظهر أخيراً ان لغة الباسك ليست آرية ، وان فيها مشابهة واضحة للغات الشائعة عند برابرة افريقيا الى الآن » ثم يقول « وان هؤلاء الأسلاف نزحوا من افريقيا الى أوربا وليس من أوربا الى افريقيا كما يظن بعض العلماء ، وقد أثبت ذلك الاستاذ م سرجي ، وقرر أن شمال افريقيا هو المهد الآول للجنس الأبيض » .

ويرجح المؤرخون العرب أن يكون المغاربة القدماء من أصل سامي ، مشيرين الى الهجرات المتتابعة التي وقعت من الشرق الى الغرب بعد الطوفان وتصدع سد مأرب ، مستدلين على ذلك بحجج علمية مقبولة ، كوجود عناصر مغربية قديمة سمراء اللون بارزة الجبهة محدبة الأنف مدببة الذقن ، غائرة الخدين جاحظة العينين ، وهذه كلها من ملامح وسمات السلالة السامية ، يضاف الى ذلك وجود حروف في اللغة البربرية التي هي وريثة اللغة المغربية القديمة قلما توجد في غير اللغات واللهجات السامية كالحاء والعين والضاد ، ولا ريب أن هذا الترجيح العربي لأصل المغاربة القدماء وجيه ، ولكنه لا يصدق عليهم جميعاً وانما ينطبق على بعضهم ، لوجود عناصر أخرى ليس لها من ملامح السلالات السامية وسماتها شيء .

ومن العلماء من ادعى أن المغاربة القدماء اخوة زنوج البوشمان الذين لا تزال بقية منهم بجنوب افريقيا ، والظاهر ان الباعث على هذه الدعوى باعث استعماري لا علمي ، يستهدف تشكيك المغاربة في ماضيهم وتحقير أمجادهم لتهون عليهم مقوماتهم ويسهل بالتالي استعمارهم واستغلالهم .

وأول سلالة بشرية معينة عزى اليها المغاربة هي السلالة اليافثية البيضاء ، فعندما ذكر ابن خلدون الأمم المتنسلة من قطوبال أحد أبناء يافث السبعة احتمل أن يكون سكان الشمال الافريقي قبل البربر منهم (43) .

---

43) تاريخ ابن خلدون 2 : 18 ط بيروت 1956 .

والذى يقارن بين أقوال المؤرخين من جهة ، وينظر في المقاييس التى وضعها العلماء المعاصرون لمعرفة السلالات البشرية من جهة ثانية يخرج بنتيجة حتمية وهى أن سكان المغرب الأولين لا ينتسبون الى سلالة واحدة ، وانما يرجعون الى سلالات عديدة نزحت اليه من طرق كثيرة وفي عصور مختلفة ، وامتاز منها جيلان أحدهما في الشمال يعرف **باللوبى** (44) يتميز أفراده ببياض الجلد وزرقة العيون وشهبة الشعر ، والآخر فى الجنوب يعرف **بالافريقى** تشبه سحن أفراده سحن الزنوج الى حد كبير .

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن مجتمع المغاربة القدماء ، ولا شك أنه كان مجتمعاً بدائياً قبلياً تخضع فيه كل قبيلة لرئيسها ، وتتميز بعادات ولغة وعبادة خاصة بها ، والآثار التى عثر عليها ابتداء من القرن الماضى فى جهات كثيرة من البلاد المغربية تؤيد ذلك ، فليس فيها ما يدل على أن المغاربة القدماء كانوا متشابهين فى عيشهم متقيدين بأساليب مدنية متميزة، فأشكال القبور والأوانى والأدوات والحلى والنقوش التى عثر عليها والراجعة الى العصور المتقدمة على التاريخ تختلف فى جهة عنها فى جهة أخرى ، كما أن دراستها ومقارنتها بآثار الشعوب الأخرى تبرز أن بعضها محلى محض تتفاوت درجة اتقان صنعه بتفاوت العصور التى صنع فيها ، وبعضها الآخر شديد الشبه بآثار قدماء أروبا الغربية وجزر البحر المتوسط ومصر والحبشة على الخصوص ، الشىء الذى يدل قبل كل شىء على كثرة الهجرات وتوارد السلالات من المغرب واليه .

ولما كان موضوعنا الآن التحدث عن السلالات والأنساب نرى أن نكتفى بما تقدم فى الحديث عن المغاربة القدماء الذين لا يعدو كلام المؤرخين القدامى والمحدثين عنهم حد الحدس والتخمين .

---

44) نسبة الى لوبيا وهى لفة فى ليبيا التى كانت تطلق فى عصور قديمة جداً على جميع البلاد الممتدة من حدود مصر الى المحيط الأطلسى ، وقد استحسنت كلمة لوبيا للدلالة العامة على المغرب وتخصيص كلمة ليبيا باحدى دوله الحديثة .

الهجرات إلى المغرب

اذا كانت البلاد المغربية هي مهد الانسان الأبيض على أرجح الأقوال فان ذلك لا يعني أنها بقيت معمورة به وحده منذ العصور العتيقة أو أن المغاربة القدماء احتفظوا على الدوام بصفاء اللون ووحدة السلالة ، فالقرائن جميعها تدل على أن الشمال الافريقي تعرض مثل سائر الأقطار في العصور الحجرية والتي تلتها لهجرات بشرية متتابعة ، الشيء الذي جعل فيه السلالات تتلاقح والدماء تتخالط ليتولد عنها في النهاية الانسان المغربي الذي يجمع بحكم ذلك بين المحاسن والمساوىء لسلالات كثيرة .

ولا يستطيع أحد ان يجادل في هذه الحقيقة الا اذا استطاع أن يثبت بأدلة مقنعة الوحدة السلالية بين سكان جبال **الريف** و **زواوة** ذوي البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعور الشهباء وبين سكان واحات شنكيط وتوات ذوي البشرة الدكناء والعيون السوداء والشعور الجعداء .

ولكي نستطيع تكوين فكرة عن أصول القبائل المغربية وأنسابها لابد لنا من الحديث عن العناصر البشرية التي توالى ورودها على المغرب اما انتجاعاً للمرعى وطلباً للرزق واما غزواً وغلبة وامتلاكاً .

وأولى هجرة تتحدث عنها النصوص التاريخية الصحيحة وقعت من المشرق الى المغرب منذ حوالي 7.000 سنة ، فحوالي سنة 5.000 قبل الميلاد قام بمصر الكاهن مينا أو ميناووس أحد الكهنة (الحورشسو) الذين كانت القبائل القبطية تخضع الى حكمهم الديني ، وقد راودت هذا الكاهن فكرة توحيد مصر والاستقلال بملكها فلقي مقاومة شديدة من زملائه الكهنة ولكنه تغلب عليهم في النهاية ونزل الى مصر السفلى وبنى فيها مدينة (منف) وأنشأ بها أول دولة

منظمة عرفها التاريخ ، ثم خطر له أن يزين مدينته ويصلح أراضي مصر الزراعية فحول نهر النيل من مجراه الطبيعي في صحراء لوبيا الى مجراه الحالي ، فأغضب ذلك اللوبيين الذين هلكت انعامهم وجاحت فلاحتهم وثاروا عليه وشنوا الغارة ، ولكنه قهرهم كما قهر الكهنة قبلهم وألزمهم طاعته ، فأنف كثير من أشرافهم من الرضوخ لسلطان ملك متجبر ، وفضلوا الهجرة — بعد ما صارت أرضهم صحراء قاحلة — الى الجهات الغربية ، فساروا الى المغرب وشاركوا فيه سكانه الأصليين الذين عمره آباؤهم وأجدادهم منذ زمن مجهول ، ثم كانت لهم حروب مع **الجيتول** (45) سكان الجنوب المغربي الأقدمين غلبوهم فيها وطردوهم الى مواطنهم الأولى بصحراء جيتولة خلف جبال الأطلس .

واثر استيطان اللوبيين بالبلاد المغربية جرت بينهم وبين اخوانهم بالشرق وجيرانهم بالشمال اتصالات تجارية لم تفتأ تنمو مع الأيام ، وكانت البضائع تنقل من جهة الى أخرى على متون السفن أو فوق ظهور الدواب حسب الجهة التي توجه اليها ، وقد لفتت هذه الاتصالات أنظار كثير من الجماعات البشرية وحبب اليها المجيء الى المغرب جودة تربته واعتدال هوائه ووفرة خيراته وسعة أرضه فتدفقت عليه من جهات بعيدة وقريبة ، تارة محاربة غازية ، وتارة أخرى مهادنة مسالمة .

وخلال هذه العصور الموغلة في القدم كان للعرب القحطانيين أهل اليمن دولة ترتبط بعلاقات سياسية وتجارية مع بلاد الهند وشواطىء افريقيا الشرقية ، وكانت السفن اليمنية تحمل البضائع الهندية الى أرض سبأ وحضرموت ، ومنها تنقل الى الحبشة ومصر وسوريا وحتى افريقيا الشمالية ، وكان القحطانيون لا يجدون صعوبة كبرى في التفاهم مع أهل الأقطار المذكورة وتنمية التبادل التجاري معهم ، لأنهم كانوا يتكلمون لغة تقرب من لغات أكثر الأمم المتمدنة في هاتيك الأحقاب .

وفي أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد غزا المغرب أبرهة بن الرائش أحد ملوك العرب البائدة الملقب بذي المنار والذي ترجح جماعة من المؤرخين انه ذو القرنين المذكور في القرآن ، وقبل رجوعه منه خلف به أقواما كثيرين يقال انهم جدود قبيلة **صنهاجة** وقبيلة **كتامة** .

---

45) سكان صحراء جيتولة الواقعة بجنوب المغرب ، ويقال ان كلمة جزولة مشتقة منها .

ومنذ ذلك الحين بدأت الاتصالات تجرى بين دولة اليمن والبلاد المغربية بواسطة مصر ، خصوصاً بعد ما أتم الوزير حنو تمهيد الطريق بين البحر الأحمر وبين مدينة قفط المصرية بأمر الفرعون سنخ كارع أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ، وكان ذلك حوالى سنة 2851 ق. م فكانت السفن تأتى من اليمن محملة ببضائع الهند وشبه الجزيرة العربية الى المراسى المصرية الواقعة على البحر الأحمر وخليج السويس ، ومن هناك تنقلها القوافل الى داخل مصر أو تسير بها شطر المغرب ، ومع هذه الحركة التجارية والمواصلات البرية والبحرية دخلت عناصر بشرية جديدة على سكان مصر والمغرب معاً .

ولم تخمد نيران الحروب بين الأسر المصرية الحاكمة وبين اللوبيين طيلة المدة الواقعة بين بناء مدينة منف وانشاء طريق قفط ـ البحر الأحمر ، وكان النصر يحالف المصريين فى الغالب بسبب نظام جنودهم وحسن سلاحهم ومهارة قيادتهم ، وكان المصريون كلما انتصروا على قبيلة لوبية أجلوها الى المغرب ، واستمرت الحال كذلك الى أن دخل العرب الرعاة (الهيكسوس) أرض مصر وجلسوا على عرشها ، فهدأت تلك الحروب نوعاً ما وعاد الاتصال بين شبه الجزيرة العربية وبين مصر والمغرب أقوى مما كان فى الماضى ، واستمر حكم الهيكسوس لمصر من سنة 2214 الى سنة 1703 ق. م وكانوا يستعينون على حكم القبط بأعدائهم اللوبيين وغيرهم ومن أشهر ملوكهم الفرعون (ايابى اعاكنن) الذى يسميه المؤرخون العرب الريان بن الوليد ، وفى أيامه نزح كثير من أهل الشام والجزيرة الى مصر واستوطنوها ، ووفدت السيارة الذين أنقذوا يوسف من الجب وباعوه الى عزيز مصر قطفير المسمى باللغة القبطية بوفير ومعناه هدية الشمس ، وبجلوس يوسف على عرش العزة تفتحت أبواب مصر أمام الفلسطينيين، فاستاء أهلها من مزاحمتهم لهم ومشاركتهم فى الكبيرة والصغيرة من أمور بلدهم ، ونظموا ثورتهم الاستقلالية بقيادة الفرعون (أحمس) أو (اموزيس) المتحالف مع صهره ملك الحبشة ، وقد انتهت هذه الثورة بطرد الهيكسوس من أرض مصر ومطاردة المصريين لهم الى العراق ، ولما تم لهم الاستقلال التفتوا الى الجماعات العربية التى بقيت بمصر والجماعات الأخرى التى لم تساهم فى الثورة فاضطهدواها وضيقوا عليها حتى

اضطروها الى الهجرة ، فهاجرت الى المغرب حاملة معها حضارة المصريين وثقافتهم ودياناتهم ، وقد عثر في **الزناكة** بواحات فكيك وغيرها من صحراء المغرب على صور منحوتة في الجبال من صنع قدماء المغاربة تمثل (عمون رع) أحد آلهة قدماء المصريين .

وبعد سنة 1.600 ق . م غزا المغرب الفرعون (تومیس) الملقب باسكندر التاريخ المصرى ووصلت جنوده الى حدود المغرب الأقصى ، ولكنه لقي مقاومة شديدة فارتد عنه مخلفا فيه جماعات من الجنود اندمجوا في أهله .

وحوالى سنة 1.500 ق . م اكتشف البحارة الفنيقيون سواحل الشمال الافريقي فأنشئت بينه وبين بلدهم فنيقيا علاقات جديدة مباشرة ، وكان تعرفهم عليه وانشاؤهم متاجر على طول تلك السواحل سبباً في تدفق موجات بشرية أخرى عليه .

وفى هذا العصر بدأ أمر العبريين ينتظم تحت راية النبى يوشع فحاربوا الفلسطينيين وأجلوهم عن وطنهم ! ولما منع الفراعنة مهاجريهم من الاقامة بأرض مصر تابع هاؤلاء مسيرتهم الى المغرب حوالى سنة 1.300 ق . م وكانوا يتألفون من عناصر كثيرة اشتهر منها **الكنعانيون و اليقشانيون** (46) و **العماليق** (47) وبعد ذلك توالى اضطهاد الفلسطينيين من طرف العبريين، ومن أشهر الملوك الذين اضطهدوهم الملك طالوت (شاوول) الذى تولى العرش سنة 1.095 ق . م وهو أول ملك لبني اسرائيل بعد عصر القضاة ، والملك داود الذى أخرج سنة 1.055 من بقي منهم بأرض شنعار فسار بعضهم الى مصر ومنها هاجر الى المغرب ، وقصد بعضهم الآخر فنيقيا ومنها هاجر اليه بحراً .

وقد صحب الكنعانيين خلال هجراتهم المتعددة الى المغرب طوائف مختلفة تنتمى الى سلالات أخرى ، بعضها افريقى رافقهم براً وهم يقطعون القفر

---

46) ذكر ابن خلدون (التاريخ 2 : 70 بيروت 1956) أن ابراهيم الخليل تزوج بعد سارة بقنطورا بنت يقطان الكنعانية ، فولدت له ستة أولاد منهم يقشان فكان من نسله جيل من البربر .

47) أولاد عمليق بن لاوذ بن سام ، كان موطنهم بالصحراء التي بين العراق والعقبة ، وكانت لهم بها دولة عتيدة وحضارة سامية .

اليه ، وبعضها أوربى صحبهم بحراً عندما عرجت السفن الفنيقية التى نقلتهم على الشواطىء الايطالية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، ومن هذه الطوائف الاترسك والأوسز أهل ايطاليا ، والليغوريون ، والصيقال أهل جزيرة صقلية .

ولا شك فى أن الهجرة الكنعانية هى أهم الهجرات التى عرفها المغرب بعد العصر الحجرى وقبل مجيىء الاسلام ، لأن الكنعانيين كانوا من الكثرة بحيث أثروا تأثيراً عظيماً على سكانه الأولين حتى صرح عدد من المؤرخين انهم أصل البربر غافلين عن أهله القدماء والعناصر البشرية الأخرى التى سبقتهم اليه واستوطنته قبل مجيئهم بقرون .

وقد اضطربت أقوال المؤرخين فى نسب هاؤلاء الكنعانيين ، وسبب اختلافهم اعتماد بعضهم على جدول الانساب الوارد فى التوراة ، وشك بعضهم الآخر فى صحته وسلامته من التحريف ، وهذا الجدول الوارد فى الاصحاح العاشر من سفر التكوين هو الذى قسم الأسرة البشرية الى آل سام ، وآل حام وآل يافث ، ومن المؤكد ان اليهود كانوا يحذفون من الفرع السامى الذى ينتسبون اليه الشعوب والقبائل التى تحاربهم كالكنعانيين ، والصيدونيين وكركاش وايمورى وغيرهم من أبناء سوريا وفلسطين ويلحقونهم بالفرع الحامى مع علمهم انهم اخوانهم وشركاؤهم فى النسب تحقيراً لهم لآن حام بزعمهم ابن عاق لأبيه نوح ، بينما كانوا يضيفون اليه عوضاً عنهم قوماً آخرين لم يحاربوهم كآل عيلام وآل فارس وآل ليديا مع أنهم من الفرع اليافثى الآرى ، وممن اعتمد جدول التوراة فى الانساب العلامة ابن خلدون الذى يعتقد ان التحريف الذى وقع فيها انما هو بالتأويل لا بتبديل الألفاظ (48) ولهذا نجده يؤكد بقوة ان كنعان من ولد حام وليس من ولد سام بن نوح ، وممن شك فى صحة الجدول المستشرق الألمانى الكبير بروكلمان الذى ذكر صراحة (أن اليهود هم الذين اقصوا الكنعانيين عن جدول بنى سام لأسباب سياسية ودينية ، مع انهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية المتينة (49) .

48) تاريخ ابن خلدون 2 : 11 ط بيروت 1956 .

49) تاريخ اللغات السامية ص 2 .

وقد دخل المغرب بعد هجرة الكنعانيين فى حياة جديدة ارقى بكثير من حياته الأولى ، فالمهاجرون الجدد جاءوا معهم بصنوف من الثقافة والحضارة لم يكن للمغاربة القدماء بها عهد ، فشمل التطور القرى والمداشر بالسهول والجبال وأصبحت القبائل تلتحم وتتكتل وكأنها تتهيأ لتصبح شعباً منسجماً ، ومع أنها لم تستطع تكوين دولة تجمع شتاتها تحت سلطان واحد فانها كانت بلغت من الوعي القومي درجة تجعل امتلاك الأجنبي لها أمراً عسيراً ، وقد اقتصر الفنيقيون (50) الذين تعرفوا على الشواطىء المغربية في الألف الثانية قبل الميلاد على اقامة متاجر بالساحل ليست لها صبغة سياسية ولا عسكرية ، مثل سوسة وبنزرت وصلداى (بجاية) وهبو (عنابة) وتينجيس (طنجة) وليكسوس (العرائش) وروسادير (مليلية) .

وفي سنة 814 أو 880 ق . م حدثت هجرة جديدة كان لها أثر سياسي وسلالي حاسم على البلاد المغربية ، فقد جاءت الأميرة الفنيقية جونو أو عليشة ديدون أرملة أسرباس رئيس كهنة مدينة صور الى الشواطىء المغربية فارة من ظلم أخيها بيغماليون المستبد دونها بالملك والمستأثر وحده بكنوز زوجها وتراثه ، وأنشأت بلطف ومهارة مدينة قرطاجنة قرب مدينة تونس الحالية ، ورافقها في فرارها الى المغرب أنصارها من أشراف الفنيقيين وعامتهم ، وماكاد خبر تأسيس المدينة الجديدة يشيع حتى قصدها كثير من أهل الشام وأوربا الجنوبية وجزر البحر المتوسط فعمرت بهم حتى قدر عدد الساكنين فيها بمليون نسمة ، وقد امتزج القرطاجنيون بأهل البلاد امتزاجاً وثيقاً عن طريق المصاهرة فكان أشراف الأهالي وأمراؤهم يتزوجون سيدات قرطاجنيات وفنيقيات وبالعكس ، فنشأ عن ذلك جيل مختلط يعرف بالفنيقيين — اللوبيين كانت له لغة خاصة وخط خاص يعرف بالمسند اللوبي ، وبفضل هذا التمازج وتأسيس
حكومة وطنية في قرطاجنة انفتحت طرق الصحراء في وجه التجارة ، وصارت ١
القوافل تغدو وتروح محملة بالبضائع بين المتاجر الساحلية وواحات الصحراء

---

50) الفنيقيون هم الكنعانيون أنفسهم ، وقد اخترنا أن ندعو باسم الكنعانيين الجماعات التي هاجرت الى الشمال الافريقي بقصد الاستقرار ، وباسم الفنيقيين الآخرين الذى أسسوا بشواطئه مراكز للاتجار ، والاغريق هم الذين سموا الكنعانيين فنيقيين ، وكان ذلك حوالى 1200 قبل الميلاد .

ومشارف السودان ، وبسبب هذا الرواج أمكن لعدد من الأسر والقبائل الافريقية أن تتسرب الى المغرب سالكة طرق القوافل التقليدية ، وتساكن المغاربة في القرى والواحات الواقعة خلف جبال الأطلس وتمتزج بهم بعد ذلك.

وبتأسيس الدولة القرطاجنية يمكن أن يقال ان البلاد المغربية دخلت في التاريخ ، اذ قبل ذلك لم تكن تتوفر لدى المؤرخ الا معلومات ضعيفة مبعثرة عنها خالية من الضبط والتدقيق أكثرها مقتبس من الأساطير الشائعة أو مستنتج من الأبحاث والآثار الاركيولوجية التي لا تصل الى حد الجزم واليقين ، ومن أخبار الهجرات والاستيطان التي لا يمكن تحديد زمنها ما رواه المؤرخ الروماني سللسطس في كتابه (حروب يوغورطة) عن هجرة الميد (51) والأرمن والفرس الى المغرب واندماجهم في أهله ، فقد ذكر أن الملك هيركوليس أحد ملوك بحر ايجي على ما يظهر استأجر منهم جنوداً وهجم بهم على ابيريا (اسبانيا) ، ولكنه هلك بعد دخوله اليها ، فطارد الايبران جيوشه بعد هلاكه فتفرقت في البلاد المجاورة ، وعبر الميد والأرمن بحر الزقاق الى شمال المغرب واستوطنوه واندمجوا في سكانه اللوبيين ، أما الفرس فانهم أبحروا أيضاً اليه مقتفين اثر اخوانهم ، ولكن الريح حولت وجهة سفنهم الى المحيط الأطلسي وألقت بهم على شاطىء المغرب الجنوبي حيث وجدوا أهله الجيتول يحيون حياة بدائية أقرب الى الوحشية منها الى الانسانية ، ورغماً عن ذلك اختلطوا بهم بواسطة المصاهرة واندمجوا فيهم كما اندمج الأرمن والميد باللوبيين فتولد عنهم جيل خلاسي كانت له صولة وسلطان في تكوين دولة نوميديا بشرق الجزائر فيما بعد ذلك بعدة عصور .

وقريب من هذا ورد في كتب أخرى ، مثل كتاب (الجغرافيا الافريقية القديمة) الذي ذكر أن الفاروسيين (يعني الفرس) استعمروا هذه الأرض واختلطوا بسكانها ثم عرفوا فيما بعد باسم نوميدا أو نوماد ومعناه بلغتهم الرمل .

ومع أن تاريخ هذه الهجرة غير معين ، والمسافات الفاصلة بين المغرب وبلاد الأرمن والفرس والميد بعيدة جداً ـ يميل عدد من المؤرخين

---

51) من شعوب الشرق الأوسط وهم أبناء عم الفرس .

الى تصديقها ، مستدلين على ذلك بتسمية مضيق جبل طارق الحالى بمجاز أعمدة هرقل فى التاريخ القديم ، وبوجود اسماء جغرافية مشتركة بين فارس والمغرب الشيء الذى يبعد أن يكون مجرد صدفة واتفاق .

أما بعد تأسيس قرطاجنة فان تاريخ المغرب أصبح معروفاً بتدقيق، وهو يحدثنا عن الجنود المرتزقة الذين كانت قرطاجنة تستأجرهم من أقطار أوربية ومن جزر البحر الأبيض المتوسط ليحموها ويثبتوا الأمن فى المناطق التى بسطت عليها سلطانها ، كما يحدثنا عن الهجرات التى حدثت فى عهدها ، ومن أعظمها الهجرات اليهودية التى ابتدأت سنة 586 قبل الميلاد عند ما فتح الملك البابلى بختنصر Nabuchadnezzar عاصمتهم أورشليم — بيت المقدس — وشردهم منها فجلوا عنها الجلاء الأول المعروف عند المؤرخين بجلاء بابل ، وسارت منهم جماعات مستضعفة الى الشمال الافريقى حيث نزلوا على اخوانهم الكنعانيين والفنيقيين ، ثم كان الجلاء الثانى سنة 70 م عند ما شقوا عصا الطاعة على الرومان فأخمد الأمبراطور تيتوش ثائرتهم وخرب بيت المقدس الخراب الثانى وهيكلهم به وشتت شملهم فتفرقوا فى العالم وقصدت منهم جماعات وفيرة العدد المغرب فى هذه المرة أيضاً كما توالت هجراتهم اليه فيما بعد ، ويقال ان بعض القبائل البربرية مثل **جراوة** (52) و **نفوسة** و **مديونة** انحدر من أصلاب هاؤلاء المهاجرين أو اعتنق فقط الدين اليهودى على أيديهم ، لأن الاسلام أدركه وهو على دين موسى .

وقد أشار هيردوتس المؤرخ اليونانى الذى زار المغرب فى القرن الخامس قبل الميلاد الى أن لوبيا (ويعنى بها الشمال الافريقى كله ما عدى مصر) كان يسكنها جنسان وطنيان :

---

52) من هذه القبيلة ابو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى الفاسى شاعر الدولة الموحدية (528 ؟ — 609 هـ) وهو الذى استجداه شاعر بقصيدة فوقع له فى أسفلها :

يا من يجدى لمن يجدى   أسرفت واللہ فى التعدى
أنا أجدى الأنام طراً   وأنت تبغى النوال عندى

قال أبو بحر صفوان بن ادريس مؤلف كتاب زاد المسافر : فحدثنى الشاعر المذكور انه زاد بعد هذين البيتين :

نسبت للمسلمين السى   وكان شيخ اليهود جدى !

فلما وقف عليه الجراوى أجازه ورغب أن لا يسمعه لأحد .

1) **اللوبيون** فى المناطق الساحلية وذكر أنهم من جنس البحر الأبيض المتوسط أكثر مما هم أفارقة .

2) **الزنوج** سكان المناطق الداخلية ، سواء كانوا زنوجاً حقيقيين ، أو سوداً من العنصر الافريقى المميز .

وذكر هيردوت من قبائل الجنس الأول : **الناسامونيون** ، **والماكاى** ، **والكارامنتيون** ، **والاوليميديون** ، **والجيتول** مبيناً أن بعض هذه القبائل كان يستعمل عربات تجرها أربع أفراس لصيد الزنوج ساكنى الكهوف وتسخيرهم كالعبيـــد .

وبعد ذلك ازداد تفتح المغرب على الخارج وكثر ورود الناس من أجناس مختلفة عليه ، سيما اثناء الحروب البونيقية وأيام الحكم الرومانى التى أصبح فيها جزءاً من الأمبراطورية الرومانية ونعم بسلم ملحوظ ، ثم كان مرور الواندال به واستيلاء اليونانيين على طرف من سواحله فكثر الاتصال وتواصل الامتزاج وقوى التأثير من طرف فى آخر رغم ما أثر عن الغزاة الفاتحين من تكبر واستعلاء .

وخلاصة القول أن الشمال الافريقى غمرته خلال تاريخه القديـم موجات بشرية تدفقت عليه من الشرق والشمال والجنوب ، وجميع الطوائف التى وردت عليه كانت تتخالط وتتكامل بالمصاهرة وطول الجوار ، مثله فى ذلك مثل سائر البلدان التى عرفت فى ماضيها وستعرف فى مستقبلها اختلاط السلالات وتلاقح الأجناس ، أما الشك فى ذلك أو التقليل من أهميته فلا باعث عليه الا ضيق الثقافة وسعة التعصب ، لأن العالم لم يوجد فيه يوم وجد النوع البشرى الا آدم واحد ما فتئت ذريته تنمو وتكثر وتمشى فى مناكب الأرض بحثاً عن الرزق والتماساً للسعادة مستعينة بالقرابة الوشيجة على تذليل الصعاب ودرء الأخطار مكونة فى البداية تجمعات أساسها القبيلة ومؤسسة فى النهاية دولا قوامها الأمم والشعوب .

البربــــر

البربر أول أمة عرفت باسم متميز من سكان المغرب منذ بدأ تدوين التاريخ ، فهم سكان الشمال الافريقى من صحراء ليبيا الى المحيط الأطلسى ومن البحر المتوسط الى حوض السنيغال والنجير ، انحدروا من أصلاب المغاربة القدماء مختلطين مع مرور الزمان بمن كان ينحاز الى بلادهم وينضاف اليهم من القبائل المهاجرة والشعوب الغازية حتى أصبحوا أمة متميزة بلغة وعادات ومزاج وأسلوب خاص فى الحياة .

وصفهم ابن خلدون فى فقرة جامعة من تاريخه فقال : (ان هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ، ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ، ويظعن أهل العز والغلبة منهم لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفر الأمس ، ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأظعان فى نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالاكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم فى الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها بالحلق ، ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها ، وهى التى اختصوا منها بهذا الاسم (53) .

وقبل الحديث عن نسب هذه الأمة وتفرعها الى شعوب وقبائل لابد من الحديث عن معنى كلمة بربر التى صارت علماً على سكان الشمال الافريقى الأصليين قبل ظهور الاسلام بقرون .

---

53) تاريخ ابن خلدون 6 : 175 .

معنى كلمة بربر

البربرة فى اللغة تخليط فى الكلام مع غضب ونفور ، يقال بربرت الدلو صوتت فى الماء ، وبربر فلان أكثر الكلام فى جلبة وصياح ، وبربر التيس أو الأسد علا صوته عند الهياج ، وسمى الأسد بربارأ بسبب ذلك .

أورد ابن خلدون فى صيغة الشك ان افريقيش بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقيا وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار — وباسمه زعموا سميت افريقيا — ورأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر (54) .

ويعتقد العلامة بوسكى ان كلمة بربر مشتقة من كلمة بارباروس Barbarus اللاتينية ، ومعناها الشخص الجاهل المنتمى الى الشعوب العديدة المتخلفة التى لم تخضع لسلطان روما .

ويقال أن الكلمة مشتقة من كلمة فارفاروس Varvaros اليونانية وهى أيضاً تدل على اللغط واختلاط الأصوات ونطق الألثغ ، ومن ثم أطلقها اليونانيون على كل من لا يتكلم لغتهم ، وسموا ايطاليا **بارباريا** لهذا السبب ، وقد حذا الرومان حذوهم فى السنين الأولى من دولتهم وكذلك فى العهد الجمهورى المتأخر فأطلقوا اسم **بربرى** على كل من لم يكن رومانيا ولا ايطاليا ، ولما أخضع اباطرة روما عديداً من الشعوب والقبائل سموا رومانياً كل من خضع لسلطتهم **وبربريا** كل من لم يخضع لها ، وسموا البلاد التى لم يشملها نفوذهم أو عصتهم بعد طاعة **بارباريكوم** أى بلاد البارباړ ، ومنه جاء لفظ **بارباريسى** الذى كانوا يسمون به القبائل الساكنة خارج حدود ولاياتهم أو الساكنة داخلها برضا اباطرتهم ومعناه البربر اللطفاء ، كما جاءت منه كلمة **بارباريسى و باربارجيا**

---

54) تاريخ ابن خلدون 6 : 176 ط بيروت 1956 .

الذي سميت به قبيلة بجزيرة سردينيا قاومت حكمهم وأبت الرضوخ لسلطانهم وما زالت تحمل هذا الاسم الى الآن ، وكان المحيط الهندي يسمى عندهم **البحر البربري** وتبعهم العرب في هذه التسمية على ما يظهر فسموا خليج عدن بالخليج البربري ، واطلقوا أيضاً **بارباريكوم** على فرضة بمصب نهر السند ، **وبارباري** على مدينة بمصر العليا ، **وبربرة** على مدينة أخرى بالصومال ، **وبارباریاس** على سواحل المانيا وما على ضفاف نهر الدانوب بل انهم دعوا جميع الشعوب الجرمانية **باربار** لقسوتهم من جهة وجهلهم باللغة الرومانية من جهة ثانية ، ووجد في قوانين كنيسة افريقية قديمة ان الاسم فارفاريكوم يطلق أيضاً على الشعب الذي كان يسكن في حدود بريطانيا .

ويدعي العلامة « فيفيه » ان هذه الألفاظ كلها مأخوذة من لفظة **« واروارا » ومعناها باللغة السنسكريتية : غريب (55) .**

وخلاصة القول ان لفظة بربر وباربار تدل في جميع اللغات الحية اما على الرطانة والجلبة والضوضاء ، واما على الجهل والقسوة والهمجية ، ولم تكن في العصور البدائية تطلق على جنس معين ، وانما كان الحكام والمؤرخون والرحالون يطلقونها على الأمم التي تخالفهم في الجنس أو اللغة أو الدين وعلى الجماعات المتخلفة ولو كانت من جنسهم ، وعلى الشعوب المعادية ولو كانت أرقى منهم ، وقد ذكر المؤرخ الرحالة الاغريقي هيردوتس في أول تاريخه (أن الغرض من أبحاثه الدقيقة هو أن يحفظ من النسيان وقائع الأجيال الماضية والحاضرة وعظائم الاغريقيين والبربر وأعمالهم العجيبة (56) فكلمة البربر تاتي عنده في مقابل كلمة الاغريق بدليل انه ابتدأ كلامه بعد ذلك التعميم بذكر الفرس والفنيقيين ، وعثر في هيكل الكرنك ـ بمصر العليا ـ على كتابة يرجع تاريخها الى زمن رمسيس الثاني أحد فراعنة مصر العظماء جاء فيها (ان من أمم الجنوب (57) التي قهرها الفرعون المذكور وأخضعها الى حكمه أمة

55) دائرة المعارف للبستاني 5 : 276 و 277 .

56) تاريخ هيرودوتس ص II .

57) يديد الحبشة والأقطار التي تجاورها .

البيرابيراتا ، فدل كل ذلك على أن كلمة بربر كان لها مدلول عمومي ككلمة عجم التي تدل عند العرب على جميع الشعوب التي لا تتكلم اللغة العربية ، تلك الشعوب التي لكل منها اسم خاص يعرف به ويتميز بين أمم العالم .

أما متى وكيف صارت كلمة بربر علماً على المغاربة الأصليين فالراجح — اذا صرفنا النظر عن رواية ابن خلدون المتقدمة التي ساقها في صيغة الشك والاحتمال — انها اسم أحد جدودهم ، أو أن اليهود أطلقوها على خصومهم الكنعانيين ، فلما هاجرت القبائل الكنعانية من أرض شنعار مارة في طريقها البحري والبري الى المغرب بعدد من شعوب البحر المتوسط حملت معها هذا الاسم الذي صار بعض الأمم القوية المتحضرة كاليونان والرومان يطلقه فيما بعد على جميع سكان المغرب ، ثم جاء العرب بعد قرون فأقروه لأنهم لم يجدوا اسماً جامعاً لأمة الشمال الافريقي غيره .

أما البربر الذين يعنيهم الأمر قبل غيرهم فانهم لم يعرفوا هذا الاسم في القديم كما انهم لا يعرفونه في الحديث ، فقد كان آباؤهم الأقدمون يدعون باللوبيين والأفارقة والجيتول المشتقة من أسماء الجهات التي كانوا يقيمون بها ، ثم صار لكل قبيلة منهم اسمها الخاص الذي تتميز به ، وربما أطلق اسم **الشلوح** — واحده **شلح** — على مجموعة قبلية منهم أو عليهم جميعاً وفي الصدر الأول للاسلام لما حضر رسلهم أمام الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح مصر واستنسبوا قالوا انهم من اولاد **مازيغ** الذين كانوا أصحاب البلاد الواقعة بين خليج العرب (البحر الأحمر) والبحر المحيط ، وهذا الاسم الذي معناه الحر الأبي هو الذي يفضلون أن يدعوا به وان لم يكن معروفاً عند جميع قبائلهم — على اسم البربر الذي أطلقه اليهود على احدى الجاليات التي هاجرت اليهم في عصر قديم .

أصـول البربر

سلك العلماء والمؤرخون طريقين لتحديد سلالات البربر ومعرفة انسابهم ، أحدهما يعتمد النصوص الواردة عن تلك الأنساب سواء كانت مستخلصة من أقوال النسابين البربر أنفسهم أو مستخلصة من أقوال غيرهم ، ويمكن تسمية هذا الطريق بطريق الرواية لأنه يعتمد عليها وحدها ولا يلتفت الى غيرها . أما الطريق الثاني فيمكن تسميته بطريق الدراية ، لأنه يعتمد على القواعد العلمية المقررة في الانتروبولوجيا لمعرفة الأجناس والسلالات وتحديد أصول الجماعات البشرية ، فهو يهتم بالألوان والسحن والذوات واللغات والعادات والطبائع والأمزجة والعوامل الجغرافية والتأثيرات المناخية أكثر مما يهتم بالنصوص الدينية والروايات التاريخية التي يستأنس بها فقط .

وسنسلك نحن الطريقين معاً ونستعرض جميع الأقوال والنظريات والآراء التي يوجد من الحجج ما يثبتها حيناً وينفيها حيناً آخر لنستنتج في النهاية على ضوء كل ذلك رأينا الخاص في السلالات والانساب البربرية .

طريق الرواية :

بحث المؤرخون والنسابون طويلا في أرومات البربر وتحدثوا كثيراً عن أنسابهم ، ولكنهم لم يتفقوا على رأي واحد ولم يصلوا الى نتيجة مقنعة ، فقد ذهبوا في أصل البربر كل مذهب ولم يتركوا سلالة من السلالات الحامية والسامية واليافثية (58) الا جعلوهم متنسلين منها، ولا يمكن لأي باحث أن يطمئن الى رأي أو يثق بقول ، اذ جميع الروايات والنقول يكتنفها القلق والاضطراب ، وتقبل النقض والاعتراض ، سواء كانت منسوبة الى علماء مبرزين ذوي شهرة واسعة كابن عبد البر وابن حزم وابن خلدون ، أو معزوة الى علماء آخرين يقلون عنهم سعة علم وذيوع صيت .

---

58) نحن هنا في طريق الرواية نعطي للنسبة الى سام وحام ويافث دلالة سلالية سيراً مع المذهب القديم وقد تقدم لنا في ص 248 أن علماء الانتروبولوجيا الحديثة لا يوافقون على ذلك بل منهم فقط من يعطي لتلك النسب دلالات لغوية فقط .

فمنهم طائفة مالت الى النسبة الحامية ودافعت عنها بحماس وعدتها أصدق وأصح ما ورد في نسب البربر من أقوال ، ولكنها اختلفت فيمن هو جد البربر من أبناء حام ، فالصولى يذكر انهم من ولد بربر بن كسلوجيم بن مصرائيم بن حام ، وأبو عمر بن عبد البر يرجح أنهم من ولد قبط بن حام ، والأكثر على انهم ولد مازيغ بن كنعان بن حام ، وعن هذه النسبة الاخيرة يجدر التذكير بالشبهات الحائمة حول بنوة كنعان لحام ، فقد كاد يكون من المحقق أن اليهود أقصوا عمداً الكنعانيين عن النسب السامي الذى ينتمون اليه وألحقوهم بالنسب الحامي تحقيراً لهم لعداوة كانت بينهم مع علمهم انهم أبناء عمهم وأقرب الناس اليهم وحرفوا جدول الانساب الوارد في التوراة لأجل ذلك .

وبخصوص هجرة الحاميين الى المغرب يروى عن الصولى وأبى عبيد البكرى ان خصومات وقعت بينهم وبين الساميين انجلوا اثرها اليه ونسلوا به ، ويروى عن البكرى وحده ان الذى هاجر اليه هو حام نفسه ، فر حياء لما اسود بدعاء أبيه عليه واتبعه بنوه وهلك عن أربعمئة سنة ، وكان من ولده بربر بن كسلوجيم فنسل بنوه به ، ويعطى ابن عبد البر تفصيلات أدق عن الهجرة الحامية ، فعنده ان أول من هاجر من الحاميين هم أبناء قبط بن حام ، فبعدما استقر أبوهم بمصر خرجوا منها متجهين غرباً فسكنوا عند آخر عمالتها من برقة الى البحر الأخضر (الأطلسي) مع بحر الأندلس (المتوسط) الى منقطع الرمل متصلين بالسودان ، فمنهم **لواتة** آهلين بارض طرابلس ، ونزل قوم بقربها وهم **نفزة** ، ثم امتدت بهم الطرق الى القيروان وما وراءها الى تاهرت وطنجة الى سجلماسة والسوس الأقصى ، وهم طوائف **صنهاجة** و **دكالة** من **وركلاوة** و **فطواكة** من **هسكورة** و **مزطارة** (مستارة) .

ومنهم طائفة أخرى ذهبت الى ان البربر يرجعون الى أصل سامي ولكنها لم تتفق على الفرع السامي الذى ينسبون اليه، فعند ابن خلدون نقلا عن الطبرى أن أحد أجيالهم من ولد يقشان بن ابراهيم ، وعند غيره أنهم من العرب العاربة أو المستعربة ، ومن القبائل العربية التى ذكرت كأصل من أصولهم : حمير ، وغسان ، ولخم ، وجذام ، ومضر ، وقريش ، وادعى آخرون أنهم أوزاع من اليمن ، أو من ولد جالوت .

وتشبه كيفية انتقال الساميين الى المغرب عند هذه الطائفة كيفية انتقال الحاميين عند الطائفة الأولى ، فالمسعودى روى أنهم تفرقوا عند سيل العرم ، وذكر غيره أن أبرهة ذا المنار غزا بهم المغرب وخلفهم به عند رجوعه ، وروى أيضاً أن منازلهم كانت بفلسطين حتى أخرجهم منها بعض ملوك فارس ، وذكر بعض أهل الآثار أن ساماً خرج الى المغرب بعد خلاف حدث بين بنيه وبين بنى أخيه حام ، فقدم مصر وتفرق بنوه ومضى على وجهه حتى بلغ السوس الأقصى وخرج بنوه فى اثره يطلبونه ، فكانت كل جماعة منهم كلما بلغت موضعاً وانقطع عنها خبره أقامت به وتناسلت مختلطة بمن وصل اليها من الطوائف الأخرى فيما بعد .

ويعطى ابن عبد البر تفصيلات أدق مما رآه فى كتـــاب الأسفنداد الحكيم ، فقد روى أن البربر من ولد النعمان بن حمير بن سبأ الذى كان ملك زمانه فى الفترة ، وقد خطر لهذا الملك ذات يوم أن يعمر المغرب فجمع بنيه وأعرب لهم عن نيته فى توجيههم اليه ، فراجعوه ولكنهم لبوا رغبته فى النهاية لما رأوا من عزمه ، فبعث منهم لمت أبا **لمتونة** ، ومسوف أبا **مسوفة** ، ومزطار أبا **مزطارة** (مستارة) وسكور أبا **هسكورة** ، وأصناك أبا **صنهاجة** ، ولمط أبا **لمطة** ، وأيلان أبا **هيلانة** ، فنزل بعضهم بجبل درن ، وبعضهم بدرعة ، وبعضهم بالسوس ، ونزل لمط عند جزول وتزوج بابنته ، ونزل أجانا وهو أبو **زناتة** بوادى شلف ، ونزل **بنو ورتجين و مغراوة** أبناء ورتجين ومغراو بأطراف افريقية من جهة المغرب ، ونزل مصمود أبو **مصمودة** بمقربة من طنجة .

ورجحت طائفة ثالثة من العلماء أن يكون البربر منحدرين من سلالة يافثية آرية ، ومن هذه الطائفة العلامة دوبرا Duprat الذى ذكر أن البربر من جنس آرى هاجر من نواحى الكنج بالهند .

وترى طائفة رابعة من المؤرخين والنسابين أن البربر اخلاط من شعوب وقبائل كثيرة ، فعن مالك بن المرحل انهم قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم افريقش البربر لكثرة كلامهم ، وعن هانىء بن بكور الضريسى ، وسابق بن سليمان

المطماطى ، وكهلان بن أبى لؤى ، وأيوب بن أبى يزيد وغيرهم من نسابى البربر انهم فرقتان : البربر البتر ساميون من ذرية بر بن قيس عيلان المضرى ، والبربر البرانس حاميون من ولد مازيغ بن كنعان بن حام ، وقال الطبرى : انهم أخلاط من كنعان والعماليق .

أما سبب هجرة هذه الجماعات الخليطة الى المغرب فالأكثر على أن افريقش استجاشهم من سواحل الشام ومشارف جزيرة العرب لغزو افريقية وينشدون من شعره فى ذلك :

بــربــرت كنعــان لمــا سقتهــا من بلاد الضنك للخصب العجيب
أى أرض سكــنــوهــا ولــقـــد فازت البــربــر بالعيش الخصيب

ولما قفل افريقش من غزوه ترك بالمغرب حوامى من الجيش الذى جاء معه وهم أصل قبيلتى **صنهاجة و كتامة** .

وذكر ابن الكلبى ان الناس اختلفوا فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحى ، قيل يا داود أخرج البربر من الشام فانهم جذام الأرض ! وقيل يوشع بن نون ، وقيل افريقش ، وقيل بعض ملوك التبابعــة ، وعند البكرى ان بنى اسرائيل أخرجوهم بعد قتل جالوت ، وللمسعودى والبكرى انهم فروا بعد موت جالوت الى المغرب وأرادوا مصر فأجلتهم القبط فسكنوا برقة وافريقية والمغرب على حرب مع الافرنج والأفارقة وأجازوهم على صقلية وسردانية وميورقة والأندلس ، ثم اصطلحوا على أن المدن للفرنجة وسكنوا القفار عصوراً فى الخيام وانتجاع الأمصار من الاسكندرية الى البحر والى طنجة والسوس حتى جاء الاسلام وكان منهم من تهود ومن تنصر وآخرون مجوساً يعبدون الشمس والقمر والأصنام ، ولهم ملوك ورؤساء .

هذه خلاصة ما ورد عن طريق الرواية من أقوال بشأن نسب البربر وهى أقوال متضاربة يناقض بعضها بعضاً وتعوزها الحجج القطيعة والأدلة القوية ويظهر عليها حيناً الطابع الأسطورى الواضح وتشتم منها حيناً الرائحة العنصرية المقيتة ، وقد استعرضها المؤرخ الكبير عبد الرحمان بن خلدون فى تاريخه وانتقدها قولا قولا وصرح أنها كافة مذاهب مرجوحة وبعيدة عــن الصــواب .

فأما نسبة البربر الى ابراهيم فقال عنه انه بعيد ، وحجته على ذلك ان داود الذى قتل جالوت وكان البربر معاصرين له ليس بينه وبين اسحاق بن ابراهيم أخى يقشان الا عشرة آباء يبعد أن يتشعب النسل فيهم مثل هذا التشعب .

وأما نسبتهم الى جالوت أو العماليق والقول بانهم نقلوا من ديار الشام أو انتقلوا فانه يعد كل ذلك ساقطاً يكاد يكون من أحاديث خرافة ، وهو يستدل على ذلك بأن مثل هذه الأمة المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور ، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الاسلام متسائلا ما الذى يحوجنا الى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ويحتاج الى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب . وموضحاً أن افريقش الذى يزعمون انه نقلهم قد ذكروا انه وجدهم بالمغرب وانه تعجب من كثرتهم وعجمتهم وقال ما أكثر بربرتكم ، فكيف يكون هو الذى نقلهم وليس بينه وبين أبرهة ذى المنار من يتشعبون فيه الى مثل ذلك ان قالوا انه الذى نقلهم .

واما القول بانهم من ولد النعمان من حمير ، أو من ولد قيس عيلان من مضر فعده أيضاً قولا منكراً ناقلا عن امام النسابين ابن حزم قوله فى كتاب **الجمهرة** : ما علم النسابون لقيس بن عيلان ابناً اسمه بر أصلا ، وما كان لحمير طريق الى بلاد البربر الا فى تكاذيب مؤرخى اليمن (59) .

ثم التفت الى قول ابن قتيبة انهم من ولد جالوت بن قيس عيلان فعدها من غفلاته وأوهامه ، لأن معد والد جالوت بزعمه كان معاصراً لبختنصر ، وان النبى أرميا خلص به الى الشام حذراً عليه من بختنصر حين سلط على العرب ، وبختنصر هو الذى خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان اياه بأربعمئة وخمسين سنة ونحوها ، فيكون معد بعد داود بمثل هذا الأمد ، فكيف يكون ابنه قيس أباً لجالوت المعاصر لداود ؟

وبعد استعراضه لتلك الأقوال وانتقادها واحداً واحداً أصدر حكمه بشأن النسب البربرى قائلا : والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأنهم

---

59) جمهرة أنساب العرب ص 495 ط القاهرة سنة 1962 .

انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ، وان اسم أبيهم مازيغ ، واخوتهم اركيش وفلسطين اخوانهم بنو كسلوجيم بن مصرايم بن حام ، وملكهم جالوت سمة معروفة له . وكانت بين فلسطين هاؤلاء وبين بنى اسرائيل بالشام حروب مذكورة ، وكان بنو كنعان واركيش شيعاً لفلسطين ، فلا يقعن فى وهمك غير هذا فهو الصحيح الذى لا يعدل عنه !

ولكنه يستدرك اثر ذلك فيذكر انه لا خلاف بين نسابة العرب الا فى **صنهاجة** و **كتامة** اللتين ترجح الأكثرية انهم من بقايا القبائل اليمنية التى أنزلها افريقش بافريقية لما غزاها بهم ، وأن نسابة البربر يزعمون فى بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل **لواتة** و **غمارة** و **زواوة** و **مكلاتة** التى يزعمون أنهم من حمير ، و **هوارة** التى يزعمون أنها من كندة من السكاسك ، و **زناتة** التى يزعمون أنهم من العمالقة فروا أمام بنى اسرائيل أو من بقايا التبابعة .

وعند ابن خلدون ان هذه كلها مزاعم ، (فالحق الذى شهد به المواطن والعجمة انهم بمعزل عن العرب الا ما تزعمه نسابة العرب فى صنهاجة وكتامة ، وعندى انهم من اخوانهم (60) .

طريق الدراية :

أما طريق الدراية فان أصحابه لا يعتمدون النقول والروايات الضعيفة المتناقضة ، ولكنهم يستأنسون بالصحيح منها ، ولهم مقاييس ومعايير مدققة خاصة لمعرفة الأرومات والسلالات البشرية .

وقد أجمعوا على أن سكان البلاد المغربية ينتمسون الى المجموعة القوقازية التى تسمى حيناً بالسلالة البيضاء ، وحيناً بالسلالة الأوربية ، وكلتا التسميتين بعيدة عن الصواب ، لأن اللون من جهة ليس أهم مميزات هذه المجموعة ، كما ان مواطنها من جهة أخرى ليست قاصرة على القارة الأوربية ، بل هى شاملة لشمال افريقيا وجنوب غربى آسيا ، ومنطقة الشرق الأوسط حتى حوض نهر السند ، كما تشمل حوض بحر قزوين وبحر آرال .

---

60) تاريخ ابن خلدون 6 : 192 .

وفى جزء من هذه المنطقة الواسعة يمتد جنوباً من حوض النيل ، وينتهى شمالا ببلاد الاغريق ، شاملا جزيرة العرب والهلال الخصيب ، وأرض سوريا وفنيقيا وفلسطين نشأت الحضارات والثقافات الكبرى ، فشعوب هذه المنطقة تتفق كلها فى أصول ثقافاتها وحضاراتها المرتكزة على الديانات التوحيدية والفلسفة الاغريقية التى هى قيمها الروحية ، وعلى المدنيات التى نشأت فيها ثم انتقلت منها الى شواطىء البحر المتوسط والمحيط الأطلسى مما يسمى الآن بالمدنية الغربية .

وتتميز المجموعة القوقازية بمميزات عديدة تفردها عن المجموعة البشرية الكبرى كسلالة أصلية ، وليس اللون أهم هذه المميزات كما سبق القول ، لأن جزءاً كبيراً من سلالتها الفرعية بافريقيا الشمالية وآسيا الجنوبية الغربية لوحت الشمس المحرقة بشرته حتى صار أسمر أو أسود ، ولكن الميزة الكبرى هى شكل الشعر الذى يتموج تموجاً مختلف الدرجات من شعر سبط فى شمال أوربا الى شعر جعد فى شمال افريقيا مع غزارته على الجسم واللحية ، واعتدال الفك وعدم بروزه ، وشكل الأنف الأفقى أو المرتفع ، بل ان بروز الأنف هو الصفة الثانية المهمة التى تميز هذه المجموعة مع الصفة الأولى التى هى شكل الشعر .

وتشتمل المجموعة القوقازية على عشر سلالات ، تعيش واحدة منها فى جزيرة سخالين بأقصى شرق آسيا وهى سلالة الاينو ، وتعيش السلالات الأخرى فى المنطقة التى سبق تحديدها ، ففى أوربا توجد خمس سلالات ، هى : السلالة النوردية أو التيوتونية ، والسلالة الشرقية ، والسلالة الدينارية أو الأدرياتية ، والسلالة الألبية ، والسلالة المتوسطية ، وفى جنوب غرب آسيا توجد السلالات الأربع الباقية ، وهى السلالة الجنوبية الغربية (61) والسلالة الهندفغانية (62) والسلالة الأناضولية ، والسلالة الطورانية .

وهذه السلالات كافة لها مميزات يعرف بها كل واحدة منها وان كان مردها جميعها الى أصل واحد ، وللعلماء كما تقدم ـ معايير ومقاييس دقيقة

---

61) تدعى أيضاً حسب الاصطلاح القديم : السلالة السامية أو السلالة العربية .

62) تركيب مزجى مشتق من كلمتى هند وافغان .

يعرضون عليها السلالة فيعرفون أصلها والفروق التي تختلف بها عن غيرها من سلالات مجموعتها .

وقد عرضوا البربر الاقحاح من سكان الشمال الافريقي الذين بقوا في عزلة ولم يختلطوا بالعرب الطارئين عليهم اثر ظهور الاسلام فوجدوا من يرد منهم الى السلالة المتوسطية المستوطنة بحوض البحر المتوسط ، ومن يرد الى السلالة الجنوبية الغربية المستقرة بجزيرة العرب وسوريا الداخلية والهلال الخصيب ، وكلتاهما من المجموعة القوقازية .

وقد كان للموقع الجغرافي أثر كبير في اختلاط السلالات بالشمال الافريقي ، فهذا الجزء من افريقيا يشمل ثلاث مداخل الى القارة من الجنوب الشرقي ، والشمال الشرقي والشمال الغربي ، وهي على الترتيب : باب المندب ، وبرزخ السويس ، ومضيق جبل طارق ، يضاف الى ذلك تقارب شواطىء البحر المتوسط واشتماله على جزر عديدة مما يجعل الاتصال بين سكان ضفافه أمراً هيناً . فالمدخل الأول (باب المندب) لعب دوراً كبيراً في تعمير القارة الافريقية منذ العصور القديمة السابقة للتاريخ ، فمنه دخلت قبائل البوشمان والهوتنتوت والأقزام ، ومنه دخلت السلالة الزنجية منذ الحجر القديم ، ثم دخلت منه احدى السلالات القوقازية آتية من اليمن واتجهت نحو شرق افريقيا ونحو شمالها موصوفة بالنسبة الحامية بسبب اللهجات المنتمية الى الأسرة الحامية التي كانت تتكلمها جماعاتها ، ثم تدفقت عن طريق باب المندب جماعات أخرى من العرب والساميين أتت من اليمن أيضاً ، وكان من شأن الهجرات الجديدة أن تدفع أمامها الهجرات القديمة دفعا ثم تستعبد من آثر منها البقاء ، وأخيراً كانت تلين قناة الفاتحين ويضعف كبرياؤهم ويقل استعلاؤهم فيبدأون التزوج من المحكومين .

اما برزخ السويس فقد عرف هجرات قديمة يرجع أقدمها الى الألف الثانية قبل الميلاد ، فهو المنفذ الآسيوي الوحيد المباشر نحو مصر وشمال افريقيا ، فمنه دخل المصريون واليهود والعرب بموجاتهم العديدة وسائر الشعوب السامية .

وأما مضيق جبل طارق فكان هو أيضاً طريقاً للهجرات من شمال افريقيا الى أوربا فى العصر الحجرى القديم والحديث ، ثم أصبح طريقاً للهجرات منها اليه أثناء عصر الحديد ، ثم صار بعد ذلك ممراً للغزاة من احدى الجهتين للأخرى فأدى ذلك الى ارتباط تاريخ شبه جزيرة ايبريا بتاريخ المغرب ارتباطاً وثيقاً واختلاط سكان العدوتين اختلاطاً قوياً .

وهكذا نرى ان بلاد المغرب أو شمال افريقيا على العموم بقى خلال تاريخ الانسانية الطويل يستقبل هجرات من الشرق واخرى من الغرب ، كما بقى ممراً للمهاجرين من جهة الى أخرى الشيء الذى كانت له أبعد الآثار فى تكوينه السلالى .

فالسلالة المتوسطية التى ينتمى اليها طرف من البربر سكان المغرب الأولين هى احدى السلالات الأصلية فى أوربا بل هى أقدمها انتشاراً ، وتدخل فى تكوين معظم الأوربيين كما تنتشر فى جنوب غرب آسيا وشمال افريقيا، ولذلك اختلطت بغيرها من السلالات وتطورت عدة تطورات محلية فى مواطن انتشارها المختلفة ، فظهرت منها عدة أنواع محلية بقيت ـ رغم تنوعها ـ تشترك فى صفتين أساسيتين : طول الرأس ، وسمرة الجلد وسواد العيون ، ومن أشهر أنواعها **النوع الصحراوى** الذى اختلط بالسلالات (السامية) و (الحامية) الآتية من جزيرة العرب ، كما اختلط بالسلالة الزنجية عبر الصحراء الكبرى ، ويمتاز هذا النوع الصحراوى بكل صفات السلالة المتوسطية كالقامة المتوسطة النحيفة والرأس الطويل والجلد الأسمر ، الا أن الشعر يقوى تجعده كلما امتدت الأرض جنوباً نحو بلاد السودان .

أما السلالة الجنوبية الشرقية الساكنة بآسيا والداخلة فى تكوين سكان المغرب الأولين فهى التى كانت تدعى حسب الاصطلاح القديم بالسلالة السامية أو السلالة العربية ويدخل فيها كنوع (سامى) جميع القبائل التى كانت تتحدث بلغات حامية فى زمن بعيد كقبط مصر وبربر المغرب ، ومواطنها الأصلية هى صحراء جزيرة العرب وشط العرب وبادية الشام وسوريا الداخلية ، وهى صاحبة الحضارات القديمة التى يطلق عليها الأركيولوجيون

اسم الحضارة الآسيانية Asianic ، وقد دخلت الى شرق افريقيا وانتشرت فى شمالها عن طريق جنوب اليمن والقرن الافريقى ، وتحتفظ بكثير من مميزات السلالة المتوسطية مما لا يبرر افرادها كسلالة فرعية خاصة ، وأهم مميزاتها كسلالة ان القامة تتراوح بين 165 ــ 167 سم وان القوام نحيف والرأس طويل بشكل واضح مرتفع ، والوجه مستطيل بيضاوى ، والأنف أقنى أشم ، والمنخار دقيق ، ويظهر الأنف احياناً معقوفاً كأنف الاغريق ، والشفاه دقيقة والشعر مموج مع سمرة البشرة وسواد العيون .

على ان هناك من الأوصاف ما يختص ببعض الفرق البربرية ويجعلها متميزة داخل نوعها وسلالتها ، فهناك صنف طويل القامة ، مستطيل الرأس والوجه ، حواجبه ناتئة ، وأنفه طويل رقيق ، وشعر لحيته خفيف ، وكتفه عريض ، وخصره ضيق ، وبنيته ضعيفة .

وهناك صنف قصير القامة طويل الرأس مع عظام ناتئة فيه ، عريض الوجه ناتىء الوجنتين ، عريض الأنف واسع الفم ، غليظ الشفتين نـاتىء الذقن ، كثير شعر اللحية ، عريض الصدر والرفغ .

وهناك صنف ربعة الى القصر ، مستدير الرأس عريـض الوجـه ، مستدير الجبهة ، غليظ الحاجبين قصير الأنف واسع الفم ، مستدير الذقن ، واسع الصدر .

والصنفان الأولان يوجدان فى المغرب من قديم الأزمنة ، وثلاثتها موجودة فيه ، والثالث منها مشهور بجزيرة جربة وناحية مزاب واقليم سوس .

ومما هو مشاهد الى اليوم وكان معروفاً فى الزمن القديم وجود قبائل سوداء بجنوب المغرب لها كل مميزات السلالة الزنجية وخصائصها ، وقبائل شقراء فى شماله لها أيضاً جميع مميزات السلالة النوردية وخصائصها، أما تعليل وجود الأولى فواضح جدا ، هو هجرتها من وسط افريقيا الى شمالها مثلما هاجرت قبائل بربرية من شمالها الى وسطها ولا تزال بقاياها تعيش الــى اليوم فى السنغال ومالى والنجير والتشاد ، واما وجود الثانية فتعليله غير

واضح ، فقد تكون تلك القبائل الشقراء بقية الانسان الأبيض الأول الذى كانت هذه البلاد مهده وانتقل منه الى أوربا ، وقد تكون بقية القبائل والشعوب التى غزت المغرب من الشمال فى عصور متقدمة على التاريخ ، ويبدو على أى حال ربطها بالسلالة النوردية ــ التيوتونية من الأمور العسيرة ، لأن تاريخ دخول الشماليين الى بلاد المغرب غير معروف يقينا ، فهو يتمثل فى أحد نقوش الدولة الحديثة فى مصر لأحد الليبيين ، اذ تظهر البشرة صفراء والعينان خضراوين ، ويظهر ان شقرة **التمحو** أو **التحنو** (اللوبيين القدماء) ترجع الى هجرة من جزر أرخيبل ايجه ، فى عصر اضطراب شعوب البحر ، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ولا ترجع صفات الشقرة كلها الى الواندال الذين هاجروا الى شبه جزيرة ايبريا ثم اندفعوا منها الى الشمال الافريقى فى القرن الخامس الميلادى ، فقد كان عددهم ضئيلا ومدة عبورهم قصيرة بحيث لا يمكنهم أن يؤثروا مثل هذا التأثير السلالى فى سكانه ، يضاف الى ذلك ان البربر الشقر يوجدون فى جهات كثيرة من المغرب الأقصى وهو بلد لا يقوم أى دليل معتبر على ان الواندال حكموه أو اجتازوا به اثناء انسياحهم الى الشمال الافريقى .

ومن البديهى ان من القبائل البربرية قبائل تميل الى الشقرة من غير أن تكون شقراء ، أو الى السمرة دون أن تكون سمراء ، أو الى السواد وهى غير سوداء ، وسبب ذلك قوة تأثير جماعة فى جماعة أو ضعفه ، وهو أمر يحدث كثيراً بين أنواع السلالة الواحدة .

وبحث الأنثروبولوجيون عن سلالة البربر من طرق أخرى غير طريق الشكل الجسمانى ، وأفضت بهم تلك الطرق الى تبين الصلات المتينة التى تجمع بين الشعب البربرى والشعوب التى سكنت اليمن أو مرت به فى طريق هجرتها الى القارة الافريقية ، مما يدعم بقوة دعاوى بعض علماء النسب المسلمين أن البربر كلا أو بعضاً يرجعون الى أصول يمنية .

فاللهجات التى يتكلمها البربر تنتمى الى الأسرة الحامية ، ومن الثابت ان اللغة أو اللهجات الحامية ترتبط بحكم جذورها الأولى باللغات السامية

نفسها ، وتظهر هذه العلاقة بأجلا مظاهرها فى اللغة المصرية القديمة ، فهى لغة حامية متأثرة باللغة السامية ، وربما كانت تمثل احدى مراحل الأسرة الواحدة — الحامية والسامية — قبل أن يحدث التخصص نحو السامية فى جنوب غرب آسيا ، ونحو الحامية فى شرق افريقيا وشمالها ، ويدل على هذا أيضاً ان اليمن كان موطناً للحامية كما كان موطناً للسامية ، وان شرق افريقيا موطن شعوب تتحدث الحامية ، وانتقلت اليه فى نفس الوقت لغة سامية جنوبية قديمة ، هى لغة الجعز ولغة التيكرى ، واللغة الامهرية التى يتكلمها طرف مهم من سكان الحبشة . وقد قامت أدلة قوية على قوة التشابه بين اللهجات البربرية واللغات السامية من أعظمها وجود جميع الحروف الأبجدية فى اللغتين معا ، سيما حروف الحلق التى لا توجد مجتمعة فى غير السامية ، ويشتد التشابه على الخصوص بين الشلحة وبين لغة مهرة فى غرب سلطنة مسقط ، وبينها وبين لهجة النوبيين (الأقباط) فى جنوب مصر، واللغة الامهرية فى الحبشة، أقر بذلك التشابه المؤرخ الفرنسى الكبير كوتيى Gautier حين لمس تقارباً عجيباً بين لهجة **لواتة** ولهجة الأقباط .

ويوجد مثل هذا أيضاً فى الموسيقى ، فالرنات والألحان فى موسيقى وأغانى الجنوب العربى تشبه الرنات والألحان فى موسيقى وأغانى القبائل البربرية بالجنوب المغربى ، وكذلك طريقة الأداء والأنشاد ، وقد درس ذلك دراسة مستفيضة العالم الألمانى كارل ولهم لخمان (1793 — 1851 م) والموسيقى النمسوى فون هورن جوستل (1877 — 1935 م) وتفطن له الرحالة الألمانى هانز هولفريتز وأشار اليه باسهاب فى كتابه (اليمن من الباب الخلفى) كما لاحظ أن الأبنية المرتفعة التى تقوم فى اليمن يوجد لها نظير فى قلب الحضارة البربرية فى أعالى جبال الأطلس وتحمل نفس المظاهر المعمارية كالنتوءات والأنابيب الخشبية لصرف مياه الأمطار والكوات والثقوب ، ورأى فى كل ذلك دليلا على وجود علاقة بين قبائل البربر وسكان الجنوب العربى (63) .

63) اليمن من الباب الخلفى ص 134 .

هذا من جهة اللغة والموسيقى ، اما من جهة العادات والتقاليد فان منها ما يشبه تقاليد سكان حوض البحر المتوسط وعاداتهم ولاسيما سكان اسبانيا وجزر بحر ايجي ومنها ما يشبه عادات أهل العربية السعيدة وتقاليدهم، على أن التشابه بين عادات المتوسطيين وتقاليدهم غير مستغرب ولا يلفت النظر بسبب قرب الشواطىء بعضها من بعض وكثرة الهجرات والتنقلات من جهة منها الى أخرى، ولكن الذى أثار اهتمام الباحثين ونظروا اليه باستغراب هو وجود عادات لها ما يقابلها عند سكان اليمن ومهرة حضرموت ، من ذلك حلاقة الرأس بـ (الكطاية) و (العرف) فهي واحدة في البلدين ، وقد لاحـظ الألماني هانز هولفريتز ان بنى جروى القاطنين فى منطقة حريب باليمـن يحلقون رءوسهم باستثناء بقعة في وسط الرأس (قطاية) وضفيرتين تمتد احداهما الى الأمام والأخرى الى الخلف (العرف والقرن) ، ومنها الاعتمام بالعمامة الدكناء المفتولة ، ولبس الثياب القصيرة ، وتقلد الخنجر القصير المعقوف ، والعناية بالسروج وسائر الأدوات اللازمة لركوب الخيل والقتال عليها ، وسكنى النوالات والأخصاص أو بناء دور حجرية ذات طوابع متعددة ونوافذ بيضاء ، وكثرة الأبازير في الطعام واحتراف التجارة ، وحب التنقل والسفر واكتساب المال ، والايمان بالغيب والخوف من السحر والجن ، والمظاهر الاجتماعية الخارجية كألعاب الفروسية وحفلات الزواج والمـوت والحرث والحصاد (64) .

وهكذا نستخلص من طريق الدراية ـ وهى طريق تقوم على قواعد علمية لامراء فى صحتها ـ ان البربر ينتمون الى السلالتين المتوسطية ، والجنوبية الغربية من المجموعة القوقازية الكبرى ، وان البلاد المغربية تعرضت خلال ماضيها المتقدم على تدوين التاريخ لعدة هجرات من الشرق والغرب ، كما عرفت اتصالات جنسية عبر الصحراء مع زنوج افريقيا ، الشيء الذى لا ترى آثاره فى سحن أهلها فقط ، ولكنه يرى أيضاً فى عاداتهم وتقاليدهم التى يقوى التشابه بينها وبين عادات أهل اسبانيا وأرخبيل ايجه ، وجنوب شبه الجزيرة العربية .

---

64) العناصر الحقيقية لاقليمية المغرب العربي ـ مجلة دعوة الحق ـ الرباط 1959 .

ونعود بعد هذا الى علامتنا ابن خلدون الذى هو أكبر من تحدث من المؤرخين والنسابين عن أصول البربر وعروقهم ، فنلاحظ عليه انه لم يتقيد مطلقاً في تاريخه بالقواعد العلمية العجيبة التى أوردها في مقدمته وكانت سبب شهرته وذيوع صيته ، فقد سلك طريق الرواية مقتصراً في عروضه التاريخية على النقول والسماعات دون نقدها وتمحيصها وعرضها على المعايير الصحيحة ، واننا لنجده في مواضع من تاريخه الطويل يدرج روايات ونقولا ثم يدرج ما يناقضها في مواضع أخرى ، ولا شك أن الكتب التى اعتمدها في تدوين تاريخه كانت من الكثرة بحيث لم يستطع استيعاب جميع ما فيها من الروايات والنصوص والمقارنة بين المتناقض منها ، فكان اذا أراد تحرير فصل من كتابه اعتمد على مجموعة منها حتى اذا أراد تحرير فصل آخر اعتمد على مجموعة أخرى قد يكون ما فيها مناقضاً لما اعتمده في الأول ، وقع له هذا على الخصوص لدى كلامه على البربر ، فقد أتى وهو يتحمس في الدفاع عن نسبهم الحامي بأشياء تخالف تمام المخالفة ما تقدم له ذكره في أنساب الخليقة ، كما ناقض نفسه بنفسه في النسبة الحامية ذاتها ، فبينما نجده يراها الحق الذى لا يعول على غيره (65) نجده في مواضع أخرى يثبت النسبة الحميرية للبربر قاطبة أو لبعض قبائلهم وكأنها لديه من الأمور المسلمة التى لا تقبل المناقشة لاجماع المؤرخين عليها (66) وبينما نراه ينكر نسبة البربر الى جالوت والعماليق وحمير ، ويرفض دعوى هجرتهم الى المغرب من الشام (لأن مثل هذه الأمة المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور) ولأن (البربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الاسلام) — نراه يسلم بهجرة الكنعانيين جدود البربر من مواطنهم الأصلية بفنيقيا وفلسطين بعد ما قتل ملكهم جالوت على يد داود ملك بنى اسرائيل .

وعلى أى حال فان ابن خلدون على أهمية كتابه واعتباره أعظم مؤرخ داخل القبائل البربرية وعاشر ملوكها وأمراءها ورؤساءها وكتب عنها لا يكن

---

65) تاريخ ابن خلدون 6 : 191 .

66) تاريخ ابن خلدون 6 : 231 .

أن يكون كلامه حجة فى الجزم بأصول البربر لأنه كلام متناقض أولا ، ولأنه اعتمد ثانياً الروايات والنقول التى لا تقوم مقام المقاييس العلمية الدقيقة .

والذى نراه نحن فى موضوع أصول البربر وأنسابهم هو ما يـراه العلماء المعاصرون المجردون عن كل هوى استعمارى وتعصب سلالى من أنهم شعب متميز بلغة وأخلاق ومزاج داخل المجموعة القوقازية ، له من الخصائص السلالية ما لشعوب البحر الأبيض المتوسط وجنوب غرب آسيا ، وقرابة غير وشيجة مع سودان افريقيا بحكم الجوار ، وذلك يدل على شدة تفاعله مع الشعوب المحيطة به خلال تاريخه الطويل ، كما يصدق دعوى طائفة مـن المؤرخين فى نسبة بعض القبائل البربرية الى أصول عربية تلك الدعـوى التى لا يمكن أن تكون صادرة فقط عن الشعور بذل الغلبة والرغبة فى عدم أداء الضرائب كما ذكر ابن خلدون ، لأن البربر لهم من عزة النفس والافتخار بالنسب كالعرب ما يدفعهم الى محو المذلة وغسل العار بحد السيف لا بالتنكر للقومية وانتحال الأنساب الأجنبية .



المجتمع البربري

يقوم النظام الاجتماعي عند البربر على أسس قبلية محضة ، فالقبيلة هي عماد النظام ومحور الحياة سواء كانت رحالة تعيش على الريادة (67) والغزو ، أو مستقرة تتكسب من الفلاحة وتربية الأنعام .

وتتركب القبيلة من عشائر وأسر لأفرادها وأعضائها من الولاء لها والتعلق بها أكثر مما لهم نحو القبيلة نفسها ، فالعصبية عند البربر تقوى كلما ضاق المجتمع وتضعف كلما اتسع ، فهم يشبهون في ذلك العرب الذين كان شعار الواحد منهم : انا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب .

ويرأس الأب أو الزوج الأسرة وله سلطان مطلق عليها ، وهو أعلا مقاماً وأشد احتراماً من الأم والزوجة ، وتعتبر الأنثى على العموم في أكثرية القبائل البربرية شيئاً تافهاً ، ولذلك أجبرت على القيام بكثير من الخدمات الشاقة وعدت من جملة التركة اذا هلك هالك ، وصار تعدد الزوجات واتخاذ الخليلات والصديقات أمراً مالوفاً ، على أن العاطفة لم تبخل على المرأة البربرية بالتقدير والتكريم اما بدافع البرور بالأمومة واما بدافع العشق للجمال ، وفي بعض القبائل البربرية كان نظام الأمومة معمولا به ، وقد رواه شيخ المؤرخين هيرودوتس في الماضي ، ولا تزال بقية منه عند بربر الصحراء وهكار حيث لا يعترف رسمياً بالابوة ، ويتبع الأبناء في الميرات أخوالهم لا ذوي قرباهم من جهة الأب .

وتؤلف الأسر والعشائر في نطاق القبيلة حلفاً في ساعات العسرة ، وتسير صفاً واحداً لشن غارة على عدو وتقف كالبنيان المرصوص لصد

---

67) حرفة الأعراب الرواد الذين يختلفون بمواشيهم الى المراعي مقبلين مدبرين .

هجمات مغير ، وهم يلبون في ذلك نداء الدم ولا يستجيبون لداعي العقل ، اذ من العار أن يخفروا ذمة جارهم أو يخذلوا أخاهم وحليفهم سواء كان الحق في جانبه أو في جانب غريمه ، فكأنما ضرب فيهم المثل : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، أو كأنهم بنو مازن الذين وصفوا بانهم :

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم — طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم — للنائبات على ما قال برهانا

أو بنو غزية الذين قال قائلهم :

وهل انا الا من غزية ان غوت — غويت وان ترشد غزية أرشد

على ان تحالفهم قلما يتعدى نطاق القبيلة فيشمل عدداً من القبائل ، الا اذا كانت تنتمي الى أب واحد ، والسبب في ذلك قوة العصبية القبلية عندهم وضعف العصبية القومية أو الوطنية ، وقد تعرضت أوطانهم لغزوات أجنبية عديدة فكانت كل قبيلة تستقل بأمر دفاعها وتستميت وحدها في مقاومة عدوها ، دون أن تفكر في الاستنجاد بالقبائل المجاورة لها أو تفكر هذه في نجدتها ، وهذه حالة لا تخصها وحدها ، بل هي حالة كل المجتمعات البدائية التي لا تخضع لحكومة تجمع شتاتها ونظام يوحد أمرها بما فيها المجتمع العربي الجاهلي .

ولكل قبيلة قرية أو قرى تلتقي فيها أسبوعياً يوم عقد السوق لبيع الغلات وشراء لوازم الحياة واصلاح الآلات والتقاضي لدى الحكام وتلقي البريد واستشارة الأطباء ، وتنتخب القبيلة أو العشيرة مجلس القرية المسمى (الجماعة) وتختار الجماعة من بين أعضائها رئيساً لها يسمى **أمغار** ومعناه الكبير ، وهو يماثل شيخ القبيلة أو العشيرة عند العرب في القوة والنفوذ ووجوب الاحترام ، وغالباً ما يكون من ذوي العصبية والغنى ، ورجاحة العقل والهيبة من الشروط اللازمة له ، والقرية هي قمة النظام السياسي والاداري وأكبر الخلايا الاجتماعية عند البربر ، اذ لم يثبت أنهم شيدوا في جاهليتهم مدناً كبيرة أو أسسوا دولا عظيمة ، وأكثرية المدن التي شيدت في بلاد المغرب

قبل الاسلام هي من بناء الفنيقيين أو القرطاجنيين أو الرومان أو الأغريق ، كما أن الممالك البربرية التي يحدثنا التاريخ عنها أحاديث غامضة انما هي زعامات ظهرت في فترات زمنية مضطربة لمقاومة عدو ، أو امارات كانت تعيش في كنف الأجانب وحمايتهم كما كان مناذرة الحيرة يعيشون في كنف الفرس وغساسنة الشام يعيشون في كنف الروم .

وتنقسم القبائل البربرية الى قبائل مستقرة واخرى رحالة ، فالأولى تسكن بيوتاً مبنية داخل دشرات (68) محصنة، وتسكن الثانية خياماً مقامة داخل دواوير (69) ، فالخيام تصنع من الصوف أو الوبر على شكل مستدير أو بيضي ، ويتنافس المترفون في صنع الخيام الفخمة الكبيرة التي تسع المئات من الناس ، ويفصلون داخلها تفصيلا بحيث تكون مشتملة على بيوت السكن ومخازن العولة والمطبخ وباحة استقبال الضيوف ، وهم يسكنونها على سعتها وكثرة تكاليفها ومنهم من يعدها للحفلات الأسرية والأعياد والمواسم القبلية فقط ، ومن أشهر الخيام وأفخمها خيام قبيلة **زيان** بالأطلس المتوسط من المغرب الأقصى ، أما الديار فيراعون في بنائها طبيعة المكان ، ففي الجبال حيث تتراكم الثلوج وتكثر الأمطار يبنونها بالحجارة ويسقفونها بالطين في شكل بيضي يسهل انصراف المطر والثلج عنها ، وقد اهتدوا بعد الطين الى القرمود فاستعملوه في تغطية سقوفها ، وفي الجهات الجنوبية حيث الجفاف يبنونها بالطين ويسقفونها بالخشب وغيره من أنواع النبات ، وفي المناطق الوسطى المعتدلة تبنى بالحجارة أو بالطين فقط وتسقف بالورقة والجائزة أو بالأعمدة والأغصان مع تبليطها من أعلا بالطين منعاً للمطر من النفوذ الى داخل البيوت ، واختص البربر بنوع من الديار يبنى بجدارين متوازيين

---

68) ويقال أيضاً المدشر : القرية ، واصلها الجشرة والمجشر .

69) جمع دوار : مخيم للاعراب الرحل يقام على شكل مستدير لتمكن المراقبة منه والدفاع عنه ، وهو كالدشرة المبنية عند السكان المستقرين ، وعندما يدخل فصل الشتاء ويقرب البرد وينعدم الكلا ينسحب الرحل الى سفوح الجبال أو الأراضي الشمالية السهلية فيسكنون بيوتاً مبنية بناء بسيطاً يسمى الواحد منها مشتى ، فالحياة عند الرحل أساسها الدوار والمشتى ، وعند المستقرين القرية والدشرة أو المدشر ، ويطلق اسم الخيمة أحياناً على المسكن الواحد سواء كان مبنياً بحجارة أو منسوجاً من وبر أو صوف .

يملأون ما بينهما بالحجارة وذلك لمقاومة الحر والبرد ، ومن البربر من ينحت مسكنه في جبل أو جرف كما يرى في جبلي الحاجب و كندر بالمغرب الأقصى ، ومن يسكن بيوتاً من القصب تسمى النوالات أو الأعشاش أو الخصاص (70) ، وقد حملت قبائل وعشائرأسماء ذلك النوع من السكن فسميت **موالين النوالات** ، و **الأعشاش** و **الخصاص** .

وقد قارن العلماء بين البيوت البربرية وبين بيوت الشعوب الأخرى ، فوجدوا الشبه كبيراً بين هندستها وبين هندسة بيوت سكان بحر ايجه وايبريا والجنوب العربي والحبشة ، وكانت هذه المقارنة مدعاة لهم الى الحديث عن أصول البربر وعلاقتهم السلالية بشعوب تلك الأقطار .

واعتاد البربر القدماء أن يجعلوا لمساكنهم آلهة وأخرى للدواوير والقرى تحميها من كل شر يحتمل أن يطرأ عليها، وكانت لهم اعتقادات وشعارات من هذا القبيل ما زالت بقاياها موجودة الى الآن بالبلاد المغربية ، من ذلك تعليق قدر مقلوب مسود اللون من أثر دخان الطبخ على الجدار وقاية للمنزل من العين والأرواح الشريرة ، وتعليق الشقوف وجماجم الدواب والكف المبسوطة (الخميسة) على الأشجار والجدران لنفس الغاية ، وقد يحمي الدار والقرية الشجرة بباحتها أو القط أو الأفاعي أو أطلال الجدران ، فيحترمها السكان ، ويستأمنونها قبل السكن ويحتفلون بها في مواسم معلومة فيوقدون بقربها الشمع والفتائل ويشتتون الزنجلان ويهرقون عليها الحليب ويطلونها بالحناء ، وتلتجيء اليها العجائز لتحقيق بعض الرغبات كتزويج عانس وارجاع غائب وحل ثقاف وتحبيب زوج في زوجته ، وجمع حبيب بحبيبته ، وللقرى أيضاً حماتها من مسنمات الصخور وكبار شجر الزيتون الوحشي .

ويلبس البربر ثياباً منسوجة من صوف في الغالب ، وهي بالنسبة للرجل المتوسط مكونة من قميص (تشامير) وسروال وقشابة وجلباب

---

70) النوالة في العرف المغربي بيت من قصب ج نوالات ونوايل ، والعش بيت يبنى من حطام الميدان والنبات ج أعشاش شبه بعش الطائر ، والخص بضم الخاء بيت من شجر أو قصب جمع أخصاص وخصاص وخصوص .

(جلابة) وبرنوس ، ويلبس الرجال في بعض القبائل الحايك أو الكساء بدل الجلابة والبرنوس كالقبائل الساكنة على ضفاف وادي ملوية بالمغرب الأقصى والأخرى الساكنة بجنوب القطر التونسي واقليم طرابلس ، ومن السراويل قصيرة لا تتجاوز الركبة (قندريسة) وأخرى طويلة تصل الى الكعبين يظن انها مقتبسة من الكوليين (7I) وكلاهما يشد على الخصر بتكة ، وينتعل الرجال في الحالات العادية حذاء جلدياً من النوع المسمى (البلغة) في المناطق الجبلية والسهول الشمالية ، ومن نوع النعالة المصنوعة من جلد أو حلفة أو دوم في المناطق الصحراوية ، واثناء الحرث يلف الحراث على قدمه قطعة جلد تسمى بوعفاس تشد بشريط على الساق ، واثناء الحرب وسباق الخيل ينتعلون خفاً جلدياً مزخرفاً يسمى الخف أو التماق ، والجوارب (التقاشير) تلبس في فصل الشتاء فقط اتقاء من البرد، وهي أيضاً محبوكة من صوف، ويعتم الرجال بعمامات قطنية أو كتانية، منها الخفيفة التي تسمى (الرزة) والكبيرة المسماة بـ (الكنور) ، وقد يكتفون بلبس طاقية أو شاشية في الحالات العادية ، وعندما يدخل الصيف أو يبدأ الحصاد يضعون على رؤوسهم الحليقة قبعات مصنوعة من دوم تسمى (المظل) أو (تارازا) عريضة الحواشي للتوقي من ضربات الشمس ، وغالباً ما يتقلدون خناجر وشكارات ، ويتقلد الموسرون تهاليل فضية أو جلدية تحتوي على تمائم وتعاويذ ، وبعد انتشار الاسلام صارت تحتوي على آيات قرآنية أو دعوات دينية مأثورة ، أو صلوات على النبي عليه السلام .

أما المرأة فتلبس قميصاً قطنياً وسروالا وحنديرة من صوف فـي الأوقات الباردة وأزاراً حريرياً في الأخرى المعتدلة والحارة وتشمر عن ذراعيها بتخمال حريري مطروز بالصقلي (خيوط الذهب) وتنتعل حذاء من جلد مطروزاً بالحرير والصقلي يسمى (الشربيل) وتلبس أيضاً جوارب صوفية جميلة الطرز وتغطي رأسها بسبنية حريرية كما تحتزم بحزام حريري عريض ، وأكثر حليها مصنوع من الفضة كالخلاخل والدماليج والخواتم والمفاتل (الاقراط) والبسيطة التي توضع على الصدر المتألفة من المسكوكات الفضية أو الذهبية (السلطاني ــ اللويز ــ الضبلون) وعقود من ودع وعقيق ومرجان .

(7I) Les Gaulois سكان بلاد الكول (الغال) فرنسا القديمة .

وتتزين المرأة أيضاً بوشم أعضاء من جسدها كالوجه والذراع والفخذ والساق ، ويقال ان الوشم نشأ في الأصل عن ضرورات اقتضتها كثرة الفتن وتوالى الحروب ، اذ كان لكل قبيلة رموز وأشكال خاصة في الوشم يتميز بها أفرادها رجالا ونساء ، حتى اذا سبيت النساء وأسر الرجال أمكن التعرف على قبيلتهم الأصلية من وشمهم ، وقد كانت القبيلة المغلوبة تسترد أبناءها وبناتها الذين يسبون في الصغر وينشأون كالعبيد لدى القبيلة الغالبة ولو مضى على أسرهم وسبيهم عشرات السنين .

وتقوم المرأة البربرية بنسج الثياب وصنع الزرابى ، وتتفنن فى ذلك تفنناً يدل على حسن ذوقها ، وقد اشتهرت بعض المراكز بمنسوجاتها الصوفية الجميلة كبزو ووزان وشيشاوة وخنيفرة فى المغرب الأقصى ، وتلمسان وبسكرة وعنابة (بونة) بالمغرب الأوسط ، وجربة بالمغرب الأدنى ، واليها تنسب الثياب البزيوية والوزانية والبسكرية والبونية والجربية الشهيرة (72) .

وطعام البربر بسيط ولكنه لذيذ ، يعتمدون فيه على مزروعاتهم وماشيتهم ، ولا تكثر فيه التوابل كما تكثر فى طعام الحضر ، وأشهر ألوانه الكسكس الذى يتفننون فى طبخه على أشكال مختلفة وهو الطعام الوطنى لأهل المغرب ، والمشوى أو الكاشوش وهو عبارة عن حمل ينضج ببطء على مندبة الجمر ، ولنسائهم مقدرة كبرى على أعداد أنواع أخرى شهية بسيطة فى آن واحد من الطعام ، كالخبز المعجون بقليل من الحليب والزبد المسمى بالمحراش ، والبغرير والثريد والرغائف والحساء والعصيدة والسفنج والصيكوك ، ويدخل الزبد والسمن والحليب والعسل فى اعداد الأطعمة ، ويقدم الحليب والتمر للرؤساء والضيوف ، ويندر الخمر رغم وجود العنب الكثير ، ويقتات الفقراء بأنواع أخرى من الأطعمة تقل جودة وكلفة ، كخبز الشعير واللبن المخيض والزيتون اليابس والزميتة (السويق) والبيصارة (الفول) ، ويأكل الصحراويون الجراد اذا اجتاحت اسرابه البلاد في السنين العجاف .

---

72) من الأمثال الفاسية المنيقة التى سمعتها مرة فى حياتى : (تبارك الله على هذا البز الافريقى اللى جانا من ترارة) يضرب استهزاء بالشيء التافه يتغالى فيه . وافريقيا معروفة ، وترارة اسم قبيلة اندثرت اليوم ، وبقيت تنسب اليها جبال ندرومة الواقعة شمالى تلمسان ، ولا شك فى انهما كانتا من مراكز نسج الثياب النفيسة فى الماضى .

وينقسم البربر الى قسمين : بربر رحالون يرتادون الكلأ بمواشيهم ويتنقلون بسبب ذلك من جهة الى أخرى ، وهاؤلاء لا يحترفون تجارة ولا صناعة ولا فلاحة ، وانما يعيشون من نتاج ماشيتهم ومن الغنائم والأسلاب التي يستولون عليها خلال الحروب أو أثناء قطع الطريق، وربما تعاطى الأغنياء الزراعة بواسطة عبيدهم ومواليهم المسمون **الحراطين** ، وفى هذه الحالة يقول ابن خلدون : (ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفر الأملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتاج والاظعان فى نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة (73) .

أما القسم الثانى فهو المستقر ، وبربر هذا القسم أقرب الى الحضارة من سابقيهم وأشد لصوقاً بالأرض منهم بها ، وقد نتج عن استقرارهم انتظام حياتهم على قواعد رتيبة ، واشتغالهم بالمهن التى يعدها الرحالون حقيرة كالزراعة والصناعة والتجارة ، ونشأت فيهم بسبب ذلك غريزة الادخار والاقتصاد والحرص على جمع المال ، وقد اشتهرت منهم قبائل كثيرة بالمهارة فى التجارة والاستهانة بكل المشاق والاخطار فى سبيل جمع المال ، كأهل سوس ومزاب وجزيرة جربة .

وكان لقدماء البربر ديانات ومعتقدات بعضها وثنى محلى وبعضها من معتقدات الجوالى التى طرأت عليهم من الشرق وأديانها . فمن معتقداتهم الايمان بالروحانيات التى تتمثل صورتها فى وجود أرواح كالجن مثلا فى العناصر الطبيعية من عيون وأنهار وأحجار وجبال وأشجار وأطلال وغيرها ، ولا تزال قبائل كثيرة تعظم حرمات هذه العناصر وتقيم لها مواسم سنوية وتحج اليها حجاً ، وكانوا أيضاً يؤلهون بعض الحيوانات اما بداع محلى واما بداعى التقليد لبعض الشعوب التى كانت تجاورهم كقدماء المصريين . وهذا النوع من

73) تاريخ ابن خلدون 6 : 175 .

الاعتقاد أو العبادة يسمى بالطوطمة وهي أن يعتقد الانسان أو القبيلة ان جده الأعلا نوع من الحيوان ، فيكون لزاماً عليه حينئذ أن يحترمه ويقدسه ولا يقتله ولا يأكل لحمه ولا يضربه ولا يؤذيه ، ويسمى ذلك الحيوان بالطوطم ، ومن الطواطم البربرية الأفعى والبوم والحمام والطاووس والقرد والقط والضفدع ، وقد عثر في جهات كثيرة من المغرب ولاسيما في الجهات الشرقية على صورة الاله (أمون) وهو كبش أقرن بين قرنيه قرص الشمس المستدير ، وهو من آلهة قدماء المصريين المعروفة . وقد ذكر الشاعر الافريقي كوريبوس Corippus في قصيدته اليوحناوية La Johannide أن قبيلة **اللاغطان** الطرابلسية كانت تعبد ثوراً يدعى غرزيل ، كما ذكر الجغرافي الأندلسي الشهير أبو عبيد بن عبد العزيز البكري المتوفي سنة 487 هـ في كتابه المسالك والممالك ان قبيلة بربرية كانت تعبد ثوراً بجنوب المغرب في القرن الخامس الهجري (74) .

وكانت عبادة الاجرام العليا من شمس وقمر معروفة عندهم ، وقد وجدت منقوشة على الصخور في جهات عديدة ، كما لا تزال بعض العوائد تدل عليها في المغرب الى اليوم ، فمن عادة الأطفال عند الاثغار أن يرموا السن أو الضرس المقلوع أمام قرص الشمس هاتفين : (أعطيتك سن الحمار ، أعطني سن الغزال) ! .

ولما ظهرت الديانات السماوية بالمشرق بلغت اصداؤها الى المغرب طبعاً اما بواسطة الجوالي الشرقية المهاجرة اليه واما بواسطة الفاتحين الذين استولوا عليه ، وفشت الديانة اليهودية والديانة النصرانية في بعض القبائل ، وقد اشتهر من نصارى البربر بعض الشخصيات الممتازة كدوناتوس صاحب المذهب الشهير الذي زاحم الكاثوليكية ، والقديس أغستينوس أسقف عنابة (بونة) الذي حارب الدوناتية حتى تضاءل أمرها ، ولكن أكثرية القبائل البربرية بقيت وثنية أو مجوسية حسب تعبير ابن خلدون حتى جاءها الاسلام فخالطت بشاشته قلوبها وكانت لها مقامات صدق في تبليغ الدعوة المحمدية الى أمم أوربا وشعوب الصحراء والسودان .

---

74) موجز التاريخ العام للجزائر ص 40 والمسالك والممالك (القسم الخاص بوصف افريقية والمغرب) لابن عبيد ص 355 .

ويتكلم البربر لغة من أقدم لغات العالم ، اختلف العلماء فى ارجاعها الى أصول سامية وحامية ويافثية تبعاً لاختلافهم فى ارجاع البربر الى أصول سلالية ، والغالب أنها تنتمى الى الأسرة الحامية التى هى فرع من فروع اللغة السامية القديمة التى كان يتكلمها أهل جزيرة العرب وخصوصاً سكان اليمن وحضرموت ، وهى قريبة جداً من لغة قدماء المصريين التى لا تزال منطوقة فى بلاد النوبة ومستعملة فى بعض الكنائس القبطية بمصر ، وقد اقتبست البربرية ألفاظاً كثيرة من لغات المهاجرين والفاتحين سيما اللغة العربية التى أمدتها بكل الألفاظ الدينية والتقنية والحضرية ، ومع ان الشعب البربرى فى الشمال الافريقى يتكلم لهجات عديدة يختلف بعضها عن بعض فان مرجعها الى أصل واحد كما حقق ذلك العلماء الذين درسوها من عرب وعجم ، لكنها لا تقوى على البقاء لأنها لا تكتب ، ولا عبرة بالحروف التى كان يستعملها أهل منطقة هكار المسماة تيفيناغ فانها بقية من بقايا التأثير القبطى فى تلك المنطقة القريبة مصر وبلاد النوبة ، كما ان استعمالها قاصر على طرف من تلك المنطقة وغير معروف فى سائر الشمال الافريقى ، وبسبب ذلك وسبب بدائية البربرية لم تحفظ للبربر آداب بلغتهم ولا دونت لهم آثار ذات طابع علمى أو ثقافى ، والآثارات المنسوبة الى البربر كتب جميعها قبل الاسلام باللغات البونيقية أو الرومانية أو اليونانية ، وكتبت بعد الاسلام باللغة العربية التى برع فيها وفى آدابها علماء بربر تفوق فيها بعضهم على أهلها ، وقد حاول بعض فقهاء البربر أن يقربوا عقيدة الاسلام وأحكامه من نفوس البربر وعقولهم فترجموا بعض الكتب الدينية الى اللهجات البربرية المكتوبة باللغة العربية ، ولكنها كانت محاولات قليلة لأن البربر كانوا يتسابقون بعد حفظ القرآن الى تعلم اللغة العربية ودراسة شريعة الاسلام عن طريقها ، واللغة أو اللهجات البربرية آيلة اليوم الى الانقراض ، وقد انقرضت فعلا فى تونس وطرابلس أو كادت ، وأصبح المتكلمون بها الى جانب العربية فى الجزائر قلة قليلة ، ولكن لا يزال يتكلمها مع العربية نحو الثلث من سكان المغرب الأقصى، ولولا المجهودات العظيمة التى بذلها الفرنسيون طيلة مئة وثلاثين سنة فى محاربة العربية وخلق قومية بربرية لاستعرب الشمال الافريقى كله وصارت العربية هى لغة التخاطب الوحيدة فيه ، ومن المتوقع أن تلفظ هذه اللهجات أنفاسها الأخيرة فى الخمسين سنة

المقبلة اذ كلما انتشر التعليم واتسعت شبكة المواصلات تضاءلت وفسحت المجال للغة العربية الفصيحة والعامية .

ان الشعب البربري شعب قوى صبور كريم ، يحب افراده الفخر ويتعشقون المجد ويهيمون بالعلا ، ويجمعون فى المناطق الخصبة الغنية بين جمال الجسم وخفة الروح وحسن النية ولطف العشرة ، وهو من الشعوب الحربية التى تضرب بشجاعتها الأمثال ، وعندما يتوفر لديهم السلاح وحسن النظام ومهارة القيادة يفعلون فى ميادين الحرب ما تحار فيه العقول ويبهر الألباب ، وهو الى ذلك شعب مرح طروب يحب الموسيقى والرقص واقامة المواسم والحفلات ، وفولكلوره من أغنى فولكلورات الدنيا التى تحرز كلما عرضت الرضا وتستأثر بالاعجاب ، والبربر كرام النفوس لا يبخلون على ضيفهم بما يملكون وما لا يملكون ، وقد يبلغ بهم الجود والحرص على تأنيس الضيف الى تقديم اكرم ما يحرص الأب أو الزوج على صيانته اليه ، لكن فيهم الى جانب ذلك بعض الخصال الذميمة التى لا يخلو منها شعب من الشعوب ، من أعظمها الفوضى التى تعلل بحب عارم للحرية والتى كانت سبباً فى حلول كثير من الكوارث والمصائب بهم وببلادهم فى القديم والحديث .

ويلذ لى أن أختم هذا الفصل بايراد فقرات من كلام ابن خلدون عن شيم وأخلاق هذا الشعب العظيم :

(وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ، مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ، ومدعاة المدح والثناء من الخلق : من عز الجوار وحماية النزيل ، ورعى الاذمة والوسائل ، والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره ، والثبات فى الشدائد، وحسن الملكة ، والاغضاء عن العيوب ، والتجافي عن الانتقام ، ورحمة المسكين ، وبر الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكل ، وكسب المعدوم ، وقرى الضيف ، والاعانة على النوائب ، وعلو الهمة ، واباية الضيم ، ومشاقة الدول ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملك ، وبيع النفوس من الله فى نصر دينه . — فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون

اسوة لمتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم الى مراقى العز ، وأوفت بهم على ثنايا الملك ، حتى علت على الأيدى أيديهم ، ومضت فى الخلق بالقبض والبسط احكامهم) .

(واما اقامتهم لمراسم الشريعة واخذهم بأحكام الملة ، ونصرهم لدين الله ، فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين لاحكام دين الله لصبيانهم ، والاستفتاء فى فروض أعيانهم ، واقتفاء الأئمة للصلوات فى بواديهم ، وتدارس القرآن بين احيائهم ، وتحكيم حملة الفقه فى نوازلهم وقضاياهم ، وصياغتهم الى أهل الخير والدين من أهل مصرهم التماساً للبركة فى آثارهم وحسن الدعاء من صالحيهم ، وغشيانهم البحر لفضل المرابطة والجهاد ، وبيعهم النفوس من الله فى سبيله وجهاد عدوه ـ ما يدل على رسوخ ايمانهم وصحة معتقداتهم ومتين ديانتهم التى كانت ملاكاً لعزهم ، ومقاداً الى سلطانهم وملكهم ، وكان المبرز منهم فى هذا المنتحل يوسف بن تاشفين وعبد المومن بن على وبنوه ، ثم يعقوب بن عبد الحق من بعدهم وبنوه ، فقد كان لهم فى الاهتمام بالعلم والجهاد وتشييد المدارس واختطاط الزوايا والربط وسد الثغور وبذل النفس فى ذات الله وانفاق الأموال فى سبيل الخيرات ، ثم مخالطة أهل العلم وترفيع مكانهم فى مجالسهم ومفاوضتهم فى الاقتداء بالشريعة والانقياد لاشاراتهم فى الوقائع والاحكام ومطالعة سير الأنبياء وأخبار الأولياء وقراءتها بين أيديهم من دواوين ملكهم ومجالس أحكامهم وقصور عزهم والتعرض بالمعاقل لسماع شكوى المتظلمين وانصاف الرعايا من العمال والضرب على أيدى أهل الجور ، واتخاذ المساجد بصحن دورهم وسدة خلافتهم وملكهم يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتلين لتلاوة كتاب الله أحزاباً بالعشى والاشراق على الايام ، وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان المشيد والكتائب المجهزة ، وانفاق الأموال العريضة شهدت لهم بذلك آثار تخلفوها بعدهم) .

(وأما وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين فى النوع الانسانى من أشخاصهم ، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة ، والكهان المفطورين

على المطلع للأسرار المغيبة ومن الغرائب التى خرقت العادة وأوضحت أدلة القدرة ما يدل على عظيم عناية الله بذلك الجيل وكرامته لهم ، بما آتاهم من جماع الخير وآثرهم به من مذاهب الكمال ، وجمع لهم من متفرق خـواص الانسان ، ينقل ذلك فى أخبار توهم عجائب) الخ الخ (75) .

75) تاريخ ابن خلدون 6 : 207 .

أقسام البربر

لم يلفت النظام القبلي السائد في الشمال الافريقي أنظار الأمم والشعوب التي اتصلت بسكانه قبل العرب ، فلهذا كانت تطلق عليهم كلمة بربر دون تمييز بين طائفة تعيش على نمط من الحياة وبين طائفة أخرى تعيش على نمط غيره ، والتقسيم الوحيد الذي أثر عنها كان يتعلق بالبلاد لا بالسكان ، ويقوم على اعتبارات جغرافية وادارية ، لا على اعتبارات اجتماعية وقبلية ، وربما يرجع سبب ذلك الى ان تلك الأمم كانت بعيدة عن البداوة لا تعرف المجتمعات القبائلية ولا تتفهم طبائع أهلها ، أو أنها لم تحتك بالبربر احتكاكاً كبيراً ولم يتغلغل سلطانها الى داخل البلاد .

أما العرب الذين جاءوا الى بلاد المغرب في أواخر القرن السابع فانهم فهموا الحياة فيها حق الفهم ، اذ وجدوها لا تختلف عن حياة بلادهم في شيء ، كما أنهم توغلوا في داخليتها وخالطوا قبائلها وساكنوهم وصاهروهم وعاشوا واياهم في كنف الاسلام متساوين ، فلهذا كانت لهم نظرة أخرى الى البربر غير نظرة الأمم والشعوب التي تعرفت عليهم قبلهم ، وفهم آخر لمجتمعهم غير فهمهم ، وتقسيمات أخرى غير تقسيماتهم تقوم على اعتبارات قبلية لا على اعتبارات جغرافية أو ادارية تبعاً لذلك .

لقد قسم الاغريق والرومان البلاد المغربية الى افريقيا ونوميديا وموريطانيا قيصرية وأخرى طنجيطانية ، وجيتوليا ، وحافظ العرب على روح هذا التقسيم لما جعلوها مشتملة على مغرب أقصى ومغرب أوسط ومغرب أدنى (أو افريقية) وصحراء ، ولكنهم زادوا على هذا التقسيم الترابي فقسموا السكان أنفسهم الى بربر بتر ، وبربر برانس .

وقد وقف الباحثون العصريون حيارى أمام هذا التقسيم الجديد يحاولون أن يجدوا له تعليلا أو تأويلا ، ويتساءلون عن الأسس التي بناها العرب عليه

وميزوا بها بين طائفتين مختلفتين من السكان ، فعلى أساس وجود بربر من أهل الوبر (سكان الخيام) وبربر من أهل المدر (سكان البيوت) حاول كوتيي Gautier تأويل انقسامهم الى بتر وبرانس ، فقال ان البتر هم أهل البداوة والرحلة ، والبرانس هم أهل الحضارة والاستقرار ، وذلك يشبه انقسام البربر فى التاريخ القديم الى نوميديين وموريطانيين وانقسامهم فى التاريخ الحديث الى عرب وقبائل (76) وهذه النظرية ذات حظ من الصحة والصواب ، لأن معظم قبائل البرانس يعيش عيشة استقرار فى السهول والجبال الخصبة التى تكثر فيها الأمطار وتجود التربة بأطيب الغلال ، بينما يعيش معظم قبائل البتر متنقلا بين السهوب والهضاب والمناطق الرعوية الصحراوية أو القريبة من الصحراء ، ولكن هذا الاختلاف فى الحياة الاجتماعية بين البرانس والبتر لا ينطبق على جميع قبائلهم ، فالحضارة والبداوة متبادلتان بينها ، فبعض قبائل البرانس يعيش فى جوف الصحراء عيشة بدوية تمثل أنقى صور البداوة كقبائل الملثمين الذين يسميهم الكتاب الأوربيون الرعاة الكبار أو الجمالين الرحالة الكبار تمييزاً لهم عن الرعاة الصغار رعاة البقر والغنم ، وقد ظلت قبائل الملثمين تعيش عيشتها البدائية فى قلب الصحراء تقتات من التمر والقديد وحليب النوق ، ولا تعرف الخبز ولا الدقيق فى حين كان العرب يبنون صروح الحضارة ويحيون حياة البذخ والترف فى المغرب الشمالى والأندلس ، ومثل هذا ينطبق على قبائل البتر المتبدية ، فقد كانت منها قبائل مستقرة تعيش عيشة حضرية مثل قبيلة كومية وقبيلة أوربة .

ومن الباحثين من رجح أن يكون الفارق بين الطائفتين ثقافياً ، ذاكراً أن قبائل البرانس المستقرة تأثرت بمظاهر الحضارة البونيقية واللاتينية والاغريقية بينما بقيت قبائل البتر بمعزل عنها لبداوتها ورحلتها ، ولكن رد

(76 Gautier : Le Passé de l'Afrique p. 242 وقد اعتاد الفرنسيون أن يسموا البربر فى الجزائر قبائل ، والبلاد البربرية بلاد القبائل Le Kabylie

على من رأى هذا الرأى بمثل ما رد على من رجح أن يكون الفارق اجتماعياً من ان البداوة والحضارة أو النقلة والاقامة متبادلة ومشتركة بين الطائفتين معا .

وفكر وليام مارسى فى تفسير لفظتى البتر والبرانس تفسيراً لغوياً وتقسيم البربر الى طائفتين على أساس الثياب التى تلبسانها ، فعنده ان العرب نظروا فى البربر فلاحظوا اختلافاً فى أزيائهم ، فمنهم قبائل ترتدى البرنس الطويل ذا القب (77) المخروطى وهذه سموها البرانس ومنهم قبائل تلبس برنساً قصيراً لا قب له وهذه سموها البتر أى الناقصة المبتورة مثل بتراء زياد ابن أبيه ، وهذا التأويل غريب يبعث على الضحك والسخرية وهو لا يخرج عن كونه مجرد افتراض لا يقوم على أساس قوى ، وقد لاحظ كوتيى الذى حسبه ينبنى على معرفة عميقة باللغة ! انه افتراض لا ينطبق على القبائل البربرية كلها ، فالملثمون من بربر الصحراء يصعب ادراجهم فى طائفة من الطائفتين ، وهم برانس ولكنهم لا يلبسون البرنس مطلقاً ، ولا يحتمل انهم لبسوه فى عصر من العصور ، كما لا يظن ان هناك علاقة بين قب البرنس وبين اللثام عند أهل الصحراء ، ثم يلاحظ كوتيى أن البرنس هو لباس الفرسان ، وان الذين يلبسونه حالياً فى المغرب هم حفدة البتر على الخصوص .

ومن الباحثين من جعل الفارق شبه سلالى ، فذكر ان الطائفتين تمثلان موجتين مختلفتين احداهما تمثل أهل البلاد الأصليين والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا منهم بلادهم وزاحموهم فيها ، ولعل هذه النظرية أصح النظريات لوجود ما يدل عليها من روايات النسابين والمؤرخين واستنتاجات الباحثين الاجتماعيين ، واليها مال العلامة رود Rodd الذى يعد من أكبر الباحثين فى التوارك (78) والمؤرخين لهم فى العصر الحاضر ، فقد ذكر أن هذا التقسيم باق الى اليوم فى قبائل التوارك ، وان القرية الواحدة تشتمل على عنصرين متباغضين بغضاً سرمدياً ، أحدهما ينتمى الى البرانس والآخر

---

77) غطاء الراس الملصق بجلابة أو برنوس .

78) التوارك قبائل الصحراء المغربية ويكتب المشارقة الاسم طوارق وهو خطأ .

يعتزى الى البتر ، وعلل ذلك بأن هــذا الخلاف الدائم لا بــد أن يكون منبعثاً في الأصل عن اختلاف سلالي (79) .

وذكـر ابن خلدون أن علماء النسب متفقون على أن البربـر يجمعهم جذمان عظيمان ، أحدهما يسمى مادغيس الملقب بالأبتر ولذلك يقال لشعوبه البتر ، والآخر يدعى برنس ويقال لشعوبه البرانس ، وذكر أن بين النسابين خلافاً هل هما لأب واحد ؟ فعن ابن حزم فيما حدثه به يوسف الوراق عن أيوب ابن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لأب واحد ، وربما نقل عن أيوب بن أبي يزيد نفسه أنهما لأبوين متباعدين ، ويصحح ابن خلدون رواية ابن حزم عنه لأنــه أوثــق .

ويتفق نسابو البربر كهانيء بن بكور الضريسي ، وسابق بن سليمان المطماطي ، وكهلان بن أبي لؤى ، وغيرهم أن البتر من ولد بر بن قيس بن عيلان ، والبرانس من ولد برنس ، بن سفجو ، بن أبزج ، بن جناح ، بن واليل، بن شراط ، بن تام ، بن دويم ، بن دام ، بن مازيغ ، بن كنعان ، بن حام .

ومهما كان من أمر هذا التقسيم فانه يدل على حالة البلاد ويتلاءم مع نفسية سكانها وطبيعة مجتمعهم القبلي ، كما يدل تقسيم العرب الى عدنانية وقحطانية على نفس الحالة والطبيعة ، وادراك هذا التقسيم ينير السبيل لفهم تاريخ البربر قبل الاسلام وبعده ، فقد أثر تأثيراً عميقاً في علاقة البربر بالأمم والشعوب التي وفدت عليهم مهاجرة مسالمة أو محاربة متحكمة ، كما أثر النزاع بين البرانس والبتر أثراً بعيد المدى في علاقة البربر بالعرب بعد مجييء الاسلام ، فقد حالفت قبائل زناتة البترية العرب منذ البداية بينما حملت قبائل البرانس عبيء المقاومة والدفاع ، ولما دان البربر لسلطان الاسلام حالفت زناتة البترية الخلافة الأموية ووالت صنهاجة البرنسية العلويين وتعصبوا لهم وأيدوا الامام ادريس بن عبد الله الكامل حينما التجأ الى المغرب الأقصى ، وعندما نبغت نابغة الفاطميين واستقام لهم الأمر كانت كتامة وصنهاجة من البرانس

Rodd : People of tho vail P. 338 (79

خير أعوانهم واكثر جنودهم حمية واخلاصاً ، فلذلك أمعنــوا فى اضطهــاد الزناتيين والفتك بهم حتى اضطروهم الى الاعتصام بالخلافة ، وأصبح الصراع فى المغرب بين الأمويين والفاطميين ثم الزيريين مجرد نزاع بين صنهاجة وزناتة فى الواقع أى بين البتر والبرانس ، وكان بلكين بن زيرى أمير صنهاجة يقول : لا أمان عندى لبربرى ركب فرساً أو نتج خيلا أبداً حيثما سلك من البلاد (80) وقريب من ذلك حدث فى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية ، اذ احتدم النزاع بين زناتة وصنهاجة مما هدد الوحدة الاسلامية يومئذ بالخطر الجسيـم (81) .

---

80) مفاخر البربر فى القرون الوسطى ص 4 .

81) قيام دولة المرابطين ص 32 .

البرابـــتر

تنتمي هذه الطائفة من البربر الى مادغيس الأبتر بن بر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

قال أبو محمد ابن حزم في الجمهرة : ما علم النسابون لقيس بن عيلان ابناً اسمه بر أصلا (82) .

وعند نسابي البربر ، وحكاه البكري وغيره : انه كان لمضر ولدان : الياس وعيلان ، أمهما الرباب بنت حيدة بن عمرو بن معد بن عدنان ، فولد عيلان بن مضر ولدين : قيس ودهمان ، أما دهمان فولده قليل ، وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة ، وكانت لهم بنت تسمى البهاء بنت دهمان ، وأما قيس بن عيلان فولد له أربعة بنين : سعد وعمر ، أمهما عربية اسمها مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار ، وبر وتماضر ، أمهما كنعانية (بربرية) من الشام اسمها تمريغ بنت مجدل بن غمار بن مصمود ، وكانت قبائل البربر يسكنون يومئذ الشام ويجاورون العرب في المساكن ويشاركونهم في المياه والمراعي والمسارح ويصهرون اليهم . فتزوج بر بن قيس بن عيلان بنت عمه البهاء بنت دهمان بن عيلان ، فحسده اخوته على ذلك ، فخشت أمه — وكانت من دهاة النساء — عليه منهم ، وكاتبت أخواله سراً ثم رحلت اليهم مع ابنها وزوجته وهم اذ ذاك ساكنون بفلسطين وأطراف الشام ، فولدت البهاء لبر بن قيس ولدين : علوان ومادغيس ، فمات علوان صغيراً وبقي مادغيس فكان يلقب بالأبتر ، وهو أبو البتر من البربر ، وتزوج مادغيس بن بر بأملل بنت واطاس بن محمد بن مجدل بن غمار فولدت له زحيك (83) بن مادغيس .

---

82) جمهرة أنساب العرب ص 495 .

83) كتب هذا الاسم في مراجعنا المطبوعة والمخطوطة مرة زحيك بالحاء ومرة زجيك بالجيم ، ومرة ثالثة رجيك ، ولم نستطع ترجيح أحدها على الآخر فوجب التنبيه .

وقال الطبرى : خرج بر بن قيس ينشد ضالة بأحياء البربر فهوى جارية وتزوجها فولدت .

وعند غيره من نسابة البربر انه خرج فاراً من أخيه عمر بن قيس ، وفي ذلك تقول أخته تماضر :

لتبكى كل باكيــة أخــاهـــا   كمــا أبكى على بر بن قيـــس
تحمــل عــن عشيرتــه فأضحى   ودون لقائــه انــضاء عيـــس

ومما ينسب الى تماضر أيضاً :

وشطت ببر داره عــن بلادنـــا   وطوح بر نفسه حيث يممـــا
وأزرت ببــر لكنــة أعجميــة   وما كان بر في الحجاز بأعجما
كأنا وبــراً لم نفــر بجيادنـــا   بنجد ولم نقسم نهاباً ومغنما

واذا كان الرواة قد أطلقوا لخيالهم العنان فرسموا لنــا الصورة المتقدمة عن خروج بر الأبتر من الحجاز ولحاقه مع أمه بقبائل البربر بفلسطين فانهم لم يرسموا صورة مماثلة عن خروج البربر البتر أبنائه من فلسطين ودخولهم الى المغرب ، الا ما يذكرونه من هجرة الكنعانيين بعد انهزامهم أمام بنى اسرائيل ، وقد سبق لنا ان ذكرنا أن اليهود هم الذين سموا أولئك الكنعانيين بربراً فحملوا معهم الاسم وعرفوا به وحده اثناء انتقالهم الى المغرب وبعده .

ويتألف البربر البتر من شعوب كثيرة يجمعها أربعة أجذام (84) :

1) **أداسة** بنو أداس بن زحيك بن مادغيس الأبتر بن بر بن قيس بن عيلان ، وبطونهم كلها فى **هوارة** لأن أم أداس تزوجها بعد زحيك بن مادغيس — اوريغ بن عمه برنس والد هوارة على القول بأن مادغيس وبرنس أخوان ، فدخل نسب بنيه كلهم فى هوارة .

---

84) الجذم فى اللغة الاصل ، يقال جذم الشجرة ، وجذم القوم ، وجذم الأسنان منابتها ، وجذم الرجل أهله وعشيرته ، وفى الحديث (لم يكن رجل من قريش الا له جذم بمكة) .

2) **بنو لوا** الأكبر بن زحيك بن مادغيس الأبتر ، ومنهم بطنـان عظيمان : **نفزاوة** بنو نفزاو بن لوا الأكبر ، **ولواتة** بنو لوا الأصغر المسمى باسم أبيه .

3) **نفوسة** بنو نفوس بن زحيك بن مادغيس الأبتر ، وهم من أوسع قبائل البتر وفيهم شعوب كثيرة .

4) **ضريسة** (85) بنو ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر ، ويجمعهم جذمان عظيمان : بنو تمصيت بن ضريس ، وبنو يحيى بن ضريس .

وقبائل البربر البتر فى معظمها قبائل رحالة بدوية تنزل بسلسلة الأودية الرعوية الممتدة امتداداً متصلا من طرابلس الى تازة ، وتنتشر فى أقاليم النخيل الممتدة من غدامس الى السوس الأقصى ، وتكون غالبية سكان القرى الصحراوية ، ومنها قبائل بالمناطق التلية ، وقد أصبحوا بحكم لصوقهم بهذه الأوطان أهم قبائل البدو بالمغرب واكثرها نقلة وترحالا ، وتمتـاز بالروح الحربية العالية والتفوق فى القتال ، وفرسانها من أشجع فرسان البربـر قاطبة ، وقد قامت بدور من أكبر الأدوار فى نشر الاسلام بالمغرب والأندلس والصحراء وتحملت تضحيات كبيرة فى جهاد أعداء الدين .

أما اعتزازها بالنسبة العربية فلا يعادله اعتزاز ، وقد استمسك بها كتابها وشعراؤها وافتخروا بها على من عداهم ، وألقموا بها حجراً أفواه الساعين فى تأريث نار العصبية بين العرب والبربر .

فمن ذلك قول عبيدة بن قيس العقيلي :

الا أيها الساعـى لفرقـة بيننـا   توقف هداك الله سبـل الأطايب
فأقسم أنـا والبرابـر اخـوة   نمانا وهم جـد كريـم المناصب
أبونا أبوهم قيس عيلان فى الذرى   وفى حومة يشفى غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيـع واخـوة   عـلى رغـم أعداء لئـام المنـاقب
فانا لبـر ما بقـى الناس نـاصر   وبر لنا ركـن رفيـع المنـاكب

---

85) كتب هذا الاسم فى جمهرة ابن حزم ومواضع من تاريخ ابن خلدون ضرية ، وكتب ضريس الذى ينتسب اليه القبيل ضرى وضرا ، وفى مواضع أخرى من تاريخ ابن خلدون وكتب كثيرة غيره كتب ضريسة وضريس .

نعد لمن عـادى سوابـق ضمـراً ... وبيضاً تقط الهـام يوم التضارب
وبـر بـن قيس عصبة مضريـة ... وفى الفرع من أحسابها والذوائب
وقيس قوام الدين فى كل بلدة ... وخيـر معـد عند حفظ المناسب
وقيس لها المجد الذى يقتدى بـه ... وقيس لها سيف حديد المضارب

ومن ذلك أيضاً قول يزيد بن خالد يمدح البربر :

أيهـا السـائـل عنـا اصلنـا ... قيس عيـلان بنـو العـز الأول
نحن ما نحن ؟ بنو بر النـدى ... عرف المجد وفى المجـد دخـل
وابتنـى المجد فأورى زنـده ... وكفانـا كل خطب ذى جـلل
ان قيسـاً يعتـزى بـر لهـا ... ولبـر يعتـزى قيـس الأجـل
ولنـا الفخـر بقيس انـه ... جدنـا الأكبـر فكـاك الكبـل
ان قيسـا قيس عيـلان هـم ... معـدن الحـق عـلى الخير دلـل
حسبـك البربـر قومـى انهـم ... ملكـوا الأرض بأطـراف الأسـل
وببيـض تضرب الـهـام بهـا ... هام من كان عـن الحـق نكـل
أبلغـوا البربـر عنـى مدحـا ... حيك مـن جـوهـر شعـر منتخل



البربر البرانس

هاؤلاء هم البربر المستقرون الذين ينزل معظمهم فى المناطق الساحلية القريبة من البحر والأخرى الجبلية الممتدة عبر المغرب ، وفى هذه المناطق التى تطيب فيها التربة وتكثر الأمطار تكون الزراعة ميسورة والحياة المستقرة بداعى المصلحة أمراً مفروضاً ، وقد تمكنت قبائل البرانس بحكم استقرارها ومجاورتها لسيف البحر ان تتحضر وتتأثل المال وتستفيد مما كان المهاجرون والفاتحون الأجانب ياتون به من مدنيات وثقافات ، كما نمت فيها لنفس السبب روح المقاومة وكثر تعلقها بالأرض التى تقيم فيها والتى لم تألف ان تبرحها كالبتر الرحل ، وهذا ما جعلها تستميت فى مقاومة العرب لأول الفتح الاسلامى بينما وضع البتر أيديهم فى أيدى العرب لتشابه الحياة عند الفريقين واستهدافهما لكثير من المقاصد المنبعثة عن غرائز طبعا عليها أو عادات ألفاها .

وقد وصفهم ابن خلدون فقال انهم كانوا على عهده من أوفر قبائل البربر وأكثر أهل المغرب ، فلا يكاد قطر من اقطاره يخلو من بطن من بطونهم ، فى جبل أو بسيط ، حتى زعم كثير من الناس أنهم الثلثان من البربر ، وكان لهم فى الحروب ذكر ، وفى الخروج على الأمر شأن .

اما شعوبهم فاتفق النسابون على انها منحصرة فى سبعة :

ا — **ازداجة :** ويعرفون أيضاً بوزداجة ، ويعدهم بعض النسابين البربر من البتر ، ويقال ان ازداجة من زناتة ، ووزداجة من هوارة .

ب — **أوربة :** بنو أورب بن برنس ، وهى بفتح الألف وفتح الواو وسكون الراء ، وتعرف اليوم بوربة فقط .

ت — أوريغة : بنو أوريغ بن برنس ، ويزعم كثير من النسابين أنهم يرجعون الى أصل عربي .

ث — كتامة : بنو كتام أو كتم بن برنس ، ويؤكد نسابو العرب انهم عرب حميريون .

ج — مصمودة : بنو مصمود بن برنس .

ح — صنهاجة : بنو صنهاج بن برنس ، ويؤكد النسابون العرب انهم من العرب الحميريين مثل كتامة ، وأصل الكلمة صناك بالصاد المشم بالزاي والكاف القريب من الجيم (الزناكة) الا أن العرب تقلوه الى لسانهم وزادوا فيه الهاء بين النون والألف .

خ — عجيسة : بنو عجيس بن برنس ، وأصل عجيس عدس بتشديد الدال ومعناه البطن بالبربرية ، فلما عربه العرب قلبوا داله جيماً مخففا .

وقد زاد النسابة البربري سابق المطماطي وأصحابه **لمطة و هسكورة و كزولة** في شعوب البرانس ، وأنكر نسابون آخرون أن تكون صنهاجة وكتامة من شعوبهم مؤكداً انهما شعبان عربيان تخلفا في المغرب بعد غزوة قام بها العرب في زمن سحيق ، ومثل هذا ادعوه في حق زناتة بالنسبة للبربر البتر ، وكيفما كان حجج المثبتين والمنكرين فالشيء المحقق هو أن هذه القبائل وغيرها من القبائل المتنازع في نسبها كانت معروفة في المغرب من قديم ، وموجودة فيه قبل وفادة العرب الجدد الذين جاءوا اليه مع الاسلام ، فلذلك سنذكرهم مع قبائل البربر مشيرين الى ما وقع من الخلاف في انسابهم وتواريخ استقرارهم بالمغرب لدى الكلام على كل قبيلة .



شعوب البُتر

1 ـ شعب اداسة

بنو أداس بن زحيك بن مادغيس الأبتر ، اختلطت قبائلهم بقبائل هوارة البرنسية ، لأن أم أداس تزوجها بعد زحيك ابن عمه أوريغ بن برنس والد هوارة على القول بأن مدغيس وبرنس اخوان .

من أشهر قبائلهم :

أ ـ **أنـدارة** (86)

ب ـ **أوطيطـة**

ت ـ **ترهونـة** (87) باسمها سميت مدينة ترهونة قرب طرابلس ، ومنها فرقة مستقرة على عدوتي وادي لكوس شمال مدينة وزان بالمغرب الأقصى ، تعرف باسمها الأصلي المعرب : **رهونـة** .

ث ـ **صنبرة** (88)

ج ـ **هـداغـة**

ح ـ **هنزولة** (89)

خ ـ **وشتاتـة** (90) منها قبيلة معروفـة باسمهـا مستقرة بالجبال القريبة من نهر مجردة بالقطر التونسي ، وكانت فرقة منها تسكن جبل زالـغ المشرف على مدينة فاس ، واليها ينسب الموضع المسمى باب وشتاتـة منه .

---

86) كتبت أيضاً أندرة وواندرة .

87) كتبت أيضاً خطأ ترهنة .

88) كتبت أيضاً ضنبرة .

89) كتبت أيضاً خطأ هيزونة وهتروقة وهتروتة وهنزرتة .

90) كتبت أيضاً خطأ وسفارة ووشفاتة .

2 ـ شعب لواتة

هم بنو لوا (بضم اللام) الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك بن مادغيس الأبتر ، ذكر النسابون ان لوا الأكبر خلف ابنه لوا الأصغر حملا فسمي باسم أبيه .

وكانت القبيلة تدعى فى الأصل لوات على عادة البربر فى اضافة الألف والتاء اذا أرادوا التعميم فى الجمع ، فلما جاء العرب حملوه على الافراد وألحقوا به هاء الجمع فصار لواتة .

ذكر لابن حزم فيما يرويه فى الجمهرة (91) أن نسابي البربر يزعمون أن لواتة ومزاتة وسدراتة من القبط ، وأنكر ذلك ابن خلدون بشدة قائلا : ليس ذلك بصحيح ، وابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر فى ذلك .

وقبائل لواتة كثيرة جدا ، يرجع المعروف منها الى أربعة من أبنائه : زاير ، وكطوط ، وماصل (92) ، ونيطط .

فمن ابنه زاير :

أ ـ مزيتة ـ من أكبر قبائل لواتة ، ما زالت فرقة منها بالمغرب الأوسط معروفة باسمها الأصلي قرب مدينة سطيف .

ومن ابنه كطوط :

ب ـ جدانة ـ ربما كانت منها قبيلة كدانة (بجيم بدوى) احدى قبائل أولاد سعيد بشاوية المغرب الأقصى .

ت ـ مغاغة

ومن ابنه ماصل :

ث ـ عزوزة ـ ما زالت بقية منها قرب مرسى أزفون بجبال زواوة من المغرب الأوسط معروفة باسمها الأصلي .

---

91) جمهرة أنساب العرب ص 498 .

92) كتب أيضاً فاضل وفاصلة .

ج ـ أكـورة (93)

ح ـ جرمانـة : عدها سابق المطماطي من بطون ماصل اللواتيين ، منها بطن مندمج في قبيلة بني محمد القريبة مساكنها من بجاية .

خ ـ مغانـة : يوجـد بطن بهذا الاسـم مندرج في قبيلة الدوايـر بحوز وهـران .

ومن ابنه نيطط :

د ـ سدراتة : وهم بطون كثيرة اختلطت بقبائل مغراوة وبطونها ، قال ابن حزم في الجمهرة : ويقال أن مغراو ـ وهو من زناتة ـ تزوج أم سدرات ، فصـار سـدرات أخـا أولاد مغراو لأمهـم واختلط نسبـه بهم (94) ، ولهذه القبيلة فروع كثيرة وبطون عديدة مستقلة بنفسها ومعروفـة باسمها الأصلي أو مندمجة في غيرها ومعروفة بأسماء فرعية ، منها قبيلة سدراتة قرب مدينة برج بوعريرج بالمغرب الأوسط ، وقبائل (آيت سدرات) القريبة من وادي درعة بالمغرب الأقصى .

كانت قبيلة لواتة تقيم بمواطنها الأصلية بالأقاليم الشرقية وخاصة ببرقة وعلى حدود مصر ، وكانت لهم في الماضي مدن عريقة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان . ولما بدأ المسلمون محاولاتهم الأولى لفتح الشمال الافريقي كانت لواتة أول قبيلة واجهوها فأسلمت وأعانتهم على الفتح وانساحت معهم الى جهات طرابلس وشط الجريـد وجبل أوراس ومنطقة الزاب ، وانتشرت بطونها وفروعها الكثيرة بعد ذلك في جميع بلاد المغرب من نهر النيل الـى المحيط الأطلسي ، فمنهم بواحات مصر وقرى الصعيد والجبال المعروفة بهم قبلة قابس وصفاقس ، وأحياء بالجبال المطلة على سهل متيجـة ، وبسيط تاكرارت القريب من بجاية ، وبجهات وادي مينا (وهران) ، وفساس وتادلة من المغرب الأقصى ، وقد اندثرت بعض البطون والاحياء اللواتية اليوم من تلك الجهات أو اندرجت في قبائل طرأت عليها ، ولكن بعض القرى بقي مـع ذلك يحمل اسمها لسكناها بها في القديم .

---

93) كذا كتبت في جمهرة ابن حزم وتاريخ ابن خلدون وكتبت في الاخير أيضاً أكـوزة ويغلب على الظن أنه تصحيف .

94) جمهرة أنساب العرب ص 497 .

3 ـ شعب نفزاوة

هم بنو يطوفت (95) بن نفزاو، بن لوا الأكبر، بن زحيك بن مادغيس الأبتر ، وينطق زاى نفزاوة بين الزاى والشين .

كانت قبائل نفزاوة تقيم فى الأول جنوبى شط الجريد وما يتاخمه من اقليم طرابلس شرقاً وصحراء عمالة قسنطينة غرباً حتى سميت المنطقة كلها بلاد نفزاوة ، ثم تفرقت تلك القبائل بعد ذلك فى سائر المغرب حاملة معها أسماءها الفرعية ولم تبق الا قبيلة واحدة صغيرة تحمل الاسم الأصلى بشط الجريد ، ويقال أن قبيلة نفزة الموجودة فى شمال القطر التونسى هى احدى قبائل نفزاوة ، وان اسمها عرب واختصر أثناء فرارها أمام الزحـف الهلالى من مواطنها الأصلية بالجنوب إلى مواطنها الجديدة بالشمال .

من أشهر قبائلهم :

أ ـ زاتيمـة : (96) بهذا الاسم تعرف اليوم منها قبيلة تسكن عـلى بعد 50 كلم الى الجنوب الغربى من مرسى شرشال ، بعمالة الجزائر .

ب ـ زهيلة : كـانت بقيتهم فى عهد ابـن خلدون بنواحـى بادس مندمجون فى غمارة ، وكـان منهم لعهد مشيخته أبـو يعقوب البادسى أكبر الأولياء وآخرهم بالمغرب .

ت ـ مجر (97) لعلها بفتح الميم وسكون الجيم وضم الراء مع مد ، فاذا كانت كذلك فبقاياها مندمجة فى قبيلة زروال المغربية (بطن **بنى مجرو**)

ث ـ مرنيسة : قال ابن خلدون لا يعلم لهم موطن ، ومن أعقابهم أوزاع بين احياء العرب بافريقية، منهم قبيلة شهيرة تحمل الاسم نفسه مستقرة شمال اقليم تازة من المغرب الأقصى .

ج ـ مكلاتـة : عدها ابن حزم فى الجمهرة من قبائل نفزاوة ، وكذلك ابن خلدون فيما نقله عن سابق المطماطى ، لكنه أورد قولا ضعيفاً ينفى نسبتها

95) يكتب وينطق أيضاً يطفت بدون مد ، ومنه قبيلة بنى يطفت بشمال المغرب الأقصى .

96) كتبت زيتم فى جمهرة ابن حزم .

97) كتبت أيضاً مجر .

الى نفزاوة ويرفع نسبها الى حمير ، ويذكر ان مكلات وقع الى يطوفت بن نفزاو صغيراً فتبناه فقط ، كانت مواطنها غير بعيدة عن مكناس ، وذكر البكرى أنها واقعة فى الطريق بين فاس وسجلماسة على بعد مرحلتين جنوب مدينة صفرو ، ويعرف بها موضع قرب مدينة فضالة بالمغرب الأقصى، وتنسب اليها أسر نبيهة.

ح ـ غساسة : سكنت منها فرقة بساحل بطوية من ريف المغرب الأقصى، واليها تنسب قرية غساسة المسامتة لمدينة مليلية من الجهة الغربية ، وكانت فى الماضى حاضرة البحر ومرسى أساطيل المغرب ، وهى من المدن المغربية التى وصفها لسان الدين بن الخطيب فى كتابه (معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار) ، والقبيلة مندرجة اليوم فى قبائل قلعية ، وقد تنوسى اسمها الأصلى ولم تبق الا أسماء أسر تذكر به ، كما اندثرت القرية نفسها وبقيت منها أطلال واسم ميربر .

خ ـ سوماتة : كانت بقية منها فى جهات القيروان ، واستقرت فرقة منها قرب مليانة بالمغرب الأوسط ، وفوق ترابها توجد اليوم قرية حمام ريغة وقرية بومدفع ، واستقرت فرقة أخرى بجبال الهبط من المغرب الأقصى ، وهى معروفة باسمها الأصلى بين قبائل جبالة باقليم تطوان ، وباسمها المبربر تسمى قرية (يسوماتن) من قرى قبيلة بنى جناد بجبال زواوة بالقطر الجزائرى .

د ـ ورغوس : كذا كتبت فى جمهرة ابن حزم ،وكتبت فى تاريخ ابن خلدون **وردغوس** والظاهر أن الأول أصح لوجود ما يدل عليه فى كتب أخرى ككتاب المسالك والممالك (98) الذى ذكر قبيلة ورغروسة من جملة القبائل البربرية التى كانت تسكن مدينة تيجس العتيقة ، وتوجد اليوم بحوز بسكرة قبيلة تسمى ودغروس لعلها من بقايا القبيلة المذكورة .

ذ ـ وردين

ر ـ وركول (99)

ز ـ وسيف : (100) منها اليوم فرقة بجبال زواوة من المغرب الأوسط

98) كتاب المغرب ، فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 63 .

99) كتب فى جمهرة ابن حزم ورجول ، وأحسبه تصحيفاً لاسم دركول الذى توجد منه بطون كثيرة بالمغرب .

100) كتبت أيضاً ورسيف فى تاريخ ابن خلدون .

يعرفون ببنى زسيف ، وفرقة (آيت وسيف) باقليم سوس وبطون مندرجة في قبائل رقيطة ومنتاكة ومكونة وسكساوة من المغرب الأقصى .

ط ــ زلهاصة : أكبر قبائل نفزاوة ، سميت باسم أبيها ولهاص ، بن يطوفت ، بن نفزاو ، والى ولديه ترغاش ودحية تنتمى بطونها العديدة ، تسكن اليوم فرقة من قبيلة ولهاصة على عدوتى نهر تافنا عند مصبه بالبحر المتوسط شمال تلمسان ، وتسكن فرقة أخرى منها ببسيط عنابة جنوب بحيرة فزارة كانوا في زمن ابن خلدون يركبون الخيل ويأخذون بمذاهب العرب في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم كما هو حال هوارة ، ودخلت منها فرقة أخرى الى الأندلس مجاهدة تنسب اليها أسر أندلسية مجيدة كأسرة القاضى منذر بن سعيد البلوطى .

4 ــ شعب نفوسة

بنو نفوس بن زحيك بن مادغيس الأبتر .

قال ابن خلدون : هم بطن واحد تنسب اليه نفوسة كلها ، وكانوا من أوسع قبائل البربر وفيهم شعوب كثيرة .

كانت مواطن جمهورهم باقليم طرابلس ، واليهم ينسب الجبل المشهور الواقع قبلتها ، وكانت مدينة صبرة في مواطنهم وتعزى اليهم ، وهى كانت باكورة الفتح لأول الاسلام وخربها العرب بعد استيلائهم عليها فلم يبق منها الا الأطلال ورسوم خافية ، ثم تفرقوا بعد ذلك بعمالات مصر والمغرب .

من أشهر قبائلهم :

أ ــ بنى زمور : وهم غير قبائل زمور وزمورة البرنسيين ، ولكنهم يختلطون بهم ويلتبسون للاسم الموحد لكلا الفريقين .

ب ــ ماطوسة : توجد بقاياها مندرجة في قبيلة بنى خلفون على الضفة اليمنى لوادى يسر شرقى الجزائر .

ت ــ بنى مسكور (101) منهم بطن مندمج في قبيلة آيت ونير الساكنة قرب زاكورة بالمغرب الأقصى .

---

(101) كتب أيضا مكسور ومسكور .

5 ـ شعب ضريسة

بنو ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر .

تنتمي قبائلهم كلها الى ولديه تمصيت (102) ويحيى .

فمن ولد فاتن بن تمصيت :

أ ـ دونـة : (103) اخوة مغيلة ومعدودون منها ، منهم فرقة مندمجة في قبيلة بني بودرار بجبال جرجورة بالمغرب الأوسط ، وأخرى (ودرنة) بجنوب القطر التونسي .

ب ـ كشاتـة : هم أيضاً اخوة لمغيلة ومعدودون منها ، منهم فرقة مندرجة في قبيلة البهاليل القريبة من صفرو بالمغرب الأقصى .

ت ـ كسومية : بكاف بدوى ، كانوا يعرفون قديماً بصطفورة أو صدفورة ، ولهم ثلاثة بطون منها تفرعت قبائلهم وبطونهم : ندرومة وصغارة وبني يلول ، وكانت مواطنهم الأصلية بجبال ترارة الواقعة على سيف البحر شمال غرب تلمسان ، وهم قبيل عبد المومن بن على مؤسس دولة الموحدين من بني عابد منهم ، خف جمهورهم الى مراكش وسكنوها على عهد الدولة الموحدية فاعتضد بهم خلفاؤها وأنفقوهم في الفتوح والعسكرة فأكلتهم الأقطار فانقرضوا وبقيت منهم بمواطنهم الأصلية بقايا .

ث ـ لمايـة : من أكبر قبائل ضريسة وأوفرها عدداً ، كانوا ظواعن بافريقية والمغرب وجمهورهم موطناً بالتخوم الجنوبية مما يلى الصحراء ، وهم الذين نزل عليهم عبد الرحمان بن رستم مؤسس الدولة الرستمية فبايعوه بالخلافة وبنوا له مدينة تيهرت ، ثم أكلتهم الحروب التى حدثت فيما بعد بين الممالك والامارات المغربية وخربت تيهرت التى اختطوها فهلكوا بهلاكها وبقيت منهم فرق أوزاعاً في القبائل ، باسمهم سميت قرية لماية الواقعة بين زوارة وطرابلس .

---

102) يكتب ويقرأ أيضاً تمزيت .

103) كتبت أيضاً دونسة .

ج ــ مديونــة : من أشهر قبائل المغرب ، كــان جمهورهم بنواحي تلمسان بين جبل بني راشد والجبل المنسوب اليهم قبلة وجدة ، ودخلت منهم جماعــات وفيرة العدد الى الأندلس مــع طلائــع الفتح الاسلامي فكان لهم بها استفحال ، ثم زاحمتهم القبائل في بلادهم حتى ألجأتهم الى حصون جبل تاسالة وجبل وجدة ، منهم فرق معروفة باسمها الأصلي بالمغربين الأقصى والأوسط ، وبطون مندرجة في قبائل أخرى ومواضع مسماة باسم القبيلة أو مضافة اليه .

ح ــ مطماطــة : اسم أبيهم مصكاب ، ومطماط ليس الا لقباً لــه ، وتعتبر مطماطة شعباً لاشتمالها على قبائل عديدة لا يخلو منها مكان بالمغرب ، واليهم ينسب الجبل الشهير الواقع في جنوب القطر التونسي وسيأتي الكلام مفصلا عنهم في القسم الثالث من هذا الكتاب .

خ ــ مطغرة : (104) مــن أوفــر قبائــل ضريسة ، كــان جمهورهم بالمغرب الأقصى على عهد الفتح الاسلامي ، وساهموا في فتح الأندلس مع طارق ابن زياد وأجازت منهم أمم اليها بعد ذلك واستقروا بها ، وهم موجودون اليوم بنواحي تلمسان وفاس وقرى تافيلالت وتوات ، ومنهم أوزاع في أعمال المغرب الأوسط وافريقية .

د ــ مغيلة : كــان منهم جمهوران أحدهما قــرب مصب وادي شلف بالمغرب الأوسط ، والآخر بالمغرب الأقصى ، وهم احدى القبائل التي قامت بنصرة الامام ادريس بن عبد الله الكامل لما حل بالمغرب وحملت البربر على طاعته والدخول في أمره ، لم يبق منهم على عهد ابن خلدون بمواطنهم الشرقية جمع ولا حي ، وأكثريتهم موجودة اليوم بناحية فــاس وصفــرو وتــازة من المغرب الأقــصـــى .

ذ ــ صدينة : احدى القبائل التي قامت مع مغيلة لنصرة ادريس ابن عبد الله الكامل ، منها بطن مندرج في قبيلة شراكــة قرب فــاس ، وبها سميت قرية قرب تطوان .

---

104) تكتب أيضاً بدال **مدغرة** ، وقــد فــرق النسابون والمؤرخون بين مطغرة تلمسان ومدغرة تافيلالت والصحراء فجعلوا الأولى بالطاء والثانية بالدال .

ومن ولد يحيى بن ضريس :

ز ـ زنـاتـة : من ولد أجانا أو زانا (105) بن يحيى بن ضريس ، اضيفت اليه الألف والتاء للتعميم عند الجمع على طريقة البربر فصارت جانات أو زانات ، فلما عربــه العرب عاملوه معاملة المفرد وأضافوا اليه هــاء الجمع فصار زناتــة ، وقيل فى نسبهم أنهم عرب كما سياتى فى القسم الثالث .

وهذا الشعب من أكبر شعوب البربر على الاطلاق تسنموا ذروة الملك والامارة فى الاسلام مرات عديدة ، فمنهم بنو مدرار ملوك سجلماسة ، وخلفاء الموحدين ، وبنو مرين ملوك فاس وبنو عبد الواد ملوك تلمسان وسواهم ، وتنضوى تحت زناتة قبائل كثيرة وبطون عديدة ، وكانت مواطنهم الأصلية بصحراء المغرب ما بين غدامس الى وادى الساورة ، ثم طلعت منهم جماعات الى التل فاستوطنت المغرب الأوسط وملأت سهوله وجباله حتى سمى وطــن زناتــة كما استوطنوا القسم الشرقي مــن المغرب الأقصى الى جبال تــازة ، وهم موجودون اليوم فى كل مكان بالبلاد المغربية ، معروفون باسمهم الأصلى أو بأسماء قبائلهم وبطونهم الفرعية ، وسيــأتى تفصيل الكلام عليهم جميعــاً فى القسم الثالث من هذا الكتاب .

ظ ـ زوارة : منهم بطون مندمجة فى قبيلة بنى موسى (دوار سيدى حمودة) وقبيلة صنهاجة (دوار الشركة) وقبيلة أولاد عطية (دوار الصوادق) بالمغــرب الأوسط ، وبهم سميت المدينة الساحلية الواقعة الى الغرب مــن طرابلس ، وقــد التبست هــذه القبيلة عــلى كثير مــن المؤرخين والنسابين فحسبوها قبيلة **زواوة** التى يرجح أنها من بربر كتامة البرانس .

ك ـ زواغة : بنو سمكان (106) بن يحيى اخوة زوارة ، ينقسمون الى ثلاثة بطون : بنو دمر بن زواغ ، وبنو واطيل بن زحيك بن زواغ ، وبنو ماجر ابن تيفون بن زواغ ، وهم أوزاع فى القبائل منتشرون فى جميع البلاد المغربية ، منهم قبيلة معروفــة باسمهم الجامــع فى ناحية فج مزالة بالقطر الجزائرى ،

105) ويكتب ايضا شانا بالشين .

106) توجد باقليم ورزازات من المغرب الأقصى قبيلة تدعى آيت سمكان .

وكانت منهم فى أول الفتح الاسلامى فرقة بظاهر فاس اليها ينسب بسيط زواغة الواقع بينها وبين صفرو وجبل كندر .

ل ـ **مكناسة :** هم فى الحقيقة شعب كبير تنطوى تحته جميع بطون مكناسة وأوكته وورتناج أبناء ورسطف بن يحيى بن ضريس والقبائل المتفرعة عنها ، كانت مواطنهم الأصلية على وادى ملوية من لدن منبعه بجبال الأطلس المتوسط الى مصبه بالبحر الأبيض وما يقارب ذلك الوادى من جبال وسهول ، وباسمهم سميت مدينة مكناس الحاضرة المغربية الشهيرة ، ولا تزال بقاياها بجوار تازة تدعى باسمها الأصلى ، وكذلك توجد قبيلة منها تحمل نفس الاسم قرب مدينة عمى موسى بعمالة وهران ، وتوجد أوزاعها وقبائلها الفرعية بسائر أقطار المغرب العربى ، ودخلت منها فرق الى الأندلس نبه منها بعض البيوت كبيت بنى وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس .



شعوب البرانس

1 ـ شعب أزداجة

يعرفون أيضاً بوزداجة ، وكثير من نسابى البربر يعدونهم فى بطون زناتة ، وقد يقال أن أزداجة من زناتة البترية ، ووزداجة من هوارة البرنسية .

كانت مواطنهم بناحية وهران من المغرب الأوسط ، وكانت لهم كثرة ووفور ، واعتزاز وآثار فى الفتن والحروب الى أن استأصلهم يعلى بن أبى محمد اليفرنى بأمر الخليفة الناصر الأموى سنة 443 وهجر الرؤساء منهم الى الأندلس فلم تبق منهم الا أوزاع تقيم على حال من الذل والهضيمة وتنتظم فى عداد القبائل الغارمة .

من بطونهم :

أ ـ مسطاسة : يقال أنهم بطن مندرج فيهم فقط ، ويقال أيضاً أنهم ولد مسطاس أخى أزداج ، منهم أوزاع بالمغرب الأقصى ، وأسرة شهيرة .

ب ـ بنى مسكن بجيم بدوية كانوا مجاورين لوهران .

2 ـ شعب أوربة

ولد أورب بن برنس ، كانوا من القبائل التى لها الكثرة والغلب لعهد الفتح الاسلامى لوفرة عددهم وشدة بأسهم وكان أميرهم يومئذ سكرديد بن زوغى بن بارزت بن برزيات توفى سنة 71 هـ بعد ما ولى عليهم 73 سنة ، لا تزال بقاياها بناحية تازة معروفة باسمها الأصلى المعرب (وربة) ، وتزعم قبيلة **آيت وريبل** أنها منحدرة منها .

من قبائلهم :

أ ــ ديقوســة

ب ــ رغيوة : لا تزال معروفة بهذا الاسم شمال اقليم فاس ، ومنها بطن مندرج في قبيلة التلاغمة (دوار راس سكين) بالمغرب الأوسط .

ت ــ زهجوكــة : كتبت في تاريخ ابن خلدون زهكوجة ، وينطق بها اليوم محلياً جهجوكة أيضاً ، كانت مواطنها بجهات القصر الكبير من المغرب الأقصى ، وبها سميت قريــة هناك ذكــر البكري أنها كانت مقر أحــد أمــراء الأدارسة ، وزهجوكة مشهورة بين قبائل جبالة بالرقص والغناء وتضرب بها الأمثال في ذلك .

ث ــ لجايــة : لامها أصلي كلام **لمدية و لمتونة** الصنهاجيتين ، مــا تزال موجودة قرب وادي ورغة شمال اقليم فاس ، وقد حرفت الى بجاية في النسخ المطبوعة من تاريخ ابن خلدون ، والصواب هو ما أثبتناه ، لأن بجايــة بعيدة عن مواطــن أوربــة ، ومعدودة من قبائل كتامــة أو صنهاجة بالمغرب الأوسط كما سيأتي .

ج ــ مزياتــة : تعرف اليوم بمزيات فقط ، مواطنها قرب وادي ورغة شمال اقليم فاس .

ح ــ نفاســة

خ ــ ونيجــة

3 ــ شعب أوريغة

ويقال لشعب أوريغة وريغة أو ريغة اختصاراً ، ويقال لهم أيضاً هوارة تغليباً ، وهم بنو أوريغ بن برنس .

زعم كثير من النسابين أن شعوب أوريغة وقبائلها من عرب اليمن ، وقيل من عاملة احدى بطون قضاعة ، أو من ولد المسور بن السكاسك بن وائل ابن حمير ، واذا تحروا الصواب في نسب أوريغ قالوا انه ابن خبور بن المثنى ابن المسور ، وعند هاؤلاء النسابين أن هــوارة وصنهاجــة ولمطــة وكزولة وهسكورة اخوة يعرف جميعهم ببني ينهل وأن المسور جدهم جميعاً وقع الى

البتـر ونـزل عـلى بنى زحيك بن مادغيس الأبتر ، وكانـوا أربعة : أداس ، وضريس ، ولوا ، ونفوس ، فزوجوه أختهم تيصكى (107) العرجاء بنت زحيك .

وبطون أوريغة التى تتفرع عنها شعوبهم وقبائلهم كثيرة جداً فيها من أبناء أوريغ وفيها من أبناء غيره ، وقد تقدم أن قبائل أداسة البترية اندمجت في هوارة منهم ، كما اندمج فيهم عدد آخر من القبائل البرنسية قبل الاسلام ، ومن القبائل العربية بعده .

وكانت مواطن جمهورهم لأول الفتح الاسلامى بنواحى طرابلس وما يليها من برقة ، ظواعن وآهلين ، ثم انساحوا مع الزحوف الاسلامية الى سائر جهات المغرب والصحراء ، وعبروا البحر مجاهدين الى الأندلس مع طارق بن زياد ، والى صقلية مع أسد بن الفرات ، وكانت لهم وقائع وأيام وحوادث وآثار كثيرة في القرون الأولى التى تلت دخول المسلمين الى البلاد المغربية .

ويندرج تحت اسم أوريغة أربعة شعوب وعدد من القبائل والبطون .

أما الشعوب فهي المتنسلة من أبناء أوريغ الأربعة :

1 ـ ملد بن أوريغ ويقال لقبائله بنو لهان أو لهانـة فقط .

2 ـ مقر بن أوريغ وينطق ويكتب أيضاً مغر بالغين على عادة أهـل الصحراء في قلب القاف غيناً .

3 ـ قلدن بن أوريـغ .

4 ـ هوار بن أوريـغ .

أما القبائل والبطون المندمجة فيهم فمنهم قبائل شعب أداسة التى سبقت لدى الكلام على شعوب البتر ، يقال أن أم أداس تزوجها بعد زحيك بن مادغيس الأبتر ـ أوريغ بن برنس فاختلط نسب أداسة مـع نسب أوريغة بسبب ذلك ، ومنهم قبائل برنسيـة وأخـرى عربية شاركتها في المواطن والمراعى طوعاً أو كرهاً ، ورافقتها في الزحوف والمرابط فأصبحت واياها شيئاً واحـداً .

---

107) تكتب أيضاً وتنطق تيسكى وتيزكى .

وجميع هذه الشعوب والقبائل والبطون الوريغية غلب عليها اسم هوارة ، لأن هوار بن أوريغ أكبر اخوته سناً وأسيرهم ذكراً فانتسبوا اليه جميعــاً .

فمن قبائل لهانــة بنى لهان بن ملد بن أوريغ :

أ ـ أسيــل

ب ـ سطــات : كتبت فى تاريخ ابن خلدون سطط ، وفى جمهرة ابن حزم ستات ، لعل اليها نسبة المدينة القريبة من الدار البيضاء ، وليس منها قبيلة سطة الشهيرة باقليم فاس ، فهذه من شعب صنهاجة كما سيأتى .

ت ـ مليلة : من أكبر قبائــل البلاد المغربية لها فــروع فى جميع الجهات مستقلة بنفسها أو مندمجة فى غيرها ، وينسب اليها عــدة مواضع .

ث ـ مسراتــة : باسمها سميت المدينة الطرابلسية الشهيرة .

ج ـ ونيفن : عدهــا سابــق المطماطى فى جملة قبائل لهانــة .

ح ـ ورفــل : لعل منها بطن ورفلة المندرج فى قبيلة أولاد سيدى يحيى (دوار ابن الكفيف) المستقرة قرب تبسة بالمغرب الأوسط .

ومن قبائل مقر أو مغر :

خ ـ زمــور : يوجدون بكثرة فى جميع البلاد المغربية .

د ـ كبا : كذا وردت فى جمهرة ابن حزم وكتبت (كياد) فى تاريخ ابن خلدون .

ذ ـ كركودة : من القبائل التى زادها سابــق المطماطى وأصحابــه .

ر ـ ماواس : منهم فروع بالمغرب كانت مندرجة فى قبيلة بطوية .

ز ـ منداسة : أبناء منداس بن مقر ، اليهم ينسب وادى منداس من عمالة وهران وكانت مواطنهم هناك الى أن استفحل أمــر مطماطــة فأخرجوا منداسة منها وغلبوهم على أمرهم ، وهم قبيل سعيد بن عبد الله المنداسى الشاعر الفحل صاحب (العقيقة) فى مدح الرسول ومادح السلطان مولاى اسماعيل ابن الشريف العلوى .

ط ــ ســراى : وكتبت أيضاً مسراى ومسرات .

ظ ــ ورجــين : عدها سابق وأصحابه فى بنى مقر ، وهم موجودون اليوم قرب عنابة معروفون باسمهم الأصلى : **بنى ورجين** .

ومن قبائل فلدن :

ك ــ بيانــة : كتب أيضاً بياتــة .

ل ــ فــل : كتب أيضاً بــل ، ويظهر أن الأول أصح لوجود ما يدل عليه من أسماء القبائل البربرية مثل **آيت وفلة** .

م ــ قمصانــة : كتب أيضاً قمصاتــة .

ن ــ ورسطيف : كتب أيضاً ورصطيف .

ومن ولد هوار بن أوريغ قبائل بنى كهلان التى هى :

ص ــ زكارة : يوجدون بناحية شرشال والأصنام بالمغرب الأوسط ، وبجبال الهبط بالمغرب الأقصى ، وقد كتب الاسم بالواو بدل الراء فى تاريخ ابن خلدون (زكــاوة) والأول أصح ، اذ لا تعرف قبيلة بالاسم الأخير فــى البلاد المغربية .

ض ــ مجريس

ع ــ مسلاتــة

غ ــ غريسان : بها سميت قرية واقعة جنوب مدينة طرابلس .

ف ــ ورغــة : لا تزال منها بقية بالجنوب التونسى ، واليها ينسب نهر بشمال المغرب الأقصى كانت فرقة منها تسكن على عدوتيه .

ويقال أن من بنى كهلان الهواريين أيضاً قبائل ونيفن وورجين ومليلة التى تقدمت ، وكذلك

ق ــ بنى كسى

س ــ لشوة

ش ــ هكارة : سكان المنطقة الوسطى والشرقية من صحراء المغرب ،

وبهم تعرف المنطقة كلها هكار ، وأصل هكارة هوارة قلبت العجمة واواً أعجمياً يخرج بين الكاف العربي والقاف .

هـ ـ **هيوارة** : عـدها سابق وأصحابـه من جملة قبائل بني كهلان الهواريين ، وذكرهم ابن خلدون مع بطون بني يلول من كومية .

و ـ ورتاكط

4 ـ شعب كتامة

من أشهر شعوب البربـر وأشدهم قـوة وبأساً وأكثرهم استقراراً وتمرساً بالحضارة ، ينتسبون الى أبيهم كتام أو كتم بن برنس ، ويؤكد الطبرى وابن الكلبى وغيرهما من نسابي العرب أنهم من حمير ، وأن افريقش بن قيس ابن صيفي من ملوك التبابعة الذى افتتح افريقية بقبائل العرب في زمن قديم خلفهم وصنهاجة به عند رجوعه من غزوته وسماهم البربر لما رأى من لغطهم وتغير لغتهم بعد اختلاطهم بأهل البلاد الأصليين عدة سنوات .

كانت قبائل كتامة موجودة من قديم في جميع نواحي المغرب ، الا أن جمهورهم كان عند الفتح الاسلامي موطناً بأرياف اقليم قسنطينة وشرق المغرب الأوسط على العموم من جبل أوراس جنوباً الى سيف البحر ما بين عنابة وبجاية، وكانت لهم فى تلك المواطن مدن مذكورة مثل سطيف وباغاية ونقاوس وبلزمة وميلة وقسنطينة والقل وجيجل ، أكثرها لهم وبين ديارهم ومجالاتهم ، لكنهم تنكروا مـع ذلك لنسبهم وأخـذوا يفرون منه بعد ما أصبح المثل السائـر فى الذلة بن القبائل لما نكرتهم الدول بسبب انتحالهم لبعض المذاهب الشاذة ، ولم تبق منهم الا قبيلة واحدة معروفة باسمها الأصلي مستقرة بشمال المغرب الأقـصـى .

ولكتامـة قبائل وبطـون كثيرة يجمعها كلها ابناه غرسن ويسودة .

فمن قبائل غرسن

ـ بنو يناوة وهم :

أ ـ جيملة : بكسر الجيم ومد وسكون الميم ، ما زالت معروفة الى اليوم بهذا الاسم ، وهي ساكنة على عدوتي وادى جندين بين جيجل وسطيف من المغرب الأوسط .

ب ـ لهيصة : لا تعرف مواطنهم ، ومنهم القائد الشهير أبو حميد دواس بن صولان اللهيصي الذى عقد له على تيهرت القائد عروبة بن يوسف الكتامى سنة 298 .

ت ـ مسالتة : توجد بقاياها اليوم معروفة بهذا الاسم مندرجة فى قبيلة الساحل القبلى (دوار تالا ـ ايفاسين) بين أقبو وسطيف بالمغرب الأوسط.

ـ وبنو ينطاسن وهم :

ث ـ اجانة

ج ـ أوفاس

ح ـ غسمان

ـ وبنو أيان وهم :

خ ـ ملوزة : وتكتب أيضاً ملوسة بالسين ، منهم قبيلة شهيرة معروفة باسمها الى اليوم مستقرة بجوار المسيلة بالمغرب الأوسط ، وبطن مندرج فى قبيلة أنجرة بين سبتة وطنجة سميت به قرية دعاها أبو عبيد البكرى ملوثة ، ومن ملوسة أيضاً بنو زلدوى أهل الجبل المطل على قسنطينة .

ـ ومن قبائل غرسن أيضاً :

د ـ ماوطن

ذ ـ معاذ

ر ـ فلان

ـ ومن قبائل يسودة بن كتام :

ز ـ دنهاجة : منها بطن معروف باسمها الى اليوم مندرج فى قبيلة زرديزة (دوار بوطيب) المستقرة بين سكيكدة وعنابة ، وذكر ابن خلدون أن

اليها تنسب قصور كتامة بالمغرب لعهده (108) ، وذكر أبو عبيد في المسالك والممالك مكاناً منسوباً اليهم قريباً من جبل صرصر يسمى قصر دنهاجة ، قال انه على تل وتحته نهر عظيم وفيه آثار للأول ، وبه كان ينزل ملوك المغرب في قديم الدهر .

ط ــ متوسة : ما زالت معروفة بهذا الاسم الى الآن مع مجموعة قبائل الحراكتة قرب مدينة العين البيضاء بعمالة قسنطينة ، ومنها بطن مندمج في قبيلة جيملة الساكنة بن جيجل وسطيف يدعى متوسين .

ظ ــ فلاسة

ك ــ وريسن

ل ــ زواوة : عدهم بعض النسابين اخوة زواغة البتريين من ولد سمكان بن يحيى بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر ، واضطرب ابن حزم في الجمهرة فذكرهم مرة مع قبيلة ضريسة البترية (109) ومرة جعلهم من كتامة لما تكلم على البيوتات البربرية بالأندلس (110) وحصل مثل هذا التردد لابن خلدون فذكرهم مع البتر ومع البرانس مع ميله الى الاعتقاد أنهم من كتامة للموطن ونحلة التشيع معهم لعبيد الله الفاطمي ، (والمواطن أوضح دليل عليه ، والا فأين مواطن زواغة وهي بطرابلس وبالمغرب الأقصى من مواطن كتامة) ؟ وهو يرى أن التصحيف هو الذي حمل على الغلط في نسبهم ، فقد صحف اسم زوازة بالزاي اخوة زواغة الى زواوة بالواو فاستمر التصحيف وجمعت زواغة وزواوة معاً في نسب سمكان . ويظهر لي أن ابن خلدون نفسه وقع هنا في خطأ بسبب التصحيف ، فالاسم الذي صحف وكان مثار هذا الالتباس هو **زوارة** بالراء التي سميت بها مدينة وتعرف منها بطون الى اليوم ، وليس زوازة التي لا تعرف بين قبائل البربر في قديم ولا حديث .

---

108) تاريخ ابن خلدون 6 : 302 والمعروف أن مدينة القصر الكبير الواقعة بين فاس وطنجة هي التي كانت تعرف بقصر كتامة أو قصر عبد الكريم .

109) جمهرة أنساب العرب ص 495 .

110) جمهرة أنساب العرب ص 501 .

وزواوة فى الحقيقة شعب كبير يشتمل على عدد من القبائل ، وهم يسكنون الجبل المنسوب اليهم الواقع الى شرق مدينة الجزائر بين بجاية ودلس ، (وهو أعصم معاقلهم وأمنع حصونهم ، فلهم به الاعتزاز على الدول ، والخيار عليها في اعطاء المغرم (111) ، ومنهم أوزاع مستقرة فى سائر البلاد المغربية . وسيأتى الكلام على قبائلهم وبطونهم مفصلا فى القسم الثالث من هذا الكتاب .

م ــ **كتامة** : قبيلة مستقرة باقليم الحسيمة من المغرب الأقصى ، وهى معدودة مع مجموعة **صنهاجة السرايس** رغم اختلافهما فى النسب .

ن ــ **مصالة** : تنطق أيضاً مزالة باشمام الزاى صاداً ، ما زالت معروفة الى اليوم باسمها ، مستقرة بالعدوة اليسرى لوادى يداس على بعد 26 كلم الى الشمال الغربى من مدينة بجاية ، واليها تنسب مدينة فج مزالة الواقعة الى الجنوب من مرسى جيجل .

ص ــ بنى قنسيلة

ض ــ سدويكش

ع ــ **بنى يستيتن** : يعرفون اليوم بستيتن وأهل ستيتن ، منهم قبيلة مستقرة قرب البيض على بعد 20 كلم الى الشمال الشرقى منها ، ومنهم فرقة مندرجة في بنى كلال بجهة دبدو باقليم وجدة .

غ ــ هشتيوة

ف ــ **بنى تليلان** : ما زالوا موجودين معروفين باسمهم قرب الميلية باقليم قسنطينة .

5 ــ شعب مصمودة

هم أقحاح البربر الذين لم يختلطوا بسواهم الا نادراً ، وأهل المغرب الأقصى الأولون المختصون بسكنى جباله منذ الأحقاب المتطاولة ، لم يخرجوا منه الا بعد مجيىء الاسلام اما لنشره بين من يجاورهم من الأمم والشعوب ، واما لتوطيد نفوذ الامارات والممالك المغربية فيما خلف وطنهم من أوطان .

---

(111) تاريخ ابن خلدون 6 : 262 .

وهم أبناء مصمود بن برنس أبى شعوب البرانس

كانت مواطنهم الأصلية تبتدىء فى شمال المغرب الأقصى ، من حدود بلاد الريف من جهة الشرق الى المحيط الأطلسى من جهة الغرب ثم تمتد مساحلة الى الجنوب شاملة سهول أزغار (الغرب) وتامسنا (الشاوية) ودكالة والحوز حتى تتصل بجبال الأطلس الكبير الى سفوحها الخلفية المطلة على اقليم سوس ، ثم تسير شرقاً من رؤوسها الداخلة فى المحيط الأطلسى الى ملتقاها بجبال الأطلس المتوسط بين تازة وتادلة عند ثنية المعدن المعروفة ببنى فازاز المفضية الى آكرسلوين بناحية سجلماسة حيث تبتدىء مواطن الزناكة (112) فهم أهل الجبال وغيرهم أهل البسائط الا قليلا .

وتشتمل مصمودة على شعوب وعدد كبير من القبائل تعرف بأسماء فرعية ، ولم يبق معروفاً منها بالاسم الأصلى الا قبيلة واحدة مستقرة قرب مدينة وزان الى الشمال الغربى من فاس ، وبطون مندمجة فى قبائل مصمودية وغير مصمودية بالمغرب الأقصى والجزائر ، وفيما يلى أهم شعوب مصمودة وقبائلها :

أ — برغواطة : أكد ابن خلدون فى صيغة الجزم أن برغواطة (شعب من شعوب المصامدة معروف (113) بعد ما ذكر قبل هذه العبارة بقليل (أنهم كانوا شعوباً كثيرة متفرقة (114) والذى يتتبع كلام المؤرخين الذين عاشوا قبل ابن خلدون بقرون وكانوا معاصرين لبرغواطة يفهم أن هذه الكلمة ليست لها دلالة سلالية بالمرة وانما تدل على نحلة دينية أطلقت على القبائل التى اتبعتها فقيل لها برغواطة كما يقال الشيعة والخوارج والرافضة والمعتزلة ، وأصل الكلمة على ما ذكر المؤرخون أن صالح بن طريف أو يونس مؤسس ديانة برغواطة أصله من فحص برباط بالأندلس فقيل لكل من دخل فى الديانة التى ادعى أنه أوحى اليه بها برباطى أو أبرباط ، ثم أحاله العرب بألسنتهم الى

---

112) أو الصناكة بالصاد : صنهاجة الجنوب .

113) تاريخ ابن خلدون 6 : 435

114) تاريخ ابن خلدون 6 : 428

برغواط وأضافوا اليه هاء الجمع فصار برغواطة ، أما أتباع هذه النحلة الذين يطلق عليهم هذا الاسم فهم بنو صالح بن طريف واثنتا عشرة قبيلة من قبائل البتر والبرانس ذكرها بأسمائها أبو عبيد البكري في المسالك والممالك (115) كما ذكر سبع عشرة قبيلة أخرى كانت تطيعهم وتحسب من مملكتهم مع بقائها متمسكة بالاسلام .

كانت المنطقة التي شاعت فيها ديانة برغواطة هـي منطقة تامسنا بالمغرب الأقصى الممتدة من نهر سـلا (116) الى نهر أم الربيع ، أي ما يعادل المنطقة التي تسكن فيها حالياً قبائل الشاوية وزعير ، وكانت في الأصل موطناً لزناتة وزواغة حتى نزل بها طريف صاحب ميسرة الحقير الذي سن لأهلهـا مذهباً لم يلبث ابنه صالح أن صيره ديانة ، فانضمت اليهم قبائل أخرى عرفوا واياهم باسم المذهب الذي يدينون به ، وقد استمر هـذا المذهب قائمـاً الى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولكن أتباعه بقوا منذ تأسيسه معرضين لهجمات الامارات والممالك الاسلامية بالمغرب والأندلس وتنكيلها ، ومن أشهر الأمراء والقواد الذين فتكوا بهم الأمير تميم اليفرني بعد سنـة 420 والفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي داعية الموحدين الذي استشهد وهو يقاتلهم بكريفلة من أرض زعير سنة 450 .

وقد اندثر اسم برغواطة منذ ذلك التاريخ وحل محل أتباعه في مواطنهم أو شاركهم فيها قبائل عربية طارئة وأخرى بربرية متعربة مثل مالك وسفيان ، وعامر وحصين ، والشاوية وزعير .

ب ـ تينملل : (117) من قبائل مصمودة على عهد الموحدين ، كانوا يعدلون هرغة قبيلة المهدي بن تومرت داعيتهم في التعصب له لتحيزه اليهم وبناء داره ومسجده بينهم ، وقد ذكر صاحب كتاب (الأنساب ، في معرفة الأصحاب) أحـد عشـر بطنـاً (118) لتينملـل ، وتسمـى القبيلـة اليـوم

115) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 140 .

116) سماه أبو عبيد في المسالك والممالك نهر وانسيفن وقال انه يقع في نهر سلا تحت الرباط في البحر المحيط فهو ولا شك أحد روافد نهر أبي رقراق الحالي .

117) تكتب ايضاً تينمل وتنملل .

118) أخبار المهدي بن تومرت ص 40 ط باريز 1928 .

أهل وادى نفيس وهى واقعة الى الجنوب الغربى من مراكش قرب قرية أميزميز ، ولم يبق معروفاً منها بتينملل الا المكان الذى يوجد فيه مسجد المهدى بن تومرت وقبور الموحدين المنبوشة .

ت — حاحة : هم شعب يشتمل على عدد من القبائل ، ما زالوا معروفين باسمهم الأصلى ومستقرين بمواطنهم الأولى على سيف البحر بين مدينتى الصويرة وأكدير .

ث — دكالة : من النسابين من عدهم من صنهاجة ، ولعل السبب الذى أوقعهم فى ذلك الخطأ ما رأوه من تعصب دكالة للدولة اللمتونية فى منتصف القرن الخامس الهجرى خلاف سائر قبائل مصمودة التى بادرت الى الدخول فى دعوة الموحدين ، وما زالت دكالة مستقرة اليوم حيث كانت فى القديم ، على سيف البحر والسهول المجاورة له بين وادى أم الربيع ووادى نسيفة (تنسيفت) ، وهم شعب يشتمل على عدد كبير من القبائل والبطون ، وقد داخلهم فى القرن السادس والقرن السابع من الهجرة العرب من موجة الهلاليين وأحلافهم فعربوهم وانقسمت دكالة منذ ذلك العهد الى دكالة الحمراء وهى الجنوبية التى تحيط بآسفى وتسمى اليوم **عبدة** ، ودكالة البيضاء وهى الشمالية التى تحفظ اسم دكالة .

ج — ركراكة : أشرف قبائل مصمودة لسبقهم الى الاسلام وجهادهم فى سبيله حتى ليقال أن قدماءهم شدوا الرحلة الى النبى محمد (ص) بمكة فى أول ظهوره وكلموه باللغة البربرية فأجابهم بها وأسلموا ورجعوا للمغرب . كانت مواطنهم على عدوتى وادى تسيفة (تنسيفت) عند مصبه فى البحر ثم تلاشوا فى القبائل فبعضهم بسوس وبعضهم بالسراغنة وبعض آخر فى جهات أخرى ، ولم يبق منهم فى مواطنهم الأولى الا قبيلة صغيرة مندمجة فى شعب الشياظمة .

ح — كدميوة : ذكر مؤلف (كتاب الأنساب) لها 46 بطناً ، وقسمها الى كدميوة الجبل وكدميوة الفحص ، وهى مستقرة الى الجنوب من مراكش وبها تقع قرية أميزميز .

خ ـ كـلاوة : تقع الى الجنوب الشرقي مـن مـراكش بينها وبـين ورزازات ، وهى اليوم منقسمة الى كلاوة شمالية (دائرة آيت ورير) وكلاوة جنوبية (دائرة ورزازات) .

د ـ كنفيسة : تقع شمال وادى سوس ، ذكر فى كتاب (الأنساب) لها اثنان وعشرون بطناً وعد بعضها ، وأكثر هذه البطون قبائل مستقلة اليوم بنفسها معروفة بأسمائها الفرعية مثل **زداغة** (ادا وزداغ) و **مثناكة** و **مدلاوة وسكساوة** الخ .

ذ ـ صـادة : تعريب كلمة **ايصادن** و **اصادن** و **اصادة** ذكـروا فى كتاب (الأنساب ، فى معرفة الأصحاب) مرة مع هسكورة الظل ، ومرة مـع القبائل المضافة ، وذكر ابن خلدون أن منهم بطن مسفاوة وبطن ماغوس ، وروى فى صيغة الاحتمال ان منهم أيضا غمارة ورهونة وأمول ، ويظهر أن القبيلة كانت لها فروع بشمال المغرب ووسطه ، فقد ذكرهم أبو عبيد البكرى فى مسالكه وممالكه من جملة القبائل المضافين الى برغواطة ، كما ذكر لهم مدينة قريبة من وادى ورغة قال انها مدينة بها آثار للأول ذات أعناب وأشجار كثيرة .

ر ـ غمارة : هم مصمودة الشمال ، ومـن أشهـر شعـوب البربـر وقبائلهم ، سموا باسم والدهم غمار بن مصمود ، وقيل غمار بـن سطاف بـن مليل بن مصمود ، وقيل غمار بن اصاد بن مصمود ، وتزعم العامة أنهم عـرب غمروا فى الجبال فسموا غمارة ، وهو مذهب عامى .

كانت مواطنهم تمتد على ساحل البحر المتوسط من حد بلاد الريف الى المحيط الأطلسى ، ثم تمتد على السهول الساحلية حيث كان يسكن بنو حسان منهم قبل دخول العرب الهلاليين حتى تصل الى تامسنا حيث مواطن قبائل برغواطة ، ثم حدثت تغيرات كثيرة فى مساكن القبائل المصموديـة منذ القرن السادس الهجرى الذى غمرت فيه المغرب موجات من العرب الهلاليين والمنضافين اليهم فزاحموا قبائل البربر ومنهم غمارة بالسهول والجأوها الى الجبال واضطر من بقي منها فى غير الجبل الى التعرب والاندماج فيهم ، وقـد

تضاءلت المنطقة التي تسكنها القبائل المسماة اليوم غمارة وهي واقعة الى الجنوب الشرقي من تطوان على ساحل البحر ، ولكن قبائل غمارة المعروفة بأسمائها الفرعية ما زالت تعمر منطقة أوسع وأكبر ، كما أن قبائل أخرى معروفة بالاسم الأصلي أو الأسماء الفرعية انتقلت من مواطنها الأولى الى مواطن جديدة بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط ، وسنتكلم باسهاب على قبائل هذا الشعب ومواطنها الحالية في القسم الثالث من هذا الكتاب .

ز ـ هرغة : قبيلة المهدى بن تومرت داعية الموحدين ، واسمها البربرى **أرغن** ، يظهر أنها كانت قبيلة كبيرة ، وعدد صاحب (الأنساب) بطونها والمضافين اليها ، لكنهم دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القاصية من كل وجه، لما كانوا أشد القوم بلاء في القيام بالدعوة وأصلاهم لنارها بقرابتهم من صاحبها وتعصبهم على أمره ، ولم يبق منهم الا اخلاط وأوشاب ، أمرهم الى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً (119) .

بقاياهم موجودة اليوم باقليم أكدير الى الشرق من مدينة رودانة (ترودانت) قرب وادى سوس .

ط ـ هزرجة : ذكروا في كتاب (الأنساب) بالاسم السابق المعرب وبالاسم الأصلي المبربر **ايليزركن** وعدوا فيه من جملة القبائل ، ولا تعرف اليوم قبيلة بهذا الاسم ، وأحسب قبيلة الزرقيين الموجودة الى الجنوب من وادى درعة من بقايا قبيلة هزرجة .

ظ ـ هزميرة : كانت مستقرة بحوز مراكش .

ك ـ هنتاتة : واسم جدهم هنتات ينتى بلسان المصامدة ، ذكر لهم في كتاب (الأنساب) تسعة بطون مثل غيغاية ووزكيتة ، فلا شك أن مواطنهم كانت حيث القبيلتان المذكورتان جنوب مراكش ، كانوا على عهد الموحدين تلو قبيلة هرغة وقبيلة تينملل بما كانوا عليه من الكثرة والبأس ولما

(119) تاريخ ابن خلدون 6 : 561 .

كان لشيخهم أبى حفص عمر بن يحيى ـ جد ملوك الدولة الفحصية ـ من صحبة المهدى والاعتزاز على المصامدة وقد انمحى اسم هنتاتة اليوم وحلت محله أسماء بطونها التى ارتقت الى قبائل ، ولكن بعض الأسر ما زالت تنسب اليها خصوصاً بمدينة صفـاقس .

ل ـ هيلانـة : بنو أيلان بن مصمود ، وذكر ابو عبد الله بن ابى المجد في كتاب الأنساب له : أنه ايلان بن بر بن قيس بن عيلان ، وان هيلانة عرب صريحون ، وأنهم خلاف المصامدة ، كانت مواطنهم بحوز مراكـش ، واليهـم ينسب باب ايلان منها ، كما ينسب اليهم أغمات ايلان ، ولم يبق لهم اليـوم وجود بهذا الاسم .

م ـ وريكة : معروفون باسمهم الى اليوم مستقرون بمواطنهم فـى الجبال الشاهقة جنوب مراكش على حافتى الوادى المضاف اليهم .

ن ـ وزكيتـة : يوجـدون اليوم قـرب مراكـش حيث مواطنهـم الأصلية ، وهم قسمان : قسم يعرف بالاسم المعرب وزكيتة قرب آسنى ، وقسم يعرف بالاسم المبربر **آيت واوزكيت** قرب ورزازات ويشتمل على 25 قبيلة . ومنهم بطون مندرجة فى قبائل أخرى .

ومـن القبائل المضافـة الى المصامـدة وليست منهم قبائل **هسكورة** و **جزولة** و **لمطة** فهذه معدودة من شعب صنهاجة نسباً ، ولكن لما كانت مواطنهم باقليم سوس وناحية درعة مجاورة لمواطن المصامدة بجبل درن وكانت بعض الأحداث التاريخية نظمتهم جميعاً فى سلك واحد فان من المؤرخين من عدهم مع مصمودة مع تنبيهه الى أنهم ليسوا فى النسب منهم ، ومن هاؤلاء المؤرخين صاحب كتاب (الانساب فى معرفة الأصحاب) أصحاب المهدى بن تومرت ، واضطرب ابن خلدون فعدهم مرة مع صنهاجة (120) ومرة مع المصامدة (121) أمـا نحن فى هذا الترتيب السلالى الذى نتبعه فى هذا الكتاب فنذكرهم مـع

---

120) تاريخ ابن خلدون 6 : 240 .

121) تاريخ ابن خلدون 6 : 552 .

شعبهم الصنهاجى ، لأن الاستقرار بموطن من المواطن والتشيع لدعوة من الدعوات لا يرقيان الى مرتبة العلاقة السلالية عند قبائل المغرب .

وقبائل المصامدة أكثر مما سبق عده ، وقد اقتصر المؤرخون على ذكر من نبه منها فى أول الاسلام كغمارة وبرغواطة ، أو على عهد الموحدين كالقبائل السبع التى دخلت فى دعوتهم قبل فتح مراكش ويسمونها السابقة وبعض القبائل المضافة اليهم منهم ومن غيرهم ، ومن تلك القبائل من دثر اسمه وتلاشى رسمه وأكلته حروب الموحدين وحل محله فى موطنه قبائل مصمودية أخرى أو عربية طارئة ، ومنه من نزل الى رتبة بطن واندرج فى قبيلة أكبر ، ومنهم بطون صغيرة ارتفعت اليوم الى مصاف القبائل وكانت لا تحسب من قبل الا مع غيرها كسكتانة من تينملل ، وغيغاية من هنتاتة ، وسكساوة من كنفيسة الخ .

6 ـ شعب صنهاجة

بنو صنهاج بن برنس أبى البربر البرانس .

وأصل الكلمة صناك بالصاد المشم زايا والكاف القريب من الجيم (زناك) فلما عربه العرب زادوا الهاء بين النون والألف فصار صنهاج ثم أضافوا اليه هاء الجمع وأطلقوا الكلمة على جميع القبائل المتناسلة منه .

واختلف النسابون فى نسب صنهاجة ، فعن ابن الكلبى والطبرى أنهم وكتامة من حمير ، وزعم بعض النسابين أن أباهم صنهاج هو ابن يصوكان (122) بن ميسور بن الفند بن أفريقش بن قيس ، وذكر آخرون أنه صنهاج بن المثنى بن المنصور بن المصباح بن يحصب بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر من سبأ ، نقل ذلك ابن النحوى أحد مؤرخى دولتهم وجعله ليحصب ، أما المحققون من نسابى البربر فيذكرون انه صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن كيمتا بن سدر

---

122) فى كتاب مفاخر البربر : يصوا ص 41 .

بن مولان بن يصلين بن يبرين بن مكسيلة بن دهيوس بن حلحال بن شرو بن مصرايبم بن حام ، ويزعمون أن جزول ولمط وهسكور اخوة صنهاج ، وأن أمهم هي تيصكي المعروفة بالعرجاء بنت زحيك بن مادغيس الأبتر وبها يعرفون .

وصنهاجة شعب كبير جداً ذكر بعض المؤرخين أن قبائلهم وبطونهم تنتهي الى سبعين ، وهم موجودون في كل مكان بالمغرب لا يكـاد يخلو منهم جبل ولا بسيط ، وكانت المواطن التي اختصوا بسكناها في الأول أربعـة : ا ـ الناحية الواقعة بين بجاية والمسيلة ومليانة ولمديـة والبحـر بالمغـرب الأوسط ، ب ـ والناحية الواقعة بين نهر كرط وبلاد غمارة والبحر المتوسط بالمغرب الأقصى ، ت ـ والناحية الواقعة بين المحيط الأطلسي ووادي درعة والسفوح الخلفية لجبال الأطلس ، ث ـ والصحراء الكبرى الممتـدة مـن غدامس الى البحر المحيط وبلاد السودان بأقصى الجنوب .

وقد قسم صاحب كتاب (الأنساب) صنهاجة الذين كانوا يجاورون المصامدة بالناحية الثالثة الى **صنهاجة الظل** و **صنهاجة القبلة** ، ولا شك في انه يعنى بالفريق الأول سكان الجبال ، وبالفريق الثاني سكان البسائط القاحلة القريبة من وادى درعة المعرضين للشمس باستمرار ، وقسم ابن خلدون صنهاجة عموماً الى أهل مدر وهم سكان المناطق الشمالية المقيمين في بيوت مبنية ، وأهل وبر وهم قبائل الملثمين الرحل سكان الخيام بأقصى الجنوب ، ثم قسم صنهاجة الساكنين بشمال المغرب الأقصى الى **صنهاجـة العـز** وهم الممتنعون بالجبال الوعرة عن أداء الضرائب ، و **صنهاجة البـز** وهم سكان نهر ورغة المحترفون بالحراثة والحياكة ، أما القبائل الساكنة بقرب مدينة أزمور فهي **صنهاجة الـذل** لأنها تطيع الحكومة وتؤدى الضرائب وتنفر عند الاستنفار ، ولا يزال هذا التقسيم جارياً على القبائل التي تدعى صنهاجة بشمال المغرب الأقصى مع تغيير في الأسماء ، فهم اليوم يقسمون الى **صنهاجة غـدو** و**صنهاجة السراير** و **صنهاجة مصباح** ، وهذا الفريق الأخير يقسم بدوره الى **صنهاجة الشمس** و **صنهاجة الظـل** .

ونستعرض فيما يلي أهم قبائل صنهاجة وبطونها :

* **انجفة** : ظ هنجافة

* **أنوغة** : ظ وأنوغة

أ ـ بجاية : اسم قبيلة صنهاجية كانت تسكن الجبال الواقعة غرب وادى سمام قريباً من البحر ، كان بساحلها مرسى بنى قربه الناصر بن علناس أحد ملوك بنى حماد مدينة سماها الناصرية سنة 470 لكنها بقيت تعرف عند الناس باسم القبيلة ، وقد تشتت بجاية بعد ذلك وصارت أوزاعاً فى القبائل ولم يبق يذكر بها الا اسمها الذى تحمله مدينة الناصرية المبنية فى ترابها ، ولست أدرى أقبيلة **بجاوة** المتوطنة بشمال القطر التونسى من بقايا بجاية أم لا .

ب ـ بطوية : ويقال أيضاً **بطيوة** قبيلة شهيرة لها ذكر يذكر فى التاريخ المغربى كانت مواطن معظمهم بريف المغرب الأقصى وشبه جزيرة هرك الذى تقع على ساحله الشرقى مدينة مليلية وعلى ساحله الغربى قرية غساسة ، وكانت بطوية تشتمل على ثلاثة بطون كبيرة : **بنى ورياغل** قرب المزمة (الحسيمة) **وبقوية** جيرانهم الغربيين ، **وأولاد على** بتفرسيت ، وقد حلت الفروع محل الأصل وتلاشى اسم القبيلة فى تلك الناحية فلا يذكر به الا أسماء بعض الأسر (البطيوى + أبطيو) ، نعم يوجد فى ناحية الجديدة بطن مندمج فى قبيلة **أولاد بوعزيز** يحمل اسم بطوية ، كما توجد قبيلة وقرية (123) يحملان اسم بطوية أيضاً قرب مدينة أرزيو بعمالة وهران من المغرب الأوسط .

ت ـ تاركة : بجيم بدوى احدى قبائل الملثمين بالصحراء والنسبة اليها تاركى جمع تواركة وتوارك ، والاسم الأخير حرفه تراجمة الشرق الى طوارق ، انتقلت منهم بطون الى الأقاليم الشمالية كانت تختص بخدمة القصور الملكية ، ولهم حى شهير برباط الفتح مجاور للقصر الملكى كان لا يسكن فيه من ليس منهم .

ث ـ تلكاتة : بنو تلكات بن كرت ، كان لهم التقدم على قبائل صنهاجة بالمغرب الأوسط ، ومنزلتهم بينها كمنزلة لمتونة من الملثمين ، ومن

---

123) كانت القرية تسمى أيام الحكم الفرنسى للجزائر Saint Leu

أكبر بطونهم بنو منـاد الذين ينتمي اليهم ملـوك صنهاجة بتونس والمغرب الأوسط (بنو زيرى وبنو حماد) .

ج ـ **جزولـة** : بجيم بدوى اخوة صنهاجة لام ، فلذلك أضيفوا اليهم فى الترتيب ، ويدرجهم بعض النسابين والمؤرخين فى مصمودة لقرب مواطـن الفريقين ، فقد كانت مصمودة تسكن جبال درن وجزولة تسكن قربهم باقليم سوس ، وبجهاته كانوا يظعنون حتى زاحمهم به عرب معقل وغلبوهم عليه بعد حروب فصارت جزولة لهم خولا وأحلافا ، وكانت منهم أوزاع بوسط القطر الجزائرى أيضا ، واليهم ينسب جبل أكرول منه

ح ـ **بني جعد** : توجد بقاياهمقرب البويرة وعين بسام جنوب مدينة الجزائر .

خ ـ **بني حميد** : بقاياهم مندرجون فى قبيلة يسر الغربى (دوار يسر الويدان) شرق مدينة الجزائر .

د ـ **بني خليل** : يعرفون اليوم ببنى خليلى ، مواطنهم بين بجايـة وتيزى وزو .

ذ ـ **بني دركون** : بجيم بدوى ونون ، وينطق أيضاً دركول بكاف ولام ، منهم فرقة مستقرة بناحية زمورة القريبة من غليزان من المغرب الأوسط، وبطون مندرجة في بعض القبائل الصنهاجية بشمال المغرب الأقصى ،

ر ـ **بني زروال** : منهم فرقة كبيرة مستقرة على عدوتى وادى ورغة شمال فاس ، وبطن مندمج فى قبيلة **أهل ستيتن** قـرب البيض بالصحـراء ، ولست أدرى **أبنو زرويل** تحريف لبنى **زروال** أم هم قبيل آخر .

ز ـ **الزناكـة** : تعريبه صنهاجة ، ويقال أيضاً **ايزناكن و ايصنهاكن**، ويستعمل اللفظ في الجنوب استعمال صنهاجة فى الشمال ، منهم فريق باقليم ورزازات ، وفرقة بواحات فجيج بالمغرب الأقصى ، وبطون مندمجة فى قبائل مغربية وأخرى جزائرية .

ط ـ زغاوة : من قبائل الملثمين بالصحراء

ظ ـ كدالة : من قبائل الملثمين بالصحراء

ك ـ لمتونة : كبرى قبائل الملثمين بالصحراء ، أسلموا بعد فتح الأندلس وكانت فيهم الرياسة واستوثق لهم ملك ضخم توارثه منهم ملوك مذكورون دوخوا البلاد الصحراوية ومن يجاورهم من شعوب السودان وحملوهم على الاسلام ، ثم عظم أمرهم فى القرن الخامس الهجرى فطلعوا الى الأقاليم الشمالية سنة 445 واختطوا مدينة مراكش وأسسوا الدولة المرابطية التى بسطت سلطانها على المغرب الأقصى وأكثرية القطر الجزائرى والأندلس والصحراء ، وهم بطون عديدة من أشهرها **بنو ورتنطق** ، و**بنو زمال**، و**بنو صولان** ، و**بنو ناسجة** .

ل ـ لمدية : لامها أصلى كلام لمتونة ولمطة ، ويكتبها بعضهم بال التعريف ، ويحذف الفرنسيون الألف واللام معاً فيكتبونها مدية Médéa فقط ظناً منهم أنهما زائدان ، وهم بطن من صنهاجة المغرب الأوسط ، وبأرضهم بنى الأمير بلكين بن زيرى بن مناد المدينة المعروفة بهم الواقعة على بعد 91 كلم الى الجنوب من مدينة الجزائر .

م ـ لمطة : اخوة صنهاجة لام ، وهم قبائل وبطون كثيرة أكثرهم أهل وبر يظعن مع قبائل الملثمين ويقيم معهم ، وكان منهم بسوس قبيل ذكر فى كتاب (الأنساب) مع عبيد المخزن ، ثم صاروا فى عداد **ذوى حسان** من عرب **معقل** ، واليهم نسبة الفقيه واكاك بن زولو صاحب أبى عمران الفاسى وشيخ عبد الله بن ياسين داعية المرابطين ، منهم اليوم فرقة مستقرة بجبل زالغ المطل على فاس

ن ـ متنان : بقاياها مستقرة بالعدوة اليمنى لوادى السفلات أحد روافد وادى يسر ، غير بعيدة عن قرية عين بسام جنوب مدينة الجزائر معروفة باسمها الأصلى حتى الآن

ص ـ بنى مزكلدة : منهم فرقة مستقرة حاليا بين فاس ووزان .

ض ـ مزغنـة : قبيلة شهيرة كانت مستقرة حول مدينة الجزائر قبل تأسيسها واليها نسبت بعد تأسيسها (جزائر بنى مزغنة) ما زالت بقاياها معروفة باسمها الأصلى مندمجة فى قبيلة بنى سليمان الشراقة ، على الضفـة اليمنى لوادى يسر ، وعلى بعد 30 كلم الى الجنوب الشرقى من قرية الاربعاء .

ع ـ ملوانة : تعريب كلمة ايملوان البربرية ، ذكـروا فى كتـاب (الأنساب) بالاسمين معا مع بطون أهل تيارت من صنهاجة القبلة ، هم اليوم أوزاع كثيرة مندمجة فى قبائل المغرب الأقصى والجزائر، منهم بطن مع **سدراتة الجبل** (آيت سدرات) باقليم ورزازات ، وبطن مع **مرغـادة** (آيت مرغاد) باقليم قصر السوق ، وبطن مع **الحراطين** بتازارين (اقليم ورزازات) ، وبطن مـع يمورة (آيت يمور) بحوز مراكش ، ودوار مع **أولاد دليم** باقليم الرباط ، ودوار مع سفيان باقليم الرباط ، ومنهم بالمغرب الأوسط بطن مندمج فى قبيلة بنى مسسيرة ، وفوق ترابهم توجد الحمة المسماة حمام ملوان الواقعة على بعد 45 كلم جنوب مدينة الجزائر .

غ ـ مليـانـة : من بطون صنهاجة المغرب الاوسط ، بترابها أسس الأمير بلكين بن زيرى بن مناد المدينة المعروفة بها الواقعة على العدوة الشرقية لوادى شلف بوسط المغرب الأوسط ، منها أوزاع كثيرة مندمجة فى قبائل المغرب الأقصى والجزائر .

ف ـ مسوفـة : من قبائل الملثمين بالصحراء ، طلعت منهم بطون الى الشمال مع المرابطين ، منهم بطن مندمج فى قبيلـة **آيت وعـلال** باقليـم ورزازات واليهم ينسب درب مسوفة بتلمسان .

ق ـ صنهاجـة : بقيت بعض قبائل الشعب الصنهاجى تدعى بهذا الاسم العام الذى يطلق على الأصل الجامع الذى تنتمى اليه كل قبائله وبطونه . ومن هذه القبائل قبيلة مستقرة على عدوتى الوادى الكبير بين عنابة وسكيكدة ، وأخرى مستقرة قرب وادى يسر جنوب شرقى الجزائر .

س ـ صنهاجـة مصباح : قبيلة مستقرة شمال اقليم فاس ، وهى منقسمة الى قسمين : **صنهاجـة الشمس وصنهاجـة الظل** .

ش ـ صنهاجـة غـدو : قبيلة مستقرة قـرب وادى اللبن شمـال اقليم تـازة .

هـ ـ صنهاجـة السرايـر : قبيلة كبيرة باقليم الحسيمة من المغرب الأقصى تشتمل على سبعة بطون بلغ كل منها درجة قبيلة ، وهى : **بني احمد** ، و **بني بشير** ، و **بني بوشيبت** ، و **تغـزوت** ، و **بني خنوس** ، و **بني زرقـت** ، و **كتـامـة** ، و **بني سـدات** .

و ـ بنى عمران : من بطون صنهاجة المشهورة بالمغرب الأوسط ، توجد منهم به خمس قبائل : **بنو عمران** الساكنون بالساحل وبالعدوة الغربية لوادى يداس على بعد 18 كلم الى الشمال الغربى من بجاية (دوار أبراريس) ، **وبنى عمران** الساكنون قرب وادى يسر وقرية الأربعاء جنوب مدينة الجزائر ، **وبنو عمران** الساكنون قرب برج منايل وتيزى وزو شرق مدينة الجزائـر ، **وبنى عمران جبالة** ، و **بنى عمران السفلية** الساكنون جميعاً قرب مرسى جيجل ، علاوة على بطون كثيرة مندمجة فى قبائل أخرى بتلك الجهات .

ى ـ فشتالة : تعريب كلمة ايفشتالن البربرية ، وبالاسمين معا ذكروا فى كتاب (الأنساب فى معرفـة الأصحاب) وهم من فرقـة **هنجافـة** الصنهاجية ، ذكر لهم فى ذلك الكتاب اثنا عشر بطناً ، منهم اليوم قبيلة مستقرة شمال اقليم فـاس .

أ أ ـ سطة : يوجدون بشمال اقليم فـاس .

أ ب ـ بنى سليب : توجد منهم قبيلة بناحية قالمة من المغرب الأوسط

أ ت ـ هنجافة : سماهم ابن خلدون أنجفة ، والكلمتان معاً تعريب لكلمة أينكفو البربرية ، ذكروا بها معاً فى كتاب (الأنساب فى معرفة الأصحاب) وهم قبيل كبير من صنهاجة الجنوب **(صنهاجة القبلة و صنهاجة الظل)** ، ذكر ابن خلدون من بطونهم : **بنى مزوارت** ، و **بنى سليب** ، و **فشتالة و ملوانة** ، وذكرت لهم فى كتاب (الأنساب) بطون أخرى غير المتقدمة .

أ ث ـ هسكورة : اخوة صنهاجة لأم ، ويدرجهم بعض النسابين والمؤرخين أحياناً مع مصمودة للجوار وقرب السكن ، وذكرهم ابن خلدون مرة مع صنهاجة (124) ، ومرة مع مصمودة (125) ، كانت مواطنهم بجبل درن (اعتصموا منه بالأفق الفدد ، واليفاع الأشم ، والطود الشاهق ، قد لمس الأفلاك بيده ، ونظم النجوم في مفرقه ، وتلفع بالسحاب في مرطه ، وآوى الرياح العواصف لدجوه ، وألقى الى خبر السماء بأذنه ، وأطل على البحر الأخضر بشماريخه ، واستدبر القفر من بلاد السوس بظهره ، وأقام سائر جبال درن في حجره (126) !

قسموا في كتاب (الأنساب) الى **هسكورة القبلة و هسكورة القبلة ،** ويحتوى كل فريق على عدد من القبائل والبطون سيقع الكلام عليها بتفصيل في القسم الثالث من هذا الكتاب .

منهم قبيلة شهيرة باقليم ورزازات ، وبطون مندمجة في قبائل أخرى .

أ ج ـ بني وارث : ويعرفون أيضاً بالاسم المبربر **بني وارثن ،** توجد بقاياهم بناحية بجاية يعرفون بآيت وارث وعلي .

أ ح ـ وانوغة : ويقال أيضاً **أنوغة** منهم بطن مندمج في قبيلة **بني مكلا** قرب قرية يسر شرق مدينة الجزائر .

أ خ ـ وتريكة : من قبائل الملثمين بالصحراء .

أ د ـ ورتنطق : ويكتب أيضاً وتانطق ، وهو ورتانطق بن منصور بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال بن تلميت وهو لمتونة من قبائل الملثمين بالصحراء ، وفيهم كانت رئاسة لمتونة .

أ ذ ـ بني ورياكل : بجيم بدوى ، كان منهم فريق يسكنون بوادى بجاية وعليهم نزل المهدى بن تومرت بملالة ثلاثة أيام عند رجوعه من المشرق ، ولما طلبه العزيز أمير بجاية منعوه وقاتلوا دونه حتى ارتحل عنهم الى الغرب ، ومنهم فريق آخر يسكن حالياً قرب وادى ورغة شمال اقليم فاس ، وهم غير **بني ورياغل** بالغين ، فهاؤلاء بطن من قبيلة بطوية المتقدمة .

---

124) تاريخ ابن خلدون 6 : 420 .

125) تاريخ ابن خلدون 6 : 552 .

126) تاريخ ابن خلدون 6 : 552 .

7 ـ شعب عجيسة

بنو عجيسة بن برنس ، ومعنى اللفظ البطن بلغة البربر ، وهو بالدال المشدد (عدس + عديسة) فلما عربه العرب قلبوا الدال جيماً مخففا .

كان لهم بين البربر كثرة وظهور ، وكانوا مجاورين لصنهاجة بالمغرب الأوسط ، وبعض بطونهم يسكن جبل القلعة الذى بنى به حماد الصنهاجي عاصمته (قلعة بنى حماد) التى أخلق عمرانها من جدة عجيسة لما راموا كيدها مراراً فأجلب عليهم ملوكها واستلحموهم بالسيف ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورث مواطنهم بذلك الجبل قبيلة عياض من بنى هلال .

لم يذكر ابن خلدون قبائل هذا الشعب وبطونه ، واكتفى بالقول ان فى قبائل المغرب كثيراً منهم وان بقاياهم كانت لعهده فى ضواحى تونس والجبال المطلة على المسيلة ، واذا كنا لا نستطيع أن نعرف هذه القبائل والبطون بأسمائها الفرعية فاننا نستطيع معرفة قبيلة وبطون قليلة تحمل اسم عجيسة ، فالقبيلة تقع على بعد 26 كلم الى الجنوب الغربى من مدينة بجاية ، والبطون مندمجة فى قبيلة الحضنة الشرقية (دوار الجزار ـ بريكة) ، وقبيلة الأعراش (دوار رأس تالا تينزار ـ الكركور) ، وقبيلة الساحل القبلى (دوار ذرا قبيلة ـ الكركور) بالمغرب الأوسط .



مواطن البربر في القديم

ليس من الهين على المؤرخ أن يرسم خريطة تحدد بتدقيق مواطن القبائل البربرية فى القديم أو على الأخص عند ظهور الاسلام الذى أحدث مجيئه الى المغرب عدة تحولات جذرية وتطورات عميقة فى جميع الميادين ومنها ميدان الاختلاط السلالى وميدان استيطان السكان ، فالقبائل المغربية عاشت من أقدم العصور الى العصر الحديث عصر الاحتلال الأوربى لبلاد المغرب — حرة طليقة تنتقل من جهة لأخرى اما انتجاعاً للمرعى وطلباً للرزق ، واما اضطراراً تحت ضغط الأحداث القبلية وتنفيذ الأوامر الحكومية ، فهى لم تكن تتقيد بقوانين الهجرة أو تخضع لشروط الاستيطان التى عرفت فيما بعد ، كما أن نظم الحدود والتبعيات السياسية ومراقبة المسافرين لم يكن لها وجود يومئذ ، فالعقيدة الدينية كانت فوق جميع الاعتبارات السياسية ، والمواطنة الاسلامية كانت هى الجواز المشترك العام الذى يخول لكل مسلم أن ينتقل عبر بلاد الاسلام كافة ويستقر منها حيث يشاء معتبراً فى كل منها مواطناً له ما لأهلها الأصليين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات .

ومن جهة أخرى لم يعن المؤرخون والجغرافيون المسلمون فى الصدر الأول للاسلام بدراسة المجتمعات القبلية دراسة دقيقة وضبط المواطن التى تستقر بها كل قبيلة ، وانما كانوا يكتفون بالاشارة العابرة الى ما يحيط بالمدن والقرى من قبائل ويسكن بها ، والى ما قد يكون من مدن وقرى فى مجالات القبائل وبين ديارها ، ولعل ذلك لم يكن ناشئاً عن غفلة منهم ، وانما مرده الى القبائل ذاتها التى لم يكن يقر لها فى موطن قرار ، لايلافها النقلة والترحال ، وادمانها على النجعة والتجوال .

ويرجع الفضل الى ابن خلدون فى اعطاء معلومات مفصلة عن قبائل المغرب العربى وتوزيع مواطنها ، فالذين سبقوه لم يعتنوا بتصنيفها تصنيفا منهجيا مرضيا حسب الترتيب الزمنى الصحيح ولم يميزوا بين القديم منها والحديث ، أما هو فقد تتبع شعوب البربر وقبائلهم شعباً شعباً وقبيلة قبيلة ، وبين مواطنها الأصلية وتنقلاتها من جهة الى جهة واستقرارها فى المواطن التى انتهى بها المطاف اليها على عهده ، معتمداً على كتب من سبقـه من النسابين والمؤرخين ولا سيما البربر منهم ومضيفاً خبرته وتجاربه وما له من معلومات خاصة ، فلقد كان أحد رجالات الدول المغربية النابهين فى القـرن الثامـن الهجرى ، وعمل فى أدنى المغرب مع بنى حفص كما عمل فى أقصاه مع بنى مريـن ، واستقر فى وسطه بين مجالات العـرب وأحياء البربـر حيث ألف تاريخه الكبير ، وأطلع على خزائن كتب الملوك ووثائق الحكومات ، وسمع من أفواه الوزراء والكتاب والعمال والشيوخ المحنكين ، فـلا غـرو أن يعتمد عليه المؤرخ فى تحديد مساكن البربر وضبط مواطنهم فى المدة الواقعة بين الفتح الاسلامى فى القرن السابع ودخول العرب الهلاليين وأحلافهم فى القرن الحادى عشر ، بل وفى ضبط مساكن هاؤلاء وأولائك الى الوقت الذى رحل فيه من المغرب ليقضى بقية حياته فى المشرق .

واذا ألقينا نظرة عامة على مواطن البربر فى الشمال الافريقى لأول الفتح الاسلامى نجد أن البتر منهم اختصوا بسكنى اقليمى برقـة وطرابلس وشط الجريد وجبل أوراس وبـلاد الزاب ثم تصعد مواطنهم الى الشمـال فى جهات تاهرت حتى تصل الى جبال الظهـرا ومجـرى نهـر شلف فتطـل من هناك على البحر فاصلة قبائل صنهاجـة وكتامـة البرنسية بالشرق عـلى اخواتها بالغرب ، ثم تسير مغربة حتى تجاوز نهر ملوية الى حدود بلاد الريف وجبال **التسول** و **غياثة** و **البرانس** حيث تبتدىء مواطن البرانس من صنهاجة وكتامة ومصمودة بالمغرب الأقصى ، والى الجنوب من كل ذلك توجد مواطن القبائل البرنسية التى ينتمى جلها فى الشرق الى هوارة وفى الغرب الى صنهاجة وبين القطاعين الشمالى والجنوبى توجد مجالاتالقبائل الزنانية من غدامس الى البحر المحيط ، وذلك قبل صعودها الى الشمال وتغلبها عليه وتأسيسها لممالك وامارات استأثرت بحكم نصفه الغربى .

وكانت قبيلة **لواتة** أولى القبائل البربرية التي تسكن بتخوم المغرب الشرقية وتجاور قبائل غير بربرية خارج حدوده ، فقد كانت تعمر جميع اقليم برقة وجزءاً كبيراً من اقليم طرابلس وتبلغ بطونها في النجعة شط الجريد ، وهي أول قبيلة واجهها العرب عند دخولهم الأول الى المغرب فآمنت وأسلمت وصارت لهم دليلا خريتاً على استكشاف الأراضي التي تجاورهم غرباً ونصيراً قويا على تطويع القبائل التي تسكنها ، وقد ذكرهم ابن عبد الحكم (127) في كتابه عن فتوح مصر وافريقية وهو من أقدم المؤلفين المسلمين الذين كتبوا عن الفتح العربي لأرض المغرب ، وذكر ابن خلدون انه كان للواته في الماضي مدن عريقة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان ، ويظن بعض المؤرخين ان اسم لوبيا الذى أطلقه اليونان على بلاد المغرب مشتق من اسم لواتة التي كانت قبائلها تعمر جانبها الشرقي وهو الجانب الأكثر احتكاكا ببلاد اليونان والأقرب مسافة اليها (128) والى الغرب من **لواتة** كانت توجد مواطن **نفزاوة** التي عرف باسمها الجنوب التونسي كله وما يتاخمه من بلاد طرابلس شرقا وجنوب عمالة قسنطينة غرباً ، ومن أوسع بطون نفزاوة وأشدهم بأساً بطن **ورفجومة** الذي كان له تمنع بطرف من جبل أوراس وفتن وثورات في النصف الأول من القرن الثاني الهجري تمكنوا في بعضها من الاستيلاء على القيروان وقتل من كان يسكنها من قريش وسائر العرب ، وخلف اللواتيين والنفزاويين كانت تسكن قبيلة **نفوسة** التي يعرف بها الجبل الشهير الواقع جنوب مدينة طرابلس ، وقبيلة **سدراتة** التي سميت بها منطقة وركلة ، وبقربهم كانت مواطن **هوارة** و **مطماطة** ، والى هذه القبيلة الأخيرة ينسب جبل شهير بجنوب القطر التونسي .

والى الغرب من مواطن نفزاوة كان موطن قبيلة **جراوة** الشهيرة بجبال أوراس ، وهي قبيلة الكاهنة التي أعيت العرب لأول الفتح ، كما انها من شعب زناتة الذين غمروا المغرب الأوسط فيما بعد حتى عرف بهم وسمي

---

127) فتوح افريقية والأندلس ص 28 .

128) Gautier. Le Passé de l'Afrique p. 230

باسمهم ودعى وطن زناتة ، ومن جبل أوراس الى غرب منطقة الزاب كانت مساكن قبيلة **أوربة** (وربة) التى دحرها العرب لأول الفتح وساقوها أمامهم الى المغرب الأقصى ، ثم مواطن **مغراوة** الى الشمال الغربى على وادى شلف ، **ومغيلة** على ساحل البحر شرقى مصبه ، و **بني يفرن** و **مديونة** الى الجنوب والجنوب الغربى من وهران وتلمسان ، وشمال هذه المدينة كانت قبيلة **ولهاصة** على مصب وادى تافنا وقبائل **سطفورة** أو **كومية** بجبال ترارة ، وقد ضعف أمر هذه القبيلة العظيمة منذ أيام الموحدين الذين أنفقوها فى العسكرة والحروب حتى ذكر انهم نقلوا منها دفعة واحدة 50.000 فارس الى مراكش ، ولكن **ندرومة** التى هى احدى بطونهم والتى تسمى بها مدينة طيبة لطيفة بتلك الجبال بقيت تذكر بها ، والى الغرب والجنوب من كومية كانت مواطن **مطغرة** أو (مدغرة) ، وهى قبيلة كبيرة عمرت المنطقة الممتدة من توات الى سجلماسة ، والى الشمال من مواطنهم بسهول انكاد وما يقع أمامها وخلفها من جبال الى ممر تازة كانت تسكن قبائل **زناتة** ، ومن أشهر القبائل المعدودة منها قبيلة **مكناسة** التى كانت تسكن بطونها على طول نهر ملوية من منبعه بالأطلس المتوسط قرب اقليم تافيلالت الى مصبه بالبحر الأبيض المتوسط.

أما البربر البرانس فأكبر شعوبهم **كتامة** و **صنهاجة** و **مصمودة** ، فقبائل **كتامة** كانت مواطنها بعمالة قسنطينة وجزء من غرب القطر التونسى من جبل أوراس الى شاطىء البحر ، وكانت لهم هناك مدن مذكورة مثل القل وجيجل وعنابة وقسنطينة وسطيف وباغاية وبلزمة ونقاوس وميلة ، ويرجح أن قبائل **زواوة** الساكنة الى الغرب منهم أيضاً ، وكانت مواطن قبائل **صنهاجة** غربى مواطن **كتامة** بين بجاية والمسيلة ولمدية والبحر ، ومن أكبر حواضرهم عاصمة الجزائر التى كانت تدعى جزائر **بنى مزغنة** اضافة الى احدى قبائلهم الشهيرة ، وبجوار **صنهاجة** كانت تسكن قبيلة **عجيسة** البرنسية بجهات المسيلة وقلعة بني حماد ، وقبيلة **لماية** البترية التى كانت تسكن قرب تاهرت ، وبعد ذلك تسود القبائل البترية شمالا وجنوباً باستثناء منطقة وهران التى كانت تسكنها قبائل **أزداجة** البرنسية ، ولا يعود للقبائل البرنسية ظهور ألا عند الوصول الى سلاسل جبال الريف والأطلس المتوسط ، فابتداء من نهر

كرط توجد منطقة تسكنها قبائل صنهاجة مثل **بطوية** و **بني وورياكل** و **بني زروال** ، وبعدها تبدأ قبائل شعب مصمودة بغمارة شمالا ودكالة وسطاً وقبائل جبل درن جنوبا حيث تعود قبائل صنهاجة الجنوبية (الزناكة) الى الظهور من جديد وفي اقليم سوس وما يجاوره شرقا من أقاليم درعة وسجلماسة والمنطقة الواقعة بين ممر تازة والصحراء ، وفي المنطقة التي تمثل وسط المغرب الأقصى كانت تسكن قبائل بترية مستقرة مثل **وشتاتة رزمور وصدينة ومغيلة** و **مديونة** و **مطماطة** و **زواغــة** وقبيلة **أوربــة** التي وجدها الامام ادريس ابن عبد الله الكامل مستقرة بجوار جبل زرهون فآوته ونصرته لقرابته من النبي وأعانته على تأسيس الدولة الادريسية .

ووراء ذلك كلــه كانت تسكن الصحراء المغربية الكبرى قبائــل الملثمين التي ينتمي معظمها الى شعب صنهاجة وينتمي أقلها الى شعب هوارة وكلاهما من البرانس ، وقد أعطى الشعب الهواري اسمه للصحراء الشرقية فصارت تدعى هكار وهو تحريف كلمة هوار كما تقدم .

ولست في حاجة — أخيراً — الى القول بأن التوزيع السابق للقبائل البربرية انما يتعلق بالفترة الممتدة من الفتح الاسلامي الى مجيىء بني هلال ، وانه حتى في هذه الفترة نفسها لم تكن قبائل البربر تلتزم المقام في ناحية واحدة بل كان منها قبائل تنتقل من جهة لأخرى اما فراراً من قبيلة عدوة غلبتها واما تنفيذاً لتعليمات حكومية وصلتها ، وكانت القبيلة عندما تنتقل ترحل تارة برمتها ويرتحل تارة أخرى بطن أو عدة بطون منها حاملين معهم اسم القبيلة الجامع بينهم وبين بقية بطونها ، وهذا هو السر في اننا نجد **لواتة ومطماطة** و **رهونة** مثلا بأدنى المغرب ووسطه وأقصاه .

من مصادر هذا الفصل :

ـ **الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث** ـ لرالف لنتون ، ترجمة عبد الملك الناشف ـ بيروت 1963 .

ـ **الأنيس المطرب بروض القرطاس ، فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ـ لأبى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع ـ فاس1303

ـ **الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام** ـ للعباس بن ابراهيم التعارجى المراكشى ـ فاس 1936 .

ـ **الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى** ـ لأحمد بن خالد الناصرى ـ الدار البيضاء 1956 .

ـ **الأنساب ، فى معرفة الأصحاب** ـ لمؤلف مجهول ـ باريس 1928 .

ـ **اسفى وما اليه قديما وحديثا** ـ لمحمد بن احمد العبدى الكانونى ـ القاهرة 1353 .

ـ **تاريخ الجزائر العام** ـ لعبد الرحمان الجيلالى ـ بيروت 1965 .

ـ **تاريخ الجزائر فى القديم والحديث** ـ لمبارك بن محمد الهلالى الميلى ـ بيروت 1963 .

ـ **تاريخ المغرب العربى** ـ لمحمد على دبوز ـ القاهرة 1964 .

ـ **تاريخ المغرب العربى** ـ للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ـ القاهرة 1965 .

ـ **تطور الجنس البشرى** ـ للدكتور محمد السيد غلاب ـ القاهرة 1963 .

ـ **جمهرة أنساب العرب** ـ لعلى بن احمد بن حزم الأندلسى ـ القاهرة 1962 .

ـ **رحلة التيجانى** ـ لعبد الله بن محمد بن احمد التيجانى ـ تونس 1958 .

ـ **كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيـام العـرب والعجـم والبربر ، ومن عاصرهم من الملوك ذوى السلطان الأكبر** (تاريخ ابن خلدون) ـ لعبد الرحمان بن خلدون الخضرمى التونسى ـ بيروت 1961 .

ـ **المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب** ـ لعبد الواحد المراكشى ـ سـلا 1938 .

ـ **المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب** ـ لعبد الله بن عبد العزيـز البكرى ـ باريس 1965 .

ـ **موجز التاريخ العام للجزائر** ـ لعثمان الكعاك ـ تونس 1344 .

ـ **نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى** (منتخب من كتاب مفاخر البربر) ـ لمؤلف مجهول ـ الرباط 1934 .

ـ **نظرات فى تاريخنا القومى** ـ للحاج محمد بنونة ـ تطوان 1934 .

ـ **فتـوح افريقيـة والأندلـس** ـ لعبد الرحمان بن عبد الحكم ـ بيروت 1964 .

ـ **قيام دولة المرابطين** ـ للدكتور حسن احمد محمود ـ القاهرة 1957 .

ـ **اليمن من الباب الخلفى** ـ تأليف هانز هولفريتز ، ترجمه خيرى حماد ـ بيروت 1961 .

— Répertoire Alphabétique des tribus et douars de l'Algérie - Alger 1879.

— Répertoire Alphabétique des tribus et douars - Communes de l'Algérie - Alger 1900.

— Répertoire Alphabétique des Confédérations des tribus, des tribus, des Fractions de tribus et des Agglomérations de la Zône Française de l'Empire Chérifienne - Rabat 1939.

— Répertoire Alphabétique des Agglomérations de la Zône Française de l'Empire Chérifienne - Rabat 1941.

العـــرب

العـــرب احدى الأمم التى جعلتها التوراة من نسل سام بن نـوح ، ولذلك اصطلح المؤرخون على عدها من جملة الأمم السامية مثل الأشوريين والبابليين والعبرانيين والحبشة والآراميين ، وتعتقد طائفة من الباحثين ان المهد الأول لهذه الشعوب كان شطوط الفرات وبادية العرب ، فلما تكاثروا وضاقت بهم الأرض تفرقوا فى البلاد المجاورة لمهدهم الأصلي وتشعبوا فيها وتفرعت لغتهم الأولى الى لهجات صار بعضها يتباعد عن بعض بطول الزمان وتطور الفكر وانتشار العمران حتى أصبحت لغات مستقلة .

اتخذ العرب أرض الجزيرة المنسوبة اليهم فى جنوب غرب آسيا وطناً لهم بدواً يألفون الخيام وحضراً يعمرون المدائن والقرى بينما استقر الأشوريون والبابليون فى العراق ، والآراميون فى الشام ، والعبرانيون فى فلسطين ، والفنيقيون فى سواحل الشام والأيثيوبيون فى الحبشة ، وكان جنوب الجزيرة العربية منطقة تساعد طبيعتها على الاستقرار وقيام الحضارات ، فكان سكانها أقـرب الى الحضارة منهم الى البداوة ، وكان شمالها منطقـة أكثـر قحولـة وأشد جدباً فكان سكانها تبعاً لذلك يقضون حياتهم فى النجعة والارتياد وطلب الرزق بمواضى السيوف والرماح ، لا يذوقون طعم الاستقرار ، ولا تساعدهم طبيعة الأرض التى يسكنونها على اقامة المدن وانشاء الحضارات .

وتدل الدراسات العلمية الدقيقة على أن لفظتى العروبة والعرب ترادف لفظتى البادية والبدو ، وان العرب أنفسهم كانوا يسمون بلادهم عربة أى أرض البـدو ، فلما تحضر منهم من تحضر وسكن منهم من سكن فى مـدن مبنيـة بالحجارة والطين باليمن والحجاز وحوران وغيرها لم يعد لفظ العرب محصوراً فى البدو ، فاضطروا الى استعمال كلمات أخرى للتمييز بين الفريقين ، فقالوا

البدو والحضر ، أو أهل المدر وأهل الوبر ومنذ ذلك الحين بدأ لفظ العرب يأخذ معنى سلالياً جنسياً ولم يعد يدل على حالة اجتماعية ، ولم يبق يذكر بدلالته الأصلية الا كلمة أعرابى التى تعادل كلمة بدوى ، باستثناء أرض المغرب الذى بقيت فيها كلمة عروبة وعرب تردف كلمة بداوة وبدو حتى الآن .

ويمكن وصف العربى الأصيل بأنه انسان أسمر اللون مائل الى البياض، ذو وجه بيضوى منبسط وعينين براقتين سوداوين يعلوهما حاجبان كثيفان ، وأنف أقنى وجبهة غير عالية ولا منخفضة وهامة مرتفعة وبنية كاملة وعضلات قوية نشيطة وأطراف معتدلة متناسبة مع تكوين الجسم

ويقسم العرب الى ثلاثة أقسام

1) عرب بائدة

2) وعرب عاربة

3) وعرب مستعربة

وأما العرب العاربة فهم العرب القحطانيون الذين نزلوا فى جنوب معروف ، والمعلومات المتعلقة بهذا القسم من العرب ضئيلة جداً ، جلها أخبار مقتضبة وردت فى القرآن وأساطير مستملحة وشاها الرواة ، ويذكر المؤرخون والقصصيون من هذه القبائل **عاد** و **ثمود** و **مدين** و **طسم** و **جديس** و **العمالقة** **واميم** و **جرهم** وكلها من ولد ارم بن سام الا العمالقة فيما يذكر النسابون فانهم من نسل أخيه لاوذ بن سام ، وكان لبعضها دول وملوك فى جزيرة العرب امتد ملكهم الى الشام ومصر

وأما العرب العاربة فهم العرب القحطانيون الذين نزلوا فى جنوب الجزيرة العربية واتخذوا اليمن لهم موطنا ، وهم من ولد يعرب بن قحطان الذى يقال انه أول من نطق باللسان العربى وجعلت له التحايا الملوكية ، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت الصحابى

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوى نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم فى القفر

واشتهر بعد يعرب ابنه يشجب ، ثم حفيده عبد شمس بن يشجب الملقب بسبأ ، وهو مؤسس المملكة السبئية وباني السد العظيم القريب من عاصمتها مأرب ، وقد خلف سبأ هذا عدة أولاد أشهرهم **حمير** و **كهلان** اللذان تنسلت منهما جل القبائل القحطانية ، فمن أشهر بطون حمير **قضاعة** التى منها **بلى** و **جهينة** و **كلب** و **بهراء** و **بنو نهد** و **جرم** ، ومن أشهر بطون كهلان **الأزد** و **طيىء** و **مذحج** و **همدان** و **كندة** و **مراد** و **لخم** و **جذام** .

وقد بقيت القبائل القحطانية متوطنة باليمن وسائر الجنوب العربى الى أن تهدم السد سنة 447 م حسبما حقق ذلك العلامة الألمانى غلازر على عهد ملكهم عمرو بن عامر بن مزيقا فخرب سيل العرم مأرب وأزعج عنها سكانها وقضى على دولة السبئيين ولاذ من نجا منهم بالفرار والهجرة الى الشمال الذى كانت بعض بطونهم سبقتهم اليه بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، وضرب المثل بتفرق جمعهم وتشتت شملهم فقيل : (تفرقوا أيدى سبأ) .

وكان من القبائل القحطانية من أجهدتها الرحلة فسكنت البادية وقنعت بعيشتها القاسية ، ومن أمعن فى المسير فسكن القرى والمدائن باطراف الشام والعراق وعاش فيها عيشة متحضرة شبيهة بعيشتها فى مواطنها الأصلية التى هاجرت منها . وكان الذين هاجروا من حمير قبائل **قضاعة** ، فاستوطنت **تنوخ** العراق ، **وكلب** بادية الشام ، **وعذرة** وادى القرى فى الحجاز ، وكان الذين هاجروا من كهلان قبائل **الأزد** فنزلوا عمان ، ومنهم **الغساسنة** فى الشام ، **وخزاعة** بمكة ، **والأوس والخزرج** بيثرب ، ومن كهلان أيضاً **بنو لخم** ملوك الحيرة الذين منهم المناذرة ، **وبنو طيىء** فى جبل أجأ وجبل سلمى ، **وبنو عاملة وجذام** فى بادية الشام ، **وبنو كندة** الذين كانوا رؤساء بحضرموت يخضعون للتبابعة فامتد سلطانهم الى الجهات الشمالية فسادوا قبائل **غطفان** و **أسد** فى نجد ، وقبائل **بكر** و **تغلب** فى ديار ربيعة ، وبلغ الأمر بالحارث بن عمرو من ملوكهم الى منافسة المناذرة والغساسنة ، وهو الذى ولاه قباذ الفارسى ولاية الحيرة مكان المنذر بن ماء السماء ، فلما توفى قباذ تولى أنوشروان فأرجع المنذر الى سابق عمله ، ففر الحارث بماله وأهله ، وتبعه المنذر فى

جمع من **تغلب واياد** فنجا الحارث ونهب ماله ، وأخذ ثمانية وأربعون من وجهاء قومه وسيقوا الى مصارعهم بدار بني مرينا ، وفيهم يقول امرؤ القيس راثياً :

الا يا عين بكي لي شنيناً — وبكي لي الملوك الذاهبينا
ملوك من بني حجر بن عمرو — يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا — ولكن في ديار بني مرينا

وأما العرب المستعربة ويعرفون أيضاً بالعدنانية فهم من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل من جاريته هاجر ، جاء أبوه ابراهيم — وهو كلداني الأصل — به وبامه الى موضع مكة الحالي في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وجاءت اثر نزولهم **جرهم و قطوراء** من قبائل اليمن فسكنتا مكة ، ولما شب اسماعيل وجد نفسه بين جرهم فتزوج سيدة بنت مضاض الجرهمي ورزق اثنا عشر ولداً هم أصل العرب المستعربة أو العدنانيين .

تنقسم القبائل العدنانية الى فرعين عظيمين : **عـك و معـد** ، أما **عـك** فنزلت في نواحي زبيد جنوبي تهامة وبقيت منهم بها بقية الى ظهور الاسلام ، وليس لهم تاريخ يذكر ولا كبير شأن ، وأما **معد** فهم البطن العظيم الذى انحدرت منه قبائل عدنان ، وهم ينقسمون الى قسمين : **نزار و قنص** وقد هلكت قنص وبقي النسل والكثرة في **نزار** ، وهم عدة فروع ، أشهرها : **ربيعة و مضر و اياد وأنمار** .

كانت مواطن **ربيعة** في مهبط الجبل من غمر ذي كندة الذى يبعد عن مكة بمسيرة يومين ، وبطن ذات عرق وما حاذاها من بلاد نجد الى أغوار تهامة .

وكانت قبائل **مضر** تقيم في حيز الحرم الى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد .

وكانت مواطن **أنمار وأيـاد** في الأول بين مواطن مضر وبلاد نجران وما يجاورها الى ان اضطرت الأولى الى الرحيل من تهامة الحجاز لسرات عسير اثر حروب وقعت بينها وبين أخواتها من ربيعة ومضر مخلفة وراءها قبيلة **خثعم**

وقبيلة **بجيلة** ، والى ان اضطرت الثانية الى الرحيل الى العراق بعد ما تنازعت السلطة مع شقيقاتها على الحرم ، فوقعت بينها وبين الفرس فى مهاجرها وقائع فتك بهم فى آخرها الملك سابور ذو الاكتفاف .

وتعتبر **ربيعة** أقوى القبائل العدنانية وأعظمها ، وقد نزحت هى أيضاً عن الحجاز بعدما جاذبت **مضر** حبل السلطة عليه ، فاستولت على أماكن عديدة من الجزيرة ، فنزلت قبيلة **عبد القيس** البحرين ، ونزلت **بكر** و **تغلب** و **عنزة** ظواهر نجد ، وبعد نزوحها استقلت **مضر** بأمر الحجاز وانتشرت بطونها وأفخاذها وعشائرها فى مناكبه ، وكان منها فرعان عظيمان : **خندف وقيس عيلان** الذى تنتمى اليه قبائل البتر البربرية ، كما كان منهم **قريش** سادةمكةوهم بنو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وفهر هو الملقب بقريش ، فكل من كان من ولده فهو قرشى ، وكل من انتسب الى اعلا منه فهو كنانى فاذا علا فوق كنانة فهو مضرى .

وقد بلغت قريش ذروة الشرف والمنعة فى أيام قصى بن كلاب حيث يبدأ تاريخ مكة الفعلى لقيامه على حكومة قبيلة **خزاعة** اليمنية ، واستئثاره دونها بحكم مكة وسدانة البيت الحرام .

ويعتبر قصى ممدن قريش ومنظم حكومتها ، فلما كبر وضعفت قواه أسند الحكم الى ابنه عبد الدار وتولاها أبناؤه من بعده ، ولكن بنى عبد مناف بنى قصى كانوا أشرف قومهم وأعظمهم مكانة ، فأجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على انتزاعه من بنى عبد الدار ، وكادت تحدث فتنة بين قريش لولا ان اصطلحوا على ان تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف وان تبقى الحجابة والندوة واللواء لبنى عبد الدار .

والى هاشم آلت زعامة قريش وحكومة مكة بعد قصى ، ولم يكن أحد ينافسه لما له من المؤهلات الخاصة ، ولما توفى خلفه ابنه شيبة الملقب فيما بعد بعبد المطلب وهو والد عبد الله أبى النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

وتشتمل قريش على اثنى عشر بطناً هم :

1) بنو الحارث بن فهر 2) بنو عامر بن لؤى 3) بنو سهم بن عامر 4) بنو تيم بن مرة 5) بنو زهرة بن كلاب 6) بنو عبد الدار 7) بنو محارب بن فهر 8) بنو عدى بن كعب 9) بنو جمح بن عمرو 10) بنو مخزوم بن يقظة 11) بنو أسد بن عبد العزى 12) بنو عبد مناف .

وقد انقسمت عبد مناف الى **بني هاشم** و **بني أمية** و **بني المطلب** و **بني نوفل** .



عاشت الأمة العربية فى جزيرتها منعزلة عن غيرها من الأمم والشعوب فحافظت بسبب ذلك على نقاوتها السلالية وكثر حفظ أفرادها لأنسابهم وافتخارهم بآبائهم وأجدادهم ، ومن البديهي أن يكون لهذه الأمة تاريخ ، ولكنه تاريخ بقى يكتنفه الغموض وتختلط فيه الحقيقة بالخيال الى السنين الأخيرة التى كثرت فيها الدراسات العلمية الدقيقة وتعددت الوسائل الفعالة لاستجلاء الغامض وتمييز الراشى من الصحيح ، فأمكن بهذه الوسائل وتلك الدراسات كشف الحجب عن جوانب كثيرة من ماضى الأمة العربية قبل الاسلام ، ومقارنته بماضى كثير من الأمم التى تشبه العرب فى بداوتهم وطبيعتهم ، ومن الواضح ان هذا الماضى لا يرتفع الى مستوى ماضى الأمم المتحضرة التى ساعدتها طبيعة أرضها على انشاء الممالك وتشييد الحضارات كاليونان والرومان والفنيقيين وقدماء المصريين ، خلافاً للدعاوى الواهية التى بدأ يروجها فى السنين الأخيرة بالمشرق بعض الكتاب المتحمسين المندفعين الى التبجح والادعاء بدافع التعصب السلالى الذى لم يبق عقل سليم يقبله فى القرن العشرين .

وقد قسم المؤرخون المحدثون تاريخ العرب قبل الاسلام الى ثلاثة أقسام اعتباراًللأدوار التاريخية الكبرى التى تناوب فيها العرب السيادة على جزيرتهم .

فالدور الأول كانت فيه السيادة لقبائل القسم الشمالى وأكثرهم من العرب البائدة ، ومن هاؤلاء **العمالقة** الذين سماهم اليونانيون الهيكسوس

(العرب الرعاة) وقد كانت مواطنهم في شمال الحجاز مما يلي شبه جزيرة سيناء ، وهم الذين فتحوا مصر باسم (الشاسو) ودامت دولتهم بها من سنة 2214 الى سنة 1703 ق . م . ومنهم قبيلة **عاد** اخوان النبي هود ، **وثمود** اخوان النبي صالح ، **ومدين** اخوان النبي شعيب وقصصهم مذكورة في القرآن ، والى القبيلة الأخيرة فر النبي موسى من أرض مصر بعد ما وكز أحد أبنائها وقضى عليه ، فأقام عند النبي شعيب وتزوج ابنته .

والدور الثاني كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبي وأكثرهم من القحطانيين الذين عرف لهم التاريخ أربع دول : 1) دولة معين التي كانت عاصمتها القديمة معين الواقعة في بلاد الجوف الجنوبي شرقي صنعاء وعاصمتها الحديثة مدينة قرنا ، ويقدر بعض العلماء بداية هذه الدولة حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وكانت متأثرة كثيراً بالحضارة البابلية ، وتدل قرائن كثيرة على أن سلطان هذه الدولة انبسط على الجزيرة العربية كلها الى الخليج الفارسي والبحر الأبيض المتوسط . 2) مملكة سبأ التي كانت عاصمتها في الدول صرواح ثم صارت مأرب لما اتسعت الدولة ، ولا يعرف تاريخ قيام هذه الدولة بالتدقيق ولكنها كانت موجودة في القرن التاسع قبل الميلاد في عهد الملك الاسرائيلي سليمان بن داود الذى تزوج ملكتها بلقيس ، وتدل الآثار على أنها استمرت الى سنة 115 ق . م حين انتقلت العاصمة الى ريدان (ظفار) 3) الدولة الحميرية التي هي فرع من دولة سبأ ، ابتدأت هذه الدولة سنة 115 ق .م وصار ملوكها يدعون بالتبابعة سنة 275 حين ضمت اليها حضرموت وانتهت سنة525م أيام ذي نواس الحميرى وهو آخر ملوكها ، وقد نبغ في هذه الدولة ملوك كبار وقواد فاتحون حاربوا الفرس والأحباش وغيرهم وفتحوا مدناً وأقطاراً نائية ، ويقال ان أحد ملوكهم وصل الى بلاد المغرب وخلف به أجناداً من جيشه هم أصل قبيلة **كتامة** و **صنهاجة** 4) دولة القحطانيين خارج اليمن ، وهي في الحقيقة امارتان احداهما غسانية بالشام كانت تحت حماية الروم ، والأخرى لخمية بالحيرة تحت حماية الفرس ، وقد استمرت الدولتان الى ان قضى عليهما المسلمون بعد موت النبي بقليل .

والدور الثالث عادت فيه السيادة الى عرب الشمال وأكثرهم من العدنانيين ، ولم يكن للعرب في هذا الدور دولة ولا حكومة بالمعنى الصحيح للكلمتين ، ولكن بدأت فيه قبيلة **قريش** تفرض وجودها واحترامها على القبائل العربية الأخرى وكأنها تتهيأ لحدث خطير حتى صارت لها الكلمة المسموعة والجانب الموقر ، وصار العرب اذا تفاخروا بقبائلهم وأنسابهم يستثنونها من المفاخرة لاقرارهم بتفوقها عليهم جميعاً :

فأما الناس ما حاشا قريشا فأنـا نحن أحسنهـم فعـالا

وفى أيام قصي بن كلاب الجد الخامس للنبى محمد عليه السلام انتزعت **قريش من خزاعة** ما بقي لها من نفوذ بمكة ، وهي قبيلة يمنية هاجرت من اليمن الى الحجاز عقب سيل العرم واستقرت بمكة وجاذبت **جرهم** حبل السلطة فيها الى ان انتزعته منها ، وبقيت مستمسكة به الى ان حصل بينها وبين بطون **كنانة** نزاع عليه أدى الى قسمة المناصب الحكومية بينهم ، فكان الحكم وما اليه لخزاعة ، والقضاء وشؤون الدين لكنانة ، واستمر الحال كذلك الى ان كثرت بطون كنانة واشتدت عصبيتها فنازعت خزاعة ثانيا بزعامة قصي بن كلاب وسلبتها ما بقي لها من مناصب الحكم ، فجمع قصي حينئذ قريشا من منازلهم بين كنانة واستقر بهم فى مكة ونقلهم من البداوة الى الحضارة ، وتيمنت قريش به فصرفوا اليه مشورتهم ، وأسسوا (دار الندوة) ازاء الكعبة لمشاورتهم ، وتصدى قصي للعناية بشؤون الحج وتهييء ما يترتب عن مجييء الحجاج باعداد وفيرة من ماء وغذاء وفرض على قريش خراجاً يؤدونه ، واجتمع له الشرف كله ، وصارت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فكان بها في حكم الأمراء والملوك .

وآلت الزعامة فى مكة الى هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وكان رجلا ذا مؤهلات خاصة ومواهب لم يستطع أحد من قومه ان يفكر معها في منافسته ، وهو الذى بـذر فى نفوس قريش حب التجارة وزيـن لها الكسب وسن لهـا رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام ، فاضافت مكة الى مجدها الدينى التليد مجداً اقتصادياً طريفاً ، وازدهرت فى أيامه سنة 464 م وسمت مكانتها فى جميع جهات الجزيرة العربية .

وتوفى هاشم فى احدى رحلاته بغزة بعد ما عقد معاهدات تجارية وسياسية مع فارس والحبشة والامبراطورية الرمانية والامارات العربيـة بالشمال والجنوب ، فخلفه أخوه المطلب فى زعامة مكة حتى كبر ابنه شيبة بن هاشم فقام فى مناصب أبيه وسمى بعد ذلك عبد المطلب ، وهو الذى تعرضت مكة فى أيامه سنة 570 لغزو الحبشة بقيادة أبرهـة عامل النجاشى باليمـن فانكسروا بعد ما تفشى فيهم مرض الجذرى وجعل كيدهم فى تضليل .

وقد تعرضت الجزيرة العربية خلال تاريخها المتقدم على الاسلام لعدة غزوات خارجية ، فكان الفرس يغيرون عليها من الشرق والشمال ، والروم يغيرون عليها من الشمال الغربى ، ولكن غاراتهم لم تكن مركزة ولا مستقرة نظراً لوعورة المسالك وصعوبة الطبيعة ، أما الغزوات التى كان لها طابع استعمارى فهى الغزوات الآتية من بلاد الحبشة عن طريق مضيق باب المندب ، وقد استطاع الأحباش أن يثبتوا أقدامهم فى بلاد اليمن عدة مرات ، وبواسطتهم دخلت النصرانية الى تلك البلاد ، وفكروا ذات مرة فى الاستيلاء على مكة وتخريب الكعبة ولكنهم انهزموا شر انهزام بمعجزة سماوية ، وكان ذلك عام 570 الذى سماه العرب عام الفيل ، وهو العام الذى ولد فيه نبى الهدى والرحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .



المجتمع العربي

يخضع مجتمع كل أمة لعدد من المؤثرات الجغرافية والعقلية والنفسية ويتكيف بها ، فهو من جهة وليد الأرض وما يلازمها من جدب أو خصب ، وغنى أو فقر ، وهو من جهة أخرى وليد ما يتصف به سكانها من غباوة أو ذكاء ، وعلم أو جهل، وجد أو كسل، وما يشغل عقولهم ويملأ قلوبهم من عقائد وأديان.

واذا ألقى الانسان نظرة على موقع الجزيرة العربية من الخريطة العالمية وجدها تقع فى المنطقة الاستوائية التى يشتد حرها ، وفى شبه جزيرة منعزلة قاحلة بجنوب غرب آسيا ينعدم فيها الماء والنبات أو يكاد ، محرومة من كثير من النعم والمزايا التى تيسر العيش فى أقطار أخرى وتجعله رخياً رغيداً ، فلا عجب أن يكون المجتمع العربى يتسم فى معظمه بطابع البداوة ، ويسوده نظام القبيلة ، ويغلب فيه جانب الاضطراب على جانب الاستقرار ، ويتصف أهله في نفس الوقت بكل ما يتصف به البدو من شجاعة واقدام ، واعتماد على النفس وتحمل للمشاق ، واكرام للضيف وحماية للجار .

ويمكن أن يوصف الفرد العربى ــ قبل تطوره العظيم بتأثير الاسلام ــ بأنه انسان ذو شخصية قوية تتجلى فى أنانيته وأثرته وحبه الخير لنفسه دون غيره وانفراده بالمجد والجاه وطيب الأحدوثة وكريم السجايا والخصال ، وعشقه للحرية ونزوعه الى الاستقلال ، كما تتجلى شخصيته في جلده وصبره على الفقر والجوع ومغالبته للطبيعة القاسية في صحرائه العاتية التى تلفحه بحرها حتى تتركه هزيل الجسم يابس الجلد أسمر اللون أسود الشعر ، وتستولى على احساسه بوحشتها فتصيره مرهف السمع حاد البصر سريع التأثر متوتر الأعصاب ، وتدفعه بامحالها وقحطها الى انتجاع المراعى والارتحال فى طلب الرزق من مكان الى مكان، واعتماد الغزو وشن الغارة لضمان العيش عند ما تشتد الضائقة ولا يكون بغير الطعن والضرب بقاء .

وكانت القبيلة هى أساس النظام ، والخلية الكبرى فى دنيا العرب سياسياً واقتصادياً ، فكانت الصلة قوية بين الفرد وقبيلته كلاهما يخلص للآخر ويحامى عنه ويستميت من دونه ويبوء بحظ من فخره أو عاره ، ولكن الصلات كانت ضعيفة بين القبائل التى لم يكن بعضها يجتمع ببعض الا فى حلف موقوت ، فلذلك لم يستطع العرب فى هذا الجو القبلى المتقطع أن ينشئوا دولا قويـة أو مجتمعات راقيـة ، ولم يتمكنوا لبعد الشقة وصعوبـة الاتصال ان يضعوا مقادتهم فى يد حكومة مركزية تجمع شتاتهم وتوحد كلمتهم وتعلمهم النظام وتحكمهم الى قانون ، وقصارى ما كانوا يبلغون اليه أن يذعن أفراد كل قبيلة الى سيد منها اذا رأوا فى سيادته خيراً وتوفرت لديه أدوات الرئاسة من شجاعة وفصاحة وحلم وغنى وكرم ، وغالباً ما كانت هذه السيادة تتنقل فى القبيلة من بيت الى بيت لأنانية العربى وتنافس العشائر وحرص كل واحدة منها على ان لا تطول الرئاسة فى بيت واحد فيذهب بفخر القبيلة كلها ، وأشرف البيوت عندهم بيت تتابعت فيه رئاسة آباء ثلاثة ثم اتصلت بالرابع فيسمى الكامل، كبيت حذيفة بن بدر فى **بنى ذبيان** ، وبيت ذى الجدين فى **بنى شيبان** .

وكان الأب أو الزوج هو رئيس الأسرة وله السلطة المطلقة على أهله وبنيه ، أما المرأة فكان البدوى ينظر اليها كأداة للمتعة والنسل ، ويرغب فى أن تلد له غلماناً يكاثر بهم غيره ويقوى بهم مكانه فى القبيلة ويديم بهم بقاءه من بعده ، ولذلك كانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى ومنهم من كان يئدها بعد ولادتها ، وقد وصف القرآن الكريم بعبارات ناصعة حالة الرجل العربى وحيرته عند ما تولد له بنت فقال : (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ؟ أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون) ! على ان عادة الوأد لم تكن عامة والا لاندثر الجنس العربى ، وأنما كانت فاشية فى بعض القبائل فقط مثل **أسـد** و **تميم** حتى جاء الاسلام فنهى عنها وأبطلها ، وقد كانت المرأة العربية تشارك الرجل فى كثير من شؤون الحياة : تحطب وتسقى ، وتحلب الماشية وتنسج الملبس والخيمة ، وأغلب النساء كن سافرات يقابلن الضيوف ويتحدثن اليهـم ،

وكثيراً ما كن يصحبن الرجال الى الحرب ويقمن خلفهم اثناء القتال ليستميتوا فى الطعن والضرب مخافة أن يلحقهم عار بسببهن ، ولكنهن لم يكن يغنين فيها غناء الرجال بسبب ضعفهن وقوتهم ، وكان للمرأة المكان الأول فى الشعر العربى فلا تكاد تخلو قصيدة من الافتتاح بذكرها والغزل بها .

وكان البدو يتزوجون صغاراً ، الذكر فى الخامسة عشرة والأنثى فى العاشرة أو أقل ، يخطب الرجل الى الآخر بنته ويصدقها ثم يعقد له عليها ، وله حق الطلاق وتعديد الزوجات حسب استطاعته الا اذا اشترطت عليه المرأة عدم التعديد ، وكانوا يميلون الى زواج البعداء لأنه أنجب للولد وأبهى للخلقة ، ولم يكونوا يجمعون بين المرأة وبنتها ولا بينها وبين أختها ، ولكنهم استحلوا زواج امرأة الأب الى أن حرمه الاسلام ، وربما تزوج بعضهم نساء بعض فى فترات الغزو بلا عقد ، أو ذهبت المرأة الى عدة رجال فيولد الولد لا يعرف من أبوه فتلحقه أمه بمن تريد من الرجال الذين سبق لها معرفتهم ولا يرفضه الرجل ان كان ذكراً وقد يلجأون الى القيافة ويلحقونه بأكثرهم به شبها .

وكان البدو من العرب يسكنون الخيام ، يتخذونها من الوبر والشعر والصوف ، ويقسمونها قسمين مفصولين بستار ، يكون أحدهما وهو المقدم للرجال ويكون الآخر وهو المؤخر للنساء ، وينقلونها معهم اذا ارتادوا أو خرجوا للغزو ، وقد كانت هذه الخيام موضوعاً مثيراً للشعراء يصفونها ويصفون ما فيها ومن فيها ، ويبكون على أطلالها بعد رحيل أهلها عنها ، ويقفون على آثارها الباقية لاستعراض ذكرياتهم بها ، وكان أكثر طعامهم اللبن والتمر ، واذا نزل بهم ضيف نحروا ناقة أو ذبحوا شاة اكراماً له ، لأن اللحم مظهر من مظاهر الجود ، وكانت عادة شرب الخمر فاشية بين الأغنياء منهم حتى جاء الاسلام فحرمها ، وقلما تحدث شاعر جاهلى عن حياته دون أن يتحدث عن الخمر وكرمه اذا شرب ، وقد يتصل بالشراب الغناء ، فقد ذكر أن بعض الجوارى كن يغنين فى مجالس الشراب .

وكان أهل البادية من العرب يعتمدون فى معيشتهم على رعاية الابل ثم على الغزو والصيد وحراسة القوافل ، وكانت عنايتهم بالابل والاستكثار

منها تفوق كل عناية ، اذ عليها معولهم في الحياة : يأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها وينسجون خيامهم من أوبارها ، ويحملون أثقالهم على ظهورها ، ويفتدون أسراهم بها ، ويؤدون المهور والديات والصدقات منها ، ويتقايضون فى البيوع عليها ، وكان المترفون منهم يعنون بالخيل أيضاً ، وربما كانت أعز ما يباع عند العرب ، كانوا يطلقونها على الصيد ويتحاربون فوقها ويقيمون لها السباق ويضعون الأسماء لخيـــل الحلبة كالمجلى والمصلى والمسلى ، ولم يحترف منهم الزراعة الا سكان جبال اليمن وبعض المناطق الشمالية كالطائف ويثرب وخيبر ووادى القسرى وتيماء ، أما الصناعة فكانوا يرونها حرفــة مسترذلة ويعيرون صاحبها ولا يتعاطاهــا فى الغالب الا الغربــاء والعبيد ، بخلاف سكان الحواضر القليلة الذين لم يكونوا يحجمون عن عمل يتعيشون منه سواء كان تجارة أو صناعة أو فلاحة ، وكانت مكة مركزاً تجاريا ممتازاً وأهلها تجاراً ماهرين يذرعون الجزيرة العربية طولا وعرضاً ، وكانت لهم على الخصوص رحلتان سنويتان أحداها شتوية توصلهم الى بلاد اليمن حيث يشترون بضاعتها والبضائع الواردة عليها من بلاد الهند كالتوابل والبخور، ورحلة صيفية الى بلاد الشام يبيعون خلالها سلع اليمن ويشترون ما يحتاج اليه العرب من منسوجات ومصنوعات ، وكانت لهم أسواق سنوية داخلية يبيعون فيها ويشترون ويتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ويتحاكمون الى قضاة ، ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ بين نخلة والطائف الذى كان سوقه يعقد من أول ذى القعدة الى اليوم العشرين منه ، ومجنة الواقعة بمر الظهران قرب مكة التي ينتقلون اليها من عكاظ فيقيمون فيها الى متم ذي القعدة ، وذى المجاز البعيد عن عرفة بفرسخ كانوا يقيمون فيه ثمانية أيام من ذى الحجة ويعرفون فى اليوم التاسع وهو يوم التروية ، ولم تخل الجزيرة العربية فى جميــع عصورها القديمة من جماعات تتكسب عن طريق الغزو ، فكانت تشن الغارات لنهب الأموال وسبي النساء والأولاد وبيعهم بعد ذلك فى أسواق العبيد، وكانت الحرب بسبب ذلك وبسبب التزاحم على الكلأ والماء لا تخمد نارها والحسائف لا تخف وطأتها ، ولكن حروبهم ووقائعهم المعروفة فى كتب التاريخ والأدب بأيام العرب لم تكن تخلف على كثرتها وطول أمدها ضحايا كثيرة ولا خسائر

وفيرة ، لأن الغرض الأكبر منهاهو النهب والفرار بالغنائم والأسلاب ، ولأن البدو كانوا يتحامون القتل جهدهم لما يستلزمه من أخذ الثار ودفع الديات ويخلعون اللصوص والمجرمين (129) وقد ذكروا أن حرب البسوس التى دامت أربعين سنة بين **بنى بكر** و **بنى تغلب** لم يقتل فيها الا عدد قليل من المتحاربين .

ولم يكن العرب فى جاهليتهم يومنون بدين واحد ، وانما كانت لهم أديان متعددة ومذاهب مختلفة يخلطون بعضها ببعض ويمزجون العقائد السماوية بالعقائد الوثنية وما هو شرك بما هو توحيد ، وقد ضعف فيهم دين ابراهيم ولكن بعض شعائره كالحج استمرت قائمة فيهم ، وبعض معاهده كالكعبة بقيت لديهم معظمة الحرمات ، وقد أخذوا عبادة الأصنام عن اليونان والرومان الذين حملوا آلهتهم وتماثيلهم الى الشام ، والمجوسية عن الفرس ، واليهودية عن المهاجرين الاسرائليين الذين فروا من الأشوريين ثم من الرومان بعد خراب هيكلهم ببيت المقدس سنة سبعين ، كما أخذوا النصرانية عن دعاتها الأولين وعن أهل الشام أثناء الحكم البيزنطى ، وعن أهل الحبشة الذين استقروا زمناً باليمن وبنوا فيه بعض الكنائس ، فكانت اليهودية فى يثرب وفدك ووادى القرى وتيماء واليمن، فمنها قبائل اسرائلية تعربت مثل **قريظة والنضير وقينقاع** بيثرب ، وقبائل عربية تهودت كلا أو بعضاً مثل **حمير وكندة وكنانة والحارث** بن كعب ، وكانت النصرانية فى بادية الشام وبين النهرين وحوران وجهات من البحرين واليمن وعمان ، وانتشرت فى قبائل **ربيعة وكندة وقضاعة وغسان وتميم وجذام** ، وكانت كعبة النصارى بنجران حرماً آمناً كمكة لا يجوز انتهاكه، ومن العرب من كان يعبد الكواكب والنجوم، ومنهم من عبد النار أو قال بالثنوية أو الدهرية ، وأحل زواج الأب بابنته ، وهى عقائد ومذاهب سرت اليهم من الفرس والمجوس وما عندهم من معتقدات مزدكية ومانوية ، اما عبادة الأصنام والأوثان فقد شاعت فى كل مكان منذ قدم عمرو بن لحى الخزاعى ببعض التماثيل من الشام وأقامها على الكعبة ودعا العرب الى تعظيمها وأفسد عليهم

---

129) كانت القبائل تخلع من تكثر معراته من أفرادها ولا تستطيع حمايته وتتخلى عنه فيلجأ الى قبيلة اخرى أو يعيش فى البرارى عيشة الصعلوك الشريد متخذاً من الوحش أهلا وجيراناً (اقرأ لامية العرب للشنفرى) .

بذلك دين اسماعيل بن ابراهيم ، ومن أشهر أصنام العرب الطواغيت الثلاثة : اللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة، ومناة لأهل المدينة، أما أصنام الكعبة فكثيرة منتشرة حولها وفوقها وفي جوفها وأعظمها هبل الذى كان من عقيق أحمر على صورة انسان ، وكانوا يستقسمون عنده بالقداح ، ويستخيرونه في شتى أمورهم وأعمالهم . على انهم مع كل ذلك كانوا يميلون الى التوحيد ويصرحون انهم انما يعبدون الأصنام والأوثان وشتى مظاهر الطبيعة لتقربهم الى الله زلفى ، كأنما يجعلونها وسيلة بين أيديهم للوصول اليه ونيل رضاه ، ومما لا ريب فيه ان اليهودية والنصرانية كان لهما ضلع كبير واثر فعال فى توجيه أفكار العرب نحو التوحيد .

ولم يكن العرب يتقنون علماً من العلوم يوضحون مناهجه ويدونون قواعده ، لأن العلم نتيجة الحضارة التى يكثر فيها المال ويسهل العيش ، وثمرة المجتمعات المنظمة المهذبة ، ولكن الطبيعة كانت مفتوحة أمام أعينهم لا تحجبها دور ولا قصور ، فاهتدوا بالفطرة الى كثير من أسرار الحياة ، واستفادوا بالتجربة ما استفاده غيرهم فى غرف الدراسة وتلقاه من أفواه المعلمين ، فقد عرفوا النجوم ومواقعها ، والأنواء وأوقاتها ، وعرفوا طباً هدتهم اليه التجارب وتوارثوه جيلا عن جيل ، وتناقلوا أخبار الأمم المجاورة لهم من فرس وروم مع كثير من التحريف ، وكانت لهم نظرات فى الحياة وخطرات فلسفية هداهم اليها العقل السليم ، ولكن أكبر ما كانوا يمتازون به هو حدة ذكائهم وحضور بديهتهم ، وفصاحة ألسنتهم ، فكان شعرهم ولغتهم وخطبهم وأمثالهم أكبر مظاهر حياتهم العقلية .

ويتكلم العرب لغتهم المشتقة من أصل سامى ، وهى احدى اللغات العظيمة المرنة القادرة على التعبير عن كل خلجات النفس ومشاهدات الحس وخواطر العقل ومشاعر الوجدان ، ولها قدرة عجيبة على صهر الألفاظ العجمية وتصريفها حتى تصير كأنها من العربى الأصيل ، وكانت فى الجاهلية مقسمة الى فرعين : فرع حميرى فى الجنوب وفرع عدنانى فى الشمال ، وكلاهما يغاير الآخر فى الأوضاع والأحكام وان شابهه فى كثير من الألفاظ والتراكيب ،

وقد تغلبت لغة عدنان فى النهاية على لغة حمير بسبب ما أصاب الحميريين من تشتت وافتراق ، وضعف وانحال ، وما توفر للعدنانيين من أسباب القـوة والظهور وشيوع لغتهم عن طريق الأندية والمجامع والأسواق والحج والقوافل التجارية ، وزادها سموآ عناية المتكلمين بها باختيار الألفاظ المالوفة واهمال الحوشي والمستقبح من الكلام حتى نشأت عن ذلك لغة أدبية راقية عرفت بلغة قريش امتد سلطانها الى سائر أطراف الجزيرة العربية لاختلاط القبائل بعضها ببعض فى المهاجر والأسفار والمواسم والأسواق ، حتى اذا نزل القرآن بها زاد سلطانها توطيداً وجعل كل لهجات العرب تتضاءل أمامها حتى صارت فى حكم المعدوم .

وكانت الكتابة معروفة عند العرب ولكنها قليلة الانتشار لأن انتشار الكتابة يتبع قيام مجتمعات منظمة وهو ما لم تكن الطبيعة تساعد العرب عليه ، وكان عرب الجنوب يكتبون خطاً منفصل الحروف شبيهاً بالكتابة الحبشية يعرف بالمسند الحميرى ، وقد نقشوه على حجارة كثيرة كشفت عنها التنقيبات الأركيولوجية فى العصر الحديث ، أما عرب الشمال فانهم كانوا أجهل بالكتابة من اخوانهم سكان الجنوب ، وكان خطهم يدعى بالجزم لأنه اقتطع من الأرامى النبطى ، ولم يتحول من صورته النبطية البحتة الى صورته العربية المعروفة الآن الا قبل الاسلام بقليل ، ولم يكن يعرفه منهم الا أفراد قلائل من أهـل الحواضر معرفة لا تصل الى حد الجودة والاتقان ، ولذلك قلت الآثار المكتوبة به فلا يعرف منها الا آثار حوران .

ورغم أن العرب ظلوا فى جاهليتهم أميين لا يقرأون ولا يكتبون فان آدابهم من منظوم ومنثور بقيت محفوظة لاعتمادهم على الذاكرة وحفظ الرواة ، فقد كان لكل شاعر راوية يحفظ شعره ، وقد تكون قبيلة الشاعر كلها راوية له اذا كان موهوباً وشعره جيداً ، كعمرو بن كلثـوم الـذى كان يـروى معلقته بنو تغلب كلهم ، يرويها صغارهم عن كبارهم حتى عيب عليهم ذلـك وعيرهم الشاعر بقوله :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كـان أولهـم   ياللرجال لشعر غير مسؤوم !

غير أن الذاكرة لم تكن وحدها كافية لتسجيل الأدب العربى قبل الاسلام ووقايته من النحل ، فضاع منه بسبب ذلك الشيء الكثير ، كما أضاف اليه الرواة بعد الاسلام الشيء الكثير لأغراض دينية أو سياسية أو شخصية .

وجملة القول ــ كما يقول الأستاذ المرحوم أحمد حسن الزيات ــ فان المجتمع العربى خارج القبيلة كان مفككاً من الجهة السياسية والاقتصادية واللغوية ، مرتبطاً من الجهة الخلقية والعقلية والأدبية ، ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة ، كونوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم ، فان لغتهم وهى صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعانى التى تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينهما الا استوعبت أسماءه ورتبت أجزاءه ، ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه ، ولا يكون التمدن اللغوى الا بعد تمدن اجتماعي راق فى حقيقته وان لم يرق فى شكله ، عام فى أثره وان لم يعم فى أهله (130) .

---

130) تاريخ الأدب العربى ص 12 .

محمد رسول الله

كان المجتمع الانسانى على العموم والمجتمع العربى على الخصوص فى نهاية القرن السادس الميلادى بلغ الدرك الأسفل من الفوضى والانحطاط ، وسوء التربية وقبح السلوك ، وكانت الانسانية تتطلع الى رجل منقذ يخلصها من حمأة البغى والفساد التى كانت تتمرغ فيها سواء كان رسولا توحى اليه الشرائع من السماء ، أو مصلحاً لا يتنزل عليه الوحى ، ولكن يلهم بنظره الثاقب الى المقاصد والأهداف التى يبعث لها الأنبياء والرسل وهى اقامة نظام مؤسس على الحق والعدل والمصلحة بين الناس ، وتتوفر له الوسائل التى يقدر بها على فرض ذلك النظام واقناع الناس بالركون اليه والاستمساك به والضرب على أيدى الذين يشاقونه ويخالفون عن أمره .

وقد كان الخلاص هذه المرة على يد رجل عظيم جمع بين وحى السماء ورجاحة العقل وقوة الارادة وحسن الاقناع والتبليغ ، هو **محمد** بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي العربى .

ولد عليه السلام يوم 20 غشت سنة 570 بمكة المكرمة ، وكان والده عبد الله توفى وهو جنين فى بطن أمه السيدة آمنة بنت وهب الزهرية ، وفى يوم سابع ولادته نحر جده عبد المطلب الجزور ودعا وجهاء قريش فحضروا وطعموا ، ولما علموا انه سمى حفيده **محمداً** وهو اسم لم يكن مالوفاً عند العرب سألوه لم رغب عن أسماء آبائه ؟ فقال أردت أن يكون محموداً فى السماء لله ، وفى الأرض لخلقه .

ودفعت آمنة وليدها الى حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية لترضعه ، فقد كان من عادة أشراف العرب المتبعة أن يبعثوا أبناءهم الى البادية فى اليوم الثامن من مولدهم فلا يعودون الى الحاضرة حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ،

وكان لمراضع **بني سعد** شهرة عند أشراف مكة لحدبهن على الأطفال الذين يرضعنهم وعنايتهن بهم وحسن تربيتهن لهم ، فنشأ **محمد** بن عبد الله في بيت حليمة وزوجها الحارث بن عبد العزى ببادية بني سعد ، وكان بيت فقر وضعف حال ، فما كاد **محمد** يدخله حتى وجدت حليمة وزوجها خيره : سمنت غنمهما وزاد لبنها ، وبارك الله في كل ما عندهما ، وأقام هناك ينشق من جو الصحراء الطلق روح الحرية والاستقلال النفسي ويتعلم من بني سعد لغة العرب مصفاة أحسن التصفية حتى بلغ الخامسة من عمره فأرجعته الى أمه اثر حادثة شق الصدر التى طهر فيها قلبه ونظف ليتلقى رسالة الله خالصاً ويؤديها مخلصاً تمام الاخلاص صابراً على ما يلقى فى سبيل تبليغها من أذى ويبث فى طريقه من أحجار وأشواك .

وكفل عبد المطلب حفيده وكان يحبوه بعطف زائد ويغدق عليه كامل حبه ويسبغ جميل رعايته ، كان بنوه يجلسون حول فراشه قرب الكعبة اجلالا له ، فاذا جاء **محمد** استدناه وأجلسه معه على فراشه وربت على ظهره ، ولكن اليتم الذى صاحب شطره **محمداً** منذ ولادته أبى الا أن يكون تاماً وهو فى طفولته الباكرة ، فماتت أمه آمنة بالابواء عندما ذهبت به الى المدينة لزيارة أخوال جده من **بني النجار** ، ثم مات جده عبد المطلب ، فكفله عمه أبو طالب وأولاه حبه وعنايته ورعايته وحمايته التى استمرت بعد ذلك سنين طويلة الى أن مات ، وكان يفعل ذلك متأثراً مما يرى من نجابة ابن أخيه وذكائه وبره وطيب نفسه ، وصحبه معه الى الشام وسنه لا يعدو الثانية عشرة ، وعاش **محمد** مع عمه يقوم بما يقوم به من هم فى مثل سنه ، فاذا جاءت الأشهر الحرم أقام بمكة مع أهله أو خرج واياهم الى الأسواق القريبة منها يستمع انشاد أصحاب المذهبات والمعلقات ، ويصغى الى بلاغتهم فى غزلهم وفخرهم وذكر أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم ، ثم يعرض ذلك على بصيرته تنكر منه ما لا تسيغ وتقبل ما تراه جديراً بالقبول ، ويستمع الى خطب الخطباء ومنهم يهود ونصارى يعيبون على اخوانهم العرب شركهم ووثنيتهم ويدعونهم الى ما يعتقدون انه الحق من دين موسى ودين عيسى ، فيستفتى قلبه فى ذلك فيراه خيراً من عبادة الأصنام التى غرق فيها أهله ، وهكذا بدأ القدر يوجه نفسه الشريفة منذ نعومة

أظفاره الوجهة الصالحة ويهيئه لليوم العظيم ، يوم الوحى الأول حين أمره ربه أن يقوم بهداية الناس الى الحق والى صراط مستقيم .

وكما عرف **محمد** طرق القوافل التجارية بالصحراء مع عمه أبى طالب، وحضر مع أهله أسواق العرب واستمع الى ما يلقى فيها من خطب وأشعار عرف الحرب والقتال فى سنوات مراهقته ، فقد وقف الى جانب أعمامه فى حرب الفجار التى دامت أربع سنوات بين **قريش وهوازن** ثم انتهت بعدها الى صلح ، ثم حضر بدار عبد الله بن جدعان التيمى حلف الفضول الذى تعاقدت فيه قريش وتعاهدت على أن تكون مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ما بل بحر صوفة، وقد بقى **محمد** يذكر هذا الحلف بقية حياته ويقول عنه (ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار عبد الله بن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت به لأجبت) .

وخلال فتوته ومراهقته وبداية شبابه لم يشترك **محمد** فى شىء مما كان يفعله الشبان فى سنه من تجارة وربى وشراب وتسرى ولم يأخذ من ألوان اللهو بنصيب كبير ولا صغير، ولم يكن ذلك منه عن عجز بدنى أو ضعف مادى، بل نشأ عن رغبة نفسه التائقة الى الكمال عن اللهو وتشوفه الى نور الحياة المتجلى فى كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها ، ولذلك دعاه أهل مكة جميعاً بالأمين لأنه ظهر منذ صباه بمظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس ، وعرف بثقوب الذهن وحصافة الرأى وعفة الجوارح واطالة التأمل والتفكير .

واشتغل **محمد** برعى الغنم لأهله وأهل مكة ، وكان يذكر رعيها مغتبطاً ويقول : (ما بعث الله نبياً الا راعى غنم) ويقول : (بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو يرعى الغنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد) ، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره استأجرته خديجة بنت خويلد الأسدية للاتجار بمالها فى الشام ، فسافر مع غلامها ميسرة وباع واشترى وربح ، وأسر قلب ميسرة بحلو شمائله وجميل معاشرته ، ولما عادا حدث ميسرة مولاته عن رقة شمائله وسمو نفسه وما شاهد خلال سفره معه من الخوارق والارهاصات العجيبة فرغبت فى الزواج منه ، وتم لها ذلك رغم فارق السن بينهما ، فبدأت صفحة جديدة من حياة **محمد** : صفحة الزوجية الموفقة الهنية ، والأبوة التى تحس بالآلام لفقد الأبناء مثل احساس **محمد** بالآلام فى الصغر لفقد الآباء .

وأقام **محمد** في بيت خديجة وقد أغناه الله بالزواج منها يشارك بنصيب في الحياة العامة بمكة ، فشارك في اعادة بناء الكعبة بعد ما صدع سيل جدرانها، وحكم بين بطون قريش عندما اختلفوا على من يضع الحجر الأسود في مكانه ، وقرت عينه بولادة ابنين وأربع بنات ، ولكن موت الابنين ترك في نفسه ونفس زوجه ما يتركه الموت في نفس كل أب وكل أم من أثر عميق ، ولما بدأ يدنو من الأربعين من عمره صار يتحنث في غار بأعلا جبل حراء الذي يبعد عن مكة فرسخين الى جهة الشمال فكان يقيم فيه طيلة شهر رمضان ممعناً في التأمل والعبادة ملتمساً الحق مكتفياً بالقليل بعيداً عن ضوضاء النـاس ومشاكل الحياة ، وبعد سنوات من انشغال نفسه بالحقائق العليا بدأ يرى في نومـه الرؤيا الصادقة الذي يظهر اثناءها أمام بصيرته نور الحقيقة التي ينشد ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها ، حتى اذا بلغ الأربعين كانت نفسه الشريفة خلصت من الباطل كله وامتلأت ايماناً ويقيناً ، واتجه الى الله بكل روحه أن يهدي قومه بعد ان تاهوا في دروب الضلال ، وبينما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك في يده صحيفة ، فقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويكرر عليه الأمر ثلاث مرات ، ثم قال له : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) ، فقرأها وانصرف عنه الملك ، وقد نقشت الآيـات في قلبه ، وكان ذلك بداية نزول القرآن وظهور دين الاسلام .

واستيقظ **محمد** رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه فزعاً مضطرباً، ونزل الى بيته يرجف قلبه ويضطرب خوفاً وهلعاً ، فهدأت خديجة روعه وأزالت مخاوفه ، وانطلقت بعد ذلك الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان شيخاً مسناً مطلعاً على أخبار الأنبياء ، فحكت له ما رأى زوجها وما سمع ، فأخبرها انه نبي هذه الأمة ، وأمرها أن تطلب منه الصبر والثبات ، فأشرق نور الايمان على قلبها وكانت أول المؤمنين بالدين الجديد .

وتتابع نزول الوحي بعد فترة انقطاع قصيرة ، واضطلع الرسول الأكرم بمهمة التبليغ ، وأسلم له قليل من أشراف مكة وبعض مستضعفيها من غرباء وموالي وعبيد ، بينما كفر به أغلب قريش وألحقوا به وبأصحابه من الأذى

ما تقشعر لذكره الجلود ، مع أن الرسالة التي جاء بها رسالة حق وخير تقوم على الايمان بالله واحد لا شريك له ، وعلى العمل الصالح الذى يضمن للانسانية حياة فضلى ويجعل أفرادها يعيشون متساوين متحابين متعاونين ، وقد كان من الصعب على مجتمع قبلي متعصب أن يتخلى بسهولة عما ألفه من معتقدات وعادات ، ويقبل أداء حق الله في النفس والمال ، ويسيغ تسوية العبيد والاشراف ، وأخذ نصيب من مال الأغنياء ليرد على الفقراء ، فصبر النبي عليه السلام كل الصبر وصحابته الأولون على الأذى والعذاب ، وبذل جهده في الدعوة والاقناع ، ولكن أشراف مكة لم تزدهم الدعوة الا عتواً ونفوراً خصوصاً عندما يتعلق الأمر بثلب آلهتهم وتسفيه أحلامهم التي تقبل عبادة أحجار يصنعونها بأيديهم ولا تطيق لهم نفعاً ولا ضراً ، وبعد ما قضى اثنتى عشرة سنة في مكة داعياً مرشداً دون كبير جدوى هاجر الى يثرب التي كان الاسلام فشا في أهلها من **أوس وخزرج** ، وكان وصوله اليها يوم الاثنين 20 شتنبر سنة 622 م (8 ربيع الأول) وعمره يومئذ 53 سنة ، فكانت الهجرة بداية التاريخ الذى شرع المسلمون يؤرخون به فيما بعد على عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

وفي يثرب التي أصبحت تدعى بالمدينة تنفس النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الصعداء ، وزالت المعوقات التي كانت تحول بينه وبين نشر الدعوة بين العرب من غير قريش ، فبدأ ينظم جماعة المسلمين تنظيماً محكماً معتمداً على توفيق الله وما منحه من مهارة في تأليف النفوس ولفها حول المثل العليا وتوجيهها نحو المقاصد المحمودة ، ومع أنه وجد أمامه عوائق أخرى في المدينة من منافقين ويهود فانه استطاع التغلب عليها وازاحتها من طريقه بالتدريج ، وبينما كان الوحي يتنزل بالشرائع والأحكام في المدينة كان لابد من الاستظهار بالقوة للدفاع عن النفس وحياطة الدين الجديد بسياج من الوقار والاحترام ، وقد نشبت سلسلة من الحروب بين حزب النبي وحزب الكافرين به حقق فيها المسلمون عدة انتصارات من أعظمها انتصارهم على كفار مكة في معركة بدر التي باءت فيها قريش بخزى الهزيمة وعلا بعدها شأن النبي بين العرب وطار صيته كل مطار ، وقد كان الرسول يعاني ما يعاني في ترويض النفوس الجامحة وسياسة الناس الذين شبوا على الفوضى وألفوا الأنانية ،

ولكنه عليه السلام كان يذلل فى النهاية كل صعب ويلين كل جعد بما أوتى من الحكمة والاستقامة والفهم العميق للطبيعة البشرية ، ولما انتشرت دعوته وكثر أتباعه من العرب فكر عليه السلام فى الاتصال بالشعوب الخارجية لأن دعوته السامية ورسالته الخالدة لا تخص العرب وحدهم بل تشمل الانسانية جمعاء ، فأوفد على الملوك والأمراء والولاة رسلا يحملون اليهم رسالات تتضمن دعوتهم الى الاسلام وتحذيرهم من عاقبة الرفض والجحود ، فكان منهم من قبل الدعوة ومنهم من ردها رداً حسناً ومنهم من ردها رداً سيئاً ، وما زال أمره عليه السلام يعظم حتى أمكنه فى السنة العاشرة من هجرته أن يفتح مكـة ويطهرها من الأصنام والأوثان ويقر بين أهلها دين التوحيد، واثرها وفدت عليه وفود العرب مسلمة من القاصية والدانية ، فحج عليه السلام بالمسلمين حجة الوداع التى كمل فيها الدين وانتهى الوحي وساد الاسلام كل مكان بالجزيرة العربية ، وبعدها بقليل شعر عليه السلام بحمى تنتابه ، فاستأذن نساءه أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له ، وما زال يتقلب به على فراش المرض حتى التحق بالرفيق الأعلا من الجنة يوم الاثنين 8 يونيو سنة 632 (12 ربيع الأول عام 11 هـ) راضياً مرضياً .

لقد كان **محمد** عليه الصلاة والسلام أكرم رجل انجبته الانسانية وأعظم مصلح عرفته الدنيا ، وكان ظهوره من أعظم الأحداث التى سجلها العالم خلال تاريخه الطويل ، كما كان الدين الذى جاء به خاتم الأديان السماوية التى كان الحق سبحانه وتعالى يعين بها البشرية قبل أن تستكمل نموها الفكرى على تنظيم مجتمعها ، وسيبقى دين **محمد** فى عنق كل نسمة انسانية وحـق احترامه واجباً عليها مهما امتدت الايام وتطاولت السنون لما أسدى لها من الخير ودلها على الصراط المستقيم .

عليه الصلاة والسلام .

بداية الاستيطان العربي بالمغرب

لا أنوى أن أعيد فى الصفحات التالية ما سبق لى الحديث عنه من أخبار الفتح العربي لبلاد المغرب فى الفصل الثانى من هذا القسم (131) وانما أبغي الحديث فيها عن بداية استقرار العرب فيه واستعراب أهله ، سواء كانوا بحال جنود وموظفين يثبتون سلطة الخلافة الاسلامية فى ربوعه ويديرون اموره العمومية ويؤمنون مسالكه وطرقه ، او كانوا بحال تجار ورجال أعمال يمشون في مناكبه ابتغاء المال الكثير والربح الوفير ، أو كانوا بحال قبائل وعشائر استهواها ما سمعت عن سعة أرضه وخصب تربته وجمال طبيعته فشدت اليه الرحال وسارت بقضها وقضيضها تطوى الأرض اليه طياً حتى ألقت به عصا التسيار ، وطاب لها بين أهله المقام والاستقرار .

ومن نافلة الكلام ان نقول ان هذا الاستقرار مضافاً اليه انتشار الاسلام بين قبائل البربر كان أعظم حادث سجله تاريخ المغرب الطويل ، فقد كان من نتائج الأول امتزاج سكانه الأصليين بالعناصر العربية امتزاجاً وثيقاً واصطباغهم بصبغتها وتكلمهم بلغتها واستئناسهم الى ثقافتها ومدنيتها ، وكان من نتيجة الثانى اعتناقهم من غير استثناء لعقيدة سماوية ملأت قلوبهم وشغلت عقولهم ووجهت تفكيرهم وتصرفهم ، وهو أمر لم ينجح فيه فاتحون غير العرب فى قديم أو حديث .

ولقد بدأ تطلع المسلمين الى الاستيلاء على المغرب فى فجر الخلافة الباكر ، اذ لم يكد عمرو بن العاص يفرغ من فتح مصر حتى بدأ يعد العدة لفتح الأقطار التى تليها غرباً ، وكان قواده وجنوده يميلون الى مواصلة الفتح ونشر

(131) أنظر صفحة 106 من هذا الجزء .

كلمة الاسلام في أقطار جديدة وبين قوم آخرين غير الذين دانوا لحكمهم بوادى النيل ،وزاد في حماسهم وتقوية عزائمهم ما وجدت طلائعهم الأولى التي اتصلت ببلاد المغرب في سكانها من دعة ومسالمة ، وما أحرزت من مغانم ومكاسب بأقل جهد .

وكانت القبائل البربرية التي واجهها المسلمون لأول احتكاكهم ببلاد المغرب هي **لواتة** و **نفوسة** و **نفزة** و **هوارة** التي أسلست لهم مقادتها وأطاعتهم بسهولة وسارت معهم تدلهم على الطرق وتعينهم على الروم الذين انحصرت فيهم المقاومة بالمدن لأول الفتح ، وأظهر بربر برقة بالخصوص منتهى الاخلاص للحكم الجديد حتى ذكر البلاذرى من حديث محمد بن سعد عن الواقدى عن مسلمةبن سعيد عن اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : أنهم كانوا يبعثون بخراجهم الى والى مصر من غير ان ياتيهم حاث أو مستحث ، فكانوا أخصب قوم في المغرب (132) .

وتفيد بعض الروايات ان اخلاص بربر برقة للحكم الاسلامي لم يكن نتيجة غزو وفتح وانما كان نتيجة ايمان واقتناع سبقا دخول العرب الى بلاد المغرب ، فقد روى الشطيبي أنهم أرسلوا رسلا منهم الى عمرو بن العاص قبل أن يخلص من فتح مصر يعرضون عليه الدخول في الاسلام على يديه ، فاستطاع عمرو أن يفهم منهم ما يريدون بواسطة ترجمان نقل اليه كلامهم ، فأرسلهم الى عمر بن الخطاب الذى رحب بهم أجمل ترحيب لأن أحد الحاضرين أخبره انهم البربر أولاد بر بن قيس عيلان (133) فسألهم عمر بن الخطاب عن عاداتهم وعلاماتهم فلما أخبروه بها بكى لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد تنبأ بفتح بلاد لأهلها هذه الصفات ، ثم حمد الله على ذلك ، وبعث الى عمرو يأمره ان يقدمهم على الجند ، وأعادهم الى بلادهم مكرمين محملين بالهدايا (134).

---

132) فتوح البلدان ص 224 .

133) ذكر ابن خلدون أن البربر الذين وفدوا على عمر بن الخطاب استنسبوا فذكروا انهم من أولاد مازيغ . أنظر ص 264 من هذا الجزء .

134) الجمان في أخبار الزمان لمحمد الشطيبي المغربي . (نسخة مخطوطة) .

ومثل ذلك يحكي عن صولات بن وزمار أميرمغراوة الذى هاجر الى المدينة المنورة أو أشخص اليها عند ما وقع أسيراً بين أيدى العرب لأول الفتح فاجتمع بأمير المؤمنين عثمان بن عفان وأسلم على يديه وحسن اسلامه ، فمن عليه عثمان ولقاه براً وقبولا لمكانه من قومه ، وعقد له على عمله فاختص صولات هذا وسائر أحياء مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بنى أمية ، وكانوا خاصة لهم دون قريش ، وظاهروا دعوة المروانيين بالأندلس رعياً لهذا الولاء ، كما اختصت قبائل صنهاجة بالولاء لعلى بن أبي طالب وكان لها مقامات صدق فى نصرة بنيه والدفاع عن دعوتهم خلال القرون الأولى لظهور الاسلام بأرض المغـرب .

وقـد حار المؤرخون فى تعليل خضوع البربر للعـرب دون حـرب ومبادرتهم الى ارسال الخراج بأنفسهم دون أن يستحثهم حاث أو يدخل بلادهم جاب ، فمنهم من عزا ذلك الى خوفهم من قوة العرب التى عرفوا بها من غاراتهم الأولى ثم من الطليعة التى أرسلها عمرو الى بلادهم بقيادة عقبـة بن نافـع ، ومنهم رأى ذلك الخضوع نتيجة حتمية للحكم البيزنطى الذى أنهـك قواهـم وصيرهم فى حالة عجز كامل عن المقاومة ، ولكن أحداً من المؤرخين الأوربيين على الخصوص لم يعز ذلك الخضوع الى العدل الذى ساس به المسلمون البربر والرحمة التى وجدها هاؤلاء فى كنفهم الشيء الذى جعلهم يرون فيهم هـداة منقذين لا غزاة فاتحين .

وسار المسلمون يفتحون أرض برقة وطرابلس قرية قرية ومدينـة مدينة ، وانحصرت المقاومة فى البيزنطيين الذين اعتصموا ببعض المـراسى الساحلية والحصون الداخلية ، ومال البربر الى جانب المسلمين وقاتلوا فى صفوفهم ولم يقفوا موقف المتفرج كما فعل قبط مصر اثناء اقتتال المسلمين والروم ، وكان من المتوقع أن يسير الفتح بسرعة عظيمة ويصل المسلمون الى المحيط الأطلسى فى أقصر مدة لولا أن منع عمر بن الخطاب واليه عمرو بـن العاص من مواصلة الزحف على افريقية بدعوى انها مفرقة غادرة مغدور بها ، فاضطر قائد الجيش الاسلامى الى الرجوع الى مصر من البلاد التى فتحها تاركاً حبل أمرها على الغارب .

على أن هذا التوقف لم يطل لحسن الحظ أمده ، اذ لم تمر الا فترة يسيرة على خلافة عثمان بن عفان حتى عزل عمراً بعبد الله بن سعد بن أبى سرح، فبدأ والى مصر الجديد بمجرد وصوله اليها يتشوف الى العودة الى المغرب لاتمام ما بدأه سلفه من الفتح ، وصار يبعث المسلمين فى جرائد من الخيل فيصيبون من أطراف افريقية ويغنمون ، ثم كتب الى الخليفة يستأذنه فى السير اليها ويستمده ، ويظهر أن عثمان اهتم بالأمر اهتماماً عظيماً ، فبدأ يستشير الصحابة ثم جمع أكابرهم فزينوا له مواصلة الفتح ، فاستنفر حينئذ المسلمين من جميع الجزيرة العربية لغزو افريقية فاستجابوا له وبدأوا يتوافدون زرافات ووحداناً على الجرف ، وهو مكان يبعد ثلاثة أيام عن المدينة ، وأعان الخليفة الجيش الغازى بألف بعير من ماله الخاص يحمل عليها ضعفاء المجاهدين ، وفرق السلاح وحمل على الخيل ، وأمر للناس بالأعطيات .

ومن حسن الحظ أن النصوص التاريخية حافظت لنا على أسماء كبراء الصحابة وأعداد مجاهدى القبائل الذين انضموا الى هذا الجيش المعروف فى كتب التاريخ بجيش العبادلة لاشتراك عدد من الصحابة المشهورين فيه يسمى كل واحد منهم بعبد الله ، فهم العناصر العربية الأولى المعروفة أصولها التى دخلت الى بلاد المغرب وكان لها فى مشارفه استقرار ، وفى بداية تعرب أهله أيد وآثار ، فممن كان هذا الجيش يشمل عليه :

- **بنو هاشم** : عدة فى مقدمتهم عبد الله بن عباس وعبيد الله بن عباس .
- **بنو تيم** : عدة فى مقدمتهم عبد الله بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن طلحة .
- **بنو عدى** : عدة فى مقدمتهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن زيد بن الخطاب .
- **بنو أسد** : عدة فى مقدمتهم عبد الله بن الزبير .
- **بنو سهم** : عدة فى مقدمتهم عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد المطلب بن السائب بن وداعة .

- **بنو امية** : عدة في مقدمتهم مروان بن الحكم وأخوه الحارث .
- **بنو زهرة** : عدة في مقدمتهم المسور بن مخرمة بن نوفل وعبد الرحمان بن الأسود بن عبد يغوث .
- **بنو عامر** : عدة في مقدمتهم السائب بن عامر بن هشام وبشر بن أرطاة .
- **بنو هذيل** : عدة منهم أبو ذؤيب خويلد بن خالد الشاعر ، وعبد الله بن أنس ، وأبو ذر الغفارى ، ومعاوية بن حديج ، ورويفع بن ثابت ، وأبو زمعة البلوى ، وعقبة بن نافع الفهرى .
- **جهينة** : 600 مجاهد .
- **أسلم** : 300 مجاهد .
- **مزينة** : 800 مجاهد .
- **بنو سليم** : 450 مجاهد .
- **بنو الديل** } 500 مجاهد .
- **ضمرة** }
- **غطفان** }
- **اشجع** } 700 مجاهد .
- **فزارة** }
- **بنو كعب** : 400 مجاهد .

وقد تضخم عدد هذا الجيش الذى فصل عن الجرف في شهر اكتوبر سنة 647 م (محرم 27 هـ) بمن انضم اليه من الجند الذى كان مقيما بمصر حتى بلغ 20 الفاً ساروا جميعا مع عبد الله بن سعد الى افريقية وهزموا الروم وقتلوا قائدهم كريكوريوس (جرجير) بمكان قريب من سبيطلة ، ثم حاصروا فلولهم المنهزمة بحصن الجم ، لكن هذا الانتصار لم يكن من عواقبه استيطان العرب فى افريقية ولو بحال حاميات عسكرية ، لأن عبد الله بن سعد رجع الى مصر بعد ان صالحه الروم على مال مشترطين عليه أن يرحل بمن معه من العرب، فلم يول على البلاد التى فتحها أحداً ولم يتخذ بها قيروانا .

ومن القصص الطريفة التى يوردها المؤرخون لدى كلامهم على معركة سبيطلة أن جرجير قائد جيش الروم أمر منادياً أن ينادى في الجيش : من قتل عبد الله بن سعد فله مئة الف دينار وأزوجه ابنتى ! وكانت فتاة جميلة تجيد الرماية وركوب الخيل ، فلما سمع عبد الله بن سعد النداء رد عليه بالنداء فى معسكر المسلمين : ان من قتل جرجير من المسلمين فله ابنته ومن معها ، فيقال انها صارت بعد هزيمة الروم لعبد الله بن الزبير ، ويقال انها خرجت فى سهم رجل من الأنصار ، فانصرف بها قد حملها على بعير له وجعل يرتجز :

يا ابنة جرجير تلقى نحلتك   لقيت بالنحلـة ثكلى أبتـك
لتاخذن فى الطريق عقبتك   لتسقين شر مـاء قربتـك
شر عجوز بالحجاز ربتك !

قالت : فما يقول هذا الكلب ؟ فاخبرت بذلك ، فألقت بنفسها عن البعير الذى كانت عليه فدق عنقها فماتت !

وسواء صحت هذه القصة أم لم تصح فقد أحببت ذكرها هنا لأنها تمثل من جهة عزة النفس ، وتسجل لنا من جهة أخرى أول شعر معروف قاله العرب وهم يفتحون بلاد المغرب .

وتوقف الفتح والاستيطان بعد الصلح ورجوع عبد الله بن سعد ، ولكن البلاد المفتوحة أولا (برقة وطرابلس) ظلت على ولائها للمسلمين حتى في سنوات الفتنة والتنازع على الخلافة بين على ومعاوية ، ولم تسجل حركات معادية ولا نقض للعهود فى الأراضى التى صالح عليها الروم المسلمين فى جنوب القطر التونسي ووسطه ، فلما نفض المسلمون أيديهم من الخلاف بعد مقتل على وتملك معاوية ، وأعيد عمر بن العاص الى ولاية مصر استأنف هذا الفتوح وأرسل الى افريقية معاوية بن حديج على رأس جيش اسلامى يتركب من عشرة آلاف جندى فيهم عدد من كبار الصحابة والتابعين كعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الملك بن مروان ، ويحيى بن الحكم بن أبى العاص ، وعدة من أشراف قريش ونفر كبير من جند مصر ، فتغلب على جيش بيزنطى أرسل حديثا اليها ، وتقدم شمالا حتى أفضى

الى سهل تونس ، ونزل فى مكان يسمى القرن اتخذه مركزاً لأعماله ، بنى فيه دوراً وحفر آباراً سميت بآبار حديج ، وهو من الأسماء العربية الأولى التى دعيت بها أمكنة بأرض المغرب ، وكانت الأخبار استفاضت يومئذ بين البربر عن عدل المسلمين ورحمتهم ، فكانوا يرحبون بمقدمهم أجمل ترحيب ، سيما وان الجيش الاسلامى كان يضم عدداً من اخوانهم بربر مصر وبرقة الذين كانوا يتكلمون لغتهم ويطلعونهم بواسطتها على فضائل الاسلام ويزينون لهم الايمان به ليرتفع مستواهم وينالوا خير الدنيا والآخرة .

ولما أسندت القيادة العامة الى عقبة بن نافع سنة 670 (50 هـ) وسار الى افريقية في عشرة آلاف فارس منهم 25 صحابيا أمعن النظر فى سياسة الفتح وعواقبها ، ورأى أن الغرض الأسمى ليس هو تحقيق النصر والاستيلاء على الغنائم ولكنه التمكين لدين الله بين سكان البلاد المفتوحة وتوطيد أركان الحكم الاسلامى فيها ، غير أن ذلك لا يتأتى بغارات منقطعة، وانما يتأتى باقامة مستمرة فيالبلاد المفتوحة وانشاء مدن اسلامية عربية بين البربر ينطلق منها الاشعاع الديني والثقافى اليهم ، وتنتهى معها حالة الشك والتردد التى كانت تجعل الطائعين منهم يسلمون عند ظهور القوة العربية ويكفرون عند مغيبها ، يضاف الى ذلك ان القوات الاسلامية وقد سيطرت تقريبا على القطر التونسى اصبحت بعيدة جداً عن مراكز انطلاقها ومخازن أمدادها فلم يكن بد من تأسيس مدينة اسلامية تكون مقر الادارة والقيادة على غرار المدن التى أنشأها المسلمون بالمشرق كالبصرة والكوفة بالعراق والفسطاط بمصر ، ليمكن بعد تأسيسها مواصلة الفتح والتوغل فى داخلية المغرب .

وقد استشار عقبة أصحابه فى الأمر وعبر لهم عن الدوافع التى تحفزه الى بناء هذه المدينة قائلا لهم : (ان افريقيا اذا دخلها امام تحوم أهلها بالاسلام ، فاذا خرج منها رجع من كان أسلم بها وارتد الى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً وتكون عز الاسلام الى آخر الدهر) ومن الطبيعى ان يعجب اصحاب عقبة بالفكرة ويتحمسوا لها ، لأنهم بالاضافة الى الأسباب السياسية والستراتيجية كانوا شديدى الشوق الى اقامة

أسرهم وحفظ متاعهم بمدينة حصينة قريبة من مجالات غزوهم ، بل بلغ بهم الحماس الى الاتفاق على ان يكون أهلها مرابطين فيها واقترحوا تقريبها من البحر ليتم لهم أجر الجهاد وأجر الرباط ، ولكن عقبة ارتأى أن يكون موقع المدينة وسطاً بين الساحل والداخل حتى لا تكون عرضة لهجمات الأساطيل البيزنطية وغارات البربر ، واختار بنفسه الموقع واختط فيه مدينة القيروان وأشرف على بنائها مدة أربع سنوات (I ـ 675) كان خلالها يغزو ويبعث السرايا ، فدخل في الاسلام كثير من البربر واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت فيها الاسلام (I35) .

ويظهر أن رجال الحكم في دمشق لم يرضوا عن انصراف عقبة الى بناء القيروان رغم أن عمله كان رشيداً واستبطأوا وصول الغنائم والأسلاب التى كانت لا تخلو من روميات وبربريات جميلات ، فعزلوه بأبى المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد والى مصر الجديد الذى أساء معاملته ، ولكنه سلك سياسته في توطين العرب بصفة دائمة بافريقية ، ويقال انه نزل بقرية بربرية قرب القيروان تسمى تكرور أو تيكروان (I36) فبنى فيها ومصرها وجعل منها مدينة ثانية للعرب بالمغرب ، ومما يؤثر لأبى المهاجر انه عدل عن خطة عقبة السياسية والعسكرية التى كانت تتسم بشىء من الصرامة وجنح الى سياسة الرفق واللين والمداراة فاستطاع بها أن يستميل البربر ويصل فى حملاته الى تلمسان حيث اكتسب كسيلة زعيم **أوربة** للاسلام واتخذه حليفاً وعاد به الى القيروان .

وبعد سبع سنوات عزل أبو المهاجر بعد ما مهد المغرب الأوسط بحسن سياسته ومهارة قيادته وكثر الاختلاط بين العرب والبربر ، وبدأ الزواج المختلط يؤتى ثمرات طيبة من نوع طارق بن زياد ، وأعيد عقبة بن نافع الى افريقية من جديد سنة 682 فجدد بناء القيروان وشيدها فعمرت وعظم شأنها ،

I35) أسد الغابة لابن الأثير 3 : 184 .

I36) ذكر بعض المؤرخين ان تيكروان بربرة كلمة قيروان المعربة .

ثم عزم على المسير الى المغرب الأقصى لنشر الاسلام بين أهله نابـذاً سياسة الموادعة والمداراة التى سلكها أبو المهاجر ونجح فيها غاية النجاح ، وقـد نصح أبو المهاجر عقبة بعدم المسير بنفسه والاكتفاء بتوجيه وال الى طنجة قائلا : (ليس بطنجة لك عدو ، لأن الناس قد أسلموا ، وهذا رئيس البلاد ـ يعنى كسيلة ـ فابعث معه واليا (137) ولكن عقبة أبى الا أن يخرج بنفسه مضيعاً بذلك فرصة كبرى لنشر الاسلام والعروبة بسرعة ودون كبير عنـاء ، فسار على رأس جيش قوامه 15.000 جندى مخلفاً بالقيروان حامية صغيـرة تحت قيادة زهير بن قيس البلوى ، فافتتح مدن الزاب وحصونه مثل باغاية والمسيلة ، وكان القتال يجرى مع الروم وحدهم ، ويظهر أن سياسة الشدة التى سلكها عقبة جعلت جماعات من البربر تميل الى الروم ، فانه لم يكـد يصل الى تيهرت حتى وجد نفسه أمام حلف كبير من الروم والبربر لم ير المسلمون له مثيلا من قبل ، ولكنه تغلب عليهم جميعاً بعد جهد جهيـد وتوغـل فى المغرب الأقصى حتى بلغ طنجة ، فسارع يليان صاحب تلك النواحى الى خطب وده ، ثم ذهب عقبة الى وليلى وتامسنا وقطع جبال درن الى السوس الأقصى وانتهى الى وادى درعة وصحراء تافيلالت ، ولما انقلب راجعاً وبلغ مدينة طبنة سرح الجيش الى القيروان وبقى فى لمة من أصحابه ، وهنالك انقلب عليه كسيلة الذى كان يمعن فى اهانته خلال المسير مخالفاً عن أمر أبى المهاجر ، فحشد أهله وبنى عمه واعتـرض عقبة قرب قريـة تهودة فدافع وأصحابه حتـى استشهدوا سنة 683 ، وكان لهذه الهزيمة أثرها البعيد بالنسبة لاستيطان العرب ببلاد المغرب ، فقد فر من القيروان جيش مصر بقيادة حنش بن عبد الله الصنعانى لا يلوى على شىء ، وانسحب بعد ذلك جماعات أخرى من الجنـد والعرب والموالى البربر الى طرابلس بقيادة زهير بن قيس البلوى الذى كان يميل الى الاقامة والقتال ، ومشى كسيلة الى القيروان فدخلها وتأمر على من بقى بها من الشيوخ والنساء والأطفال ، وعاملهم معاملة طيبة لأنه لم يرتـد عن الاسلام على ما يظهر ، وتقلص بدخوله اليها النفوذ العربى فى افريقية وما وراءها من أرض المغرب .

---

137) رياض النفوس للمالكى ص 26 .

ولم تفد الحملة التأديبية التى قام بها زهير بن قيس ضد كسيلة بعد ذلك بأربعة أعوام (688 م) وقتله فيها قرب ممش شيئاً فى اعادة المد العربى الى افريقية وان ضمن بها الأمن للقيروان وأبعد عنها الأخطار ، فقد اضطر الى الرجوع الى برقة لما بلغه خروج اسطول رومى كبير من صقلية وارسائه على ساحلها ، واثناء هذا الرجــوع ارتكب نفس الغلطة التى ارتكبها عقبة قبله عند رجوعه من المغرب الأقصى، فقد سلك الطريق الساحلى مع سبعين من جنوده تاركاً معظم الجيش سائراً فى الطريق العام ، ولما أبصر جنود الروم يحملون سبى المسلمين من نساء وأطفال الى سفنهم خاض لانقاذهم معركة غير متكافئة كان فيها حتفه .

ولا يعرف بدقة ما صارت اليه أحوال افريقية والمغرب فى فترة الأربع سنوات التى تلت مقتل زهير ، والظاهر ان القيروان بقيت اسلامية عربية لا تتعرض لأعمال عدائية من جانب الروم ولا من جانب البربر ، وان برقة استمرت كذلك يليها مولى لعبد العزيز بن مروان اسمه تليد ، فلما انتهت الأزمة الثانية للخلافة الاسلامية بمقتل عبد الله بن الزبير سنة 692 اتجه نظر الخليفة عبد الملك بن مروان الى المغرب ، فجهز جيشاً كبيراً عهد بقيادته الى حسان بن النعمان أحد مشاهير قواد الشام كما عهد اليه بولاية المغرب ، وهو أول قائد من أهل الشام يتولى الولاية والقيادة بالمغرب بعد ما كان الولاة والقادة قبله من جند مصر ، فسار حسان يجر وراءه جيشاً كثيفاً لم يدخل المغرب مثله من قبل ، اذ بلغ عدد جنوده 40 ألفا ، ولما بلغ طرابلس زاد عدده بمن انضم اليه من عرب افريقية وطرابلس، وبعد ما أصلح من شأنه وقبل الفصول عن طرابلس عين قائدين يسيران فى مقدمته أحدهما عربى : محمد بن أبى بكير ، والثانى مغربى : هلال بن ثوران اللواتى، ولاشك فى أن انضمام عرب طرابلس الى الجيش يدل على استقرار جاليات عربية بمدنها الساحلية وقراها الداخلية ، كما يدل تعيين قائد من البربر على تمكن الاسلام من قلوب أهل القسم الشرقى من البلاد المغربية وعلى المساواة التى كان يعامل بها المسلمون الآتون من الجزيرة العربية اخوانهم الذين أسلموا حديثاً على أيديهم . ومشى حسان حتى بلــغ القيروان وقد أضمر فى نفسه أن يطبق خطة عسكرية أساسها مقابلة أعدائه من

روم وبربر كل على حدة حتى يسهل عليه التغلب على مقاومتهم ، ثم توجه الى قرطاجنة عاصمة افريقية القديمة على رأس جيشه فضرب عليها الحصار حتى اشتدت الوطأة على الروم فطلبوا الأمان ولما أوقف القتال هربوا في المراكب فلم يصب الا قليلا من ضعفائهم ، وبالاستيلاء على قرطاجنة صفا له شمال تونس ، ثم عاد الى القيروان لعلاج المجروحين واعداد العدة للمعركة الجديدة ، وخلال استراحة الجيش بها انعقد حلف بين عدد من القبائل البربرية تحت زعامة امرأة بربرية من قبيلة **جراوة** تسميها الروايات العربية الكاهنة تارة ، ودهيا بنت ماتيت بن تيفان تارة أخرى ، والظاهر أن الكلمتين معا وصفان لا اسمان ، وكيفما كان الأمر فقد كانت امرأة عجيبة تختلط في اخبارها لغرابتها الحقيقة بالاسطورة . وعندما خرج اليها حسان منفذاً الشطر الثاني من خطته بدأت هي في تنفيذ خطة عسكرية أخرى تتلخص في تخريب البلاد على نطاق واسع تأييساً للعرب من المقام فيها ، وهي السياسة التي تعرف اليوم بسياسة الأرض المحرقة والتي لا يحجم القادة العسكريون في العصر الحديث عن تطبيقها اذا دعاهم داع ستراتيجي اليها ، فعندما اقترب حسان من حصن باغاية أمرت الكاهنة اتباعها بتخريبه حتى لا يعتصم به ويقيم به حامية عربية ، ثم التقى الجيشان على عدوتي وادي نيني أحد روافد وادي مسكيانة فانهزم حسان هزيمة منكرة وترك في ميدان القتال عدداً كبيراً من شباب العرب وثمانين أسيراً فسمي الوادي وادي البلاء أو وادي العذارى تذكيراً بالنكبة التي حلت بالمسلمين فيه .

وانسحب حسان الى ما وراء طرابلس حتى بلغ الى موضع قرب مدينة تاورغة يبعد 250 كلم عن طرابلس الى الشرق فأقام على آبار به سميت منذ ذلك العهد بآبار حسان ورمم بعض حصونه القديمة وبنى حصوناً جديدة . أما الكاهنة فيظهر انها لم تكن تحقد على المسلمين لأنها أطلقت اسراهم واستبقت منهم يزيد بن خالد الذي أعجبها جماله وشجاعته ورجاحة عقله فتبنته حسب التقاليد البربرية وجعلته مستشاراً لها ، ثم درست موقفها من العرب وعلمت أنهم لابد عائدون بعد حين كما فعلوا بعد الهزائم السابقة التي حلت بهم ، فقالت لمجلس شوراها : (ان العرب انما يطلبون من افريقية المدائن والذهب

والفضة ، ونحن انما نريد منها المزارع والمراعي فلا نرى لكم الاخراب افريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر (138) فقام اتباعها يعذقون الشجر وينسفون العمران ، وكانت افريقية كما يحدث التاريخ ظلا واحداً من طرابلس الى طنجة ، وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا اوصل بركات ولا اكثر مدائن وحصونا من اقليم افريقية والمغرب ، مسيرة ألفي ميل ، فخربت الكاهنة ذلك كله (139) وقد أسفر هذا التخريب عن نتيجة عكسية فان الذين أيسوا من المقام فى البلاد كانوا هم الروم الذين ركب اكثرهم السفن ورحل عنها للاستقرار الدائم فى صقلية واسبانيا وايطاليا ، اما العرب الذين كان قائدهم حسان يطلع على ما يجرى فيها بواسطة خالد بن يزيد متبنى الكاهنة ومستشارها فانهم عادوا اليها سنة 698 مع جماعة من البربر البتر فاستقبلهم من بقى بها من الروم بحفاوة ، وخرجوا اليهم مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، ولم يقصر البربر كذلك فى الاحتفال بعودة العرب والترحيب وتحيزوا اليهم بشكل ايجابى وأمدوهم بالرجال والأموال ، ولما قرب حسان من جبل أوراس حيث كانت تقيم الكاهنة انضم اليه ولداها باشارة منها على ما يذكر ، ثم دارت المعركة الفاصلة التى قتلت فيها الكاهنة وانخضدت شوكة المقاومة الأخيرة ضد المسلمين فتمهد الطريق لاستيطان العرب بصفة دائمة ببلاد المغرب ، وحسن اسلام البربر بعد أن ارتدوا ثلاث عشرة مرة .

ويعتبر حسان بن النعمان الفاتح الحقيقى للمغرب وأول منظم للحكومة الاسلامية فيه ، فهو لم يكتف بخضد شوكة المقاومين واقناعهم بعدم جدوى المقاومة والحرب فى صد المسلمين عما جاءوا الى المغرب لأجله وهو نشر دين الله واعلاء كلمته بين سكانه ، وانما اهتم بعد ان تم له النصر العسكرى بشؤون الادارة والعمران الشيء الذى استقامت معه الحياة فى بلاد عاشت سنين طويلة فى فوضى واضطراب لا مثيل لهما ، فهو الذى أسس مدينة تونس وأنشأ بها

---

138) البيان المغرب لابن عذارى ص 36 ط بيروت .

139) البيان المغرب ص 36 .

مرسى جلب له من مصر ألف قبطى بنسائهم وأولادهم وكلفهم بصناعة سفن الجهاد وعمارتها ، والتفت الى القيروان عاصمة الولاية الاسلامية الجديدة فجدد مسجدها ، كما أنه أول من (دون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقيــة وعلى من أقام معهم على دين النصرانية (140) ، واستألـف البربر بأن جند منهم 12.000 جندى عقد عليهم لابنى الكاهنة ، كل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهم مع العرب لتمهيد البلاد وقتال الكافرين ، ولم يكتف بذلك وباعطائهم حقهم من الغنائم ، بل رتب لهم أيضاً أعطيات تصرف لهم من بيت المال وأقرهم على ما بأيديهم من الأرض التى اعتبرها فتحت صلحاً لا عنوة ، وقسم المغرب خططاً لهم ، أى انه اختص كل قبيلة بخطة تتصرف فيها وتؤدى مالها وتكون مسؤولة عنها ، وباختصار لم تشهد بلاد المغرب واليا حكيماً ولا قائداً رحيماً بعد أبى المهاجر عرف كيف يستميل البربر ويستألفهم بحسن سلوكه الا حسان بن النعمان الذى سوى التسوية كلها بين العربى والبربرى ولم يعتبر أحدهما غالباً حاكماً والآخر مغلوباً محكوماً .

ومن الطبيعى أن تبقى فى هذه الأزمنة المبكرة جماعات من البربر غير مسلمة خاصة فى المناطق الجبلية بالمغربين الأوسط والأقصى ، وأن يكون اسلام من أسلم من البربر سطحياً فى معظم الحالات لانعدام لغة مشتركة للفهم والتفاهم ، فلا العرب كانوا قادرين على افهام البربر حقيقة الدين لجهلهم اللغة البربرية ، ولا البربر كانوا يستطيعون فهم تلك الحقيقة من العرب لعدم معرفتهم اللغة العربية ، أما الأمر الأول وهو اسلام من لم يسلم من البربر فقد عالجــه الولاة الذين جاءوا بعد حسان بن النعمان من موسى بن نصير الى ادريس بن عبد الله الكامل وابنه ادريس الثانى اللذين تم على أيديهما اسلام بربر المغــرب الأقصى ، واما المشكل الثانى فقد عالجه الخلفاء والولاة بانتخاب جماعة مــن فقهاء التابعين وانتدابهم لتعليم البربر القرآن وتفقيههم فى الدين ، وأول من فعل ذلك عقبة بن نافع الذى ترك بين البربر جماعة من الفقهاء يعلمون البربر احكام دينهم منهم صاحبه شاكر الذى ينسب اليه الرباط المشهور ، ثم موسى بن نصير متمم فتح الأندلس الذى انتدب عدداً من الفقهاء لتعليم البربر ، ومن الخلفاء عمر بن عبد العزيز الذىأرسل مع واليه اسماعيل بن عبيد الله المخزومى

---

140) البيان المغرب ص 38 .

عشرة من فقهاء التابعين انبثوا بين البربر يعلموتهم أصول الدين ويبصرونهم بأحكامه ، ويلقنونهم مبادىء اللغة العربية التى لا يمكن فهم القرآن والسنة حق الفهم الا عن طريقها ، وقد أخذ عن هؤلاء التابعين جماعة من أهل البلاد كانوا يقصدونهم للتعلم عليهم بالقيروان وغيرها ثم يعودون الى قبائلهم فيولون القضاء وغيره من الوظائف والخطط الدينية ، وقد ذكرهم المالكى فى رياض النفوس (141) .

ومما لا ريب فيه أن جميع العوامل كانت متوفرة لاسلام البربر كافة وتعربهم بسرعة وقيامهم بأكبر الأدوار فى نشر الدين خارج بلادهم منذ انتصار حسان بن النعمان على الكاهنة وخلال مدة ولايته التى سلك فيها أفضل السياسات لاستئلاف البربر واما لتهم الى جانب الاسلام والعروبة ، يدلك على ذلك ان الجيش الاسلامى الأول الذى دخل الأندلس كان يقوده قائد من أهل البلاد طارق بن زياد ، وان معظم جنوده كانوا بربراً (12.000) ولم يكن فيه من العرب الا ثلاثمئة أو أقل ، وقد كان النصر السريع الذى أحرزه جيش طارق حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين على عبور البحر والاشتراك فى الحرب والمساهمة فى الغنم الوفير ، كما أن غلبة الروح الدينى على الفتح واختلاط الجنود العرب الذين جاءوا بعد مع موسى بن نصير بالجنود البربر وتآخيهم فى ساحات القتال واقامة مراكز على طول الطريق بين القيروان وطنجة وسبتة لاستراحة الجند وخزن الميرة أدت كلها الى تثبيت اسلام البربر واظهارهم على العربية ، ومنذ ثم الفتح أخذ العرب يفدون بكثرة على الأندلس للحرب والسكنى مارين ببلاد المغرب مختلطين بأهلها ، فازداد كل فريق معرفة بالفريق الآخر ، ولم يعد العربى فى المغرب غريب الوجه واليد واللسان .

ولو بقيت الأمور تسير على ما كانت عليه أيام حسان لمشت حركة الاستيطان العربى واستعراب البربر بخطى سريعة ، ولكان من الممكن تعرب المغاربة قبل تعرب المصريين رغم قربهم من الجزيرة العربية ، ولكن حدثت بالمشرق والمغرب فى آن واحد احداث كان من عواقبها تضاؤل عدد المهاجرين

---

141) رياض النفوس ص 62 .

العرب الى المغرب وظهور مذاهب دينية انتهت بانفصاله عن خلافة المشرق سياسياً مع بقائه مستمسكاً بالدين الجديد .

أما أحداث المشرق فكانت تتمثل فى الخلافات الدينية التى قامت بين الشيعة والخوارج والخلافات السلالية التى قامت بين القيسية واليمنية ، والخلافات السياسية التى قامت بين العلويين والأمويين ثم بين هاؤلاء وبنى العباس ، وما نشأ عنها من انصراف الخلفاء عن التفكير فى المغرب وقلة الاهتمام بأموره .

وأما أحداث المغرب فكانت تتمثل فى هذا اللون الجديد من السياسة الذى أراد الولاة بعد حسان أن يطبقوه فيه جهلا وغروراً وترضية لرجالات الدولة بدمشق وبغداد الذين لم تكن مطامعهم تقف عند حد ، وضداً على جميع الأسس التى يقوم عليها الدين الاسلامى من عدل ومساواة ورفق بالناس واحترام لأنفسهم وأموالهم وصيانة لحريتهم وكرامتهم .

فقد أمعن موسى بن نصير فى جمع السبى من ذكور واناث ، حتى صار عبيده واماؤه من البربر والروم يعدون بعشرات الآلاف ، وقد اندهش الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموى لما أخبره موسى ان سبى سكوما — مدينة قبيلة **أوربة** — وحدها بلغ مئة ألف ، فكتب اليه : (ويحك ، أظنها احدى كذباتك ! فان كنت صادقاً فهذا حشر الأمم) !

ولم يقف عسف الولاة عند حد السبى وتوجيه الفتيات الجميلات بالمئين الى الخلفاء والأمراء والوزراء بالمشرق بل تجاوزه الى اهانة الناس ومعاملتهم بما يكرهون ، فقد بدا ليزيد بن مسلم لما قدم والياً على افريقيا سنة 722 م (103 هـ) أن يسم حراسه من البربر بميسم الذل ، فقام على المنبر خطيباً وقال : (انى رأيت ان اسم حرسى فى أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها ، فأرسم فى يمين الرجل اسمه ، وفى يساره حرسى ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فاذا وقفوا على أحد أسرع لما امرت به) ولكن هذا الوالى الذى وصفه المؤرخون بأنه كان ظلوماً غشوماً كان أيضاً جهولا

بنفسية البربر وما صار لهم من اعتزاز بالدين الجديد ، فلم يكد حرسه يعلمون بنيته حتى استاءوا مما عزم عليه وقالوا (جعلنا بمنزلة النصارى) فلما خرج من داره لصلاة المغرب قتله في مصلاه حرسي منهم يسمى حريز ، أما عمر بن عبد الله المرادى عامل طنجة من قبل عبيد الله بن الحبحاب فقد أداه الغرور الى التفكير في تخميس البربر زعماً منه أنهم فيء للمسلمين ، فكان فعله سبباً في حدوث ثورة عارمة ما زالت تعظم وتنمو حتى أدت بالمغرب الى الاستقلال عن حكامه الشرقيين .

والحق أن الولاة لم يكونوا دائماً صادرين فيما يرتكبون من الظلم والعسف عن غريزة شخصية ، وانما كانوا يدفعون في كثير من الأحيان الى العنف دفعاً من رؤسائهم بالمشرق ، فقد كان هاؤلاء يستحبون طرائف المغرب ويطلبونها من عمالهم بافريقية فيبعثون لهم البربريات السنيات ، فلما افضى الأمر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف وسوء السيرة كما يقول ابن عذارى (142) .

ومن أمثلة ظلم الولاة وجورهم التي ذكرها ابن خلدون أن الرؤساء بالمشرق كان يطلبون من ولاة المغرب اتحافهم بافرية عسلية الألوان فكسان هاؤلاء يتغالون في جمع ذلك من ماشية البربر ، حتى كانت الصرمة من الغنم تسهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم (143) .

والحق أيضاً أن البربر كظموا غيظهم وصبروا طويلا على الظلم احتراماً لهاؤلاء الذين هدوهم الى الدين وابقاء على رابطة الخلافة التي تجمع بينهم وبين سائر المسلمين ، وقد بلغت بهم الثقة بالخلفاء الى الدرجة التي كانوا يقولون معها لا نخالف الأئمة بما تجني العمال ، والى أنهم أرسلوا وفداً من عشرين رجلا برئاسة ميسرة المدغرى ليبلغ الى الخليفة هشام شكواهم التي كانت تتلخص

---

142) البيان المعرب ص 56 .

143) تاريخ ابن خلدون 6 : 240 .

في عدول الولاة والقواد عن تطبيق مبدأ المساواة بين العرب والبربر ، فقد صار القائد اذا غزا جهة أو حاصر مدينة قدم الجند البربرى وأخر الجند العربـي ، واذا استولى الجيش على غنيمة حرم البربر حقهم فيها بدعوى أن ذلك أخلص لجهادهم ! فكان الوفد يريد أن يعرف أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ ولكن بطانة السوء التي لم يكن يرضيها اجتماع الخليفة بالوفد حالت بينهـم وبين لقائه ، فرجع الى بلده غضبان أسفاً وصدق البربر بعدها ما كان يقوله لهـم العرب المناوئون لحكم بني أمية من أن الولاة والقادة انما يعملون بأمر الخلفاء ، فكان ذلك سبباً في ظهور المذهب الخارجي بالمغرب وثورة ميسرة المدغرى المعروف بالفقير (I44) .

على أن ثورة البربر هذه المرة (740 م) لم تكن تعنى ثورتهم على الاسلام ولا على العرب رغم حداثة عهدهم بهما ، بل كانت ثورة على السلطة الجائـرة فقط ، فقد بقوا مستمسكين بالدين كاشد ما يكون الاستمساك ، واستمروا على ثقتهم بالعرب المقيمين ببلادهم ، اذ على ايديهم تعلمـوا المذهب الخارجـي ، وبتشنيعهم على بنى أمية شقوا عصا الطاعة على الخلافة ، ولم يثبت أن البربر اضطهدوا العرب خلال هذه الثورة وانما وثبوا فقط على الحاميات العسكرية التى استمرت على ولائها للخلفاء ، ومع أن البربر حققوا انتصارات باهرة على القوات العربية فان السلطة الخلافية بالمشرق سربت لمحاربتهم الجيوش تلو الجيوش، فكان عدد العرب يتضخم بذلك في الغرب بالتدريج والبلاد تصطبغ بصبغتهم شيئاً فشيئاً ، ويكفى أن نعرف أن الجيش الأول الذى وصل لقمع الثورة بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى في يوليوز سنة 741 م (رمضان 123 هـ) كان يشتمل على سبعين ألف مقاتل ، وان الجيش الثانى الذى أرسل فى السنة التاليـة (يبراير 742) كان يشتمل على 30 ألف لم يلبثوا أن عززوا بعشرين ألفاً آخرين، وقد أمكن بوصول هذه القوات أن تستعرب مدن بأسرها في وقت مبكر كتلمسان وسبتة وطنجة وأصيلة علاوة على المدن التى سبقت الى التعرب مثل طرابلس والقيروان وتونس وبلدان قسطيلة (شط الجريد) والزاب .

I44) ويلقبه خصومه بالحقير .

والجدير بالذكر أن دعاية قوية مصدرها عرب القيروان على ما يظهر انتشرت بين المسلمين مرغبة اياهم في سكنى افريقية والمغرب مبينة ما أعد من الاجر والثواب لمن يرابط فيهما ، ولم تبق مدينة من مدن المغرب الشهيرة الا نسبت الى الرسول أحاديث في بيان فضلها وفضل ساكنيها ، بل نسب الى الرسول حديث يذكر أن طائفة من امته عليه السلام لا يزالون ظاهرين على الحق بالمغرب لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ، وعلى العكس من ذلك اختلقت أحاديث وآثار في ذم البربر والتنقيص من شأنهم شبيهة بالأحاديث والآثار التي اختلقت بالمشرق اختلاقاً للحط من قدر الفرس . أما الشعر فقد استعمل أيضاً من بعض العنصريين العرب بالمغرب والأندلس في هذا الغرض الخسيس وان كان بعض أبياته لا يخلو من طرافة ودعابة كقول من قال :

رأيت آدم في نومي فقلت له — ابا البرية ان الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال اذن — حواء طالق ان كان الذى زعموا

وقد كان لهذا الاستعلاء الذى يتنافى مع الدين القديم والعقل السليم رد فعل عنيف بعد ذلك لدى مستعربة البربر فنظموا الأشعار وكتبوا الرسائل وألفوا الكتب التى تعيب التفاخر بالأنساب وتبين ان الناس في حكم الشرع والعقل سواء لا يتفاضلون الا بصالح الأعمال مما يعرف تفاصيله المتخصصون في الآداب العربية بالمغرب .

وباختصار فان الحركات التى كانت تتهيأ بالمشرق للاطاحة بحكم بني أمية تهيأ مثيلها بالمغرب وسبقها الى الظهور في نهاية منتصف القرن الثامن الميلادي لاعلان استقلاله عنها ، فلم تكد الخلافة الأموية تلفظ أنفاسها حتى ظهرت الدول الوطنية المغربية : دولة بني صالح بنكور ودولة بني مدرار بسجلماسة ودولة بني رستم بتيهرت ، ثم دولة بني مروان بالأندلس ، ودولة الأدارسة بفاس ، ودولة الأغالبة بالقيروان ، ولم تفد الجهود السياسية والعسكرية التى بذلها بنو العباس شيئاً في ابقاء الولايات المغربية تابعة للخلافة كما كانت منذ الفتح الاسلامي الأول .

وقد استطاعت الدول الجديدة أن تثبت الأمن وتفرض السلطة ، وعملت من الساعات الأولى على تنظيم الحكومة والادارة فعين الوزراء والحجاب وانشئت الدواوين وعبئت الجيوش وضربت السكة ، وأرسل العمال والقضاة والجباة الى المدن والقرى ورتبت المسالح بالحدود والثغور ، وكان التنظيم يبنى على أسس عربية صرفة ويتعمد فيه تقليد نظام الخلافة فى بغداد حتى لدى الدول البربرية الصرفة المنعزلة فى الصحراء والبعيدة عن مجالات العرب كدولة بنى مدرار بسجلماسة ، وقد أغرى قيام هذه الدول أنصارها الدينيين والسياسيين على الهجرة اليها من البلاد العربية ، فهاجر أنصار بنى أمية زرافات ووحداناً الى الأندلس ، وهاجر الشيعة الى فاس للاقامة في كنف الأدارسة ، وهاجر الخوارج الى سجلماسة وتيهرت ، واستمر الذاهب والآيب ما بين بغداد والقيروان نظراً للصلات الوثيقة التى كانت تربط امارة بنى الأغلب بخلافة بنى العباس ، وكان المهاجرون الى البلاد المغربية من طبقات ممتازة تنتمي في الغالب الى عالم الجيش والادارة والمال أو الى دنيا العلم والفقه والأدب ، وكذلك صار لكل خليفة أو سلطان أو أمير شعراء ينظمون مفاخره ، وكتاب يعبرون عن أغراضه ، ومعلمون يعلمون أمراء بيته ، وعلماء يحتجون بالدين لتثبيت سلطانه ، وفقهاء يعظون بحضرته ، ومؤلفون يكتبون أيامه ووقائعه ، واقبل أهل البلاد الأصليون (البلديون) يكرعون من مناهل العلم الصافية وحياض الأدب والثقافة الثرة ، تارة يكتفون بمن كان بين ظهرانيهم من العلماء والفقهاء المهاجرين، وتارة يسافرون لطلب العلم بمراكزه الكبيرة بالحرمين ومصر والشام والعراق فيعودون مملوئي الوطاب علماً وأدباً وحكمة ، وكان الحج الى بيت الله الحرام من أقوى الأسباب في اتصالهم بائمة الفقه والأدب بأقطار الشرق وتقوية الصلات العلمية بينها وبين أقطارهم المغربية . وبالجملة فان القرن الثانى الهجرى لم يكد ينصرم حتى كانت مدن الغرب الاسلامى كالقيروان وطبنة وتلمسان وتيهرت وسجلماسة وسبتة وفاس وقرطبة وطليطلة وباجة وطرطوشة تنافس مدن الشرق الاسلامي كالفسطاط والقدس ودمشق والحرمين والبصرة والكوفة وبغداد علماً وأدباً وعمراناً وحضارة ، وحتى أخذت البلاد المغربية تسير بخطى ثابتة فى طريق الاستعراب دون تعثر أو نكوص .

الزحف الثاني الكبير

مضت السنون تتلوها السنون على انتشار الاسلام بالمغرب ودخول العرب اليه واستقرار جماعات كثيرة العدد منهم به ، ولم يكن مر السنين وقيام الامارات والممالك العربية والبربرية الا ليزيد الاسلام قوة والعربية تمكيناً ، فان البربر منذ أسلموا حسن اسلامهم ولم تكن الفتن والثورات التي قاموا بها بالمغرب والأندلس منذ بداية القرن الثاني الهجرى الا احتجاجاً على الظلم واستنكاراً لعيث الولاة .

وكان انتظام المغرب والأندلس في سلك المملكة الاسلامية وما شاع في الشرق جمال طبيعتهما ووفرة خيراتهما وحسن نسائهما سبباً قوياً في هجرة عدد من قبائل الجزيرة وبادية الشام وما بين النهرين اليهما برسم الجهاد أولا والاستقرار ثانياً ، كما كان بعدهما عن مقر الخلافة مغرياً لعدد كبير من المضطهدين السياسيين والدينيين باللجوء اليهما ونشر العقائد والمذاهب التي عجزوا عن نشرها بمواطنهم الأصلية بين أهلهما ، وكذلك احتضنت الأمة المغربية المذهب الخارجي ، وآوت ادريس بن عبد الله الكامل وأخذت بضبع المروانيين بعد ما قضى العباسيون على بني أمية، ومع ان دخول هذه الشخصيات والمذاهب الى المغرب احدث فيه كثيراً من الهيجان والاضطراب فانه كان أيضاً من العوامل القوية في شيوع اللغة العربية والاقبال على تعلمها ورواج الآراء المذهبية وانشغال العقول بها الى ان استقرت الحالة بظهور مذهب أهل السنة على ما عداه من المذاهب ، واقتداء الناس في العقائد بأبي الحسن الأشعرى وفي الفروع بمذهب مالك بن أنس امام دار الهجرة ، باستثناء فئات قليلة من أعوان الدولة العبيدية الرسميين وشيعتها الكتاميين بافريقية .

على أن مصير هذه الفئات الشيعية الافريقية كان رهناً بحلول الظروف المناسبة ، لأن الشعب هناك كان سني الاعتقاد ، لا يومن بنسب العبيديين

الفاطميين ولا يقبل ترهاتهم التى ذرت قرونها بالمغرب ثم وجدت فى مصر بعد انتقالهم اليها مرتعاً خصيباً ، وقد كانوا لا تسنح لهم فرصة الا اهتبلوها للقضاء عليهم وحسم مادتهم، ففى سنة 1017 (407 هـ) ثار أهل القيروان بجماعة من الشيعة كانوا يسكنون درب المعلى منها فقتلوهم ونهبوا دورهم وأمتعتهم ثم امتدت الثورة عليهم الى البلدان فقتلوا حيثما ثقفوا ، وقتل أيضاً من لم يعرف مذهبه بالشبهة لهم ، ولم ينج من نقمة العامة حتى جماعاتهم التى خرجت بنسائها وأطفالها تريد الهجرة الى صقلية وجهات أخرى أكثر أمناً .

وفى الوقت نفسه كانت ظروف أخرى تهيأ فى الخفاء للقضاء علـى المذهب الشيعى فى المغرب واحداث القطيعة التامة بين بنى عبيد المستخلفين بالقاهرة وبنى باديس الصنهاجيين المتأمرين باسمهم بافريقية ، وقد نجح فى خلق تلك الظروف واحد من أورع الوزراء وأقوم الفقهاء هو الفقيه على بن أبى الرجـال معلم المعز بن باديس الصنهاجـى الذى تولى الامـارة سنة 1016 (406 هـ) وهو ابن ثمانية أعـوام ، فلم يزل هذا الفقيه يقبح له المذهب الشيعى وينقص له قدر بنى عبيد ويحبب اليه مذهب أهل السنة والجماعة ويزين له مذهب الامام مالك بن أنس الى أن اقتنع وأصبح يكره المذهب الشيعى ويمقت بنى عبيد من غير أن يعلم الشيعة ولا أهل القيروان بذلك ، حتى بدرت منه بادرة سنة 1026 (417 هـ) انفضح بها معتقده وانكشفت سريرته ، فقد خرج فى بعض الأعياد الى المصلى فى زينته وحشوده ، فكبا به فرسه ، فذكر اسم الخليفتين أبى بكر وعمر متبركاً ، فسمعه الشيعة الذين كانوا فى عسكره فمالوا اليه ليقتلوه ولكن عبيده ورجاله ومن كان يكتم المذهب السنى من أهل القيروان أنقذوه ومالوا على الشيعة ميلة واحدة فوضعوا السيوف فى أعناقهم وقتلوا منهم ثلاثة آلاف حتى سمى الموضع الذى قتلوا فيه بركة الدم ، ثم صاح فيهم صائح الموت فقتلوا بجهات كثيرة من افريقية ، فأعلن النـاس حينئذ بالمعتقد الحق ، ونادوا بشعار الايمان ، وحذفوا من أذان الصلاة جملة (حى على خير العمل) فأغضى الخليفة الظاهر وابنه المستنصر بعده عن ذلـك ، واعتذر المعز بالعامة فقبل عذره .

ومع أن الملوك الفاطميين كانوا لا يفتأون يخلعون على المعز بن باديس ألقاب الشرف والمجد كتلقيبه بشرف الدولة وعضدها تأليفاً لقلبه ، ويرسلون اليه الهدايا النفيسة وسجلات التشريف التى لم ينلها أحد غيره فان المعز كان يحذرهم ويخشى بطشهم ، سيمـا بعد ما رأى كيف فعل أحد خلفائهم : الظاهر لاعزاز دين الله بأحد أمراء البربر : حسن بن على بن دواس الكتامى الملقب بسيف الدولة وذى المجدين سنة 1023 (414 هـ) ، فقد أمر باحضاره الى القصر ، فدخله ولم يكن يدخله من قبل حذراً على نفسه ، فأخرج من ساعته مقتولا ، وأقام ثلاثة أيام ينادى عليه المنادى : هذا جزاء من غدر مواليه ! ثم دفع الى عبيده فدفنوه .

ويظهر أن المعز بن باديس الذى كان يتمتع بدهاء كبير وحيلة واسعة فكر فى التآمر على الفاطميين للاطاحة بحكمهم واراحة المغاربة وسائر المسلمين من جورهم ومخرقتهم ، ورأى ان ذلك أجدى عليه من الثورة السافرة عليهم واحرى ان يبلغه الى مقاصده وغاياته ، فأخذ يكاتب الوزير احمد بـن عـلى الجرجرائى وزير الظاهر العبيدى مستميلا ومعرضاً بالتحزب معه عليهـم ، يفعل ذلك رمزاً وتعريضاً لعله يرى منه قبولا له فيجد معه فى السعى عليهم ، وكتب مرة الى الجرجرائى بخطه قطعة تمثل فيها بقول القائل :

وفيك صاحبت قوماً لا خلاق لهم لولاك ما كنت ادرى انهم خلقـوا

يشير الى الفاطميين ويزعم أنه انما أبقى عليهم بعض الابقاء لأجـل حبه فيه ، فلما وقف عليها الجرجرائى قال : الا تعجبون من هذا الأمير ، صبى مغربى بربرى يريد أن يخدع شيخاً بغدادياً عربياً ، واتهمه بأنه انما يكاتبه ليوقع بين الخليفة ووزيره ان عثر على هذه الرموز .

وكان الجرجرائى هذا أحد رجال الدولة الفاطمية سياسة ودهـاء وثقوب ذهن واستنارة بصيرة، وقد استوزره الظاهر الفاطمى ثم ابنه المستنصر، ومن عجيب أخباره أن الظاهر غضب عليه فأمر بقطع يديه لأمر استوجب القطع فقطعتا معا ، فخرج من فوره وجلس بالديوان لخدمته على عادته ، وقال ان أمير المؤمنين لم يعزلنى ، وانما عاقبنى بجنايتى ، فلما بلغ الظاهر ذلك استعظمه

وشرف لديه ، وأقره في عمله ثم رفعه الى رتبة الوزارة بعدما كان في الدواوين ، وكان كثير المصادرة لأموال الولاة وأمتعتهم وربما صرح لهم بقوله : أبيتم الا الخيانة ، فقال فيه محمد بن عبد الله الأنصاري الشاعر :

أغمد لسانك والتزم — طرق السلامة والصيانه
كم ذا تقول أبيتم — الا الجناية والخيانه
أتراهم قطعوا يديـ — ـك على النزاهة والأمانة !

وقد استبد بالدولة سنة 1023 (414 هـ) بعد وفاة ست الملك التى انتهضته الى ان توفي سنة 1044 (436 هـ) فولى الوزارة بعده الحسن بن على اليازورى فخاطبه الولاة من كل الآفاق ولم يولوه ، فانف من ذلك وعظم عليه ، وساءت العلائق بينه وبين ثمال بن صالح صاحب حلب والمعز بن باديس صاحب افريقية اللذين كانا يحقدان عليه أشد الحقد ، وأدى الأمر الى أن حلف المعز بن باديس ليخلعن طاعة الفاطميين ويحولن الدعوة الى بنى العباس ، فأرسل بيعته الى أبى جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسى ببغداد سنة 1048 (440 هـ (145) وأمر بالدعاء له والرضا عن الخلفاء الأربعة والعباس وبقية العشرة ولعن بنى عبيد فوق المنابر ، فابتهج الناس ايما ابتهاج بهذا التحول ، وعادوا الى أداء صلاة الجمعة بعد ما قطعوها دهراً فراراً من دعوة العبيديين حتى كان الرجل اذا بلغ الى المسجد قال سراً : اللهم اشهد ! اللهم اشهد ! ثم ينصرف فيصلى الجمعة ظهراً ، ثم بدل السكة سنة 1049 (شعبان 441 هـ) وسبك ما كان في بيت المال من الدنانير والدراهم التى عليها أسماء بنى عبيد ومنع رواجها وقطع اسماءهم من الرايات والبنود ونشر الرايات السود وهدم دار الاسماعيلية ، وفى سنة 1051 (جمادى الثانية 443 هـ) جمع الخياطين وأخرج لهم شقق الكتان من فندقه وأمرهم أن يصبغوها بالسواد ثم فصلوها ثياباً وكسا الفقهاء والقضاة والخطباء والمؤذنين بها وخرج بهم فى موكب حافل الى الجامع الكبير بالقيروان فأدوا فيه صلاة الجمعة وقد لبسوا شعار بنى العباس.

---

145) ذكر ابن خلدون فى التاريخ ان قطع المعز لدعوة بنى عبيد وبيعته للعباسى كانا سنة 437 هـ .

ولم تكن تصرفات المعز بن باديس لتخفى على الفاطميين خطورتها خصوصاً بعد انضم الأمير جبارة بن مختار سنة 1051 (443 هـ) اليه وكتب اليه بالسمع والطاعة واخبره انه واهل برقة أزالوا المنابر التى كان يدعى عليها للعبيديين وأحرقوا راياتهم وتبرأوا منهم ولعنوهم فى مساجدهم ودعوا للقائم بأمر الله العباسى ، ولكنهم لم يكونوا يقدرون على توجيه جيش الى افريقية لخضد شوكته واعادته الى طاعتهم أو تنحيته ، وبقى صنائع الدولة واولياء الدعوة من كتامة واجمين مرتبكين حتى خطرت للوزير اليازورى فكرة اعتقد انه يستطيع بتنفيذها الانتقام من المعز دون أن يجيش له جيشاً أو يتحمل فيه نصباً ، وهى فكرة خطرت لسلفه الجرجرائى من قبل وعاجله الموت قبل اخراجها الى حيز العمل . فقد كانت بطون من قبيلة بنى هلال العربية من **أثبج و جشم و ربيعة و رياح و زغبة و عدى** تقيم بصعيد مصر قد عم الدولة ضررهم ، وأحرق البلاد شررهم ، فرأى اليازورى ان يغريهم ببنى باديس الصنهاجيين ويدفعهم لمحاربتهم نصرة للمذهب الشيعى ودفاعاً عن الدولة ، فان ظفروا بالمعز وصنهاجة كانوا أولياءها وعمالها بافريقية وسائر المغرب ، وان كانت الدبرة عليهم قوم اعوجاج صنهاجة بوسيلة أخرى .

والواقع ان اليازورى كان يستهدف من وراء توجيه العرب الى المغرب هدفين اثنين : أحدهما ظاهر هو الانتقام من صنهاجة ، والثانى خفى هو التخلص من هاؤلاء الأعراب الذين كانت اقامتهم بصعيد مصر تسبب للدولة الفاطمية كثيراً من المتاعب ، وتجعل السكان معرضين لعدوانهم باستمرار .

ولم يضع اليازورى وقته متدبراً ولا متردداً لعلمه أن الدولة ستفوز باحدى الحسنيين ان لم تفز بهما معاً ، فاما أن ينتصر الأعراب على صنهاجة ويعودوا الى مصر منتصرين فيكونون قد انتقموا للدولة من خصومها ، واما ان تهزمهم صنهاجة فيهيم من نجا منهم من القتل على وجهة بصحارى المغرب وبرقة فتلين قناتهم ويزول عن الدولة خطرهم ، واما ان ينتصروا ويطيب لهم المقام بالمغرب وحينئذ تكون الدولة قد ظفرت بالأعداء البعيدين وتخلصت من عناصر الفتنة القريبين . ففى سنة 1049 (441 هـ) استقدم اليازورى مشايخ العرب وأمراءهم وألان لهم القول وأجزل العطاء واعرب لهم عن رغبته فى توليتهم أعمال

افريقية ، ثم استنفر القبائل العربية لعبور النيل وكانوا ممنوعين منه وأعطى لكل واحد منهم بعيراً وديناراً وقال لهم قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس فلا تفتقرون ! ولم يرسم لهم خطة للعمل لعلمه انهم لا يحتاجون الى وصية ! وكتب الى أهل افريقية يقول : أما بعد فقد انفذنا اليكم خيولا فحولا ، وارسلنا عليها رجالا كهولا ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا ! فجاز العرب النيل أفواجاً أفواجاً وساروا الى برقة فنزلوا بها وفتحوا أمصارها واستباحوها وكتبوا لمن بقي من اخوانهم بشرقي النيل يرغبونهم في عبوره واللحاق بهم ، فأجازوا بعدما أعطوا دينارين لكل رأس وأخذ منهم أضعاف ما أخذوه ، ولما لحقوا باخوانهم تقارعوا على البلاد ، فكان شرقها من حظ **سليم** ، وغربها من حظ **بني هلال** ، فأقامت قبيلة **هيب** من سليم وأحلافها من **رواحة** و **ناصرة** و **غمرة** بأرض برقة ، وسارت قبائل بني هلال من **ذياب** ، و **عوف** ، و **زغبة** بعد ذلك الى افريقية والمغرب .

ولا يعرف بالتدقيق عدد الأعراب الذين عبروا النيل بقصد الدخول الى المغرب وتنفيذ السياسة الفاطمية فيه ، ويظهر أنهم لم يعبروه جميعاً وان عشائر كثيرة منهم قررت البقاء بأرض مصر واستمرت مقيمة بها بعد ذلك بقرون، ولكن الذين ساروا الى المغرب منهم كانوا من قوة الأبدان والتمرس بالضراب والطعان والاستهانة بالموت والشره الى النهب والسلب بحيث كان وقوف أهل برقة في وجههم أمراً مستحيلا ، فلذلك استسلموا لهم بعد ما رأوهم ينسفون عمرانهم ويخربون مدنهم كأجدابية وسرت وأسمرا والمدينة الحمراء، ويوسعون لهم في الأرض التي تسعهم جميعاً صابرين على ما يتعرضون له يومياً من ظلم وعسف وارهاق .

ولقد كان من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد ، ويكتفي الأعراب بالمقام في برقة ويقنع الفاطميون منهم بذلك ، تخلصاً من الأضرار التي كانوا يلحقونها بفلاحي مصر ومنعاً لامتداد التمرد الى شرق حدود برقة لولا أن خطر للمعز بن باديس ان يستخدمهم جنوداً ويستبدلهم بأبناء عمه الصنهاجيين ، فقد ساءت ظنونه في ذلك الوقت بصنهاجة وكرههم وحقد عليهم من غير أن يظهر لهم شيئاً من ذلك ، وحدث أن قدم عليه بعد مرور مدة على استقرار العرب

ببرقة مؤنس بن يحيى الصنبرى أمير **رياح** وكان سيداً فى قومه شجاعاً عاقلا ، فلطف محله عند المعز وحلا فى عينيه واستخلصه لنفسه وأصهر اليه ، وشاوره يوماً من الأيام فى استقدام قبيله الرياحى لاتخاذهم جنداً فقبح له ذلك وحذره سوء عاقبته ، وعرفه بتفرق القوم واعتيادهم الفتن والفوضى وعدم انقيادهم الى الطاعة ، ولكن المعز لم يسمع له كلاماً وبقي يلح عليه فى استقدامهم حتى قال له ذات يوم : انما تريد انفرادك ، حسداً منك لقومك ! فعزم مؤنس على الخروج لاستنفار قومه بعد ما قدم للمعز العذر وأشهد بعض رجال دولته ، ثم سار متوجهاً اليهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والاحسان اليهم ، وما زال يرغبهم فى المسير اليه حتى قبلوا فتقدم هو فى ركب منهم لم يعهدوا نعمة ولا تمرسوا بحضارة ، فما كادوا يشاهدون أول قرية حتى استفزهم الطمع وتنادوا : هذه القيروان ! ونهبوها من حينها ، ولما بلغ الخبر الى المعز عظم ذلك عليه ، ولكنه ظل مع ذلك يشك فى صدق مؤنس وحسن نصيحته ، وقال انما فعل هذا ليصحح قوله ويظهر نصحه ، وأمر بالختم على داره وتثقيف أولاده وعياله حتى يعلم ما يكون من أمره ، فلما بلغ مؤنساً ما فعل بأهله اشتد غضبه وعظم حنقه ، وقال : قدمت النصيحة فحاق الأمر بى ، ونسبت الخطيئة الى ، فكان أشد القوم ضرراً وأعظمهم نكاية فيما بعد .

وحاول المعز أن يتدارك الأمر بالسياسة ولكن بعد فوات الأوان ، فأخرج الفقهاء الى الأعراب يوصون ويعظون ، ويعرضون العهود والشروط ، ويعلمونهم أن السلطان سرح عيالاتهم ورفع الثقاف عن أموالهم وأمتعتهم ، فأظهروا الاستجابة واستشعروا الطاعة ، واخذ الفقهاء عليهم عهوداً ومواثيق فارسلوا شيوخاً منهم الى المعز تأكيداً لما اتفقوا عليه مع الفقهاء ، ولكنهم ما لبثوا ان نكثوا العهود وأمنعوا فى الأرض عيثاً وفساداً .

وظهر للمعز أن يختبر قوة العرب ، فسرح اليهم نخبة من جيشه النظامى هزموها شر هزيمة ، فاستشاط غضباً وتقبض على أخ لمؤنس الرياحى كان لا يزال مقيماً بالقيروان ، ولكنه ادرك ان الأمر جد ، وشعر بامارته يحدق بها خطر لا يتقى منه بالانتقام العائلى ، فقرر الاستنجاد بحلفائه والأمراء من

قرابته ، فبعث بالصريخ الى ابن عمه القائد بن حماد أمير القلعة فأمده بكتيبة من ألف فارس ، وكتب الى المستنصر بن خزرون أمير مغراوة الذى كان منتجعاً في البادية فوصل اليه في ألف فارس واستنفر جميع قبائل صنهاجة وزناتة ، وفي يوم الاثنين 13 أبريل سنة 1052 (10 ذى الحجة 443 هـ) عيد المعز عيد الأضحى ثم مشى في اليوم التالى الى ناحية قرية تعرف ببنى هلال ومعه جيشه النظامي وحلفاؤه ومن لف لفهم من الحشم والأتباع والأولياء وبقايا عرب الفتح ، فلما انتصف النهار جاءته الأخبار بقرب وصول العرب اليه فأمر جيشه الذى كان يبلغ عدده ثلاثين ألفاً بالنزول في أوعار وأودية قرب جبل حيدران ، لكن فرسان العرب الذين كانوا يبلغون ثلاثة آلاف فقط عاجلوهم قبل أن يتم النزول ، وما كاد القتال ينشب حتى تحيز عرب الفتح الى جهة الهلاليين للعصبية القديمة ، وخذلت صنهاجة وزناتة ، ووصلت رماح العرب الى المعز ولم ينجه من الموت الا عبيده الذين استماتوا في الدفاع عنه حتى فنى منهم خلق كثير فداء له ، وأخيراً فر الى القيروان بعد ما هلك من رجاله ثلاثة آلاف ودخل المنهزمون أيضاً في حالة يرثى لها وفقد من العسكر عدد كبير لم يعرف ما آل اليه أمرهم ، واستولى العرب على معسكر السلطان وحازوا ما فيه من المال والمتاع والكراع ، وفي هذه المعركة نظم الشاعر الرياحي علي بن رزق قصيدته التى مطلعها :

لقد زار وهناً من أميم خيال — وأيدى المطايا بالذميل عجال

والتي يقول فيها :

وان ابن باديس لاكبر مالك — لعمرى ، ولكن ما لديه رجال

ثلاثون ألفاً منهم ، هزمتهم — ثلاثة آلاف ، وذاك ضلال

ثم سار العرب بعد ذلك لحصار القيروان ، وجعل كل من سبق من شيوخهم الى قرية يسمي نفسه لأهلها ويؤمنهم ويعطيهم قلنسوته أو رقعة مكتوبة علامة يعرف بها غيره من الشيوخ انه سبقه ، ثم نكثوا عهودهم بعد ذلك فخربوا القرى وسلبوا أهلها جميع ما يملكون وتركوهم حفاة عراة يبكون جوعاً وبرداً ، فضاقت الأرض بالقيروان على أهلها وانفض من حول المعز قرابته وأولياؤه ، فاضطر بعد سنين من الحصار الى مفاوضة شيوخ العرب وصاهر ثلاثة من أمرائهم ببناته .

واثناء الحصار كان العرب يوسعون رقعة نفوذهم ومناطق سلطانهم ، فملكوا جميع الساحل وبلاد قسطيلية وتغلب عائد بن أبى الغيث المرداسى أحد أصهار المعز الثلاثة على مدينة تونس وسباها سنة 1054 ، وملك أبو مسعود من شيوخهم مدينة عنابة صلحاً ، وفى سنة 1055 اقتسموا المغرب الأدنى الاقتسام الأول فكانت طرابلس وما يليها من حظ بطون **زغبة** ، وباجة وما يليها من حظ **مرداس** ، ثم اقتسموه الاقتسام الثانى فكانت البلاد من تونس الى الغرب لبطون هلال وهم : **رياح** ، و **زغبة** ، و **المعقل** ، و **جشم** ، و **قرة** ، و **الأثبج** ، و **الخلط** ، و **سفيان** .

وفى يوم السبت 1 نونبر 1057 (1 رمضان 449 هـ) استولى الأعراب على القيروان فخربوها وطمسوا معالم حسنها ، واستصفوا ما كان لآل بلكين فى قصورها . وكان المعز قد انسحب منها قبل يومين تحت حماية خفير منهم هو صديقه القديم مؤنس بن يحيى الصنبرى أمير رياح الذى كان المعز أصهر اليه فى احدى بناته وأنكحه اياها فسار فى خفارته الى المهدية ونزل بها على ابنه تميم ، وتبعه العرب اليها فحاصروها وواصلوا التضييق على صنهاجة وزناتة بعد ذلك حتى غلبوهما على الضواحى ، واتصلت بينهم الفتن والحروب ، وأغزاهم أمير تلمسان جيشاً بقيادة وزيره أبى سعدى خليفة اليفرنى فغلبوه وقتلوه بعد حروب طويلة بنواحى الزاب ، ولم تزل الفتن متتابعة ، والحروب مسترسلة حتى تمت الغلبة للعرب على صنهاجة وزناتة معاً ، وأطاعتهم جميع بلاد افريقية وجنوب المغرب الأوسط .

وكذلك نجحت السياسة التى رسمها الوزير الفاطمى الحسن بن على اليازورى للانتقام من المعز بن باديس ، ولكنه انتقام لم يكن لسوء الحظ قاصراً عليه وحده ، بل شمل الأرض والانسان والحيوان جميعاً .

وكان الخليفة الفاطمى المستنصر لما سرح العرب الى افريقية عقد لرجالاتهم على أمصارها ، وقلدهم أعمالها ، فعقد لموسى بن يحيى المرداسى على القيروان وباجة ، ولقبيلة زغبة على طرابلس وقابس ، وللحسن بن سرحان على قسطيلية ، فلما ملكوا الأمصار ساموا أهلها الخسف والظلم فثاروا بهم وأخرجوهم منها ، فاكتفوا بملك الضواحى وشددوا الخناق على أهل المدن .

والى هذا الحين كان المد العربى الجديد قد وصل غرباً الى عمالة قسنطينة واقليم الزاب ، وصار الملتحم بين العرب والبربر بجبال بنى راشد وما وراءها من سهوب مزاب بالمغرب الأوسط ، وانعقد الصلح بين العرب وبين الأمراء الصنهاجيين على أن يستقل الأولون بملك الضواحى والأرياف ، وينفرد الأخيرون بملك المدن ، ووضعت الحرب أوزارها مؤقتاً .

واحتال الصنهاجيون بعد ما أنهكتهم الحروب فى تفريق كلمة العرب والتضريب بينهم ، واستغلال خلافاتهم القبلية لمظاهرة بعضهم على بعض ، وحدث فى تلك الاثناء خلاف بين **الأثبج** و **زغبة** فظاهر الناصر بن علناس أمير القلعة **الأثبج** على خصومهم من بنى عمهم ، واستنفر أمراء زناتة وكان فيهم زيرى بن عطية المغراوى ملك فاس ، فاجتمعت صنهاجة وزناتة فى الأربس وجرت بينهم وبين عرب **رياح** معركة طاحنة انهزمت فيها صنهاجة ، فاستبيحت خزائن الناصر وفساطيطه ومضاربه ، وقتل أخوه القاسم، ونجا هو الى قسنطينة وعرب رياح في اتباعه ، ثم لحق بالقلعة فتبعوه اليها وأمعنوا فى جنباتها عيثاً وتخريباً ، وعطفوا على ما هناك من المدن مثل طبنة والمسيلة فدمروها وشردوا أهلها ، ومالوا على المنازل والقرى والضياع فتركوها قاعاً صفصفا ، وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا فى الأرض الفساد حتى تركوا تلك الأقاليم (أفقر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير) على حد تعبير ابن خلدون (146) .

وقد اضطر هذا الغزو القاسى دولة صنهاجة الى هجران قلعة بنى حماد قاعدة الامارة الغربية ومقر حكومتها . فاختط الناصر بن علناس مدينة بجاية بالساحل ، ونقل اليها ذخيرته ومتاعه وأعدها لنزله وجعلها عاصمة ملكه ، ونزلها ابنه المنصور من بعده فأصبحوا فى مأمن نسبى بها ، نظراً لمنعة الجبال المحيطة بها ، ووعورة مسالكها ، وصعوبة السير فيها على الرواحل العربية .

ولما صفا أمر المغرب لعبد المومن بن على سنة 1147 (541 هـ) وتملك الأندلس كانت الأخبار ترد عليه باستمرار عن تفاقم الحالة بافريقية واختلاف

146) تاريخ ابن خلدون 6 : 43 .

أمرائها واستطالة العرب عليها بالعيث والفساد ، فكان يتشوف الى حسم مادة الفوضى وتثبيت النظام في تلك البلاد التي طلع بها كوكب سعده منذ التقى في بجاية احدى مدنها بامامه المهدي ، ويتطلع الى نظمها في سلك الدعوة الموحدية كما انتظمت أقطار المغربين الأقصى والأوسط والأندلس والصحراء ، ولم يكن يثنيه عن النهوض اليها الا اقباله في السنين الأولى من حياة الدولة الجديدة على تنظيم الحكومة وترتيب الادارة والقضاء على الخوارج وتجهيز الجيوش لصد عادية النصارى الذين تطاولوا على مسلمي الأندلس أثناء حروب المرابطين والموحدين ، فلما كانت سنة 1151 (546 هـ) نهض عبد المومن لفتح ما بقي من المغرب الأوسط ، والمغرب الأدنى ، فاستولى على الجزائر ووفد عليه فيها أبو الجليل بن شاكر أمير الأثبج وحباس بن مشيفر من أعيان جشم فتلقاهما بالمسرة ، وغمرهما بالمبرة ، وعقد لكل واحد منهما على قومه ، ثم استولى على بجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة ، فسمعت بذلك قبائل بني هلال المقيمة بافريقية فخفت مسرعة الى الغرب وعسكرت بظاهر باجة وتعاهد شيوخها على محاربة الموحدين وانقاذ ملك بني حماد ، وحينما كان الخليفة عبد المومن بن علي في طريق عودته الى عاصمة ملكه بالمغرب الأقصى وافته الأخبار بمسيرهم الى سطيف ، فارسل مدداً الى ابنه الأمير عبد الله والي بجاية وأمره بملاقاتهم وخضد شوكتهم ، فالتقى الفريقان بسهول سطيف ودارت رحى الحرب بينهم ثلاثة أيام ثم انتهت بانهزام العرب واستلحامهم وسبي نسائهم وأسر أبنائهم وغنم أموالهم وأمتعتهم ، فكانت تلك أعنف صدمة تلقوها منذ دخولهم الى بلاد المغرب قبل مئة عام (147) واثرها راجعوا بصائرهم ودخلوا في دعوة الموحدين واذعنوا لحكمهم ، ثم وفد على الخليفة بعد رجوعه الى مراكش كبراؤهم فوصلهم ورجعوا الى قومهم مغتبطين .

وأقام عبد المومن على وفاق مع العرب الى أن تحرك من مدينة سلا يوم الأحد 1 مارس 1159 (10 صفر 554 هـ) وسار الى المغرب الأدنى لمعالجة أموره

---

147) انظر عن هذه الانتصار رسالة كتبها أبو جعفر بن عطية من تلمسان على لسان مخدومه الخليفة عبد المومن بن علي الى أهل مراكش مؤرخة في فاتح ربيع الاول عام 548 (الأربعاء 27 مايو 1153 م) بالمجموع المسمى : مجموع رسائل موحدية ص 26 ط الرباط 1941 .

واستعادة مدينة المهدية من أيدى النصارى الذين كانت وطأتهم البرية والبحرية مشتدة بسببها على المسلمين باستمرار ، وأثناء حصاره للمهدية الذى دام سبعة أشهر ظهرت من قبائل **بنى سليم** ضروب من المنافرة والمشاقة والتعدى بجهات قابس ، فكان الخليفة يستدعيهم الى الجهاد معه ويستدنيهم منه ويهيب به الى نبذ العصيان والدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين ، ويبعث لهم فى ذلك المخاطبات البليغة والأشعار الرائقة كقصيدة صهره القاضى ابن عمران التينملى التى يقول فيها على لسان مخدومه :

أسليم دعوة ذى اخاء مرشد — هــاد الى الحق المبين المسعد
ومذكر مـا كان أسلاف لكـم — فضلوا به أفعال كل مسـدد
بجهاد أعداء الاله ، ونصرهم — لرسـول ربهم النبى محمـد
وتعرفوا أنـا عليكم صبـر — حتى يعود جواب هذا المنشد

لكنه كان يصبر ولا ترد عليه عنهم الا أخبار السوء ، فلما بلغه تماديهم فى الغى والفساد واستيلائهم على مدينة قابس واستباحتها بعث اليهم عسكراً ضخماً بقيادة قريبه ووزيره عبد السلام الكومى ، فاسترد المدينة واستأصل شافة بنى سليم ، واستخلص بعد ذلك مدن الجنوب التونسى والاقليم الطرابلسى من أيدى المتغلبين عليها منهم ومن غيرهم ، ولما ثنى عنانه الى المغرب سنة 1160 بلغه أن الأعراب عادوا الى الثورة والتشغيب فسرح اليهم جيشاً من الموحدين نازلهم قرب القيروان وأوقع بهم وقتل كبيرهم محرز بن زياد الفارغى من **بنى على** احدى بطون **رياح** (148) وخلال هذه الوقائع وأثناءها أدرك عبد المومن بثاقب ذهنه وسديد نظره أن غريزة الفتنة متأصلة فى العرب لا يمكن تخليهم عنها ، فرأى أن يستغل طبيعتهم الحربية لمصلحة الدولة وطاقتهم التخريبية ضد أعدائها الداخليين والخارجيين ، فاستلحق عدداً كبيراً منهم بعسكره ، ولم يعد من حركته الافريقية الى المغرب الأقصى الا وهو يجر وراءه من عرب **رياح** و **جشم** و **عدى** وقبائلهم ما يضيق به الفضا ، على عدد الذباب وعدد الحصا (149) .

---

148) انظر عن هزيمة العرب بافريقية رسالة من انشاء أبى القاسم القالمى مؤرخة فى يوم الاثنين 24 ربيع الثانى عام 555 هـ (2 مايو 1160 م) بعث بها عبد المومن بن على من فحص متيجة الى أهل فاس ، فى المجموع المسمى : مجموع رسائل موحدية ص 113 .

149) المن بالامامة — لابن صاحب الصلاة ص 144 .

وقد حركت انتصارات عبد المومن على عرب المغرب الأدنى ولاسيما عرب رياح الذين كانوا أشد نكاية ألسنة شعراء دولته ، فبعثوا اليه أو أنشدوا بين يديه بعد رجوعه قصائد يهنئونه فيها بالانتصار ، ويصفون ما حل بالعرب من هزيمة وانكسار ، فمن ذلك قول الشاعر أحمد بن سيد الاشبيلي المعروف باللص من قصيدة :

فأتت على شيع الضلال كما أتى ضوء الصباح على سواد الغيهب
ومضت على حد الحسام أعارب نكثوا عهوداً أبرمت في يعرب
لما حداهم للجهاد مشمر ذهبوا من التأويل أخبث مذهب
فكأنما ألقى الكتاب اليهم : أن الجهاد عليهم لم يكتب !
ورأوا غماماً لم يشكوا — ضلة — في أن مسراها لبرق خلب
غطى على أبصارهم قدر الردى فاستنزروها وهي ملء السبسب
والمرء يطمع بالمطالب ما دنت منه ، ويؤسيه بعيد المطلب
ولربما حسب الفتى أطماعه بالترب وهي منوطة بالكوكب
ولو أن غدرهم لذل نالهم منه لكان الغدر صعب المركب
لكنه أرقاهم من عزة أعلا المراقي في الجناب الأقرب
بدروا بطوع كالحيا في طيه خلف كذاكي برقه المتلهب
كالروض الا ان في احشائه أفعى اليباب استجمعت لتوثب
أولى لهم من بطشة قيسية (150) اخذ البريء بها بذنب المذنب
قد كان في أولى الوقائع زاجر فيهم لذى القلب الذكي القلب
لم لا ؟ وما ذكرت **رياح** يومها الا أراها الطفل مثل الأشيب

ولم يكد عبد المومن يستلحق أولئك الأعراب بالجندية حتى بدأ يعلن عن مراده فيهم ونيته في توجيههم الى القتال بالأندلس ، وصار يبعث لمسلمي الجزيرة رسائل وقصائد يخبرهم فيها بما سيقوم به هاؤلاء العرب من جهاد لأعداء الدين ، ويطمئنهم على مصيرهم في تلك البلاد ، وقد كانوا يومئذ في ضيق شديد من تكالب النصارى عليهم ، فمن ذلك ما ورد في قصيدة بعث بها طي

---

150) نسبة الى قيس عيلان جد عبد المومن بن علي حسب مزاعم بعض المؤرخين .

رسالة مؤرخة فى ربيع الأول عام 555 هـ (مارس 1160 م) من محلته المنصورة قرب مدينة قسنطينة الى أهل الأندلس :

فيا معشر الأشياخ من كل طالب ... ومن حافظ للذكر ألفاظه سرد
نبشركم أنا اهتممنا بأمركم ... فلبتكم منا المسومة الجرد
ويصحبنا من خالص العرب معشر ... أنابوا فما ردوا وتابوا فما ارتدوا
رأوا فى ذويهم عبرة فتيقظوا ... وكان لهم فى غى غيرهم رشد
ستغزو بلاد الروم منهم عصائب ... ويحمى حمى التوحيد من خيلهم جند !
فطوبى لأهل الغرب ما ذا يرونه ... لقد جل قدراً ان يحيط به الحد
جيوش بنصر الله تهمى عليكم ... يروق بها وهد ويزهى بها نجد
ويشجى بمرآها الأعادى كأنما ... عليهم بها صم الشوامخ تنهد
ستعلم أرض الروم أى فوارس ... على ظهرها منهم اذا وفد الوفد
واى رجال للحروب اذا بدت ... أسود شرى يخشى ترايبها الأسد
وانا واياهم لحتم غلابنا ... لهم ، وكلام الوحى ليس له رد !

وبر عبد المومن بوعده لأهل الأندلس ، فانه لم يمكث بالمغرب بعد رجوعه من افريقية الا بقدر ما اعاد ترتيب الجيش وتسليحه ، وهيأ ميسرة اجناده وعلف دوابه ، ثم عبر البحر الى الأندلس فى شهر نونبر 1160 م (ذو القعدة 555 هـ) مصطحباً معه كتائب وفيرة العدد شديدة الشره الى الحرب والقتال فلفت منظرهم وهم بحال من البداوة والفطرة ، وبأزياء حربية غريبة لم تؤلف رؤيتها — أنظار الناس ، فأعجبوا بهم واستبشروا بمقدمهم ، ونظم الشعراء فى تمجيدهم والاشادة بشجاعتهم ونجدتهم ، والتعبير عن الآمال المعلقة عليهم القصائد الغر الطوال .

وبعدما تعرف عبد المومن على احتياجات الأندلس ورتب حاميات تقيم فى ثغورها عاد الى المغرب فى أوائل عام 1161 م (556 هـ) فأقام بمراكش سنة مكن فيها جيشه وحاشيته من الراحة والاستجمام ، وعكف هو فيها على النظر فى الشؤون العامة ودمج العرب فى الجيش النظامى وتدريبهم على الفنون الحربية واعدادهم للجولات المقبلة ، ثم كتب منهم كتائب بعث بعضها الى مختلف

المدن المغربية لحماية الرعية وتأمين السابلة وبعث كتائب أخرى الى الأندلس للرباط بالثغور وجهاد الأعداء ، فنزل بعضهم بجهات قرطبة ونزل بعض آخر بجهات اشبيلية مما يلي مدينة شريش ، وأبلت في تلك السنة والسنة التي تليها أحسن البلاء في حرب النصارى والثوار المنتزين ببعض الجهات وحققت عليهم جميعاً انتصارات باهرة أطلقت بمدحهم ألسنة الشعراء ، فمن ذلك قول أبي العباس الجراوي يهنيء أمير المومنين عبد المومن بن علي باحد هذه الانتصارات ويذكر دور العرب في تحقيقه :

لو راء موسى ما فعلت وطارق ... زريا بما لهما من الآثار
أتممت ما قد أملوه وفاتهم ... من نصر دين الواحد القهار
بعراب خيل فوقهن اعارب ... من كل مقتحم على الأخطار
أكرم بهن قبائلا اقلالها ... في الحرب يغنيها عن الاكثار
وانظر اذا اصطفت كتائبها الى ... ما تحمد الكتاب في الاسطار
لو أنها نصرت عليا لم ترد ... خيل ابن حرب ساحة الأنبار

ولما توفي عبد المومن بن علي ليلة الخميس 17 مايو 1163 (10 جمادى الأخرى 558 هـ) سار ابنه وخلفه أبو يعقوب يوسف العسرى على نهجه في جلب العرب من المغرب الأدنى واستئلافهم واستئناسهم والحاقهم بالجندية وتسخيرهم في أغراض الدولة من حفظ أمن وقمع فتن وقتال أعداء بالحدود ، وكان يوجه لهم المخاطبات النثرية والشعرية التي تفعل فيهم فعل السحر فيستجيبون وينقادون ويردون عليه زرافات ووحداناً بقضهم وقضيضهم وهم في حالة من الاجهاد والعياء والجوع والعرى والفوضى فيصلح أحوالهم ويكلهم الى المكلفين بشؤونهم من أمراء بيته أو قادة جنده فينظمونهم في سلك الجندية ويدربونهم على الفنون الحربية حتى يصيروا أهلا لخوض الحروب النظامية متمرسين باستعمال أسلحة غير الأسلحة التقليدية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم القادمين بها من صعيد مصر وصحراء الجزيرة العربية ، وكان الخليفة اذا أراد توجيههم الى قتال أعدائه بالمغرب أو الأندلس يأمر شعراء دولته أن ينظموا أشعاراً حماسية في مدحهم والاشادة بشرف أرومتهم ومضاء عزائمهم وكفايتهم في الحروب وينشدوها على مسمع منهم تحميساً لهم وتشجيعاً وهو نوع من

الدعاية يستعمله اليوم خبراء الحرب البسيكولوجيون بوسائل تختلف شكلا ولا تختلف موضوعاً ، فمن تلك الأشعار قصيدة احمد بن عبد السلام الغفجومي الجراوي الفاسي التالية يمدح بها قبائل بني هلال ويحضهم على القتال :

أحاطت بغايات العلا والمفاخر — على قدم الدنيا هلال بن عامر
وزانوا سماء المجد بدءاً وعودة — بزهر خصال كالنجوم الزواهر
أوائلهم في الجود والبأس غاية — وكم تركوا من غاية للأواخر
وكم فيهم من مثل كعب وحاتم — وكم فيهم من مثل عمرو وعامر
وكم قد أقاموا من عروش موائل — وكم قد أقالوا من جدود عوائر
وكم لهم من حكمة تبهر النهى — ومن مثل في الشرق والغرب سائر
ومن خطبة تستنزل العصم من عل — وتقضي بتكبيل النفوس النوافر
هم أطلعوا في ليل كل عجاجة — كواكب أطراف الرياح الخواطر
هم مزقوا بالبيض كل ممزق — ممالك شادتها ملوك الأكاسر
أجيبت بهم في آل ساسان دعوة — بخير عباد الله باد وحاضر
مآثر أسلاف تلاها بنوهم — بأمثالها اكرم بها من مآثر
وآخر مجد شفعوه بأول — وأول مجد شفعوه بآخر
لهم كل جلد في الجلاد مشمر — سريع الى صوت الصريخ مبادر
هزبر عليه لبدة من مفاضة — وناب وظفر من سنان وباتر
اذا صال يوم الروع اورد قرنه — موارد موت ما لها من مصادر
تعاين منه مثل باز مصرصر — على مثل فتخاء الجناحين كاسر
اذا شبت الهيجاء أول وارد — وان خفت الأبطال آخر صادر
يبادر منه القرن أغلب غالب — حديد شبا الأنياب دامي الأظافر
يثور اليه حاسراً غير دارع — ويقضي عليه دارعاً غير حاسر
بني عامر أنتم صميم فصمموا — الى الموت تصميم الليوث الحواذر
ولا تتوانوا في حظوظ نفوسكم — فانكم أهل النهى والبصائر
ومن شكر آلاء الخليفة صولة — على الكفر تبقى غامراً كل عامر
تميل الجبال الشم منها مخافة — وتسكن أمواج البحار الزواخر
ولا بد من يوم على الكفر أيوم — تعم به الدنيا وفود البشائر

دعاكم لما يحييكم وارث الهـــدى — وجامـع أشتـات العـلا والمفاخر
وأحزم من ساس الديانة والدنـــا — واكرم مأمـول واحلـم قـــادر
الى أمره فى كل امـــر ونهيــــه — يروح ويغـدو كل نـاه وآمـــر
اذا نامت الأمـلاك عما يهمهـــا — رعى الدين والدنيا له طرف ساهر
فلا برح الاسلام منه مؤيــــداً — بمنصور رايـات على الكفر ناصر

والحق أن القبائل العربية أغنت فى جهاد نصارى الأندلس غناء لا مثيل له ، وخففت العبء عن أهل المغرب والأندلس الذين اضطلعوا به وحدهم قروناً، واننا لنجد فى المراسلات الحكومية والنصوص الأدبية الراجعة الى هذا العهد ما يشهد لهاؤلاء العرب الداخلين الى أقصى المغرب والأندلس بحسن النية وخلوص السريرة وصدق العزيمة على خدمة الدولة ومجاهدة الأعداء ، ونجتزىء فيما يلى بايراد أبيات من قصيدة بعث بها سنة 1167 (562 هـ) الأمير البطل عمر بن عبد المومن الى أخيه السلطان يوسف متشوقــاً اليه وواصفاً غـزوة جبل الكوكب بشمال المغرب وما حقق فيها العرب للخليفة من نصر على الثائـر سبع بن منخفاد ، وهى من شعر عمر بن حربون :

سل الجبل المكـرم حيث ضاهت — عبـاب البحـر أنعمك الجســام
تلقتنــا بأشواق اليكـــم — مشاهـده المقدسـة العظـــام
تطلــع نحـوكـم حبـاً وودا — كمـا يتطلــع البلـد الحـرام
جنبناهـا بيمنكـم كـرامـا — عـلى صهواتها عـرب كـــرام
اذا انتاشـوا رماحهـم تدلــى — أحـم النقـع وانحـط القتــام
أبـاة الضيم ان أمـروا بأمـــر — فكل عزيـز كفـر مستضـــام
اذا قادتهـم أبنــاء قيـس (151) — فلا لخـم تعـد ولا جـــذام
لهاميـم العطـايـا لـم يـزالـوا — يلف عليهم الجيـش اللهـــام
الا لله منهـم كـــل ذمـــر — يقبـل سيفـه المـوت الـزؤام
يهش الى لقـاء القرن حتـــى — كأن الطعـن بينهمـا ذمـــام
يضم الى العشيــرة كل خيـــر — كما نجـى عشيرتـــه ضمـــام

---

151) انظر التعليق السابق .

وذلك ما جعل الخليفة يستدرج العرب بمختلف الوسائل ـ ومن أعظمها الشعر ـ الى دخول المغرب الأقصى واللحاق بالجندية ويستدعيهم بالحاح كلما نادى منادي الجهاد ، ففي سنة 1170 (566 هـ) لما عزم على القيام بالغزوة الكبرى الى الأندلس كتب اليهم يستدعيهم ويهيب بهم الى الغزو ويصف ما هم عليه من الشجاعة والزعامة ، وكان من جملة ما خاطبهم به القصيدة التالية من شعر أبي بكر بن الطفيل :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب ... لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكى العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الآمال الا من القنا ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات الا مصمم ... على الهول ركاب ظهور المصاعب
يرى غمرة الهيجاء أعذب مشرب ... وان أعرضت زرقاً جمام المشارب
ويأنف الا مكسباً من حسامه ... ويعرض عزاً عن جميع المكاسب
ألا فابعثوها همة عربية ... تحف بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد ، شدوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وفيئوا الى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبغى خلاص جميعكم ... دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبتغى لنفوسنا ... ونؤثركم زلفى بأعلا المراتب
فلا تزهدوا فى نيل حظكم الذى ... لكم فيه فوز من جميع المعاطب
بكم نصر الاسلام بدءاً ، فنصره ... عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت اوائلكم به ... ولا تغفلوا احياء تلك المناقب
وقد جعل الله النبى وآله ... ومهديه منكم بلا عيب عائب
وفزتم بتخصيص الخليفة بعده ... ونسبته الدنيا بزلفى الأقارب
وطائفة المهدى منكم ، وانها ... لتحنو عليكم باتصال المناسب
ومن ذا الذى يسمو ليبلغ شاوكم ... اذا كنتم فوق النجوم الثواقب
نصحناكم والنصح فى الدين واجب ... بما لكم فيه صلاح العواقب
وخاطبكم عنا بيان محصحص ... يشق سناه داجيات الغياهب
هو الأمر أمر الله منح ومسعد ... لكل منيب ناصح الجيب تائب
وفيه ذعاف للعداة اذا انتحى ... تمكن ما بين اللهى والترائب

وانتم على التخصيص اجدر من بنى ... بذروته بيتاً رفيع الذوائب
فانكم قيس ، وفرسان ربنا ... على الأرض من قيس بغير مغالب
خذوا حظكم فالأمر جد ، وانما ... يكون بقدر الجد قدر المناصب
وقد فاز بالتقديم منكم معاشر ... بما قدموه من حميد المذاهب
تحث بهم نحو البدار الى الهدى ... عتاق جياد أو عتاق نجائب
فطاروا الى الداعى سراعاً كأنهم ... قداح تلقى الفوز من رمى ضارب
فخصوا من التكريم والبر بالذى ... يكون جديراً بالولى المصاقب
فنالوا محل السبق فانفسحت لهم ... رياض الأمانى سائحات المذانب
وقد شاهدوا من حرمة الأمرما قضى ... لهم بأمان من جميع النوائب
فما لكم والنوم عن خير همة ... تقلص أفياء الشؤون الجواذب
وتعطفكم بالمشرفية والقنا ... منادح عز ساميات المطالب
وما هى الا دعوة عز ذكرها ... فعز بها فى الله كل مصاحب
حذار ! فاعراض الفتى عن نجاته ... وتضييعه للحزم احدى المعايب
وما الحزم الا طاعة الله انها ... هى الحرم المناع من كل طالب
نعدكم السيف الذى ليس ينثنى ... اذا ما نبا سيف براحة ضارب
ونجعلكم صدر القناة اذا غدت ... تأطر ما بين الحشا والترائب
وقد كان من اقوالكم ما علمتم ... فان كان فعل فالرجا غير خائب
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى ... ولكن فعل الحر أصدق خاطب
وما خلق الاعراب اخلاف موعد ... ولكن صدق الوعد خلق الأعارب
سنعلم من اوفى ومن خاس عهده ... ومن كان من آت الينا وذاهب
وتظهر احوال يروق سماعها ... فيرغب فى امثالها كل راغب

وحينما أبطأ العرب فى تلبية هذا النداء خاطبهم يستعجلهم ، ويبين لهم نيته العازمة على الجهاد ويسترحلهم ، بالقصيدة التالية أيضاً وهى من شعر ابن عياش (152) .

---

152) نسب عبد الواحد المراكشى فى المعجب هذه القصيدة لعبد المومن بن على وعدها الأدباء المعاصرون من شعره ، أما ابن صاحب الصلاة فجعلها فى كتابه المن بالأمامة من شعر ابن عياش وتوجيهها الى العرب على عهد الخليفة يوسف بن عبد المومن ، والظاهر ان رواية ابن صاحب الصلاة أصح لأنه مؤرخ معاصر تدل دقة أخباره وتسلسلها وما يقرنها به من وثائق كالرسائل الرسمية والقصائد الشعرية على انها أصح من أخبار غيره .

أقيمــوا الى العليــاء هوج الرواحل وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثـائــر وشدوا على الأعداء شــدة صائــل
واسروا بنى قيس الى نيل غايــــة من المجد تجنى عند برد الأصائل
فما العز الا ظهر أجرد سابـــــح تموت الصبا فى شده المتواصل
وأبيــض مأثور كـان فــر نــــــده على المــاء محبوك وليس بسائــل
بنى العم من عليا **هلال** بن عامـــر وما جمعت من باسل وابن باســل
تعالوا فقد شدت الى الغزو نيــــة عواقبهـــا منصورة بالأوائــــــل
هى الغزوة الغراء والموعد الــذى تنجـــز فى أفق المدى المتطــاول
بها تفتح الدنيـــا بها تبلــغ المنــى بها ينصف التحقيق من كل باطل
عزمنـــا وأمــر الله لابد واقـــــــع على وقعة تودى بدين الفياصـــــل
بجيش يضــــل الطيــر فى حجراته وتحجب عنه الشمس سحب القــاطل
وتحسر فيه الطرف من كل جانب بحــور دلاص عادمــات السواحل
ويطلع ليل النقع فيه كواكبـــــــا من البيض أو من مرهفات المناصل
ويضحى به بحر الدماء مفجـــــرا بأسمر عسال وأبيض ناصـــــــل
بأيدى رجال قد وفوا بعهودهـــــم وخاضوا لنصر الدين أمواج هائــل
فما وهنوا يوماً ولا فل عزمهـــــم ولا حيرتهــم معضــلات النــوازل
فطيروا اليها يا هلال بن عامــــــر ثقالا خفافاً بين حــاف ونــاعــــل
ولا تخدعوا عن حظكم من اجـابــة تبوئكم فى المجد أسنى المنـــازل
وتقطعكم صدر الندى اذا نبـــــت بمن لم يكن منكم صــدور المحافل
أهبنا بكم للخيــر والله حسبنــــــا وحسبكـــم والله أعدل عــــــادل
فما همنا الا صـــلاح جميعكــــــم وتسريحكــم فى ظل أخضر هاطــل

ولما وصلت القصيدتان الى احياء العرب بنواحى القيروان والــزاب تناشدوهما وأعجبوا بفصاحتهما وهزتهم الأريحية الاسلامية والحمية العربيــة فأخذوا يتوجهون الى مراكز التجمع بضواحى بجاية ومعهم العمال والأمناء ، حتى اذا اكتمــل جمعهم سار بهم واليها الأمير السيد يحيى بن عبد المومن الــى المغرب ، وكان عدد فرسانهم أربعة آلاف يضاف اليهم المشاة ومعهم من الدواب والميرة والسلاح ما يجــل عن الحــصر ، وعندما وصلــوا الى تلمسان انضم اليهم واليها الأمير السيد موسى بن عبد المومن بألف فارس عربى ومن عنده من

العساكر النظامية مشاة وركباناً ، فسار هذا الجيش الضخم تهتز الأرض تحت سنابك خيله وتصطك جنبات الفضاء بدقات طبوله ونغمات غيطاته ، ويظهر أن الخليفة قلق مما قد يحدثه ورود هاؤلاء العرب الذين لم يألفوا نظاماً فى أعداد ضخمة على حاضرته ، فأرسل تعليمات مشددة الى أخويه بالطريق يأمرهما بالرفق فى المشى والتزام النظام والمحافظة على الخيل ، ومر كل شىء بسلام خلال مراحل الطريق حتى وصلوا مراكش فاستبشر الخليفة بوصولهم ، واستعرضهم بالفحص المتصل بها يوم السبت 12 دجنبر 1170 (2 ربيع الثانى 566 هـ) وفى اليوم التالى أمر أشياخهم بالدخول عليه لتجديد البيعة وأخذ العهد وتمادى دخولهم الى يوم الأربعاء 30 دجنبر من العام المذكور . وبعد يومين شرع فى اطعامهم ضيافة لهم على العادة العربية المألوفة ، فكان يدخل منهم كل يوم الى البحيرة المعدة للضيافة ثلاثة آلاف رجل فيطعمون ، ودام ذلك مدة خمسة عشر يوماً ، وبدرت من العرب خلال أيام الضيافة بوادر فوضى عدت سوء أدب منهم وجرأة ، فقاطعهم الخليفة ثلاثة أيام ثم صفح عنهم ، وفى يوم الأحد 17 يناير 1171 أمر بتمييزهم فى رحبة قصره العتيق بدار الحجر داخل حضرته استعداداً للذهاب بهم الى الأندلس فكان يدخل منهم كل يوم قدر معلوم وخلال التمييز الذى استمر خمسة عشر يوماً كان الأعراب يدخلون فى حال من الخصاصة والفوضى تضحك الحاضرين ، فكان الخليفة يغضى لهم عن كل ذلك ويأمر باصلاح حالهم واعطائهم ما يلزمهم من الكسوة والسلاح وتعيين القواد لكل فريق منهم ، لمعرفته بحاجتهم وضرورتهم ومبادرتهم الى طاعته وانقيادهم لخلافته ، ولما فى نفسه من ارادة الجهاد بهم لأعداء الله تعالى فيتألف قلوبهم بذلك (153) ، وبعد توزيع المنح والصلات عليهم وعلى أشياخهم وسائر الجنود تحرك الخليفة بالجميع من مراكش صبيحة يوم السبت 13 مارس ، وكاد العرب يقتتلون فى الطريق بسبب تزاحمهم على عبور وادى أم الربيع لولا أن تدارك الخليفة الأمر بجد وحكمة ، واثناء الاستراحة برباط الفتح ميزت القوات الموحدية من جديد ، وحضر على تمييز العرب الأمير يحيى والى بجاية يعينه عبد الله المالقى الذى كان يعرفهم ويضبط أنسابهم ، فكان عدد فرسان العرب وحدهم عشرة آلاف فارس ،

153) المن بالأمامة ص 436 .

ثم أجاز البحر الى الأندلس فى يوم السبت 8 مايو 1171 (1 رمضان 566 هـ) وأقام فيها خمسة أعوام حقق خلالها أعمالا عمرانية وحربية كثيرة شارك العرب فى تحقيقها بحظ مرموق .

واذا كان هاؤلاء العرب النازحون الى المغرب الأقصى قد استقاموا على الطريقة خلال هذه السنين فان اخوانهم الذين أقاموا بمواطن قوتهم وعزتهم بافريقية بقوا على عادتهم فى الفوضى والاضطراب يظهرون الطاعة ويخفون العصيان ، ويسكنون اذا أحسوا بقوة الدولة ويتحركون اذا شعروا بضعفها ، وقد اضطر الخليفة يوسف الى الذهاب بنفسه الى قفصة سنة 1180 لتقويم اعوجاجهم والضرب على ايديهم وتأديبهم، وكاد يذهب اليهم مرة ثانية سنة 1183 حينما أسر بنو سليم أخاه علياً قرب قابس لولا أن سرحوه مقابل مال فدى به نفسه وأصحابه ، وخلال تلك السنين لم يكن سيل العرب ينقطع عن المغرب ، فقد استلذوا رخاء العيش فيه والجهاد بالأندلس وما يدره عليهم من ربح وفير وغنم كثير ، حتى ذكروا أن أشياخهم الذين وردوا على الخليفة يوسف بالرباط سنة 1184 وهو يستعد للذهاب الى الأندلس شرطوا له على أنفسهم أن يحضروا لهذه الغزوة فى 130 ألفاً ما بين فارس وراجل .

على أن الفرصة سنحت لعرب المغرب الأدنى لاشباع نهمهم من الفتن والفوضى عقب وفاة الخليفة يوسف وتملك ابنه يعقوب المنصور (1184 م — 580 هـ) فقد خرج بساحله بنو غانية المسوفيون حكام جزائر البااليار من قبل المرابطين فاستولوا على بجاية فى الأول فانتقض العرب على الدولة وانضموا اليهم فاحتلوا بهم الجزائر ومليانة وحاصروا قسنطينة ، فسرح يعقوب المنصور لمحاربتهم الأمير عبد الرحمان بن عمر فى اعداد وافرة وجموع متكاثرة ، وشد عضد جيشه البرى بالأسطول ، ومع أن الأمير المذكور نجح فى استعادة جميع المدن المذكورة فانه لمن يتمكن من القضاء على رءوس الفتنة التى فر بها العرب الى شط الجريد حيث استجمعت قواها ونظمت صفوفها واعتزت بمن انضم اليها من الغز (154) وأعادت الكرة من جديد على عمالة قسنطينة تجاذب الدولة

154) جماعات من الأرمن دخلوا الى المغرب فى أواخر القرن السادس الهجرى وملكوا طرابلس برئاسة أميرهم قراقش ثم استرجعت منهم واستلحقهم سلاطين الموحدين ثم سلاطين عبد الوادى وبنى مرين بجيوشهم فيما بعد . ج اغزاز .

حبل السلطة فيه ، وفي سنة 1186 توالت على الخليفة أنباء مزعجة عن تضييق بني غانية والاعراب من حلفائهم على بلاد الجريد فنهض اليهم من مراكش يوم الأربعاء 15 دجنبر (3 شوال 582 هـ) ولم يصحب معه من عرب المغرب الا **بني زيان** من عرب **رياح**(155) رعياً لقدم هجرتهم، وذلك احتياطاً من انضمامهم خلال القتال الى اخوانهم للعصبية ، ولما وصل الى تونس سرح اليهم الأمير يعقوب بن عمر بن عبد المومن في عسكر الموحدين ، فهزموه بوطا عمرة ، فلم يسع الخليفة الا الخروج اليهم بنفسه ، فخرج من تونس في يوم الأحد 6 شتنبر 1187 (فاتح رجب 583 هـ) وعرج في طريقه على القيروان فالمه ما رأى من اندثار محاسنها وخراب مآثرها وأشجاه منظر مسجدها المبارك العتيق يعشش به البوم وينعق الغربان فأمر بتجديده وفرشه ، ثم سار حتى التقى بعلي بن غانية وحلفائه من العرب والغزبحامة دقيوس فهزمهم وفر علي مجروحاً الى خيمة أعرابية عجوز فمات بها وولي الثائرون عليهم أخاه يحيى مكانه . واثر هذه الوقعة استلحق يعقوب المنصور الأغزاز بجيشه ، وأقام الى منتصف شوال بالجنوب التونسي يعالج أمر الثائرين ، ثم عاد الى تونس ، ومنها ذهب الى المهدية في شهر مارس 1188 (محرم 584 هـ) فأقام بها ريثما وضع للعرب قوانين يوقف عليها وربط أشغالهم بها ، ثم عاد الى المغرب الأقصى فوفد عليه شيوخ العرب مبدين توبتهم ، فأمر بانتقال عرب **رياح** و **جشم** من بني هلال بن عامر الى سكناه فنزل الأولون ببلاد الهبط (جبالة) وأزغار (الغرب) ما بين طنجة وسلا ، ونزل الأخيرون بتامسنا والحوز ما بين سلا ومراكش ، وكان قصده من هذا الترحيل كسر شوكة اخوانهم بافريقية من جهة وتقوية جيشه بهم من جهة ثانية ، ولكن كل ذلك لم يفد شيئاً ، فان الأولين أمعنوا في العيث والفساد حتى هم سنة 1194 بالمسير اليهم لما توالت عليه رسائل أبي سعيد بن أبي حفص مخبرة باستفحال ضررهم وتوالي تواطئهم مع الثوار من بني غانية لولا انشغاله بجهاد نصارى الأندلس في تلك السنة ، كما ان اخوانهم الذين انتقلوا الى سكنى المغرب الأقصى شرعوا يقومون فيه بأعمال الشغب الغريزية

---

155) كذا ذكر ابن صاحب الصلاة في المن بالامامة ، وذكر ابن خلدون في تاريخه (6 : 45) أن المنصور صحب معه زغبة من الهلاليين وجمهور الاثبج ، والغالب أن رواية ابن صاحب الصلاة أصح .

فيهم بعدما كثرعددهم واصبحت لهم فيه مواطنعامرة بهم وحدهم، وهذا ما جعله يقول عند وفاته : ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي الا على ثلاث وددت اني لم افعلها : الأولى ادخال العرب من افريقية الى المغرب مع اني أعلم انهم أهل فساد، والثانية بناء رباط الفتح انفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر ، والثالثة اطلاقي اسارى الاراك ولا بدلهم ان يطلبوا بثارهم (156) ومع هذا الندم فانه أوصى بالعرب خيراً وهو يجود بانفاسه الأخيرة وطلب من الموحدين أن يداروهم ويلاطفوهم ويحسنوا اليهم غاية الاحسان ، ويشغلوهم بالحركات ولا يتركوهم للعطلة والراحات !

وكذلك صار المغرب مملوءاً من أدناه الى أقصاه بالعرب ، وسكانه الأولون من بربر وعرب فتح مزاحمين بهم فيه ، وصارت علامة التمايز بين القبائل الأصلية والأخرى الطارئة كلمة (بني) وكلمة (أولاد) ، فكل قبيلة يبتدىء اسمها ببني مثل بني ورياغل هي من قبائل البربر ، وكل قبيلة يبتدىء اسمها باولاد مثل أولاد جامع هي عربية الأصل .

وقد كان لهذا الزحف العربي الثاني الكبير آثار بعيدة المدى في حياة المغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية ، ولا تزال هذه الآثار تطبعها الى الآن ، ويلاحظ بادى ذي بدء أن هذه الآثار كانت سلبية في النصف الشرقي من البلاد ، أي الى منتهى ما بلغه العرب في زحفهم الأول وهو المغرب الأدنى بأسره وما حاذاه من شرق المغرب الأوسط ، فقد انقض الأعراب على تلك البلاد كالطوفان الغامر واللهب المتأجج والجراد الكاسح ينسفون المدن ويخربون القرى ويغورون الآبار ويعذقون الأشجار ويمعنون في قتل السكان دون تمييز بين محارب ومسالم ، ولا بين رجل وامرأة ، وكبير وصغير ، حتى تقلصت بوصولهم الى ذلك الجزء من أرض المغرب ظلال الحضارة وذوت أدواح المدنية وأصبحت حواضر برمتها كانت مفخرة من مفاخر الاسلام ومأثرة من مآثر العروبة مثل القيروان وقلعة بني حماد وطبنة والمسيلة وغيرها خراباً ويبابا ، وغاض معين العلم والأدب والفقه والتاليف والتصنيف

156) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص 163 ط فاس .

فى تلك الجهة بعد ما كانت ينابيعها فياضة واسواقها نافقة ومعاهدها عامرة ، وهذا ما جعل أهل البلاد قاطبة عربهم وبربرهم تنقبض صدورهم من وصول هاؤلاء الأعراب وتتعوذ ألسنتهم لمجرد ذكرهم ويضربون المثل فى الشؤم والشقاء بالمنسوب اليهم فيطلقون كلمة (كعبى) نسبة الى كعب وكلمة (زغبى) نسبة الى زغبة على كل شقي منحوس، وحتى انبرى مؤرخ عربي وطني نبيه هو عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي يحمل عليهم وعلى أمتهم تلك الحملات العنيفة ويحكم عليهم وعليها أحكاماً قاسية فى تاريخه متأثراً مما عاين من آثار وحشيتهم وثمار همجيتهم .

أما النتائج الايجابية فهى كثيرة أيضاً ، ومن أهمها أن البلاد المغربية أخذت شكلها القومي الجديد ، وصارت لها لغة جديدة يتخاطب بها العوام بعد ان كان استعمال اللغة العربية قاصراً على الدواوين الرسمية وبعض الحواضر التى أنشأها عرب الفتح وترعرعت فى حضن العروبة ، ومن الثابت تاريخياً أن اللغة البربرية بقيت هي السائدة فى المغربين الأقصى والأوسط الى الزحف الثاني الكبير ، وان خطب الجمع فى حاضرة عربية مثل فاس ، وفوق منبر جامع اسلامى كبير مثل جامع القرويين كانت تلقى باللغة البربرية الى ما بعد قيام دولة الموحدين ، ولكن دخول العرب هذه المرة جعل السيادة للغة العربية على جميع بلاد المغرب ، كما جعل اهل البلاد الأصليين تتلاقح دماؤهم بدماء عناصر قوية جديدة تشترك معهم فى كثير من خلال الحسن وخصال السوء ، فكان لذلك أكبر تأثير على الأجيال المغربية التى ولدت فيما بعد جسمانياً وفكرياً .

ونحن عندما نقول اللغة لا نعني بها لغة القرآن الفصيحة المعربة ، وانما نعنى بها العربية العامية التى نتحدث بها الآن ، فالعرب الذين دخلوا الى المغرب فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وأعطوه طابعه القومي الحالى لم يكونوا يتكلمون لغة فصيحة معربة ولا كان آباؤهم يتكلمونها قبل قرون ، وانما كانوا يتكلمون لهجة عربية خاصة هى التى اقتبسها منهم أهل المغرب وصاروا يتحدثون بها مثلهم مضيفين اليها كلمات محلية قليلة غير مغيرين من حروفها ولا نبراتها الصوتية الا ما فرضت طبيعة مناطقهم البربرية

تغييره ، وقد كان لهذه اللغة أو اللهجة أدب خاص بها يتمثل فى أشعارهـا وأزجالها وحكمها وأمثالها التى تصور حياة أهلها وتسجل وقائعهم وتخلد بعض حكاياتهم الغرامية كقصة الجازية الشهيرة .

ودخل الى المغرب مع هاؤلاء الأعراب عدد كبير من أهل الصعيد المصرى والأرمن والترك والتحق بهم فيما بعد عدد كبير آخر من السودان ومهاجرى الجزيرة الأندلسية فكان لكل ذلك آثاره وعواقبه ، كما تسرب اليه معهم عدد كبير من وسائل العيش وأدواته التى لم تكن معروفة فيه من قبل كالخيمة مثلا، وكثير من النظم والعادات التى تلائم حياة الرحل ولا تلائم حياة المستقرين، كنظام (الدوار) الذى هو عبارة عن مخيم مستدير الشكل تسكنه عشيرة أو عمارة اثناء اقامتها وتحمل خيامه وأدواته أثناء ظعنها .

وعلى الجملة فان الزحف العربى الثانى الكبير على بلاد المغرب لم يكن يضارعه فى قوة فعاليته وسرعة تأثيره الا الزحف الأول الصغير ، كلاهما أعطى للمغرب شيئاً وكيف حياة أهله تكييفاً حاسماً ، فالزحف الأول أعطاهم العقيدة والايمان ، والزحف الثانى أعطاهم اللغة والقومية .

وبعد ، فمن يكون هاؤلاء الأعراب الذين زحفوا على المغرب هذا الزحف الكبير وأثروا فيه وفى أهله كل هذا التأثير ؟ وما هى أنسابهـم وشعوبهـم وقبائلهـم ؟

أنساب العرب الداخلين إلى المغرب وبعض أخبارهم

غلب اطلاق اسم **بني هلال** على جميع العرب الذين دخلوا المغرب فى منتصف القرن الحادى عشر حتى ليظن الظان انه لم يدخله شعب من العرب سواهم ، والحقيقة أن شعوباً عربية أخرى دخلته مع بنى هلال وبعدهم ، وان بنى هلال أنفسهم لم يكونوا يرجعون الى أرومة واحدة ، بل كانت معهم قبائل وبطون كثيرة أضيفت اليهم وهى لا تجتمع معهم فى نسب .

ويمكن رد جميع القبائل والبطون العربية التى دخلت المغرب الى ثلاثة شعوب .

ا — بنو هلال

ب — المعقـل

ت — بنو سليم

ونفصل فيما يلى القول فى أنساب هذه الشعوب موردين بعض أخبارها قبل دخولها الى المغرب وأثنائه .

1 — بنو هلال

أما بنو هلال فجدهم الذى ينسبون اليه هو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر (157) .

كانت مواطنهم فى الجاهلية ببسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان ، وكان يساكنهم فيها بنو نمير بن عامر ، وبنو جشم ، فلما جاء الاسلام

157) جمهرة انساب العرب ص 273 .

وتوسع العرب في الفتوح انتقلوا جميعاً الى بادية الشام وسكنوا الجزيرة الفراتية ، فكان بنو نمير بنواحي حران ، وبنو هلال بناحية دمشق ، واستمروا مقيمين هناك يتكسبون من فلح الأرض ورعي الماشية تارة ، ومن الغزو وقطع الطريق أخرى، وكان خلفاء بنى العباس يبعثون لهم البعوث تلو البعوث لزجرهم وكف عاديتهم عن المسافرين ولاسيما حجاج بيت الله الحرام .

ولما استولى شيعة الفاطميين على الشام وانتزعوه من أيدى القرامطة واعادوهم الى البحرين ، نقلوا بنى هلال هاؤلاء الى صعيد مصر وأنزلوهم بالعدوة الشرقية من نهر النيل ، فأضروا بالبلاد وساموا أهلها الذل والهوان .

ومن المؤكد تاريخياً ان قبيلة من شعب هلال تدعى **بني قرة** كانت تسربت الى المغرب قبل زحف جمهورهم عليه ، ولها في الحكاية عن دخولها اليه طرق في الخبر غريبة يكاد القادح فيها والمستريب أن يرمى عندها بالخلط والجنون ، منها حكاية الجازية بنت سرحان الشهيرة مع شريف مكة شكر بن أبي الفتوح التي عفت عن خبر عزة وكثير ، وليلى وقيس المجنون ، وهي أصل قصة أبي زيد الهلالي الشهيرة ، وسترد لدى الكلام عن بني قرة ، وقد استوطن بنو قرة هاؤلاء أرض برقة بعد ما تغلبوا على مقاومة قبائل **لواتة ومزاتة وزناتة** ، وكان لهم بها وبمصر تشغيبات على الحاكم بأمر الله الفاطمي قتل منهم بسببها جماعة وأحرقهم بالنار لفسادهم ، ونبغ فيهم معلم للقرآن يدعى أبا ركوة زعم انه الوليد بن هشام من ذرية عبد الرحمان الداخل الأموى فبايعوه وألحقوا الهزائم بالجيوش الفاطمية تحت رايته الى ان ظفر به وبهم سنة 397 هـ .

وأقام جمهور بنى هلال بشرق النيل الى أن خطرت للوزير الفاطمي الحسن اليازورى فكرة اجازة العرب الى المغرب تخلصاً من شرهم وانتقاماً من المعز بن باديس ، فكانت بطون بنى هلالأول من عبر النيل وسار اليه ، وكان فيهم من غيرهم كثير من **فزارة واشجع وجشم وسلول ومعقل وعمرة وبني ثور وعدوان وطرود** اندرجوا في الأثبج خاصة وصاروا واياهم شيئاً واحداً.

وكان من أشرافهم عند دخولهم الى المغرب الحسن بن سرحان أخو الجازية الموما اليها ، وأخوه بدر ، وفضل بن ناهض ، وثلاثتهم من بطن **دريد**

بن الأثبج ، وماضي بن مقرب من **بني قرة** ، وسلامة بن رزق من **بني كثير** ، وشبان بن الاحمير وأخوه صليصل من **بني عطية** ، وذياب بن غانم من **بني ثور** ومؤنس بن يحيى من **بني صنبر** بطن من بطون **مرداس** رياح لا مرداس سليم ، وزيد بن زيدان وينسبونه في **الضحاك** ، وسليمان بن عباس من **حمير** وسواهم كثير.

أما تشعب بني هلال الى قبائل وبطون وتفاصيل أخبارهم بعد دخولهم الى المغرب فقد تقدم بعضها وسيرد بعضها في هذا الفصل والقسم الثالث من هذا الكتاب .

2 ـ المعقل

نسب هذا الشعب من العرب الداخلين الى المغرب خفي مجهول عند الجمهور ، ويعدهم نسابو العرب من بطون هلال وليس ذلك بصحيح ، أما هم فيدعون أنهم من آل البيت من ذرية جعفر بن أبي طالب ، وهو ادعاء غير مسلم به لأن الطالبيين والهاشميين أهل اقامة وحضر وليسوا أهل بادية وانتجاع ، ورجح ابن خلدون أن يكونوا يمنيين ، لأن من هاؤلاء بطنين يسمى كل واحد منهما بالمعقل على ما ذكره ابن الكلبي وغيره ، أحدهما من قضاعة والآخر من مذحج ، والغالب أنهم من هذا البطن الأخير .

وقد كان عرب المعقل يسكنون قرب البحرين مع القرامطة قبل دخولهم المغرب ، ولما دخلوه لم يكن عددهم يتجاوز المئتين ، فاعترضهم بنو سليم فتحيزوا الى الهلاليين ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي وادي ملوية ورمال تافيلالت ، وجاوروا زناتة في القفار فعفوا وكثروا وانتشروا في صحراء المغرب الأقصى فعمروا أطرافها وتغلبوا على فيافيها وحالفوا زناتة بها في جميع الأوقات ، ولم يبق منهم بافريقية الا جمع قليل اندرج في جملة **بني كعب** بن سليم وصاروا أعوانهم المخلصين .

ولما طلع الزناتيون الى التل ، وأسسوا مملكتيهم بفاس وتلمسان وامارات أخرى صغيرة بالمغرب الأوسط تفرد عرب المعقل بالصحراء ونموا

فيها نمواً كبيراً بمن انضاف اليهم من القبائل من غير نسبهم مثـل **العمـور وأشجع والشظة والمهايا والشعراء والصباح وبني سليم** ، فملكوا القصور التى اختطتها زناتة وفرضوا الضرائب على حراطينها وصارت يدهم الطولى بجميع الأقطار الصحراوية الواقعة بين المحيط الأطلسى وتيديلكت .

وقد اشتهر عرب المعقل هاؤلاء باحترام الأنفس والأموال وامتثـال أوامر المخزن (الحكومة) فلم يكونوا ينتهكون حرمة الناس ولا يعتـرضون القوافل التجارية بأذى أو مكروه ، الشيء الذى جعل سلاطين المغرب يقدرونهم حق قدرهم ويجازونهم على ذلك بالاقطاعات المديدة والعطايا العديدة .

3 ـ بنو سليم

هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان .

من أوسع بطون مضر وأكثرها جموعاً ، كانت مواطنهم الأولى بنجد ، وكانت الرئاسة عليهم فيها لبنى الشريد بن عصية بن خفاف بن بهثة بن سليم ، ولما أدركهم الاسلام كان منهم عناد ، ومن بطونهم المشهورة قبائل عصية ورعل وذكوان الذين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتكوا بأصحابه ، ثم أسلموا وخاضوا فيما خاضت فيه بقية القبائل العربية من شؤون الخلافات والفتوح ، وصاروا فى عهد الخلافة العباسية أولى فتنة وبغى ، تبلغ بها الجسارة الى الاغارة على المدينة نفسها ، فكان العباسيون يسرحون الكتائب لمحاربتهم والايقاع بهم ، فيذعنون الى الطاعة ويخلدون الى السكينة فى قفارهم بقدر ما يستجمون وينتعشون فيعودون الى حالهم ، وبلغ من كراهية أحد خلفاء بنى العباس لهم أنه نهى ابناً له عن التزوج منهم .

ولما ظهر القرامطة غمسوا أيديهم فى فتنتهم ، وحالفوا أبا الطاهر وبنيه أمراء البحرين مع بنى عقيل بن كعب ، فلما ذهبت ريحهم وانقرض أمرهم اعتنق بنو سليم مذهب الشيعة وتغلبوا على البحرين بدعوتهم لما أن القرامطة كانوا متشيعين ، واستمروا سادة هناك حتى قام بنو الأصفر بدعوة العباسيين ، فانتزعوا البحرين باسمهم من أيدى بنى سليم فى أيام بنى بويه وطردوهم عنها

فلحقوا بصعيد مصر وأقاموا به مع بقية الأعراب حتى أجازهم الوزير اليازورى الى افريقية مع العرب الهلاليين ، فاستوطنوا برقة وجهات طرابلس زمناً ثم ساروا الى افريقية والمغرب وكان لهم ـ شعباً وقبائل وبطوناً ـ وقائع وأحداث سبق ذكر بعضها وسيذكر البعض فى هذا الفصل وفى القسم الثالث من هذا الكتاب .



شعوب بني هلال

بنو هلال أحد الشعوب العربية الثلاثة الداخلة الى المغرب ، لكنهم كانوا من كثرة العدد وتعدد البطون بحيث غطى اسمهم على اسمى الشعبين الآخرين .

ويشتمل هذا الشعب على عدد كبير من القبائل ، بعضها ينتمى اليه حقيقة بالنسب ، وبعضها نسبه فى غيره ولكنه محسوب منه ومضاف اليه ، ومن هذه القبائل قبائل أكلتها الحروب اثناء الزحف وبعده فاندثرت ولم يبق منها الا اسمها يذكر بها ، ومنها قبائل عفت وتناسلت ونمت فصارت لها البطون والأفخاذ الكثيرة ، فارتفعت من رتبة القبائل الى رتبة الشعوب .

ويمكن حصر شعوب بنى هلال الأصليين والمضافين فيمن يلى :

ا ــ الأثبج

ب ــ جشم

ت ــ رياح

ث ــ زغبة

ج ــ عوف

ونستعرض فيما يلى كل شعب من هذه الشعوب ذاكرين قبائله ، ومموردين نبذاً من أخبارها .

1 ــ الأثبج

أبوهم الأثبج بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال كانوا أوفر عدداً من غيرهم وأكثر بطوناً فكان لهم التقدم بذلك على سواهم .

من قبائلهم :

ا ـ **دريد** : أعز قبائل الأثبج وأعلاهم كعباً، وكانت رئاسة الأثبج كلها للحسن بن سرحان منهم عند دخولهم الى افريقية ، واستقروا ما بين عنابة وقسنطينة الى طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر ، ولهم بطون كثيرة مثل **اولاد عطية وأولاد سرور** ، **وأولاد جار الله** ، **وتوبة** ، ولكل بطن عمارات وعشائر ، منهم قبيلة قوية بتونس معروفة بالاسم الأصلي، أما البطون فقد ارتفعت بدورها الى مرتبة القبائل وهي معروفة بأسمائها الى الآن .

ب ـ **كرفة** : بنو كرفة بن الأ ثبج ، كانت لهم جموع وقوة اثناء الزحف الكبير ، وسكنوا في البداية حيال جبل أوراس مما يلي شرقه ، ونقل منهم الموحدون بطوناً الى المغرب الأقصى ، والحفصيون بطوناً أخرى الى تونس، وربما يصلون في النجعة الى تخوم الزاب ، بطونهم كثيرة مثل **أولاد نابت** ، **والكلبية** ، **والشبه** ، **والسرحانية** .

ت ـ **لطيف** : أولاد لطيف بن سرح بن مشرف بن أثبج كانوا ذوي كثرة ونجعة الى أن غلبهم **الذواودة** على الضواحي فعجزوا عن الظعن وسار من سار منهم الى المغرب مع جمهور الأثبج ونزلت بقيتهم ببلاد الزاب وعمروا منها المدن والقرى مثل الدوسن ، وغربيو ، وتهودة ، وتنومة ، وبادس . وكانت فيهم عنجهية منذ رئاستهم القديمة استمرت لاصقة بهم الى عهد ابن خلدون ، وللطيف بطون كثيرة ارتفعت الى درجة قبائل ، منها **اليتامى** : ذوو مطرف ، وذوو أبي الخليل ، وذوو جلال أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف ، ومنهم **اللقامنة** أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف ، ومنهم **أولاد جرير** ، **وأولاد نزار** ، **ومزنة** الذين يرجع اليهم نسب **بني مزني** المشهورين بأرض الزاب .

ث ـ **مقدم** : أولاد مقدم بن مشرف بن أثبج ، كانوا ذوي قوة وعدد بين الأثابج ، ولما مالوا الى بني غانية وشقوا عصا الطاعة على الموحدين أشخصهم يعقوب المنصور مع جشم الى المغرب وأسكنهم بسيط تامسنا منه .

ج ـ **الضحاك** : بنو الضحاك بن مشرف بن أثبج ، كانوا يسكنون بالزاب الى ان غلبهم **الذواودة** عليه وصيروهم في جملتهم .

ح ـ **العاصم** : أبناء عاصم بن مشرف بن أثبج ، كانوا من القبائل التي انضمت الى بنى غانية فنقلهم الموحدون الى المغرب وانزلوهم ببسيط تامسنا .

خ ـ **العمور** : هاؤلاء من العرب الملحقين ببنى هلال ، ويظن انهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال اخوة بنى قرة بن عبد مناف ، وليسوا من ولد عمرو بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال الذى تنتمى اليه رياح وزغبة والأثبج ، اذ لا علاقة بين الفريقين ، وقد يكون انتماؤهم الى عمرو بن رويبة بن عبد الله بن هلال ، وكل ذلك معروف ذكره الكلبى ، ولم تكن لهم فى المغرب رئاسة ولا ناجعة تظعن لقلة عددهم واختلاف كلمتهم ، وفيهم فرسان وأكثرهم رجالة ، وكانوا يسكنون بالضواحي والجبال ما بين جبل أوراس شرقاً وجبل بني راشد غرباً في الجهات المقابلة للحضنة والصحراء ، أما المناطق الشمالية فكانوا يتحامونها خوفاً من سطوة الحكومات ، فلذلك بقوا قريبين من مواطن القفر والجدب .

وهم ينقسمون الى بطنين كبيرين : **بنى قرة وبنى عبد الله** ، وكل بطن يقسم بدوره الى عمائر وعشائر ، وهم معروفون اليوم باسمهم الأصلى وباسماء فروعهم ، وأكثريتهم موجودة على الحدود الجزائرية المغربية ممـا يـلى العين الصفراء وواحات فكيك .

عياض : أبناء عياض بن مشرف بن أثبج ، كانوا مقيمين ببادية المغرب الأدنى ثم غربوا ونزلوا الجبل الذى فيه قلعة بنى حماد وغلبوا قبائله على أمرهم، وسكنوه بطوله من الشرق الى الغرب ما بين ثنية غنية والقصاب الى وطن بنى يزيد بن زغبة ، فاولهم مما يلى غنية **المهايا** ، وبعدهم **المرتفع** و **الخـراج** مـن بطونهم ، ولكل منهم فروع كثيرة سيرد تفصيل الكلام عليها فى القسم الثالث من هذا الكتاب .

بنى قرة : قبيلة متسعة لكنها متفرقة فى المدن والقبائـل وحداناً ، كانوا يسكنون قرب بسكرة متصلين غرباً الى مواطن غمرة ، وفيهم بطون كثيرة سيقع الكلام عليها فى القسم الثالث .

2 — جشم

أبو هذا الشعب هو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، واندمجت فيهم قبائل أخرى من الأثبج كبني قرة والمقدم والعاصم فعدوا منهم وغلب اسم جشم عليهم جميعاً .

نقل الموحدون جمهورهم الى المغرب الأقصى وأسكنوهم بسيط تامسنا والحوز ما بين سلا ومراكش فتخلوا منذ ذلك التاريخ عن عادة النجعة والريادة واستقروا متكسبين بفلح الأرض واستيلاد الماشية .

من أشهر قبائلهم :

ا — **بني جابر** : كانت مواطنهم بسفح جبل تادلة يسهلون الىالبسيط تارة ويأوون اخرى الى قننه وهضابه اذا أحسوا بتهديد ، وكانت رئاستهم على عهد بني مرين في **ورديغة** من بطونهم ، ومن الناس من يجعل نسبهم في زناتة أو لواتة مستدلين على ذلك بمجاورتهم للبربر .

ب — **الخلط** : هذا القبيل معدود من جشم من غير أن يكـون من نسبهم ، فهم أبناء المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب ، كانوا شيعة للقرامطة بالبحرين ثم ارتحلوا الى مصر فافريقية عندما غلبهم عليها بنو أبي الحسين التغلبيون القائمون بدعوة العباسيين ، ثم دخلوا الى المغرب مع الاعراب ونقلهم يعقوب المنصور الى المغرب الأقصى فأسكنهم بسيط تامسنا ، وكانت لهم فتن وحروب مع سلاطين الموحدين وبني مرين واستقروا بأخرة حيث هم الآن من بسيط الغرب قرب القصر الكبير مختلطين فيه بقبيلة **طليق** .

ت — **سفيان** : أدخلهم يعقوب المنصور الى المغرب الأقصى فسكنوا أولا قرب آسفي ، ثم انتقلوا الى الشمال فسكنوا في بسيط الغرب حيث هـم الآن وبقى **الحارث والكلابية** من بطونهم ينتجعون أرض السوس وقفاره ويطلبون بلاد حاحة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وباس ، ومن أشهر بطونهـم **اولاد جرمون وأولاد مطاع** .

3 ــ رياح

هو رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر .

كان هذا الشعب من أعز قبائل بنى هلال نفراً وأوفرهم جمعاً عند دخولهم الى بلاد المغرب ، وكانت رئاستهم على عهد الزحف لمؤنس بن يحيى الصنبرى الذى أصهر اليه المعز بن باديس بينته ، ثم كان من أشد العرب نكاية وأكثرهم ضرراً أثناء حصار القيروان لمعرفته بعوراتها ، ونقل منهم يعقوب المنصور قبائل قوية الى المغرب الأقصى .

قبائل رياح كثيرة ارتقى كل واحدة منها الى مرتبة شعب ، ونعرض فيما يلي أهمها :

ا ــ **الخضر** : أولاد الخضر بن عامر بن رياح ، وقيل عامر بن زيد بن مرداس بن رياح وقيل غير ذلك ، كانت رئاستهم فى **اولاد تامر** بن على بن تمام بن عمار بن خضر بن عامر بن رياح ، وكان بنو مرين مختصين بحلف هذا القبيل .

ب ــ **مرداس** : بنو مرداس بن رياح ، أكبر بطون رياح على الاطلاق وأكثرهم ذكراً أثناء الزحف الكبير ، وهم قوم مؤنس بن يحيى صاحب المعز بن باديس وصهره ، ومن أشهر بطونهم قبيلة **الذواودة** العظيمة وفروعها الكثيرة بالمغرب الأوسط ، **وأولاد صنبر** قوم مؤنس بن يحيى المتقدم ، **وأولاد مسلم** ، **وأولاد عامر** بن يزيد الذين منهم **بنو موسى** و**بنو جابر** ، **وسودان** ، **ومشهور** (**المشاهرة**) **ومعاوية** ، مواطنهم مجاورة لتوزر بشط الجريد .

ت ــ **أولاد سعيد** : بنو مالك بن رياح ، كانت رئاستهم فى **أولاد يوسف** ، ومن بطونهم **أولاد عيسى** ، ومع هذا القبيل لفائف من العرب من غيرهم مثل **المخادمة** و**الفجور** و**نفاث** .

ث ــ **أولاد مسلم** : بنو مسلم بن عقيل بن مرداس بن رياح، ينتسب بعضهم الى الزبير بن العوام ، ويقول من ينكر عليهم ذلك انما هو الزبير بن

المهايا أحد بطون عياض من عرب الأثبج ، ورئاسة هذا الفريق فى **أولاد جماعة** تارة تكون فى **أولاد شكر** وتارة فى **أولاد زرارة** ، والى هذا البطن ينتمى سعادة القائم بالسنة فى رياح فى بداية القرن الثامن الهجرى .

4 — زغبة

ينتمى هذا الشعب الى زغبة بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر .

كانت لهم كثرة وعزة عند دخولهم الى المغرب ، وتغلبوا فى الأول على نواحي طرابلس وقابس وقتلوا سعيد بن خزرون من ملوك مغراوة بطرابلس ، ولم يزالوا مقيمين هناك الى ان ملك الموحدون افريقية وثار بنو غانية المسوفيون بها فتحيزت زغبة الى الموحدين فرعوا لهم ذلك وصيروهم يداً واحدة مع بربر بنى بادين فى حماية المغرب الأوسط من ابن غانية واتباعه ، فصارت مجالاتهم ما بين المسيلة وقبلة تلمسان فى القفار ، واستقرا بنو بادين وسائر زناتة بالتلـول .

ولما ملك بنو مرين فاس وبنو عبد الواد تلمسان واستقرت زناتـة بالمدن دخلت زغبة الى التل وتغلبوا على أهله وفرضوا الاتاوة عـلى اكثرهم ، وخلت مواطنهم بالقفر منهم فعمرها عرب المعقل وغلبوا على من بقى من زغبة هناك وجعلوا عليهم خفارة يؤدونها من الابل ، ولكن قبائل زغبة تعاقدوا عـلى رفع هذا الذل عنهم فرفعوه ودفعوا بنى المعقل عن وطنهم فاستقروا به لمـا منعهم الزناتيون من وطىء التل ، فلما فشلت ريح الزناتيين بكثرة الخوارج وتعدد الثوارت عادت زغبة الى التلول واستطالت بها وغلبتهم عليها واقطعتهم الحكومات اكثرها ترضية واستظهاراً واتقاء لشرهم فانهم كانوا أشد العرب ضرراً حتى صار الناس يتطيرون اذا ذكر اسمهم لأنه نذير شؤم ونحس وصارت كلمة (زغبى) نسبة اليهم تعادل كلمة مشؤوم منحوس .

تشتمل زغبة على خمس قبائل كبيرة ارتفعت كل منها الى مرتبة شعب :

ا ــ **حصين** : ينقسمون الى بطنين كبيرين ، **جندل وخراش** ، فمن جندل **أولاد خنفر** ، ورئاستهم فى **بني خليفة** ، وسادتهم **أولاد خشعة** ، ومن خراش**أولاد مسعود** رئاستهم فى **أولاد رحاب** ، **وأولاد فرج** رئاستهم فى **بني خليفة** ، و**أولاد طريف** المعروفون **بالمعايدة** رئاستهم فى **أولاد عريف** ، ولا يزال هذا الفريق يعرف باسمه الأصلى فى المغرب الأقصى والمغرب الأوسط ، ففى المغرب الأقصى يوجدون بحوز مدينة سلا ، وفى المغرب الأوسط يوجدون بحوز بجاية ، كما تعرف بطونهم فيهما أيضاً .

ب ــ **بني مالك** : يعرفون باسمهم الأصلي فى المغرب الأقصى ومواطنهم فيه تقع باقليم القنيطـرة بسهول الغرب حيث تقـع قريتا سوق الأربعـاء ، وأحدكورت ، ومن بطونهم **سويد والعطاف** ، **والديالم** ، **والهبرة** ، **وصبيح** ، و **غـريب** .

ت ــ **بنو عامر** : مواطنهم الكبرى حول مدينة وهران ودخلت جماعات منهم الى المغرب الأقصى فاستقرت قرب سلا ، والعرائش ، وطنجة ، وقرب فاس مع قبيلة شراكة ، ومن بطونهم الشهيرة **بنو يعقوب وبنو حميد وبنو شافع**.

ث ــ **عروة** : وهم بطنان : **النضر (اولاد خليفة والخمانئة** ، **وشريفة** ، **والسحاري**) **وخميس (عبيد الله** ، **وفرغ** ، **ويقظان**) ولكل منهم بطون وعمائر كثـيرة .

ج ــ **بنو يزيد** : كانت لهم مكانة بين قبائل زغبة لشرفهم وكثرتهم وللدول بهم عناية ، ومنهم بطون كثيرة مثل **حميان** ، **وجواب** ، **وبنو كـرز** ، **وبنو موسى** ، **والمرابعة** ، **والخشنة** ، **والعكارمة** .

شعوب معقل

يزعم المعقليون انهم هاشميون من ذرية جعفر بن أبي طالب ، ويعدهم النسابون العرب من بطون هلال ، ورجح ابن خلدون أن يكونوا من ولد معقل واسمه ربيعة بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحارث من بطون مذحج اليمنيين .

يذكر نسابتهم أن معقل جدهم خلف ولدين : سحير ومحمد ، فولد سحير عبيد الله جد **ذوى عبيد الله** ، وثعلب جد **الثعالبة** ، وولد محمد مختاراً جد **ذوى حسان** و**الشبانات** ، ومنصوراً جد **ذوى منصور** ، وجلالا وسالماً وعثمان الذين منهم قبيلة **الرقيطات** الشهيرة بناحية سوس .

1 ـــ الثعالبة

كانوا يسكنون أولا بجبل تيطرى حيث مدينة أشير ، ثم غلبهم عليه بنو توجين فانتقلوا الى فحص متيجة المجاور لمدينة الجزائر فسكنوه تحت حماية قبيلة ملكيش ، وقد تتبع ملوك بنى عبد الواد هذه القبيلة بالقتل والسبى والنهب الى ان دثرت فى نهاية القرن الثامن الهجرى ولم يبق لها منذ ذلك التاريخ وجود .

والى هذه القبيلة ينتسب علامة الجزائرى سيدى عبد الرحمان الثعالبى المتوفى سنة 1470 بالجزائر صاحب المؤلفات الشهيرة .

2 ـــ ذوى حسان

بنو مختار بن محمد بن معقل ، كانت مواطنهم فى الأول بنواحى ملوية الى ان استصرخهم على بن يدر الزكندرى صاحب السوس بعد الموحدين

فصارخوه وارتحلوا اليه بظعونهم وحمدوا مواطن سوس فأقاموا بها لعدم المزاحم وصارت مجالاتهم بها وغلبوا جزولة وأصاروهم في جملتهم ومن ظعونهم ووضعوا الاتاوات على المدن والقرى الموجودة بها وببرية شنكيط وكانت رئاستهم في **أولاد أبي الخليل** منهم .

أكثرية ذوي حسان توجد اليوم بصحراء شنجيط ووادي الذهب ، وهم بها ينقسمون الى أربعة أقسام : **أولاد احيي** من عثمان ، وهم سكان أدرار ، مستقرون وقد ينتجعون ، **واد وعيش** الذين يسكنون تكانت في أغلب الأوقات ، **والترارزة** سكان القبلة أي‌الأراضي الممتدة من اكيدي والعقل الى حدود السنيغال **وأولاد عبد الله** أو **البراكنة** وهم متفرقون ، منهم من يسكن شمامة وهم **أبناء السيد** ، ومنهم من يسكن فيما بين امشتيل وأفطوط وهم **أبناء أحمد اكيدي** ، وبعضهم يسكن الرك ، أي القاع وهم **ابن هيبة** ، **وابناء نغماش** .

3 — ذوي منصور

أولاد منصور بن محمد بن معقل ، وهم معظم قبائل **المعقل** وجمهورهم كانت مواطنهم تخوم المغرب الأقصى من قبلته ما بين ملوية ودرعة يجاورهم وراءها الى الجنوب اخوانهم **ذوو حسان** .

وهم ينقسمون الى أربع قبائل :

ا — اولاد حسين : كانت لهم العزة على ذوي منصور كافة ، ورئاستهم في أولاد خالد بن جرمون ، وكانت مجالاتهم وسيطرتهم على الأراضي الواقعة خلف جبال الأطلس ما بين سجلماسة وسوس .

ب — أولاد أبي الحسين : اخوة المتقدمين ، الا انهم عجزوا عن الظعن معهم فسكنوا قصوراً بالقفر ما بين تافيلالت وتيكورارين (كورارة) .

ت — المنبات : كانت مواطنهم مجاورة لاولاد حسين من جهة الشرق ومجالاتهم بتافيلالت وصحرائها ، وقد يصعدون في التل مع نهر ملوية حتى يبلغوا مصبه بالبحر الأبيض ويفرضون على أهله الضرائب والاتاوات ، وهم يطلقون على أنفسهم اسم **المنابهة** والنسبة اليه منبهي .

ت — **العمارنة** : أولاد عمران بن منصور اخوة المتقدمين ، كانت مواطنهم ومجالاتهم مثل مواطن المنابهة ومجالاتهم ، ورئاستهم في العصر المريني كانت في **أولاد مظفر** منهم يرادفهم فيها **أولاد عمارة** .

ويطلق على العمارنة والمبنات معا اسم **الأحلاف** ، وبهذا الاسم تدعى اليوم قبيلة باقليم وجدة .

4 — ذوى عبيد الله

كانت مواطنهم ما بين تلمسان ووجدة الى مصب وادى ملوية بالبحر ومنبع وادى زا (صاع) بالجنوب ، وتنتهي رحلتهم في القفار الى قصور توات وتمنطيت ، وربما عاجوا شمالا الى تسابيت وكوراة ، وكانوا يجاورون **بنى عامر** ، ولهم معهم ومع **بني عبد الواد** قبل الجاه والسلطان فتن وحروب موصولة صاروا بسببها أحلافاً لبني مرين ، ولما ضعفت الدولة توطنوا التلول وتملكوا وجدة وندرومة ومواطن **بني يزناسن** و**بني سنوس ومديونة** اقطاعاً من السلطان وفرضوا على أهلها الضرائب وصارت لهم جبايتها ، كما فرضوا على مرسى هنين ضريبة الاجازة (الزطاطة) منه الى تلمسان فلا يسير المسافر بينهما ايام حلولهم بساحتها الا في خفارتهم وعلى ضريبة معلومة يؤديها اليهم .

وينقسم ذوو عبيد الله الى بطنين كبيرين : **الخراج والهراج** .

فالخراج من أولاد خراج بن مطرف بن عبيد الله ، وكانت رئاستهم في **أولاد عبد الملك** منهم ، ولهم قبائل كثيرة من أشهرها :

ا — **الجعاونة** : بنو جعوان بن خراج

ب — **المطارفة** : بنو مطرف بن خراج

ت — **العثامنة** : بنو عثمان بن خراج

ث — **الغسل** : بنو غاسل بن خراج ، وهم معروفون الى اليوم بهذا الاسم مستقرون بجماعة الرمشى شمالى تلمسان .

وكانت مع هذه القبائل ناجعة تسمى **المهايا** ينتسبون تارة الى المهايا بن عياض المتقدم ذكره لدى الكلام على الأثبج من شعوب بنى هلال ، وينتسبون تارة أخرى الى المهايا بن مطرف فيكونون اخوان المطارفة من هذا القبيل .

اما الهراج فمن ولد الهراج بن مهدى بن محمد بن عبيد الله ، كانوا يسكنون الى الغرب من مواطن بنى عمهم الخراج مجاورين **لبنى منصور** ، وأكبر قراهم قرية تاوريرت الشهيرة ببسيط أنكاد ، وخدمتهم كانت فى الغالب مع بنى مرين ، وفى الأقل مع بنى عبد الواد ، ورئاستهم فى **أولاد يعقوب** بن هيا بن هراج ، وأشهر قبائلهم :

ج ـ اولاد فكرون

ح ـ اولاد مرين

خ ـ اولاد مناد

5 ـ الرقيطات

ينتمون الى جلال وسالم وعثمان ابناء مختار بن محمد بن معقل ، كانوا بادية لذوى حسان ينتجعون معهم باقليم سوس، وما زالت بقاياهم بناحية رودانة منه يعرفون باسمهم الأصلى الرقيطات .

6 ـ الشبانات

أولاد شبانة بن مختار بن محمد بن معقل ، كانوا يسكنون باقليم سوس مع اخوانهم ذوى حسان ، وينقسمون الى بطنين كبيرين : **بنى ثابت وأولاد على** ، ما زال **الشبانات** معروفين باسمهم الأصلى ، داخل شعب **الشراردة** بناحية سيدى قاسم من اقليم القنيطرة بالمغرب الأقصى ، ومنهم بطون مندرجة فى قبيلة **الودايا** بحوز فاس ، وأخرى بناحية الصويرة وناحية تادلة وناحية الجديدة .

شعوب بني سليم

بنو سليم هم الشعب الثالث من الشعوب العربية الداخلة الى المغرب ، وقد استقروا في الأول باقليمي طرابلس وبرقة ، ولم يدخلوا الى المغرب حتى تمكن اخوانهم الهلاليون والمعقليون من ناصيته ، واستولوا على حواضره وبواديه.

اما شعوبهم فهي الآتية :

1 ـ دباب

اختلف في نسبهم ، فقيل انهم بنو دباب بن ربيعة بن زعب الأكبر بن نصر بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم ، وقيل غير ذلك .

من قبائلهم :

ا ـ **أولاد احمد** : كانوا ينتجعون ما بين برقة وطرابلس ، واستقرت منهم أحياء غربي قابس .

ب ـ **أولاد يزيد** : كانوا يجاورون الأولين في الموطن ، وليس يزيد اسماً لأبيهم ولا لرجل بالمرة ، وانما هو اسم حلفهم انتسبوا به الى مدلول الزيادة ، وهم أربعة بطون : **الصهبة** بنو صهب بن جابر بن قائد بن رافع بن دباب **والحمارنة** بنو حمران بن جابر ، **والخرجة** بطن من آل سليمان بن رافع أخرجهم اخوانهم من مواطنهم بمسلاته فحالفوا الأولين ونزلوا معهم ، **والأصابعة** نسبة الى رجل ذي أصبع زائد ، ودباب يطعنون في نسبهم ويذكرون انهم خارجون عنهم .

ت ـ **النوايل** : أولاد نايل بن عامر بن جابر ، مواطنهم ملاصقة لقابس ، ومنهم القبيلة الشهيرة المستقرة قرب مدينة الجلفة بعمالة الجزائر .

ث ـ **أولاد سنان** : بنو سنان بن عامر اخوة المتقدمين ، منهم قبيلة مستقرة قرب قالمة بعمالة قسنطينة من المغرب الأوسط .

ج — أولاد وشاح : بن عامر ، كانت فيهم رئاسة دباب وهم ينقسمون الى بطنين كبيرين : **المحاميد** بناحية قابس وبلاد نفوسة وحرب ، **والجواري** بضواحي طرابلس وزنزور وغريان ومغر ، ومن أولاد وشاح أيضاً **أولاد حريز** بن تميم بن عمر بن وشاح ، **والجواوبة والعمور** وهم غير **عمور** الهلاليين حسب بعض الأقوال .

ح — أولاد سليمان : بنو سليمان بن هيب بن رابع بن دباب ، مواطنهم قبلة مغر وغريان .

خ — أولاد سالم : بن هيب أخي سليمان المتقدم ، وبطونهم **الأحامد والعمائم وأولاد مرزوق والعلاونة** وهاؤلاء يجاورون **العزة** منعرب برقة **والمشابنة** من **هوارة** المقيمين .

ويلحق بقبائل دباب قبائل أخرى مختلف في أصلها تجاورهم من جهة القبلة ، مثل **ناصرة** المتوطنون بفزان وودان ، **والعزة** جيرانهم في الشرق المتوطنون باقليم برقة ، وتسمى بلادهم برنيق ، وهم يبلغون في النجعة الى بلاد السودان .

2 — زعب

بضم الزاى وسكون العين ، وضبطها الاجدابي بالكسر ، وكذلك ينطق بها الفصحاء من الأعراب .

ذكر ابن خلدون نقلا عن ابن الكلبي انهم بنو زعب بن نصر بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم ، وذكر التيجاني في رحلته انهم ينتسبون الى زعب الأصغر ابن زعب الأكبر بن جرو بن مالك ، يجتمعون مع **دباب** في هذا المعنى ، يقول الدبابيون انهم منهم ، يريدون القرب الذى بينهم في النسب ، وقد تبين من كلامه ان زعباً الأكبر ولد ولدين : زعباً الأصغر وربيعة أبا **دباب** ، فدباب هو ابن أخي زعب الأصغر ، واذا تداعى الزعبيون بزعب فانما يعنون به الأصغر ولو عنوا الأكبر لدخلت معهم في ذلك دباب ، ولكانت دباب من زعب .

وقال الرشاطي عن زعب بكسر الزاى وعين مهملة .

وقال ابن ماكولا فى الاكمال : والى اليوم منهم خلق بالحجاز زعبيون ولهم غفارة فى طريق مكة .

بقيت من هذا الشعب قبيلة بشط الجريد زارها عبد الله التيجانى وذكرها فى رحلته .

3 ــ عوف

بنو عوف بن بهثة بن سليم .

كانت مواطنهم من وادى قابس بجنوب القطر التونسى الى عنابة بالمغرب الأوسط ، وكانوا ينقسمون الى جذمين عظيمين : **مرداس وعلاق** .

فمن قبائل مرداس :

ا ــ **أولاد جامع :** فيهم كانت رئاسة علاق .

ومن قبائل علاق :

ب ــ **أولاد يحيى :** وهم ينقسمون الى ثلاثة بطون : **حمير ودلاج ورياح** ، فمن حمير **كردم وترجم** وهذا الأخير هو والد قبيلة **بنى كعب** بن احمد بن ترجم المعروفين بالكعوب الذين يضرب المثل بالمنسوب اليهم في الشؤم مثل المنسوب الى زغبة فى قبائل هلال ، وكانت رئاستهم فى **أولاد شيحة** ، ومن بطون رياح قبيلة **حبيب** .

ت ــ **حصن :** ينقسمون الى بطنين عظيمين : **أولاد علي وحكيم** والفريقان معروفان الى اليوم بالقطر التونسى .

4 ــ هيب

بنو هيب بن بهثة بن سليم .

كانت مواطنهم بأقصى شرق برقة مما يلى حدود مصر .

من قبائلهم :

ا ــ **شماخ** كان لها العزفى قبائل هيب لكونها حازت خصب برقة الذى منه المرج ، ومن أشهر قبائل شماخ **بنو حميد** الذين كانوا بأجدابية ونواحيها .

ب — **بنو لبيد :** كانوا يسكنون الى الشرق من مواطن شماخ الى العقبة الكبيرة ، وكانت بين الفريقين فتن وحروب موصولة .

ت — **محارب :** الى الشرق من بنى لبيد فى اتجاه العقبة الصغيرة .

ث — **شمال :** الى الشرق من بنى لبيد فى اتجاه العقبة الصغيرة .

ج — **بنى عزاز :** ويدعون أيضاً **العزة** فيهم كانت رئاسة قبيلتى شمال ومحارب .

قال ابن خلدون : وجميع بطون هيب هذه استولت على اقليم طويل خربوا مدنه ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية الا لأشياخهم ، وفى خدمتهم بربر ويهود يحترفون بالفلاحة والتجر ، ومعهم من **رواحة** و**فزارة** أمم .



مواطن القبائل العربية

كما يصعب على المؤرخ رسم خريطة تحدد بتدقيق مواطن البربر ومجالاتهم من أرض المغرب يصعب عليه أيضاً رسم خريطة مماثلة تحدد بنفس الدقة مواطن العرب ومجالاتهم منها ، ويرجع السبب فى ذلك الى ان القبائل العربية والبربرية اختلطت خلال هذه الأربعة عشر قرناً من اسلام المغرب اختلاطاً قوياً بالصهر والحلف والجوار ، وتعرب منها بربر وتبربر منها عرب ، وكثرت الدعوى فى النسب والاستلحاق منَ طرف والخلع والجحود من طرف آخر ، وغلبت العاطفة والهوى على طائفة من المؤرخين وأوقع الوهم طائفة أخرى منهم فى أخطاء وأغلاط حتى صارت التفرقة بين جماعة وجماعة أمراً صعباً ، وأصبح الباحث كلما أراد شيئاً من ذلك تواجهه حقيقة وجود أمة مغربية متماسكة متداخلة الأصول العربية والبربرية .

ولو جاز الاعتماد على اللغة وحدها واتخاذها مقياساً للتمييز بين سلالة وسلالة لكان جميع الليبيين والتونسيين عرباً لأنهم لا يتكلمون اليوم غير العربية ، ولو جاز أيضاً أن تكون اسماء القبائل المغربية دالة وحدها أيضاً على أصولها لجعلنا **بنى مطير ورهونة** مع العرب مع أنهم بربر ، وجعلنا **ادوعل ومدلش وتجكانت** مع البربر مع أنه لا خلاف فى ان الأولى علوية والثانية أموية ، والثالثة حميرية .

ومع ذلك فان فى الامكان الكلام على مواطن العرب اعتماداً على عدد من المقاييس مجتمعة كاللغة والتسميات والنصوص التاريخية وأقوال السكان أنفسهم ، وسنذكرها ونذكرهم مغفلين ذكر القبائل الأخرى العربية لساناً البربرية أصلا التى سبق الكلام عليها وعلى مواطنها فى الفصل السابق .

فببلاد برقة والتخوم المغربية ـ المصرية تقيم قبائل هيب من بنى سليم وتنجع ، يختلط معهم من العرب غيرهم لفائف من **فزارة ورواحة** ،

وأشهر قبائل هيب **شماخ** الذين حازوا خصب برقة ومرجها فكان لهم العدد والعز بسبب ذلك ، يجاورهم شرقاً **بنو لبيد** ، وقبيلتا **شمال ومحارب** اللتان كانت رئاستهما فى **بني عزاز** المعروفين أيضاً **بالعزة** ، ويجاورهم غرباً **بنو حميد** سكان أجدابية ونواحيها .

والى الغرب من مواطن هيب ومجالاتها تسكن قبائل بنى سليم الأخرى وتغطى مواطنهم جميع الاقليم الطرابلسى وتمتد الى قابس وشط الجريد ، ومن أشهر قبائلهم هناك **الزعبيون** بنو زعب الأصغر بعين مهملة **والمحاميد والجوارى** ، ومن قابس تمتد مواطنهم ومجالاتهم فى اتجاه شمالى غربى الى ناحية عنابة بالمغرب الأوسط يجاورهم قبائل سلمية منهم **كحكيم وأولاد على والكعوب وطرود ورياح** ، وقبائل هلالية مثل **دريد** الاثبجيين .

وفى المغرب الأوسط تحتل القبائل العربية أكثرية عمالة قسنطينة ، ففى الشمال يوجد **بنو مرداس** السلميون قرب عنابة **وعطية** فى ناحية جيجل ، **ودريد** بين تبسة ووادى الزناتى ، **وكرفة** قرب العين البيضاء ، **وأولاد ماضى** قرب برج بوعريرج ، يليهم **أولاد صولة** فى الزاب ، **والذواودة** بين الزاب والحضنة ، **وأولاد سعيد والمخادمة وأولاد جلال** ، **وفارس** ، **وعامر** ، فى الهضاب العليا والصحراء .

والى الغرب منهم يسكن بقايا **الثعالبة** بسهل متيجة ، **وأولاد ماضى ورياح وبنى منصور والخشنة وجواب ويزيد ومربع وسليمان** حول سور الغزلان ، **والبراز والعطاف وجندل** جنوب مليانة وعلى سهول شلف ، وتسكن قبائل **نزليوة** ، **وعمراوة** ، **والعبيد** حول بلاد الجرجرة الجبلية ، بينما يقيم فى الجهة المقابلة للصحراء **أولاد نايل وبنو زيان** .

أما عمالة وهران فقد تعربت من قديم ، وصارت جميع قبائلها تتكلم العربية ، ومن أشهر قبائلها عربية الأصل **بنو عامر والدوائر والزمول** بين وهران وتلمسان ، **والحشم** غربى مدينة معسكر ، **ومجاهر** قرب مستغانم **وصهيب وفليتة** قرب الاصنام ، **والغسل ورياح وأولاد ميمون** قرب تلمسان ، **وأولاد**

النهار خلفها . ويسكن في أقصى جنوبها **بني مطهر وأولاد سيدي الشيخ** كما يسكن **الخلافات وأولاد خالد والجعافرة وأولاد الشريف** ما بين الساحل وفرندة وسعيـــدة .

وبجوار هاؤلاء في المغرب الأقصى ما بين نهر تافنا ووادي ملوية توجد قبائل عربية كثيرة مثل **المهايا وحميان والعمور والاحلاف والشجـع وبني وكيــل** يحاذيهم في الجنوب **ذوي منيع وأولاد جريـر والنواصر والغنانمة** سكان ناحية بشـــار ، وبعد ما تفصل قبائـــل جبـــال تسازة التي بعضها بربري وبعضها متعرب بين شرق المغرب وغربه تظهر القبائل العربية مع ظهور السهول مثل **أولاد الحاج وأولاد جامع والحياينة والودايا** بناحية فاس، تجاورهم في الشمال الغربي القبائل العربية الكبرى التي تحتل سهول الغرب من طنجة الى سلا مثل **سفيان وبني مالك والخلوط وطليق وعامر وحصين** ، والقبائـل العربية الكبرى الأخرى التي تسكن سهول الشاوية والحوز مثل **زعير والشاوية والرحامنة وأحمر** ، ومن يحاذيهم شرقاً من قبائل تسكن سهول تادلة مثل **بني خيران وورديغة وبني عمير وبني موسى** .

اما أقصى الجنوب فهو موطن قبائل **المعقل** التي منها **المنابهة والشبانات والرقيطات والودايا وأولاد دليم وأولاد يحيى وأولاد جرار** ومن أكبرها شعب **ذوي حسان** الذى تنتشر قبائله فوق سهوب أقاليم موريطانيا والساقية الحمراء ووادي الذهب وتوات ، وتصل في مجالاتها بها الى نهر النجير ونهر السنيغال .



خاتمة

وبعد فهذه نظرة مجملة على جغرافية الوطن المغربي وتاريخه ، ولمحة مختصرة عن أصول سكانه وطبائعهم وعاداتهم في معايشهم ، واستعراض لشعوبهم وقبائلهم ومواطن اقامتهم ومجالات نجعتهم ، وقد بذلنا الجهد في التحقيق وعملنا الوسع في ترتيب المواضيع ترتيباً عقلانياً حتى يمكن الرجوع اليها بسهولة للاستفادة أو النقد .

وبذلك ينتهي القسم الأول من هذا الكتاب ، يتلوه القسم الثاني الذي يرتب القبائل المغربية بحسب المواطن التي كانت تقيم بها عند بزوغ عصر النهضة الحديثة في الثلث الأول من القرن الماضي ، مع بيان بطون كل قبيلة وذكر الأماكن التي توجد بالأرض التي تقيم بها أو تظعن فيها من مدن عامرة وقرى مأهولة ، ودواوير محصنة .

والرجاء في الحق سبحانه وتعالى أن يهبنا من صحة البدن وثقوب الذهن وصبر النفس ما نستطيع أن نتم به هذا العمل القيم ليتأتى النفع وتعم الفائدة .

انه نعم المولى ونعم النصير .



من مراجع هذا الفصل :

- **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام .**
  لبطرس البستاني — بيروت 1953
- **الأنيس المطرب ، بروض القرطاس ، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينه فـاس .**
  لعلى بن عبد الله بن أبى زرع الفاسي — فاس 1303
- **الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى .**
  لأحمد بن خالد الناصرى — الدار البيضاء 1956
- **ايليغ قديماً وحديثاً .**
  لمحمد المختار السوسي — الرباط 1966
- **البيان المغرب ، في أخبار الأندلس والمغرب .**
  لابن عذارى — تطوان 1965 — بيروت 1967
- **تاريخ الأدب العربى .**
  لأحمد حسن الزيات — القاهرة
- **تاريخ الجزائر في القديم والحديث .**
  لمبارك بن محمد الهلالى الميلى — بيروت 1963
- **جمهرة أنساب العرب .**
  لعلى بن أحمد بن حزم الأندلسى — القاهرة 1962
- **حياة محمد .**
  لمحمد حسين هيكل — القاهرة 1935
- **رحلة التيجاني .**
  لعبد الله بن محمد التيجانى — تونس 1958
- **كتاب العبر ، وديوان المبتدا والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون) .**
  لعبد الرحمان بن خلدون الحضرمي التونسى — بيروت 1961

ـ **معالم تاريخ الجزيرة العربية .**

لسعيد عوض باوزير ـ بيروت 1966

ـ **مجموع رسائل موحدية .**

لكتاب الدولة المومنية ـ الرباط 1941

ـ **المن بالامامة على المستضعفين .**

لعبد الملك بن صاحب الصلاة ـ بيروت 1965

ـ **المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب .**

لعبد الواحد المراكشي ـ سلا 1938

ـ **المغرب ، في ذكر بلاد افريقية والمغرب .**

لعبد الله بن عبد العزيز البكرى ـ باريس 1965

ـ **المفصل في الأدب العربي .**

لجماعة من الأساتذة ـ القاهرة 1934

ـ **الوسيط ، في تراجم أدباء سنجيط .**

لاحمد بن الأمين الشنجيطى ـ القاهرة 1958

ـ **شاعر الخلافة الموحدية ابو العباس الجراوى .**

لمحمد الفاسي ـ الرباط 1957

— G. Marçars : Les Arabes en Berberie



الفهارس

فهرس

مواضيع الكتاب

صحيفة

صحيفة



فهرس

الأعلام الجغرافية *

ا

*) حذفنا من هذا الفهرس كلمات المغرب ، والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط والمغرب الادنى وافريقية والجزائر (القطر) وتونس (القطر) التى تتكرر كثيراً فى صفحات الكتاب .

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

ط

ظ

ك

ڭ

ل

م

ن

ص

ع

غ

ف

ق

ش

هـ

و

ى



فهرس

الأعلام الانسانية الفردية

أ

ت

ث

ج

ح

خ

د

ز

ط

ظ

ك

ڭ

ل

م

ن

ص

ض

ع

غ

ف

ق

ش

هـ

و

ى

فهرس

الأعلام القبلية والجنسية *

أ

---

*) اعتبرنا في ترتيب هذه الأسماء القبلية والجنسية الأسماء التي ينسب اليها فقط فآيت مرغاد واولاد جامع وبني عامر يبحث عنها في حروف الميم والجيم والعين وهلم جراً .

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

ط

ن

ص

ض

ع

غ

ف

ق

س

ش

و

ى



فهرس

الكتب والمجلات والجرائد

أ

ب

ت

ج

ح

د

ر

ز

ط

ك

ل

م

ق

س

ش

و

ى

— Algérie - Tunisie (Les Guides Bleus).

— Le Grand Maghreb Arabe - Comité Permanent Consultatif du Maghreb.

— Maroc (Les Guides Bleus).

— Population Légale du Maroc (Le Recensement Démografique Juin 1960).

— F. Weisgerber - Au Seuil du Maroc Moderne - Rabat 1947.

— H. Terrasse - Histoire du Maroc - Casablanca 1950.

— Maréchal Juin - Le Maghreb en Feu - Paris 1957.

— J. L. Meège - Le Maroc et l'Europe - Paris 1961.

— G. Granval - Ma Mission au Maroc - Paris 1956.

— P. B. de Latour - Vérité sur l'Afrique du Mord - Paris 1956.

— Répertoire Alphabétique des tribus et douars de l'Algérie Alger 1879.

— Répertoire Alphabétique des tribus et douars - Communes de l'Algérie - Alger 1900.

— Répertoire Alphabétique des Confédérations des tribus, des Fractions de tribus et des Agglomérations de la Zône Française de l'Emprie Chérifien - Rabat 1939.

— Répertoire Alphabétique des Agglomérations de la Zône Française de l'Empire Chérifien - Rabat 1941.

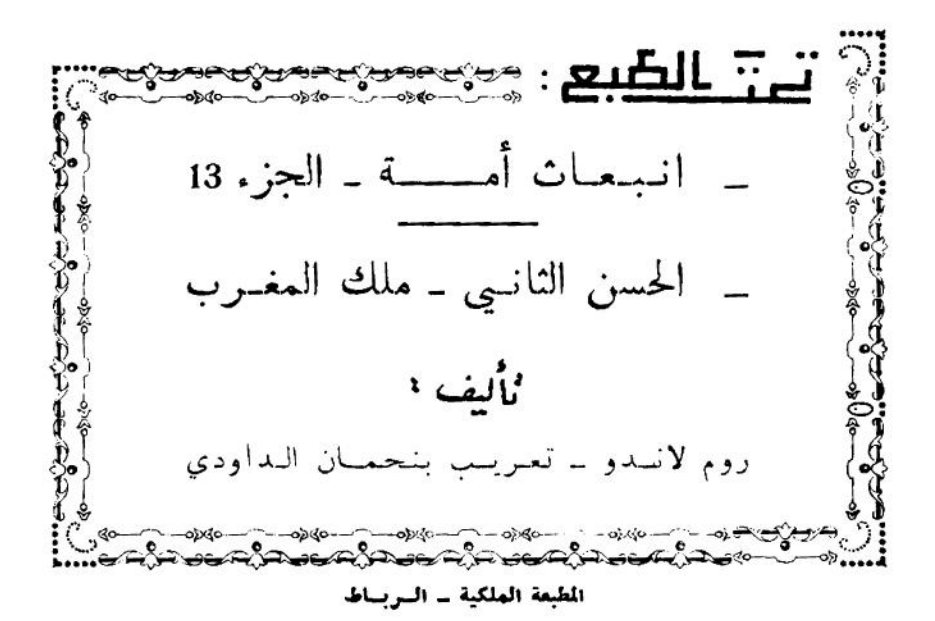
— G. Marçars : Les Arabes en Berberie.



جدول الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
12	17	تنفع	ينفع
14	16	الأراضى	السهوب
17	15	الانتاج المغربى	انتاج المغرب
17	16	ومدخراتها	ومدخراته
53	24	المدية	لمدية
62	5 ـ 6	ومنذ شهر يونيو سنة 1966	ومنذ 19 يونيو 1965
70	15	وادى نفيس	وادى أم الربيع
72	25	الانقلابية والاستوائية	الصحراوية والانقلابية
120	23	كيدان	كيداد
147	6	المحمدية	الناصرية
157	24	المدية	لمدية
219	13	الربية	الريبة
224	22	موريطا	موريتانيا
243	28	وحجرة نكور	وحجرة نكور وحجرة بادس
247	23	سلالات جنسية خليطة	سلالات خليطة
250	2	Baslones	Bascones
259	2	هرفل	هرقل
266	9	النوـراة	التوراة
266	20	تاهرت	تيهرت
283	8	ايبريا	ايبريا
285	26	افريقيا	افريقية

ص	س	خطأ	صواب
287	27	لابن عبيد	لأبى عبيد
295	25	tho vail	The veil
308	4	دحية	يحيى
313	12	أوزاع بالمغرب الأقصى	قبيلة شهيرة بريف المغرب الأقصى
323	15	الموحدين	المرابطين
331	8	أكرول	أكزول
338	20	تاهرت	تيهرت
340	25	تاهرت	تيهرت
343	3	الخضرمى	الحضرمى
344	38	تردف	ترادف
345	4	ترادف	ترادفان
346	14	فسكن	فسكنت
346	15	وعاش	وعاشت
350	13	الدول	الأول
352	2	الرمانية	الرومانية
372	21	عمر	عمرو
327	24	يزيد بن خالد	خالد بن يزيد
382	22	تحنى	تجنى
382	24	المعرب	المغرب
386	9	الشرق جمال	الشرق عن جمال
391	7	فأجازوا	فجازوا
391	11	ذياب	دباب
391	24	ومعنا	ومنعا
399	17	الشرة	الشره
419	8	الكلبى	ابن الكلبى



المطبعة الملكية ـ الرباط

A. BENMANSOUR
Historiographe du Royaume du Maroc

TRIBUS du MAGHREB

(Prix du Maroc 1968)

TOME I



IMPRIMERIE ROYALE - RABAT
1968